المركز القومى للترجمة

دَلِيل

رحلة ضيوف الخديوى إسماعيل لزيارة آثار مصر

بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩



تأليف: [أوجيست مارييت]
ترجمة: عباس أبو غزالة
مراجعة وتعليق: عبد الحليم نور الدين

1117

المشروع القومى للترجمة

دَلِيل

رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر

بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف /جابر عصفور

- العدد :١١١٧
- دليل رحلة ضيوف الخديوى لزيارة آثار مصر بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩
- [أوجيست مارييت]
- عباس أبو غزالة
- عبد الحليم نور الدين
- الطبعة الأولى٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب:

ITINÉRAIRE

DES INVITÉS AUX FÊTES

D'INAUGURATION DU CANAL DE SUEZ
Qui séjournent au Caire et font le voyage du Nil

publié par ordre de S.A Le Khédive
Le Caire- Octobre 1869

شـــارع الجبـــلاية بالأوبـــرا - الجزيرة - القاهرة
El Gabalaya St ., Opera House , El Gezira , Cairo
e.mail: egypt council@yahoo.com

دَلِيل

رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر

بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩

تأليف : أوجيست مارييت

ترجمة : عباس أبو غزالة

مراجعة وتعليق : عبد الحليم نور الدين

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ماريت ، أوجيست.

دليل رحلة ضيوف الخديوى إسماعيل لزيارة آثار مصر بمناسبة احتفالات افتتاح قناة السويس /١٨٦٩ تأليف أوجيست ماريت ، ترجمة عباس أبو غزالة ؛ مراجعة وتعليق عبد الحليم نور الدين .- ط١ .- القاهرة : المركز القومى للترجمة ٢٠٠٧ ، ٤٤٦ ص ؛ ٣٠ سم

١ - مصر- تاريخ - العصر الحديث- عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

(أ) أبو غزالة ، عباس (مترجم) (ب) نور الدين ، عبد الحليم (مراجع)

(جـ) العنوان ديوى ٩٦٢.٠٣٤

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٣٢٣٨

الرقم الدولى 8-361-437-977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها في ثقافاتها ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

فهـــرس الكتـــاب

ثانيًا :الرحلة عبر نهر النيل

إهداء

إلى زوجتى التى شجعتنى على إعداد هذا الدليل وترجمته

تحية ومحبة ووفاء

عباس أبو غزالة

تقديم المراجع

عندما تفضل الدكتور عباس أبو غزالة بعرض هذا الدليل علينا لمراجعته والتعليق على بعض الجوانب فيه، استهواني الأمر كثيرًا ؛ لأنني أعشق الربط بين الجهود المتواصلة لتوصيف الآثار وتسجيلها عبر الزمان والمكان في محاولة لفهم أكثر لهذا التراث، واستهواني العمل أكثر بعدما تصفحت برنامج الزيارة، والتوصيف الدقيق الذي سجله عالم الآثار الشهير أوجيست مارييت رغم المعاناة الشديدة للوصول إلى المواقع من قبل الأثريين.

وقد يسأل سائل ما أهمية هذا العمل، وقد خطا علم الآثار خطوات واثقة دقيقة، وأصبحت المعلومات وافية إلى حد كبير، وتسجيل الآثار في العالم ينحو نحو المنهج العلمي الدقيق؟ والرد ببساطة يتمثل فى أن هذا العمل وغيره يلقي الضوء على آثار مصر منذ ما يقرب من ١٤٠ عامًا من حيث حالتها الأثرية والترميمية، وعن مدى الاهتمام بها من عدمه، ويسرد لنا آثارًا لم تعد قائمة لسبب أو لآخر، ويلقي الضوء على مناظر ونصوص بعضها زال بفعل عوامل الزمن أو نتيجة لعبث العابثين بآثار مصر.

ولعل من أهم وأولى هذه الزيارات التي وصفت الآثار بشكل علمي كبير كانت تلك الزيارة التي جرت عام ١٨٦٩، والتي استغرقت ما يقرب من الشهر، شاهد خلالها ضيوف الخديوي إسماعيل آثار القاهرة ومصر العليا. وهي زيارة تمثل أهمية خاصة؛ لأنها تعرضت للكثير من المواقع الأثرية التي مرت بها وسجلتها بمقاييس التسجيل في ذلك الوقت تسجيلًا علميًا دقيقًا إلى حد كبير، ثم إنها سبقت حدثًا مهمًا، ألا وهو افتتاح «قناة السويس».

ونعلم جميعًا أنه بعد جهد خارق من العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون ومن زملائه، وبعد ٢٣ عامًا من الكشف عن سيد الأحجار (حجر رشيد) في مدينة رشيد (إحدى مدن محافظة البحيرة) تمكن شامبليون عام ١٨٢٢ من أن يعلن على العالم حدثًا علميًا هائلاً تمثل في تمكنه من فك رموز الكتابة الهيروغليفية ليبدأ علم جديد هو "علم المصريات"، و لنبدأ في فهم لغة مصر القديمة وتاريخها وحضارتها.

وكان بعض العلماء العرب مثل ابن وحشية (ق ١٠ م) منذ ما يقرب من ألف عام مضت قد حاولوا قبل شامبليون ورفاقه فك رموز هذه الكتابة، ولكنهم لم يوفقوا إلا في إطار محدود للغاية.

وكنا قبل فك رموز الكتابة المصرية القديمة لا نقرأ سوى أوصاف وقصص وروايات وأساطير حيكت على غير أساس عن الحضارة المصرية منذ بدأ الرحالة اليونان والرومان يزورون مصر، ويعبرون عن انبهارهم بآثارها، لكنهم لا يستطيعون تحديد وظائفها لعدم قدرتهم على قراءة الكتابة الهيروغليفية وفهمها.

هكذا كان الحال بالنسبة لهيرودوت و ديودور الصقلي و بلليني و بلوتارك و غيرهم، ثم جاء من بعدهم بعض الرحالة والمؤرخين والجغرافيين العرب، و فعلوا الشيء نفسه تقريبًا، ثم بدأت بعد ذلك فترة صيد الكنوز، و خصوصًا القرنين ١٨، ١٩، و هذه الفترة التي هبَّ فيها المغامرون والباحثون عن الشهرة و الثراء لنبش آثار مصر وتسريبها إلى خارج البلاد دون تسجيل أو توصيف أو تحديد لمواقع الكشف؛ فأضاعوا الكثير من حلقات سلسلة التاريخ المصري القديم.

وبعد عام ١٨٢٢ حيث ولد علم المصريات بدأ علماء الآثار من الغرب الاتجاه نحو مصر للكشف عن آثارها بأسلوب علمي أفضل عن ذي قبل في محاولة للتعرف على أصول تلك الحضارة الرائدة التي علَّمت الدنيا الكثير، ومن بينها حضارة بلاد اليونان التي هي بمثابة الحضارة الأم للحضارة الغربية.

وبدأ علماء الآثار ينقبون ويصفون و يزورون ويتلمسون معلومة دقيقة هنا وهناك، ونهج بعض الأثريين من المتخصصين والهواة منهج الوصف العلمي للمواقع التي قاموا بزيارتها، و خصوصًا في القرنين ١٩، ٢٠.

واستهوتني ونحن في القرن ٢١ المقارنة بين ما كانت عليه الآثار وما هي عليه الآن، وارتحت كثيرًا للأسلوب الشيق الذي كتبت به تفاصيل الرحلة، وذلك من خلال الترجمة العربية الدقيقة للدكتور عباس أبو غزالة، والواضح أن ماربيت كان يكتب عن آثار مصر بفخار شديد، وبحب شديد، وبفهم شديد كذلك؛ فجاء العمل في شكل دليل علمي وبأسلوب شاعري، كأن أديبًا قد أعاد صياغته، وما أجمل أن نجمع بين الأسلوب العلمي و الأدبي في عمل واحد!

إن ماربيت – صاحب هذا العمل – يمثل علامة بارزة على تاريخ علم المصريات، ترك بصمات واضحة على الآثار من حيث اكتشافاته الأثرية العديدة و موقفه الذي لا ينسى من منع إهداء الآثار المصرية التي كانت ببولاق والجيزة للملكة أوجيني ملكة فرنسا عندما وافق الخديوى إسماعيل على إهدائها لها بمناسبة افتتاح قناة السويس، وهو الرجل الذي وضع هيكل العمل الأثري في مصر (مصلحة الآثار)، ورغم سلبياته التي تمثلت في إخراج بعض آثار مصر إلى فرنسا، والتي يضمها متحف اللوفر وغيره، فإن ميزان العدالة يرجح كفة إيجابياته، ومن هنا جاء تكريمه بعد وفاته بمواراة جسده في حديقة المتحف المصري بالقاهرة وإقامة نصب تذكاري يحمل اسمه وغيره من علماء الآثار، وهو النصب الذي كان قد تدهور إلى حد كبير، ورأيت عرفانًا بفضل الرجل وغيره من الرواد عندما توليت منصب رئيس هيئة الآثار أن تجرى له الصيانة التي تتناسب مع أهمية هؤلاء العلماء.

إن ترجمة أي عمل أثري تمثل صعوبة شديدة من حيث نقل المصطلحات من لغة إلى أخرى ...وهكذا كانت هناك صعوبة شديدة لدى المترجم في هذا الأمر، ثم هناك صعوبة نطق الأسماء المصرية القديمة وتحويلها إلى اللغة الفرنسية : أسماء آلهة - ملوك - أعلام- مناطق...إلخ، حتى إنه من الصعب في بعض الأحيان تأصيل بعض هذه الأسماء...ثم هناك صعوبة التأريخ الزمني الذي تغير كثيرًا بعد ١٤٠ عامًا من كتابة هذا الكتاب، ثم هناك كذلك الخلط في تسميات بعض العناصر المعمارية في إطار الموقع الواحد والتحديد الدقيق بين موقع وآخر ربما دفعهم إلى ذلك سوء حال الطرق والفيضان وخلو المواقع من لوحات إرشادية.

وجاء التقسيم التاريخي للأسرات والعصور المصرية القديمة مخالفًا بعض الشيء لما نعرفه الآن بعد كل الاكتشافات والدراسات التي جرت ، والتي توصلت إلى تأريخ دقيق إلى حد كبير.

ولما كان المؤلف قد اكتفى بوضع خريطة للمواقع الأثرية دون وضع بعض الصور للمواقع التي جرت زيارتها وللمناظر التي تم توضيحها، فقد شكَّل هذا الأمر صعوبة شديدة بالنسبة للمترجم ولنا، وجاء اقتراح المترجم - وهو اقتراح مفيد- بإلحاق الوصف ببعض الصور التي تعبر عن المناطق الأثرية والآثار التي تضمها.

يمثل هذا العمل الذي يجمع، بثراء شديد، روائع الآثار المصرية في صعيد مصر والإسلامية في القاهرة، قيمة كبيرة في زمنه؛ لأنه - كما ذكرت من قبل - سجَّل لنا ما كان قائمًا، وهو ما يعتبر عوضًا عما فُقد من آثار، وكذلك قيمة كبيرة في زمننا؛ لأنه يلقي الضوء بشمولية على الفكر الأثري في عام ١٨٦٩ وعلى الإبهار الشديد الذي تركته الآثار المصرية في نفوس الزائرين وعن الدعاية التي حققتها هذه الزيارة لمصر متواكبة مع حدث افتتاح قناة السويس. لقد رأيت أن هذا العمل يستحق أن يبذل فيه كل الجهد في الترجمة وفي التعليق، ولهذا وجدت - حرصًا على تحقيق الفائدة - أن أصوب بعض المصطلحات قدر المستطاع، نظرًا لصعوبة فهم مقصد المؤلف في بعض الأحيان، وأن أضيف معلومات تفيد القارئ، وتتمثل في تعليقات دينية، وأثرية، وجغرافية، و لغوية...إلخ.

ولقد حاولت أيضًا، قدر المستطاع، الإقلال من التعليقات والتعقيبات والإضافات العلمية حتى لا تطغى على العمل الذي جرى في زمان غير الزمان ، وحتى تبقي حلاوته معبرة عن مذاق حضارة مصر في البدايات الأولى للكشف عن شواهدها، تاركًا الفرصة للمؤلف لكي يبقى ما سطر من كلمات دون تغليفها بكل ما هو جديد.

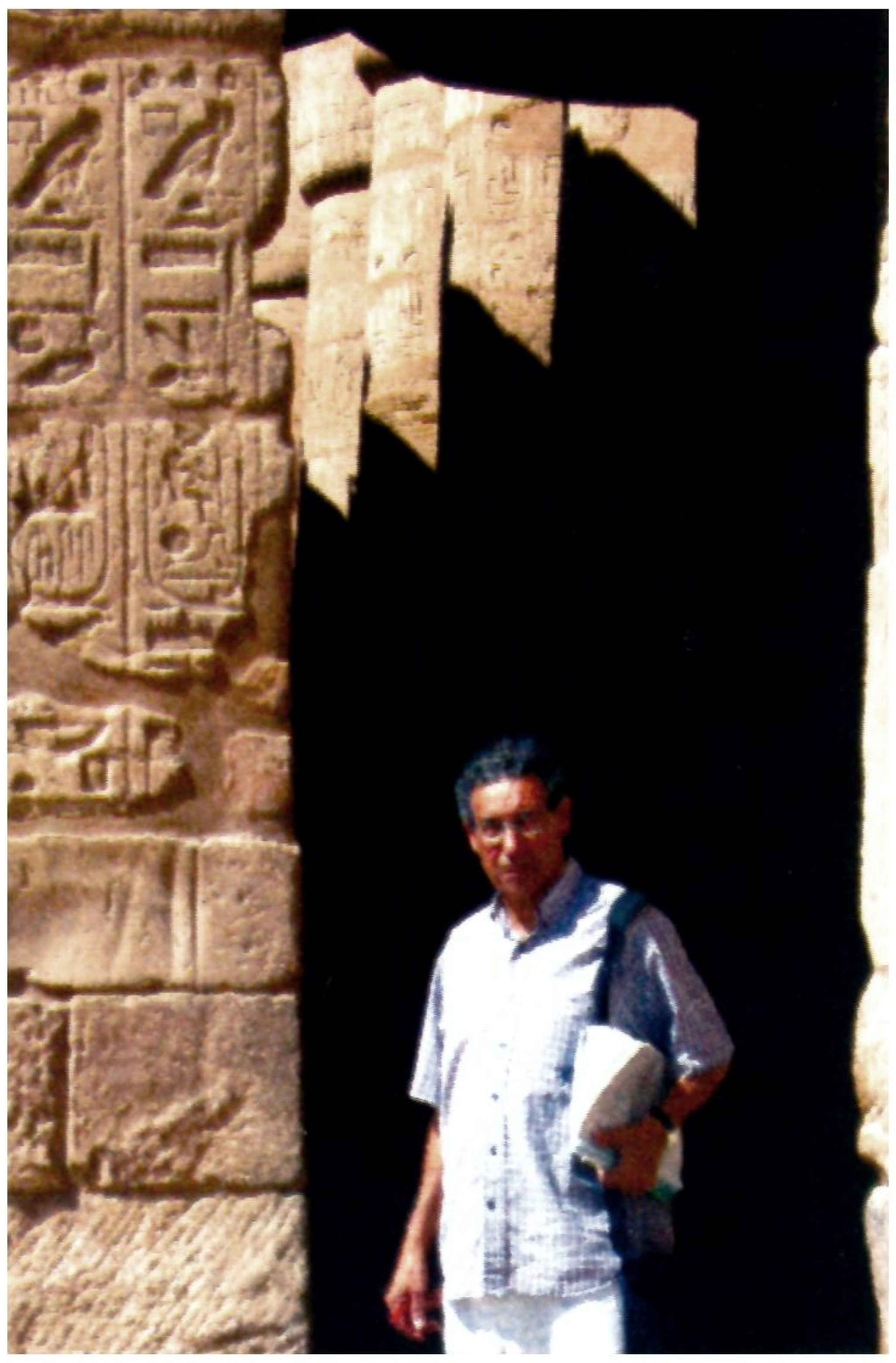
لقد استمتعت بهذا العمل الذى أراه مفيدًا للأثريين والمرشدين السياحيين وهواة الغوص فى أعماق الحضارة المصرية.. استمتعت كذلك بمسار واضح ودقيق للزيارة، واستمتعت بالتوقف طويلاً عند بعض المعابد مثل هابو ودندرة وإدفو ، واستمتعت كذلك بالتعرف على ما واجهوا من صعوبات تمثلت فى مشقة السفر وفى قلة الخدمات قياسًا بزمننا الحالى، وأعجبت بجلدهم ومثابرهم وحرصهم على الاستمتاع بتراث الأجداد وببعض الكلمات والجمل التى عبروا بها أولًا عن روعة هذه الحضارة ، وثانيًا عن إعجابهم الشديد بما شاهدوا.

هكذا كانت آثار مصر عبر كل العصور مبهرة لزوارها فى كل زمان ، وستظل مبهرة بل أكثر إبهارًا لزوارها فى زمننا الحالى .. وهكذا ينجح تراث مصر فى أن يقيم بينه وبين زواره علاقة حب لا تنقطع ولن تنقطع إلى أبد الآبدين بإذن الله ؛ لنظل أوفياء لتراث الأجداد ، باذلين الجهد للحفاظ عليه .

د. عبد الحليم نور الدين
أستاذ المصريات بكلية الآثار - جامعة القاهرة

مقدمة المترجم

احتفالات افتتاح قناة السويس

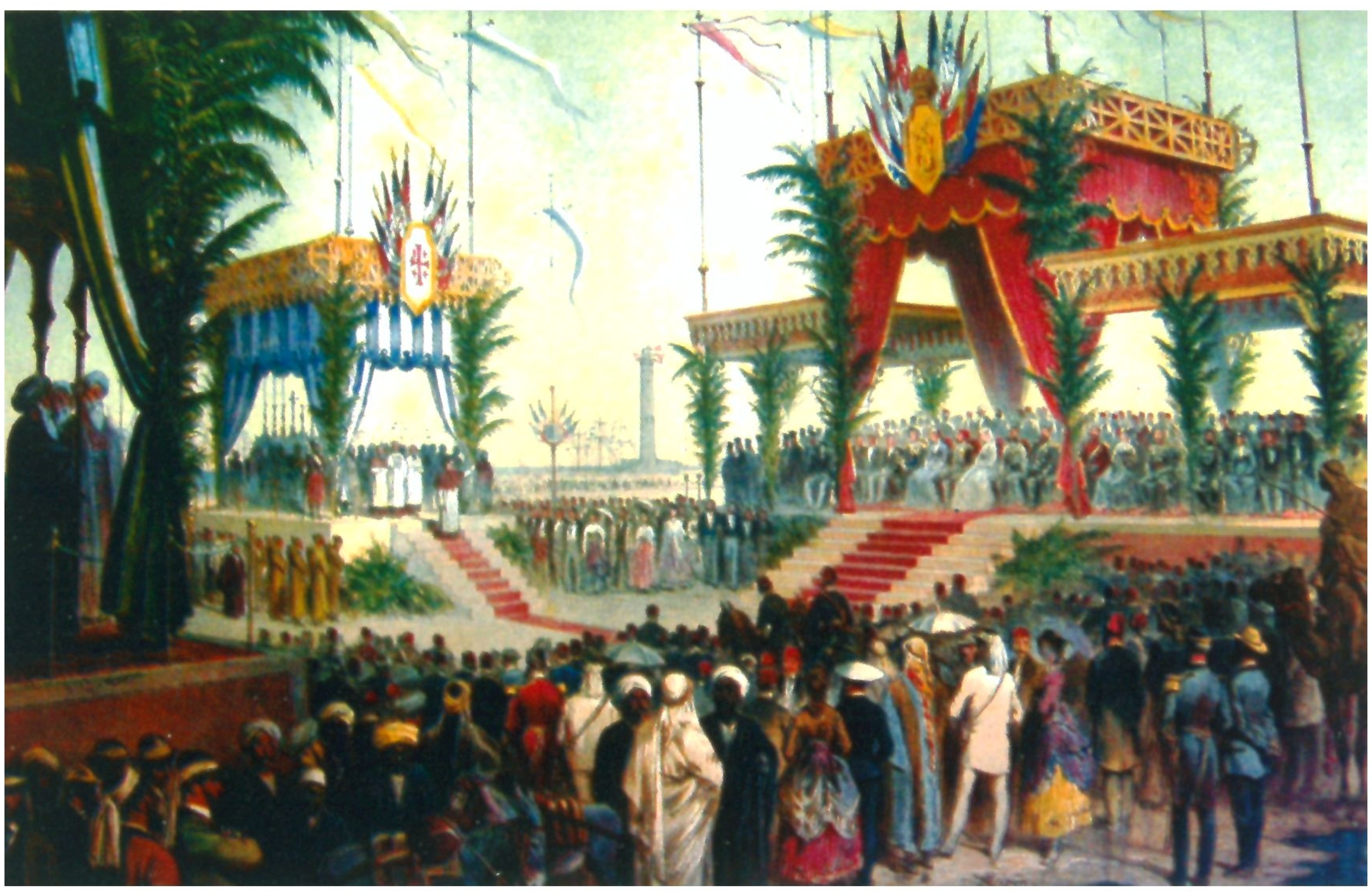


(1) المترجم فى معبد الكرنك

كان قرار البدء في تنفيذ مشروع حفر قناة السويس قد اتخذه محمد سعيد باشا والى مصر عام ١٨٥٩، إلا أن إنجاز وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر قد تم في عهد الخديوى إسماعيل باشا، وكانت دول العالم - وبخاصة فرنسا - تترقب لحظة افتتاح المعبر المائي ونجاح تنفيذ فكرة هذا المشروع الذي راود الكثيرين منذ قديم الأزل.

وبمناسبة الانتهاء من حفر القناة بعد عشر سنوات من العمل الشاق أمر الخديوي إسماعيل بتنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس تتويجًا لنجاح هذا المشروع العملاق، ودعا الملوك والأمراء ورؤساء الشركات الكبرى وكبار الكُتَّاب والصحفيين، وكان يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩هو بداية الاحتفالات الرسمية التي جعلت من مصر رائدة في مجال الإعلام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وشهد العالم أن بدء الملاحة بالقناة كان إضافة إلى ما قدَّمته مصر للحضارة الإنسانية منذ أكثر من أربعة آلاف عام.

لقد أمر الخديوى بتسجيل وصف هذه الاحتفالات في كتاب رائع جمع لوحات الرسام ريو بعنوان:« رحلة الملوك وافتتاح قناة السويس»، ولكن لم يهتم المؤرخون حق الاهتمام بأصداء الدعوة التي وجهها الخديوى، وخصَّ بها عددًا كبيرًا من الشخصيات البارزة في العالم لزيارة مصر لمدة شهر قبل بدء الاحتفالات الرسمية.



(2) احتفالات افتتاح قناة السويس
لوحة لريوا

وقد وقعت أيدينا على كتاب صدر باللغة الفرنسية بأمر الخديوى في أكتوبر ١٨٦٩ تحت عنوان: " خط سير رحلة ضيوف الخديوي لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس أثناء إقامتهم بالقاهرة وقيامهم برحلة على نهر النيل " ، وقد وافق المجلس الأعلى للثقافة على ترجمة هذا الكتاب ضمن المشروع القومي للترجمة، ونعتقد أن هذا الكتاب يعد" أهم دليل سياحي عن مصر فى زمنه.

أوجيست مارييت مؤلف الكتاب

على الرغم من أن الكتاب لا يحمل اسم المؤلف، فإننا قد عثرنا على نسخة من هذا الدليل محفوظة بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ٢٢٦٦٥ / ٩٦٢١٥ تخص واحدًا من الذين دعاهم الخديوى لزيارة مصر، ويُدعى شارل رون (Charles Rhône)، وكان يشغل وظيفة نائب رئيس شركة الغاز في باريس. وتحتوي هذه النسخة على بعض الملاحظات على الزيارة بخط يد صاحبها، وكذلك نجد تعليقات أخرى تؤكد أن " مؤلف الكتاب هو أوجيست مارييت بك، مؤسس متحف بولاق ومصلحة الآثار المصرية، وقد كتبه بناء على طلب الخديوى، وأن الكتاب كان محفوظًا في مكتبة أرتور رون (Arthur Rhône) مؤلف كتاب : " مصر في أيام قليلة "، وكان صديقًا شخصيًا لمارييت بك وماسبيرو . وقد حصلت مكتبة البلدية بالإسكندرية – كما قرأنا في آخر صفحة – على هذه النسخة الفرنسية في ٣ يناير ١٩٣٢ مقابل ٢٥ فرنكًا . ويحتوي الكتاب الفرنسي على١٧٧ صفحة بالإضافة إلى خريطة لمصر توضح خط سير الرحلة ، وكذلك على رسم تخطيطى لمدينة هابو.

ويبدأ المؤلف المقدمة بوصف الكتاب بأنه " notice " أي " تمهيد لكتاب ... لا يغني عن دليل ". ومن يعرف السيرة الذاتية لعالم الآثار الفرنسي يستطيع أن يستنبط سبب عدم وجود اسمه على الغلاف والاكتفاء بذكر أن الكتاب صدر بناء على طلب الخديوي؛ فقد بدأ أوجيست مارييت حياته بالتدريس في مدرسة ثانوية في بولوني سيرمار (Boulogne sur Mer) وجاء إلى مصر في مهمة للحصول على المخطوطات القبطية والسريانية، و بدأ كغيره بتسريب الآثار خارج البلاد قبل أن يؤنبه ضميره ويساهم في الحفاظ عليها وإنشاء متحف بولاق بالقاهرة وهيئة الآثار المصرية.

وقد كلفه الخديوى بكتابة سيناريو أوبرا " عايدة " التي كتب موسيقاها فيردي، والتي سوف تُعرض لأول مرة بأوبرا القاهرة. ورفض في البداية أن يرتبط اسمه بهذا العمل الفني، ولكنه ما لبث أن ندم على ذلك، واعترف بعد نجاح هذه الأوبرا العالمية أن "عايدة" من صنعه. و قد نال كل ثقة الخديوى الذي منحه لقب باشا، وعندما توفى تم نقل جثمانه ليوضع عند مدخل متحف القاهرة، وكتب على قاعدة تمثاله : « إلى مأريت باشا، اعترافًا من مصر بالجميل »، وهي عبارة مأخوذة عن عنوان واجهة مدفن العظماء "Le Panthéon" بقلب باريس .



(3) أوجيست مارييت عالم المصريات الفرنسي



(4) ماريت يقوم بالتنقيب فى جبانة سقارة

أهمية الدليل

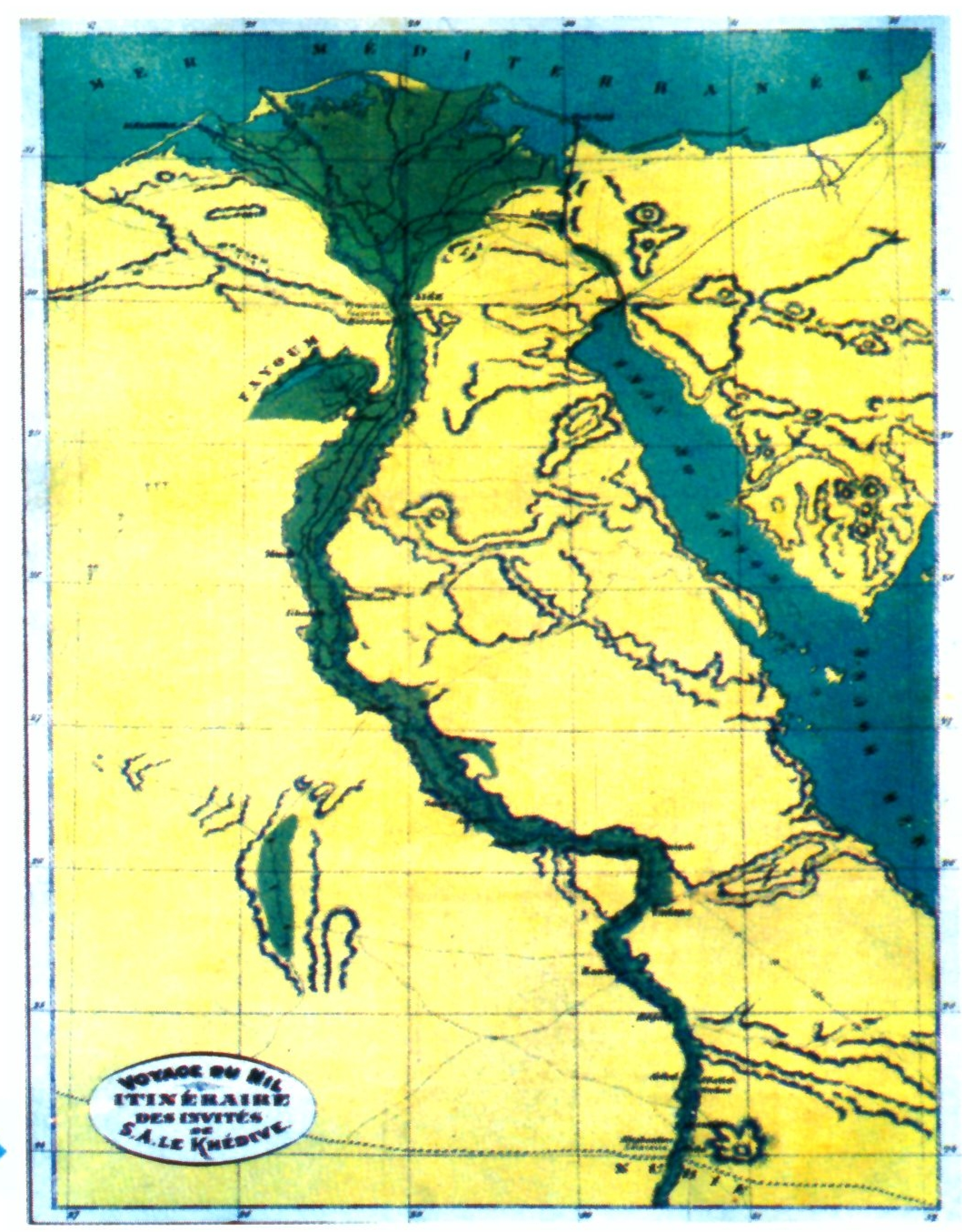
ويعدّ هذا الدليل خطوة في توثيق علم المصريات، قام بها عالم الآثار المصرية الفرنسي الشهير أوجيست مارييت بعد ظهور علم المصريات بما يقرب من خمسين عامًا. وإن لم يكن هذا الدليل الموجز أقدم دليل، فإنه بالتأكيد يتفرد عن غيره بأنه يُلقي الضوء على آثار القاهرة وصعيد مصر، ويبرز ما كانت عليه الآثار المصرية منذ ما يقرب من ١٤٠ عامًا، ونظرًا للواقع الذي تغير بفعل عوامل الزمن، فإن هذا الدليل يعد توثيقًا للآثار بالكلمة.

ولما كان الدليل لا يشمل صورًا سوى خريطة المواقع الأثرية التي مرَّ بها الضيوف؛ فقد قمنا بالتقاط بعض الصور التي تمثل المناظر التي شاهدها الزوار بالإضافة إلى الصور التي التقطها بعض المصورين المشهورين في ذلك الوقت، والذين كانوا من بين من دعاهم الخديوي، وكذلك أخذنا بعض الصور عن كتاب مارييت نفسه بعنوان " مصر في نظر مارييت" "L'Egypte de Mariette" نشر عام ١٨٧٨.



(5) غلاف دليل رحلة ضيوف الخديوى لزيارة آثار مصر

ورغم أن الدليل قد صدر في أكتوبر ١٨٦٩، ومنذ ذلك الحين تمت اكتشافات بفضل جهود المجلس الأعلى للآثار والبعثات الدولية التي شاركت في تطوير علم المصريات ، فإن هذا الدليل يمكن أن يستفيد منه اليوم المرشدون والأثريون وكل هواة الحضارة المصرية. فقد سعى المؤلف إلى توثيق مواقع أثرية كانت معروفة في ذلك الوقت من مساجد وكنائس وآثار يونانية ورومانية ، وكذلك في العصر الحديث، وقد قمنا بزيارة هذه المواقع الأثرية ، وحرصنا على إضافة صور تمثل المناظر التي شاهدها الزوار ليصبح أول دليل سياحي باللغة العربية بالكلمة والصورة.



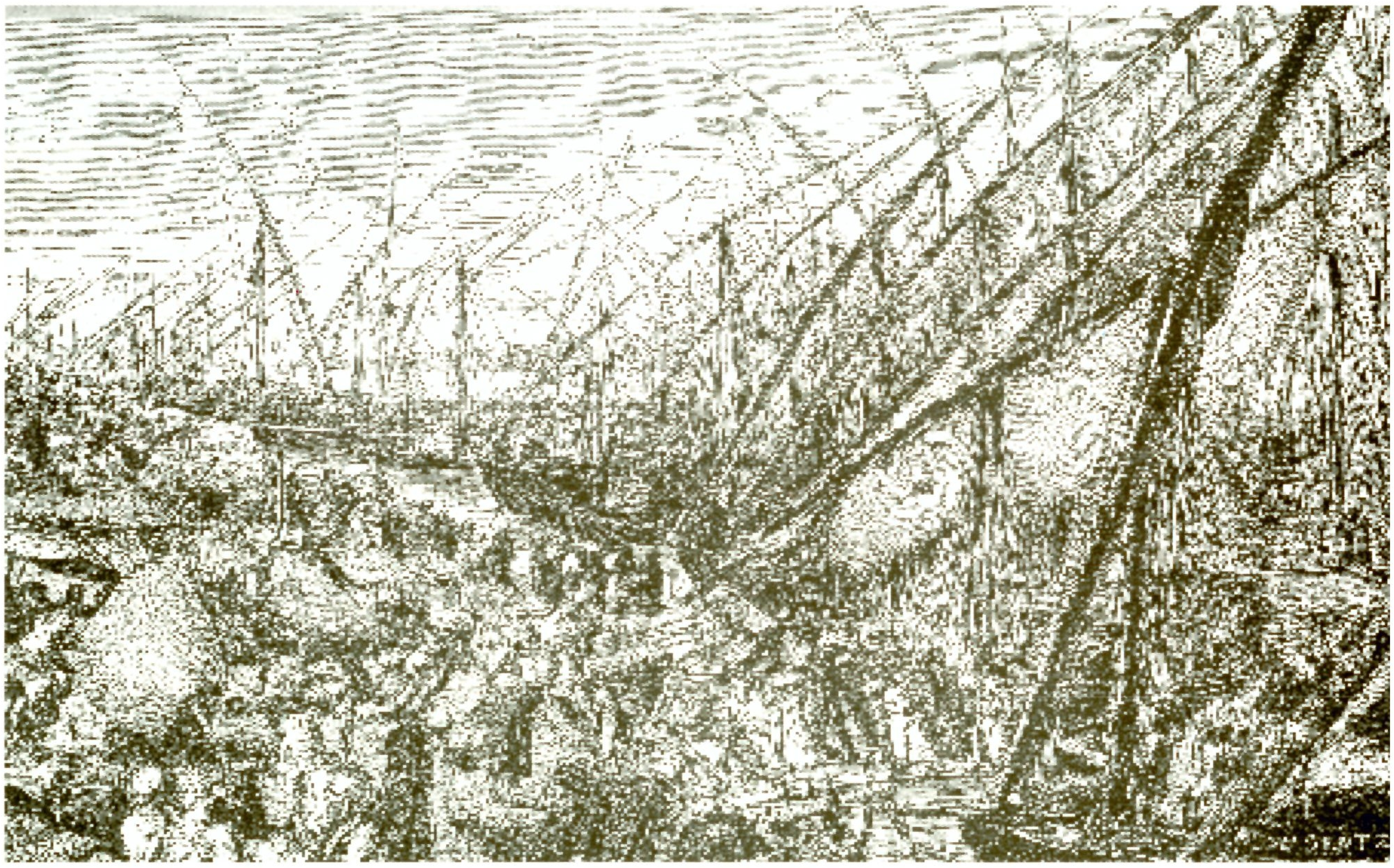
(6) خريطة سير رحلة ضيوف الخديوى

دراسة علمية لبرنامج الرحلة

يمكن أن يستفيد المرشد السياحي من المنهج الذي اتبعه عالم الآثار في دراسة برنامج الرحلة: فلا شك أن مارييت قبل مجيء الزوار إلى مصر قام بدراسة ميدانية على أرض الواقع ، وحدد أماكن المواقع الأثرية، وأيام الزيارة و مواعيدها، ودرس ظروف السفر، وحدد المسافات بدقة بين المدن التي ينزل فيها المسافرون لزيارة أهم آثار مدن الصعيد. وأخذ في الحسبان تأثير فيضان النيل الذي قد يحول دون الاقتراب من بعض الآثار حتى يستطيع الزائر رؤية أكبر قدر من الآثار في كل المدن الواقعة بين بولاق مكان الإبحار وأسوان في ٢٤ يومًا، كما يمكن اليوم تنظيم برامج رحلات ثقافية وسياحية والإفادة من هذا الدليل الذي أعده عالم الآثار الفرنسي آخذًا في الاعتبار ضرورة وكيفية استغلال الوقت وأهميته، والتركيز على مواقع ولوحات فنية مازالت تحتفظ برونقها وجمالها، وتعطي ملخصًا تاريخيًا عن مختلف العصور المصرية.

كما يحدد الدليل أماكن التوقف في المدن الواقعة بالقرب من النيل: حيث يتم تزويد المراكب البخارية بالفحم، وقام بتوزيع الزيارات على طول النهار منذ الصباح حتى غروب الشمس. وقد كانت دراسة مواعيد السفر دقيقة لدرجة مراعاة فارق سرعة المراكب، وظروف الملاحة والحرص على سلامة الركاب، ونصح بعدم السفر ليلاً آخذًا في الاعتبار انحراف مجرى النيل ومياه الفيضان. وإذا كان النيل يحد من سرعة المراكب في رحلة الذهاب، فقد كان يزيد في سرعتها في رحلة العودة، وبذلك تصبح الرحلة أقل زمنًا، ويمكن تجاوز بعض محطات التموين دونما توقف.

وتفيد مذكرات بعض الكُتّاب والصحفيين من المدعوين أن برنامج الرحلة قد تم تطبيقه بدقة رغم ظروف السفر، كما أنهم وصلوا في الموعد المحدد لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس.



(7) إقلاع المراكب بضيوف الخديوى من ميناء بولاق

البرنامج شامل

. بدأ البرنامج بزيارة القاهرة لمدة خمسة أيام، شاهد ضيوف الخديوي خلالها الآثار الإسلامية، والمعالم الحديثة، ثم مصر القديمة، والآثار والكنائس القبطية، وقصر الشمع ، وجبانة قايتباي، والغابة المتحجرة ، والحمَّامات.

وبعد زيارة القاهرة بدأت الرحلة النيلية من بولاق ميناء الإبحار لزيارة صعيد مصر، واستمرت مدة ٢٤ يومًا، شاهد الزوار الآثار التي قامت على ضفاف النيل، واستخدمت الحروف الهيروغليفية في الكتابة، وهي معابد غالبًا ما تكون مقابر. وبدأت الرحلة بزيارة الأهرامات في الجيزة، ومنها إلى البدرشين لزيارة سقارة وأطلال منف (ميت رهينة).



(8) ضيوف الخديوى فى زيارة معبد فيلة (١٨٦٩)

وقدم المؤلف للزوار عرضًا تاريخيًا؛ حيث قسَّم التاريخ المصرى إلى أربعة أقسام: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، والعصر المتأخر. واختار عالم الآثار مواقع تمثل نموذجًا لكل عصر من العصور المصرية ؛ ففي سقارة مثلاً كشف عن أسرار مقبرة تي، ومقبرة بتاح حتب من الدولة القديمة، وبها أمثلة لدراسة الغرف الداخلية، والتعرف على العمل الدقيق والكامل، ويفسر الدليل معنى النقوش والروح السائدة في كل غرفة. ونرى المتوفى وكأنه لم يترك بعد الحياة، وتبرز النقوش مؤهلاته ومناظر تتعلق بحياته في بيته وبين أهله. ويفسر الدليل أن المتوفى هو الذي أمر بنحت المشاهد، أما الروح والحياة بعد الموت فهي في جزء من المقبرة به الجسد يظل خفيًّا تسكنه الآلهة من الأرواح .

وأراد الكاتب أن يقدم للضيوف الأجانب صفحة من تاريخ انتصارات ملوك مصر على الأعداء. ويتعرف الزائر- من خلال شرح النقوش- على تاريخ هجرة الشعوب الآسيوية الذين جاءوا إلى مصر، والذين جذبتهم خصوبة أراضيها، وكذلك شعوب البحر الذين تحالفوا ضد مصر ودحرهم الملك وحكام مصر، ويكرر الدليل معركة القادش في أكثر من مكان في الرمسيوم والأقصر والكرنك : لأنها أهم انتصار في عهد رمسيس الثانى.

وقدم الدليل كذلك ما يهم الزائر في معابد فيلة وإدفو وكوم أمبو ودندرة وإسنا والآثار الأكثر اكتمالًا، والتى تلقي الضوء على الديانة المصرية القديمة.

وقد يندهش البعض من أن الدليل لم يقتصر على زيارة الآثار، وشمل زيارة المصانع والمحاجر بجبل السلسلة؛ فقد أراد الكاتب جذب نظر الضيوف الأجانب إلى وضع مصر على خارطة التقدم والعمران، وهي نظرة حديثة ، والتعرف على الأعمال التي قام بها الخديوى لتحديث مصر. و قام الضيوف بزيارة أكبر مركز لاستغلال الأحجار المعروف في مصر، والذي – كما يذكر المؤلف – يضاهي ما يتم في أوروبا في ذلك الوقت.

أسلوب المؤلف

يتميز أسلوب الدليل بمنهجه التعليمي الذي يخاطب غير المتخصصين في علم الآثار؛ فيطرح المؤلف سؤالًا، ويحاول أن يجيب عليه بطريقة تجذب الانتباه، ويمكن أن نلخص هذه الأسئلة فيما يلي : ما الغرض من إنشاء المعبد؟ وفيم خصص استخدامه ؟ وما مدى أهميته التاريخية ؟ ويجد الزائر الإجابة وهو يقرأ شرح المناظر التي أمامه. ويمكننا اليوم الرجوع إلى هذا الدليل لمعرفة ما تعرضه اللوحات الفنية من أحداث تاريخية، ويوضح الدليل تطور الفنون من نحت ورسم وعمارة وتصوير وزخارف خلال العصور المختلفة، ويدرك الزائر براعة النحات المصري الذي يميز بين ملامح الأسرى من الشعوب والأجناس التي تحالفت ضد مصر.

وسوف يجد الزائر أن المؤلف قد أبدى اهتمامًا بالغًا في شرح زيارة معبد دندرة ومدينة هابو، ويرجع هذا الاهتمام إلى مدى عظمة هذه المواقع وفخامتها؛ لذلك أضاف المؤلف إلى الدليل رسم مخطط لمعبد دندرة، وقام بتقسيم هذا المبنى الضخم إلى أربع مجموعات من الحجرات حتى يستطيع الزائر أن يتعرف على مختلف أماكن الاحتفالات الدينية والطقوس، ويتتبع سير المواكب التي تتم سواء داخل المعبد أو خارجه، ويدخل الزائر في أماكن تجهيز الأدوات اللازمة للزينة وتخزينها وإعداد القرابين، ويستطيع الزائر اليوم أن يستفيد من شرح زيارة معبد أبيدوس دندرة الذي وصفه ماربيت، والذي يعد من أكثر وأهم المعابد المصرية المحفوظة في ذلك الوقت. أما معبد هابو فقد لا يَمل الزائر من التجول في رحابه ، ويمكن أن يتوقف فترة طويلة أمام الجدار الشمالي- والدليل بين يديه- ليكتشف ما وصفه أوجيست ماربيت بأنه"بهو متحف حقيقي "، والذي قسمه إلى عشر لوحات فنية تمثل الانتصارات التي حققتها مصر على الأعداء والغزاة القادمين من البر ومن البحر في عهد رمسيس الثالث.

وقد يكتشف المرشدون أنفسهم أن هناك معلومات أثرية وتاريخية قيمة قد تجذب السائحين الذين اعتادوا زيارة معابد الأقصر والكرنك، ويمرون بسرعة أمام معبد دندرة ومدينة هابو، ونأمل أن يقدم هذا الدليل مزيدًا من المعارف الأثرية لجذب مزيد من عشاق الحضارة المصرية القديمة. ولما كان الدليل موجهًا إلى ضيوف الخديوي، ومنهم غير المتخصصين في دراسة الآثار، وأن بعض المواقع من الصعب الوصول إليها بسهولة؛ فقد سعى ماربيت إلى تعيين بعض المرشدين لمرافقة الضيوف لعدم توافر خريطة تدل على المقابر الرئيسية التي يمكن زيارتها كما هو الحال بالنسبة لجبانة شيخ عبده القرنة، والقرنة مرعى. ومن بين المرشدين كان دانينوس (Daninos) مدير آثار بولاق والملحق بقسم الآثار بمتاحف فرنسا التابع لوزارة الخارجية، والذي كان يقوم بالتنقيب عن الآثار القديمة. وفي أثناء الزيارة كان حكام الأقاليم يشرفون على استقبال الضيوف، ويقوم الفلاحون بتنظيف الشوارع وإزاحة الأتربة وتوسيع الطرق، ويقيمون احتفالات للترفيه عنهم.

ويوضح الدليل مدى اهتمام الخديوى إسماعيل بتشجيع عمليات التنقيب، ويبرز زيادة عدد الاكتشافات التي تمت في عهده، وينتهز المؤلف الفرصة ليوضح ما قام به المستكشفون من خدمات هائلة لعلم الآثار المصرية، ويدين ما تعرضت له الآثار من عمليات تخريب وتشويه من قبل تجار الآثار والرحالة أنفسهم، وهي إساءة ضد العلم لا يمكن إصلاحها، ويدين الدليل أيضًا سرقة الآثار مثل: تابوت المرمر الجميل الذي نقل إلى إنجلترا، وتابوت رمسيس الثالث من الجرانيت الوردي اللون والموجود حوضه في اللوفر وغطاؤه في جامعة كامبريدج. ولم يغفل الكاتب ذكر دور الخديوى في تدعيم الكشف والتنقيب؛ فقد أمر برفع الأنقاض عن إدفو، وهو أكبر عمل أثري في عهده: حيث غطت القرية الحديثة على المعبد وتكدست الأنقاض بالداخل، وتم رفع الرديم بجهد عظيم حتى أصبح من السهل على الرحالة قراءة النصوص ودراسة الآثار، وقد قام مارييت بدور إيجابي في التوعية للحفاظ على الآثار المصرية التي كان يشتريها التجار وينقلونها إلى خارج مصر.



(9) مارييت يتابع التنقيب فى سقارة

ونأمل أن يجد السائح المصري والعربي في هذا الكتاب دليلًا ورفيقًا ممتعًا لزيارة آثار مصر، والتعرف على حضارتها العريقة. وننتهز هذه الفرصة لنقدم خالص الشكر إلىأمين عام المجلس الأعلى للثقافة لموافقته على نشر هذا الدليل ضمن المشروع القومي للترجمة. ولن يغيب عنا تقديم الشكر والعرفان إلى الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين عالم المصريات ورئيس المجلس الأعلى للآثار الأسبق، والذي وافق على تصحيح المادة العلمية ومراجعتها، وأفادنا من علمه ومن بحوثه لتحديث هذا الكتاب، وأخيرًا نشكر الفنان محمد أحمد علبة على قراءته البصيرة وتحمسه لتنقيح الترجمة إلى اللغة العربية.

دكتور عباس أبوغزالة

مقدمـــة المــؤلــف

أُعد هذا الدليل الموجز لمن جرى دعوتهم من قِبَل سمو الخديوى لزيارة صعيد مصر، وسوف يوزع عليهم عند وصولهم إلى الإسكندرية كي يعرفوا مقدمًا برنامج رحلتهم في القاهرة وعلى امتداد نهر النيل حتى أسوان.

وينبغي الإشارة إلى أن هذا الدليل الموجز لا يُغني عن الدراسات التفصيلية، بل على العكس تمامًا لأنه لا يحتوي إلا على بعض المعلومات التي تعطي مذاقًا مسبقًا للرحلة، ويحث الأشخاص الذين لا يجذبهم سوى الفضول لزيارة مصر على الاطـلاع على برامــج الرحـلات الممتـازة التي نشـرهـا السيـد مـوراي (Murray) في إنجـــلترا والسيـــدان جوهــان أدولف (Joanne Adolphe) وإزمبار (Isambert) في فرنسا .

سوف يقضي ضيوف سمو الخديوى الذين يصلون قبل موعد افتتاح قناة السويس بشهر، مدة خمسة أيام بالقاهرة وأربعة وعشرين يومًا على نهر النيل. ونوجز في هذا الدليل على قدر المستـــطا ع كيفية قضاء الوقت طوال فترة الرحلة (٢٩ يومًا) .

أولاً - الإقامة فى القاهرة

من الصعوبة بمكان أن نحدد بدقة كيفية قضاء الوقت خلال التوقف لمدة خمسة أيام بمدينة القاهرة. ولا بد من ترك المبادرة الشخصية للزوار كل حسب رغبته؛ فقد يفضل البعض الذهاب إلى أماكن بالمدينة على حين يتغاضى عنها آخرون، ومع ذلك يمكن أن يكون من المفيد تقسيم الوقت خلال هذه الأيام الخمسة على الوجه التالي:

اليوم الأول	**جولة فى المدينة – زيارة الأسواق.**
اليوم الثانى	**زيارة المساجد والقلعة.**
اليوم الثالث	**فى الصباح رحلة إلى شجرة العذراء وآثار هليوبوليس**
	بعد الظهر : متحف بولاق.
اليوم الرابع	**فى الصباح. جولة فى القاهرة القديمة ، ثم فم الخليج ، قناة (ماء) ، قصر الشمع**
	بعد الظهر: جولة فى جبانة المماليك.
اليوم الخامس	**فى الصباح زيارة الغابة المتحجرة فى المعادى**
	بعد الظهر. جولة حرة.

وهذه بعض التفاصيل عن كل جولة من الجولات المذكورة في الجدول السابق:

القاهرة ـ اليوم الأول

نستفيد من هذا اليوم لنلقي نظرة عامة على المدينة. الأزبكية وهو المكان المفضل للقاء الأوروبيين، وهو عبارة عن ميدان فسيح في سبيله إلى التطوير، يمثل نواة الحي الجديد الذي أمر الخديوى إسماعيل باشا بإنشائه ، ونبدأ من هذا المكان زيارة المدينة. ومن المعروف عن شوارع القاهرة أنها ضيقة ومتعرجة ومظلمة قليلًا، وهي المأوى الحقيقي من حرارة الشمس المرهقة؛ إذ يجد الأجنبي غالبًا متعة بالغة في اجتيازها.



(10) خان الخليلى، بوابة السلطان قنصوة الغورى

وفي الواقع ما من مدينة تقدم مناظر خلابة وأكثر روعة للبصر من مدينة القاهرة: هذه المنازل الشامخة، هذه الينابيع، هذه المشربيات بأشكالها المختلفة، هؤلاء السكان بضجيجهم وانغماسهم في أعمالهم، هذه الملابس بألوانها الزاهية، هذه المآذن التي تطاول عنان السماء، كل هذه الهندسة المعمارية التي تبدو كأنها قد ازدهرت هنا مصادفة، كل ذلك يشكل مناظر لا تمل منها العين قط. وتشكل الأسواق مجالاً آخر للدراسة والتسلية. لن نتحدث عن الموسكي هذا الحي المألوف الذي اتخذ بطريقة مبالغ فيها طابع المدينة الأوروبية. أما أحياء خان الخليلى والغوري والخمساوى [الحمزاوى] وسوق السلاح فقد حافظت - لحسن الحظ حتى الآن - على طابعها الأصيل، علمًا بأن يومي الاثنين والخميس هما أيام البيع الرئيسية في خان الخليلى. فعلى السائح الذي يهوى المفاجآت أن يذهب في هذين اليومين إلى السوق؛ فالضجيج شديد لدرجة يتعذر فيها سماع الناس بعضهم لبعض، والجمهور متراص لدرجة يصعب معها التحرك.



(12) سوق خان الخليلى



(11) سبيل محمد على - شارع المعز

ولا يلازم التجار في هذين اليومين محالهم، وإنما يتجول أغلبهم في الأزقة الضيقة المسماة تجاوزًا بالشوارع، ويصيحون وهم يلوحون بنماذج من بضاعتهم التي يعرضونها للبيع، معلنين عن أثمانها المغرية. ومن ذا الذي لا يدرك قيمة هذه التحف النادرة من أسلحة وملابس وحُلى وسجاجيد وكشمير وأوان وجواهر، يعشقها هواة جمع التحف، ويحملونها مسرورين معهم من رحلتهم إلى الشرق؟!

وغالبًا ما يتم شراء هذه التحف النادرة من حي خان الخليلى بثمن بخس، وأحيانًا أخرى بسعر باهظ حينما يجهل المشترى أسلوب المقايضة. على أية حال بعد مثل هذه الجولة، وبالصدفة، وبدون توجيه يأخذ الزائر عن غير عمد فكرة عن عظمة المدينة وأهميتها. ويَبلغ عدد سكان القاهرة ما يزيد على ثلاثمائة ألف نسمة، كما يبلغ محيطها ٢٤ كيلومترًا بدون الضواحي، ولا يوجد مركز تجاري وديني في الشرق يضاهي القاهرة، كما يصعب أن تجد لها نظيرًا بوصفها مدينة أثرية ضخمة.



(13) المشربيات بشارع المعز



(14) محل بيع بخان الخليلى



(15) سوق النحاسين – خان الخليلى

القاهرة ـ اليوم الثاني:

يخصص هذا اليوم لزيارة المساجد والقلعة. ولقد قيل ما فيه الكفاية عن مدى عظمة المساجد العربية وابتكارها وتناسقها، ولا مجال هنا لتكرار ذلك. تضم مدينة القاهرة ما يقرب من ثلاثمائة مسجد، والمساجد التي يزورها الرحالة هي، وسوف نذكرها حسب أقدميتها:

١- **مسجد عمرو** الذي أسسه القائد **عمرو بن العاص**، أحد القادة في عهد الخليفة عمر. شُيِّد في سنة ٦٤٢ ميلادية، وهو من أقدم مساجد القاهرة[١] والعالم الإسلامي كله. وقد تم بناؤه خارج أسوار المدينة في موقع الفسطاط القديمة، ولا يزال حتى اليوم أقدم مثال للعمارة العربية.

وعلى الرغم من حالة التداعي التي نجده عليها، فإننا مازلنا نقدر عظمتة مع بساطة تصميمه، علمًا بأن مدينة منف[٢] كانت قد زوّدت مسجد عمرو بأجمل أعمدته من الجرانيت ومن الرخام الصلب.



(16) مسجد عمرو بن العاص والمئذنة

ويؤكد المؤرخون العرب أن القرآن قد تم نقشه بالكامل بحروف من ذهب على لوحات الرخام التي تغطى أسواره. ولم يتبق – لسوء الحظ – سوى أجزاء من الأعمدة، الأمر الذي يوحي للزائر بأن المسجد لا يحمل أي نقش أو زخرفة تدل على حالة الفنون في تلك الفترة المتقدمة من الحضارة العربية.



(17) صحن مسجد عمرو بن العاص حاليًا



(18) الأعمدة فى مسجد عمرو بن العاص



(19) صحن جامع أحمد بن طولون



(20) آية الكرسى فى بداية اللوحة التأسيسية لمسجد ابن طولون

٢- وبعد مغادرة الفسطاط ندخل القاهرة ، فنجد مسجد ابن طولون الذي سبق بناؤه قرابة قرن كامل أي بناء آخر بالمدينة. لقد شيّد أحمد بن طولون هذا المسجد سنة ٨٧٧ ميلادية، وتحمل - مثل مسجد عمرو في كل أجزاء - عمارته الأدلة على قدمه.أما أبعاده فتبلغ ٨٠ مترًا طولًا و٧٦ عرضًا، وقد استخدم فيه القوس القوطى، ونجد على الجدران أمثلة رائعة للخط الكوفي.



(21) محراب جصى باسم الخليفة المنتصر بالله بجامع أحمد ابن طولون

ويُروى عن كاتب عربي أنه قال: " كنا نصعد إلــى مئذنته عن طريق سُلَّم خارجي على شكل حلزوني. وقد أوصى أحمد بن طولون بوضع مسحوق العنبر على الإفريز الذي يحيط به من كل الجهات لتفوح رائحته بين المصلين ".

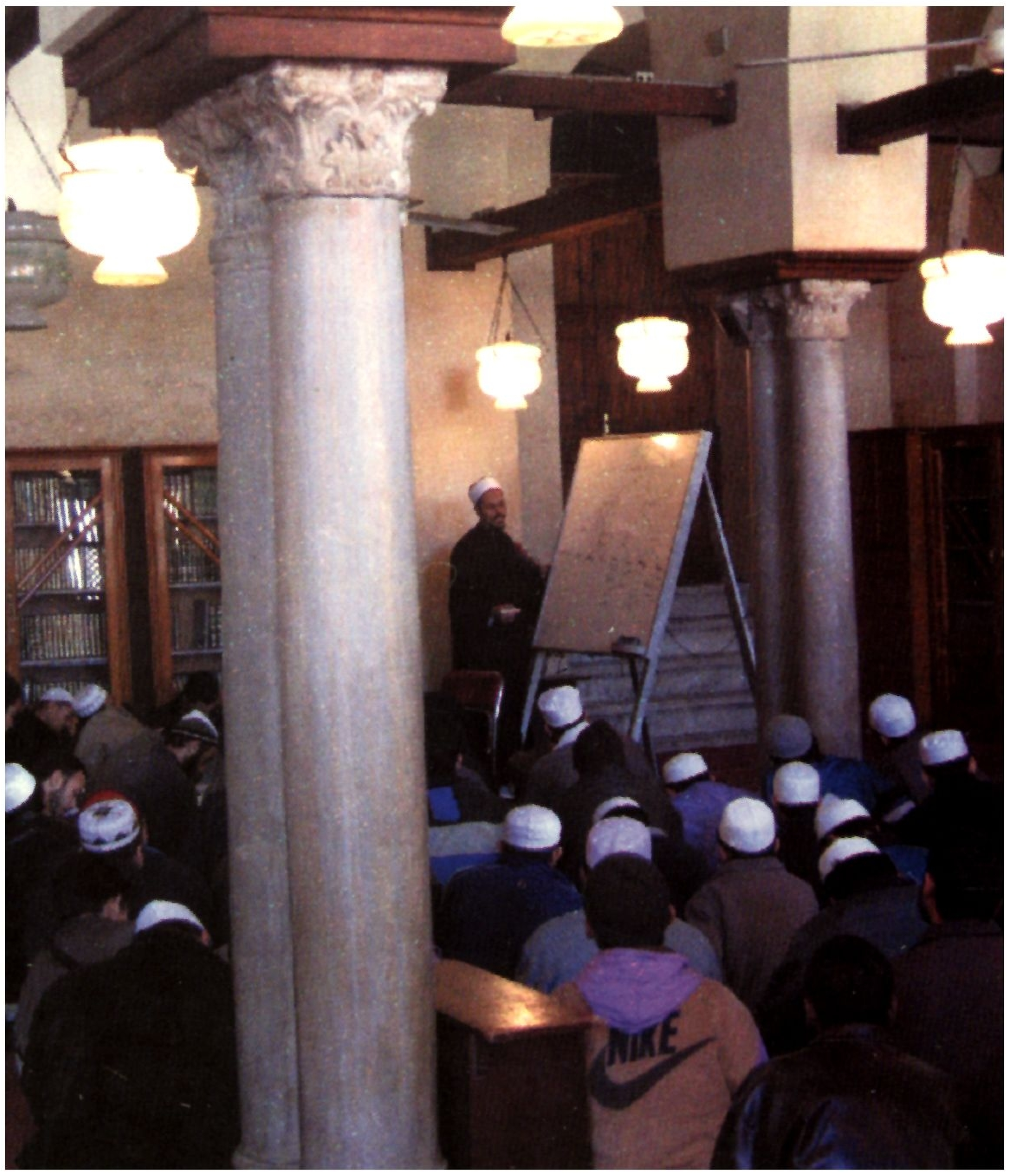


(22) مئذنة مسجد ابن طولون والسُّلَّم الحلزونى

٣- ثم يأتي **جامع الأزهر** - وهو أقدم من المساجد التي سبق ذكرها- وقد أسسه القائد جوهر سنة ٩٦٩ ميلادية حين كان وزير المعز أول خلفاء العصر الفاطمي. وقد تم ترميمه عدة مرات، وتظهر على أجزائه المختلفة خصائص العصور التي تمت فيها هذه الترميمات التي كان آخرها في عام ١٧٦٢ ميلادية. ولا ترجع أهمية الجامع الأزهر إلى هندسة بنائه فحسب، وإنما لكونه أشهر مركز لدراسة العلوم العربية؛ حيث تقدم فيه دروس كاملة، وتشمل: دراسة القرآن، ونظم الشعر، والنحو، والقوانين المدنية والدينية والجنائية، ولا يتلقى فيه آلاف الدارسين القادمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي العلم بمعناه الواسع فحسب، وإنما يحظون أيضًا بالإقامة المجانية. أضف إلى ذلك أننا نجد أيضًا بجامع الأزهر مأوى للمكفوفين وساحات واسعة يجد فيها دائمًا الحجاج الغرباء المتجهون إلى مكة كل مظاهر الرعاية وكرم الضيافة. ولا يشكل جامع الأزهر مكانًا للصلاة فحسب، بل أيضًا مدرسة وجامعة ومكتبة وملجأ للعجزة والحجاج.



(24) صحن جامع الأزهر ومئذنتا قايتبياى والغورى



(23) الدراسة فى مدرسة جامع الأزهر

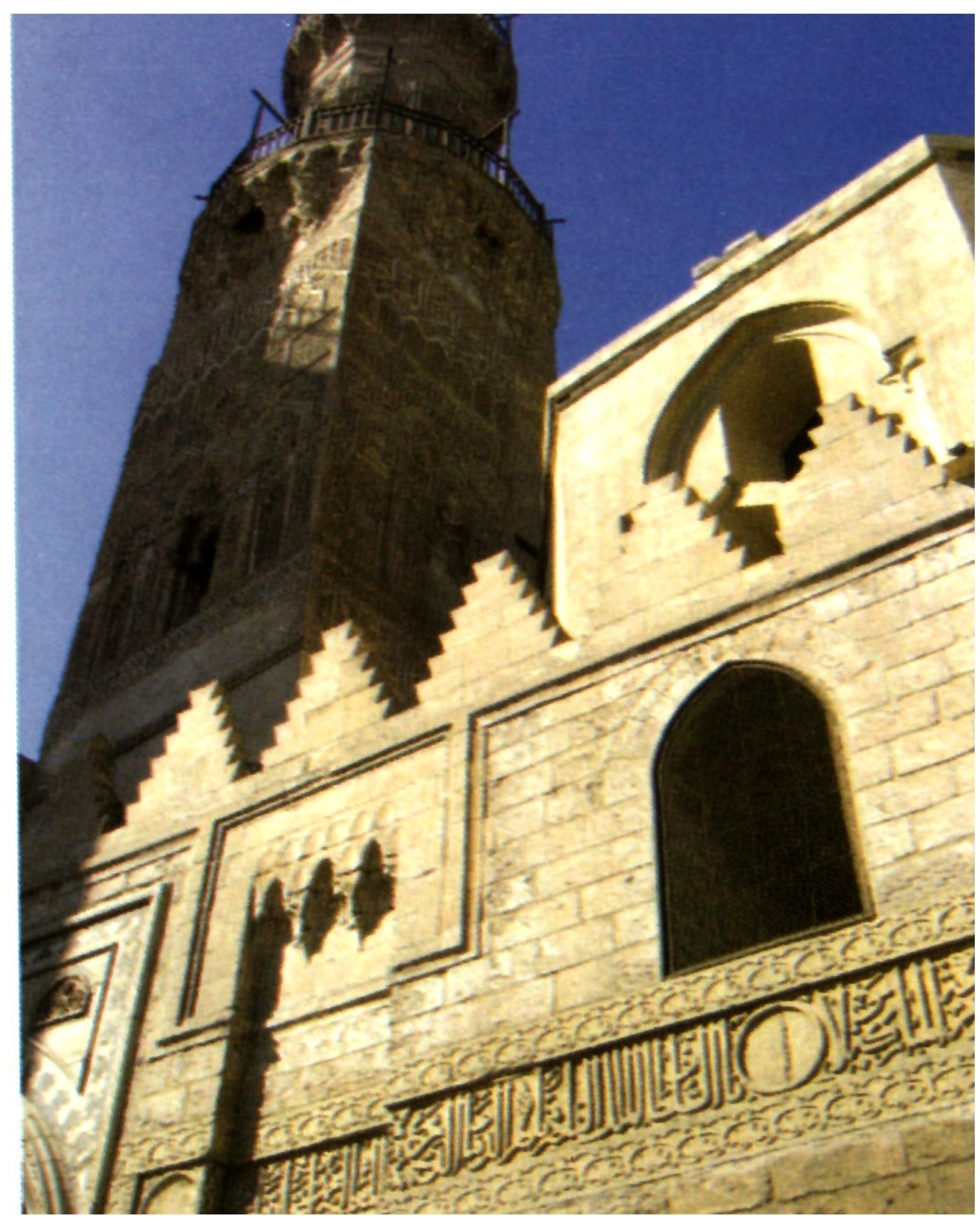


(25) مئذنة جامع الأزهر



(26) جامع المنصور قلاوون بشارع المعز

٤- يقع **جامع قلاوون**، الذي يحمل اسم السلطان قلاوون، بالقرب من حي خان الخليلي. وقد بدأ في بنائه عام ١٣٠٣ميلادية، وانتهى البناء بعد ثلاثة عشر شهرًا فقط؛ أي في عام ١٣٠٤ ميلادية كما تدل على ذلك النقوش المسجلة على أسوار الجامع.



(27) نقوش على واجهة جامع قلاوون



(28) مئذنة جامع قلاوون



(29) واجهة جامع شيخو بشارع الصليبية

٥- الجامع المزدوج المعروف **باسم شيخو** :
يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٣٥٤ م، ويقع على جانبي الطريق الصاعد من جامع ابن طولون إلى القلعة، ومؤسسه هو الملك الناصر حسن الذي ارتبط اسمه فيما بعد واقترن ببناء جامع السلطان حسن.



(30) زخرفة السقف بالآيات القرآنية

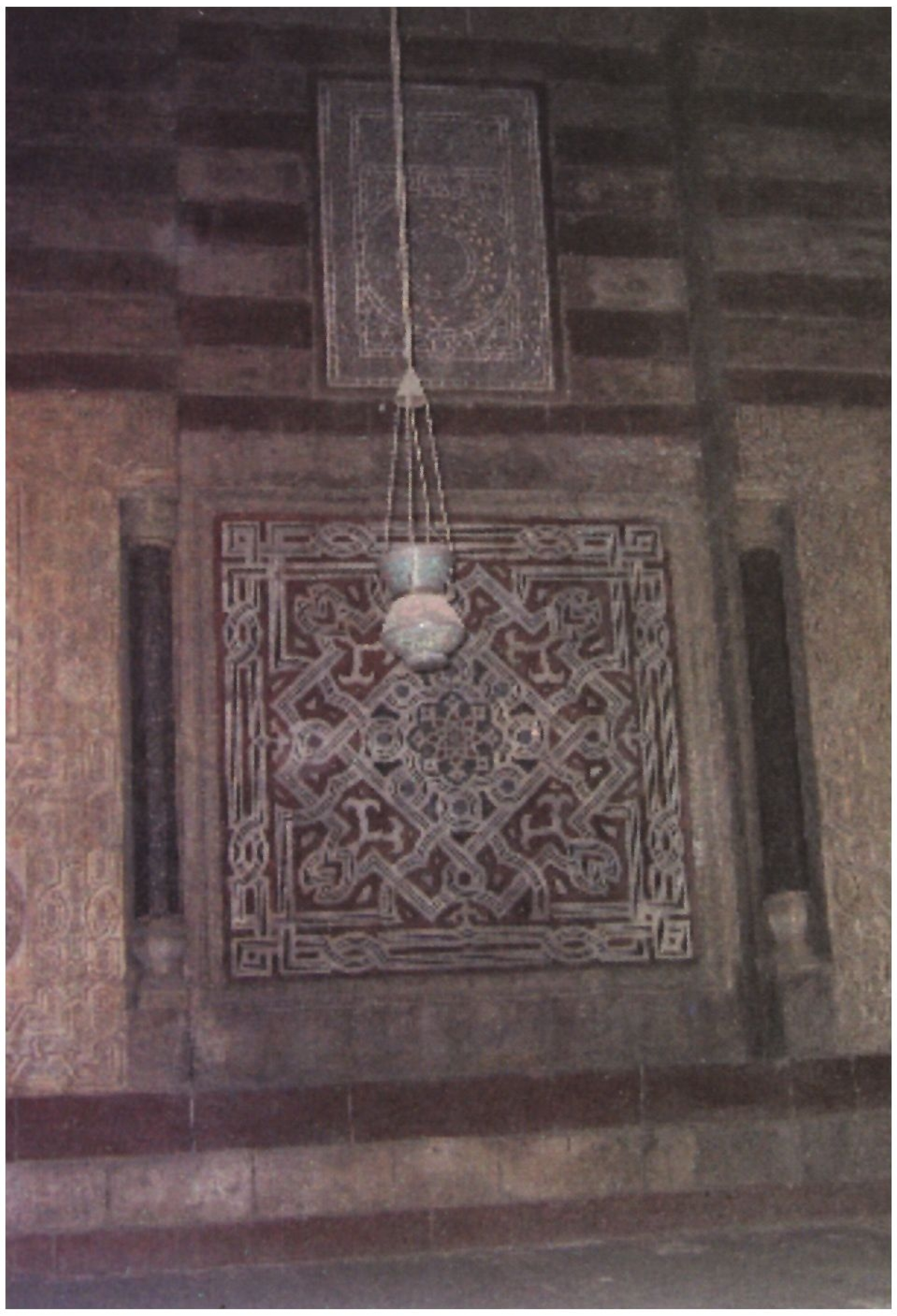
٦- نصل إلى الجامع المثالي، والذي يتصدر كل الجوامع بعظمته وبنائه فيما يقدمه كنموذج للفن، ونقصد به **جامع السلطان حسن** الذي تم بناؤه في عام ١٣٥٦ م، ويبلغ طوله حوالي ١٥٠ مترًا، وارتفاع مئذنته الكبيرة ٨٠ مترًا[٣] . ولا يوجد أعظم من الإيوان الرئيسي لهذا المبنى الفريد ، ولا شيء أكثر روعة من القبة [٤]. وبداخل الجامع يظهر للعيان روائع أسلوب الفن العربي في أصالته العميقة؛ فالجدران مرصعة برخام متعدد الألوان، تتآلف فيه الألوان الأزرق والأحمر والأخضر والذهبي في لوحات من الحجر لتبرز رسومًا متنوعة؛ حيث تتناوب فنون الزخرفة العربية مع آيات قرآنية كُتبت بحروف كبيرة. وتبرز الشبابيك والأبواب والنوافذ نفس الفن المتناول بنفس الإتقان.



(31) جامع السلطان حسن وقبته



(32) جزء من مدخل جامع السلطان حسن



(33) زخارف رخامية بجامع السلطان حسن



(34) إيوان القبلة لمسجد السلطان حسن



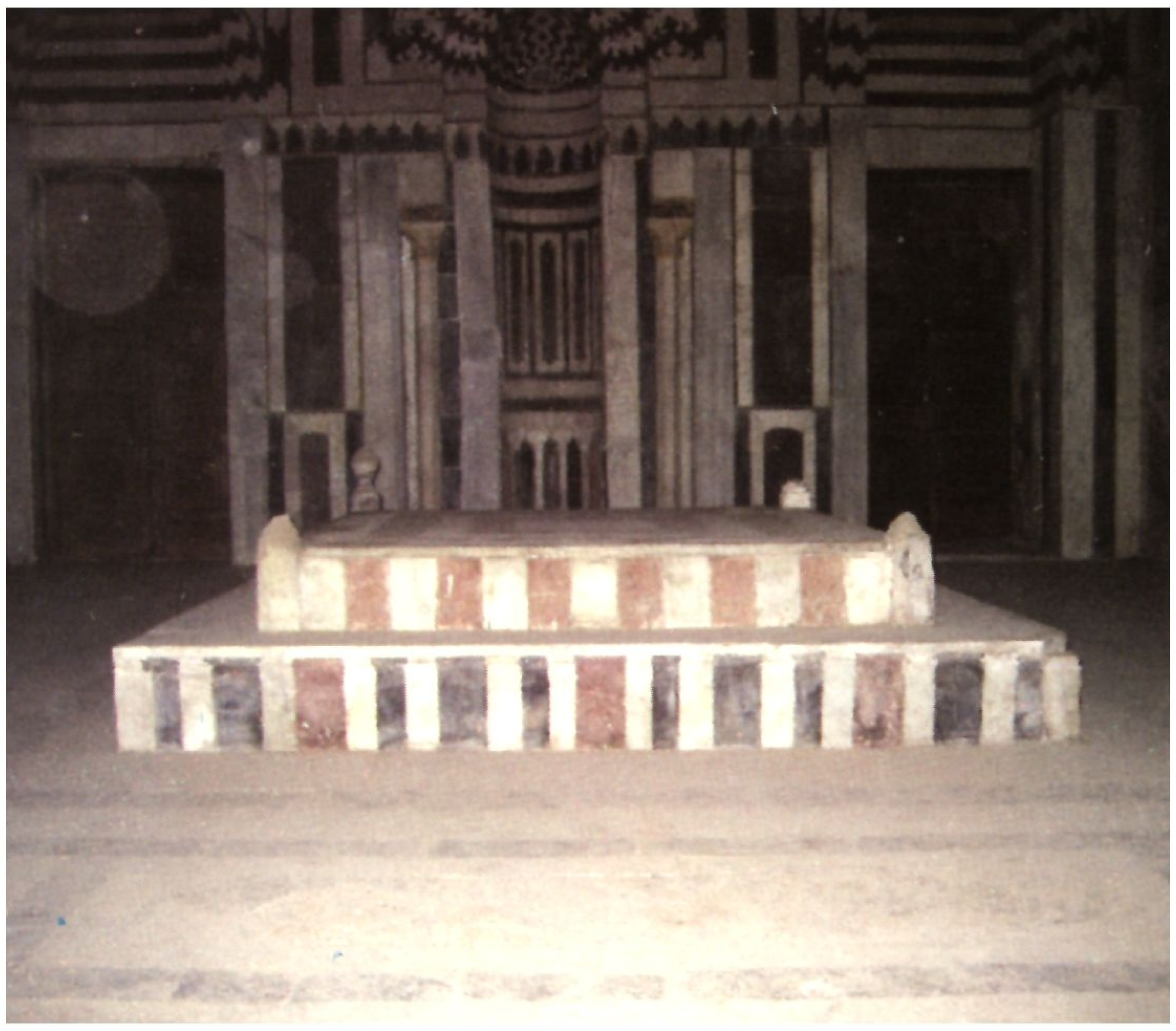
▲ (35) المحراب الرئيسى لمسجد السلطان حسن وزخارف رخامية

وكانت أكواخ السكن في الماضي تستند إلى المبنى الفاخر الذي وصفناه توًّا وتشوه منظره.وسوف يدرك عشاق الجمال بارتياح أن سمو الخديوى قد أمر بعزل جامع السلطان حسن عن محيطه، بل أكثر من ذلك بدأ العمل في ميدان الرميلة (Roumilie) المواجه له ليصبح حديقة صغيرة تضم الأشجار والينابيع. وسوف يلقى هذا الإجراء كل ترحيب، وقد تم إصلاح واجهة القلعة التي تحيط بالميدان جنوبًا، وسوف تسلط الأضواء على أربعة مساجد جميلة كانت مختفية حتى الآن وراء المنازل لتظهر إلى النور، وشُيِّد - مكان هذه المنازل - موقع لا مثيل له في الدنيا.

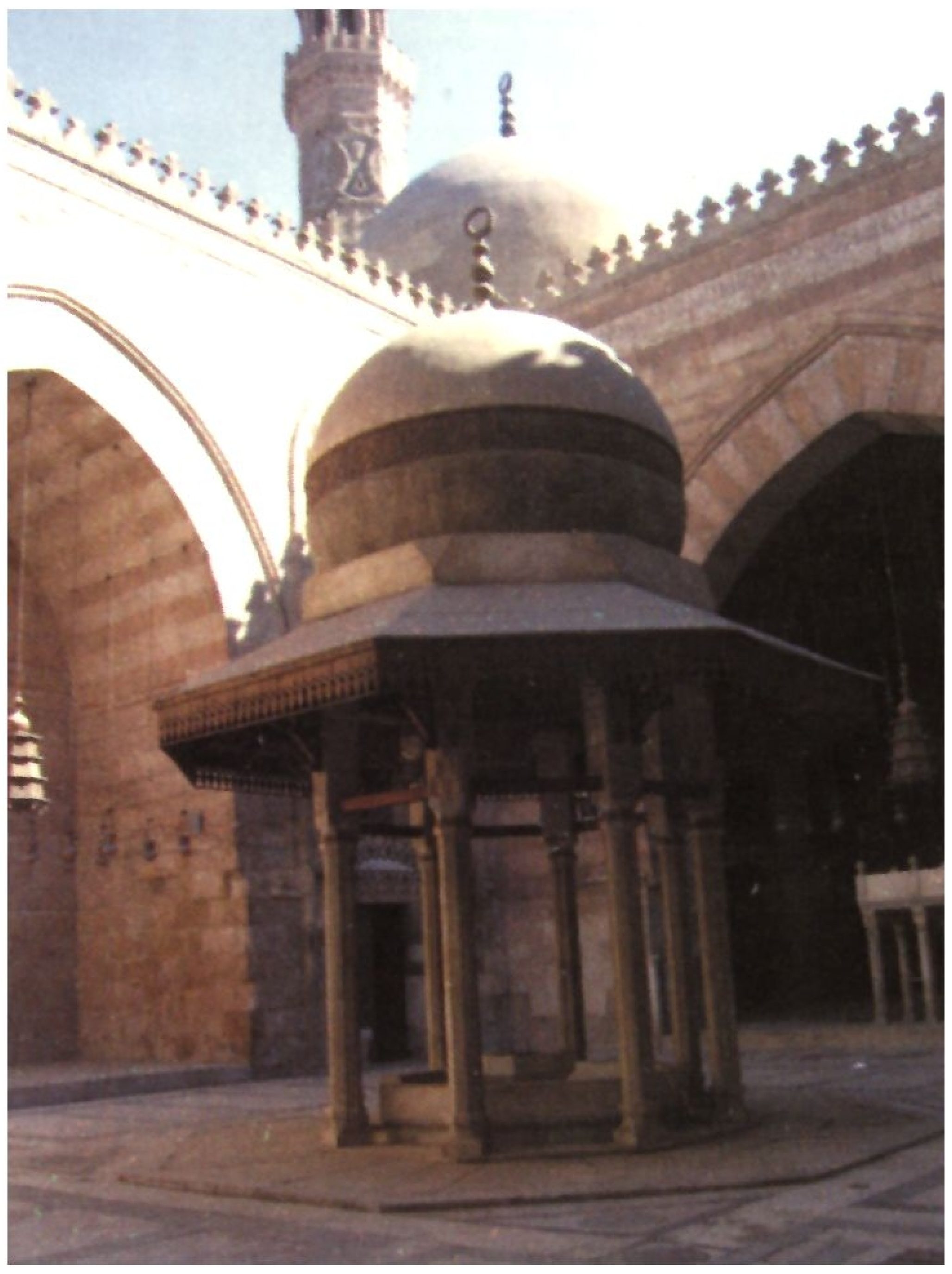


(36) ميدان الرميلة ، ويظهر على اليمين قلعة الجبل وباب العزب وجامع المحمودية

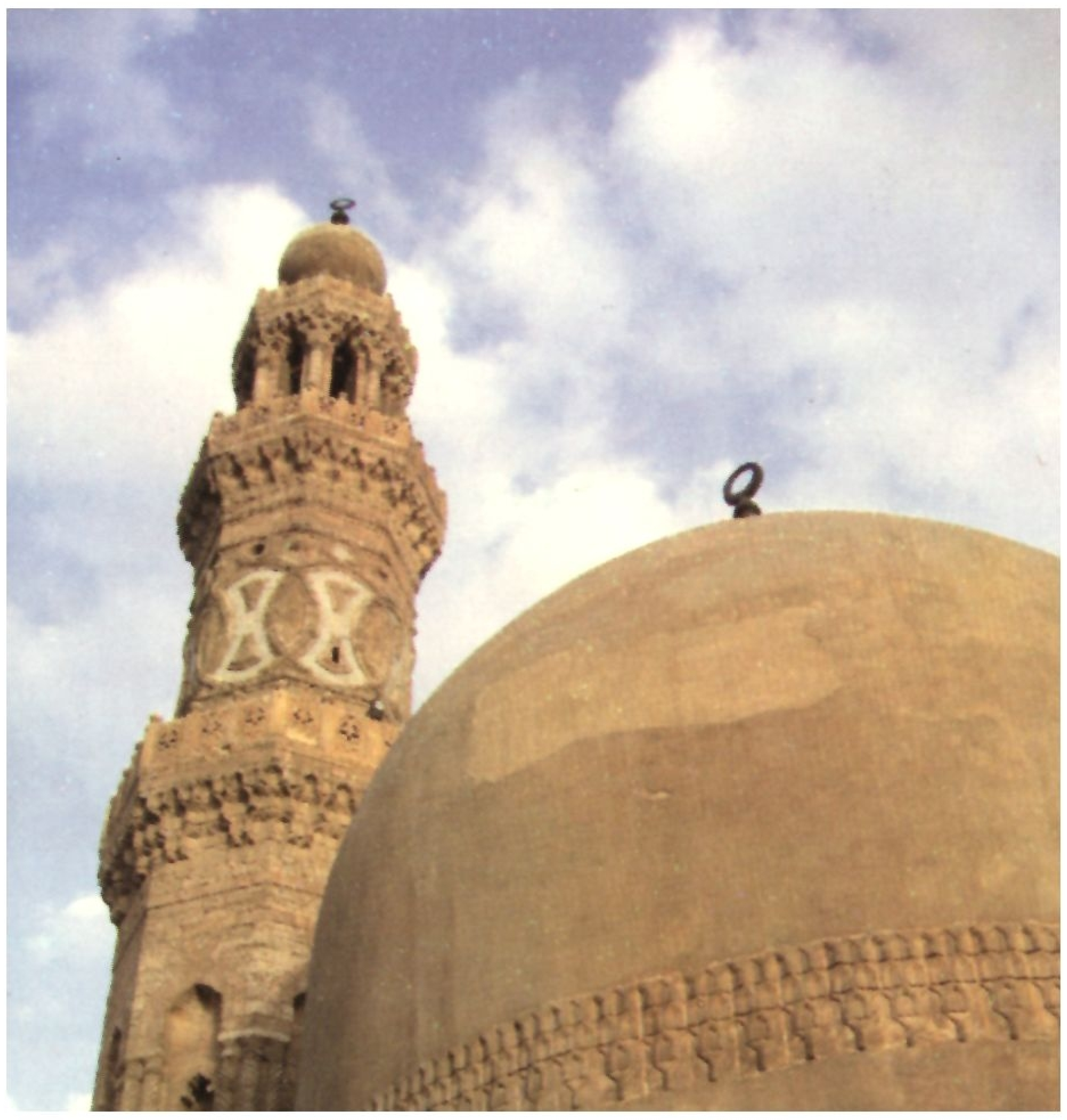
٧- في شارع السكرية [المعز حاليًا]، نجد جامعًا يستحق اهتمام الزوار ، ويُطلق عليه جامع **البرقوقي** نسبة إلى برقوق أول سلطان مملوك شركسي. تم بناؤه في عام ١٣٨٦ميلادية، وقد تم تزيين قاعة المقبرة بالزخارف الجميلة بكثرة. وبجانب هذه المقبرة تم حفظ قفطان من الحرير وحزام من الجلد للسلطان قلاوون. ويقصد الجامع الكثير من المرضى من الرجال و النساء الذين يرتدون هذا القفطان الذي استهلك بمرور الزمن، ويضعون الحزام على الخصر مقابل مكافأة تقدم للحارس، ويقومون بالدوران حول المقبرة ثلاث مرات وهم يرددون بعض الدعوات ، وينصرفون آملين أن يكون قد تم شفاؤهم.



(37) مقبرة البرقوقى



(38) صحن جامع البرقوقى

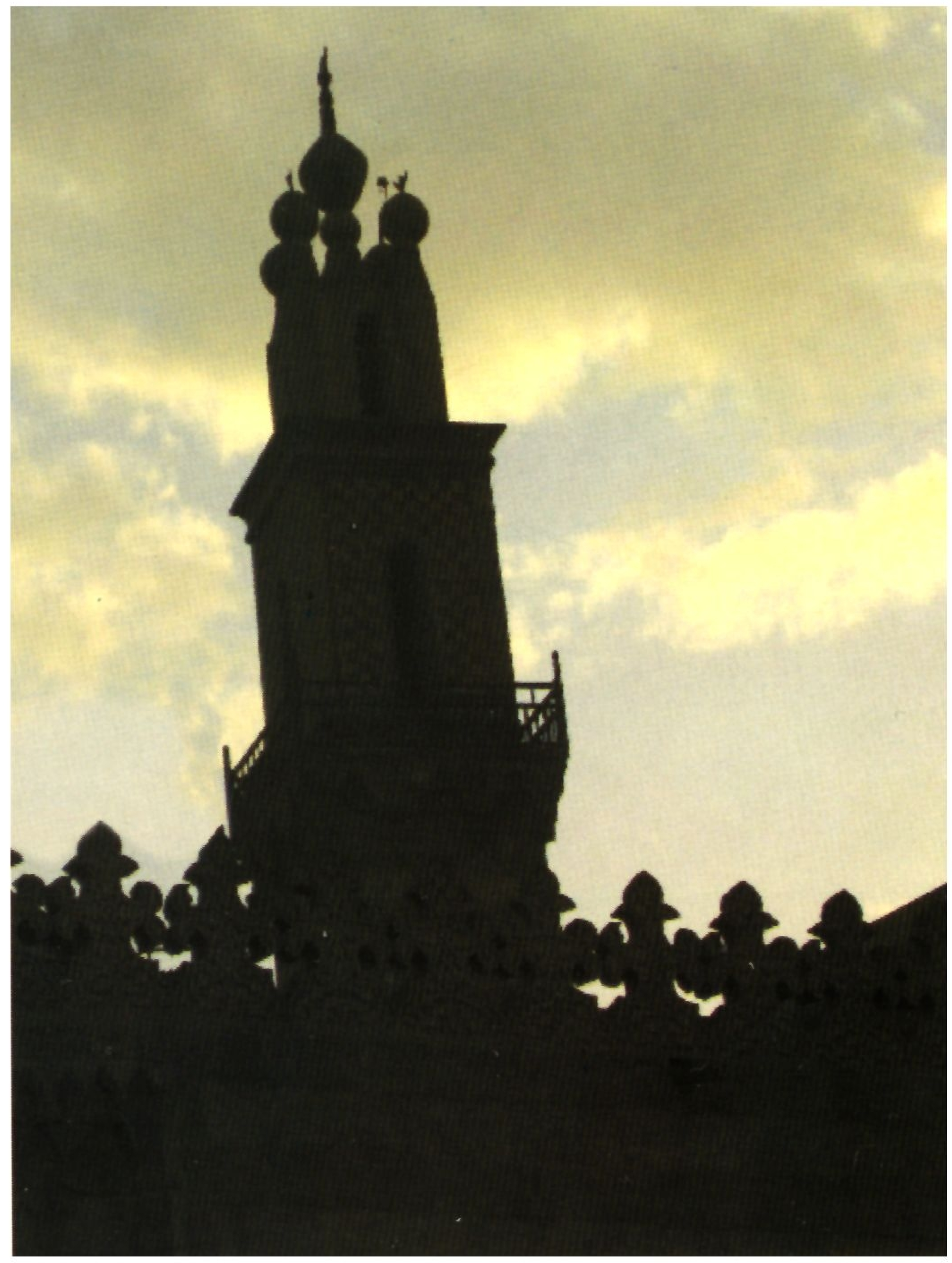


(39) مئذنة البرقوقى والقبة



(40) سقف جامع البرقوقى

٨- وننهى سرد المساجد التي عادة ما يزورها الأجانب بإلقاء الضوء على **مسجد الغوري** الواقع بالقرب من سوق يحمل الاسم نفسه في مكان من أجمل الأماكن التي يمكن رؤيتها. وقد بنى المسجد الغوري [الأشرف] أبو النصر الذي توفى في المعركة التي قادها ضد السلطان سليم عام ١٥١٧ ويعتبر المسجد مهمًا ؛ لأنه آخر الآثار الدينية التي شيدها سلاطين مصر، وتوجد مقبرة مؤسسه على الجانب الآخر من الشارع.



(41) مئذنة جامع الغورى



(42) قبلة جامع الغورى



(43) لوحة باسم السلطان قنصوة الغورى



(44) واجهة السلطان الغورى



(46) جامع السلطان الغورى



(45) ضريح وقبة السلطان الغورى



(47) القاهرة القديمة والقلعة



(48) جامع محمد على بقلعة الجبل

بدأ اليوم الثاني بجولة بين المساجد، وسوف ينتهي بزيارة القلعة. وتُبرز رؤية القلعة من علٍ مزيجًا رائعًا من الأسوار والشوارع والمنازل والمباني العامة والميادين والجوامع، وتبدو القلعة وكأنها مدينة أخرى. وعلى بعد حوالي ٩٥ مترًا من مستوى مياه النيل المنخفضة، ترتفع هضبة على جانب من جوانب جبل المقطم لتطل على القاهرة كلها، وذلك في زمن لا داعي للحديث عنه؛ لأنه يُذكِّر بتاريخ صراع الصليبيين العنيد ضد عدوهم الصامد، وفي هذا المكان بنى صلاح الدين القلعة التي تطورت مع الإضافات المتتالية، وأصبحت القلعة هي هذا المجمَّع المركب الذي نراه تحت بصرنا. ومنذ خمسين عامًا كانت القلعة تقدم للزائر ذكريات هائلة لعصور مرت بها وأحداث كانت مسرحًا لها. فقد كان يوجد هنا قصر صلاح الدين (ويطلق عليه أيضًا ديوان يوسف) الذي يلفت الانتباه بأعمدته الاثنين والثلاثين أحادية القطعة التي كانت ترفع القاعة الرئيسية. وكان يوجد أيضًا جامع قلاوون أحد عجائب الفن العربي، والدواوين وهى الأماكن التي كان يجتمع فيها كبار الموظفين بالحكومة، و تنافس روعة المواد المستخدمة أناقة الرسم ، ولكن حدث انفجار هائل سنة ١٨٢٣ م ؛ مما أدى



(49) جامع الناصر بن قلاوون

إلى تصدع في كل المباني، وبعد ذلك بقليل أصابته ضربة جديدة حينما ظهرت الحاجة لإفساح المكان وإقامة جامع محمد على. بالاضافة إلى مجمَّع القلعة نفسه نزور اليوم في القلعة جامع محمد على والبئر الذي أطلق عليه بئر يوسف، وأيضًا البرج الشهير الذي قفز منه أمين بك من فوق حصانه بشجاعته ناجيًا من الموت الذي قضى على كل المماليك سنة (١٨١١).



(50) صحن جامع الناصر بن قلاوون واعمدته



(51) مدخل جامع محمد على

يتحدث **مسجد محمد على** عن نفسه - إذا صح القول - والذي هو في الوقت نفسه ضريح مؤسسه المشهور ولا نحتاج أن نصف رشاقة مئذنتيه(٥) الأنيقتين وعظمة تخطيطه وكثرة المرمر المستخدم في بنائه.



(52) قبر محمد على



(53) التركيبة الرخامية فى قبر محمد على



(54) صحن مسجد محمد على

أما البئر الذي يُدعى بئر يوسف باسـم الذي أمر بحفره (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فقد بُني من جزءين لا يقعان على المستوى الرأسي نفسه. يبلغ عمق الجزء الأول العلوي خمسين مترًا وثلاثين سنتيمترًا، أما الجزء الثاني الأسفل فيبلغ أربعين مترًا وثلاثين سنتيمترًا، وبذلك يكون عمق البئر تسعين مترًا وستين سنتيمترًا.



(55) ساقية بئر يوسف



(56) بئر يوسف



(57) الأبراج والقلعة

أما برج أمين بك فهو يقع على شمال الزائر القادم من ميدان الرميلة إلى القلعة من باب العزب. وقد تم تغيير البرج وتجديده خلال أعمال الترميم التي تعرض لها ميدان الرميلة [ميدان صلاح الدين حاليًا]، وزاد ارتفاع البرج على قدر ما فقده من الأنقاض المبعثرة عند قاعدته في زمن الحادثة التي جعلت من هذا البرج أثرًا تاريخيًا. وسوف يلاحظ ضيوف سمو الخديوى عند زيارة القلعة أنها تخضع لأشغال تهيئة تهدف إلى إعطاء الوزارات والإدارات العامة الموجودة بها تنظيمًا يتناسب مع الأهمية المتزايدة التي تكتسبها مصر في العالم كل يوم.



(58) رسم أمين بك يقفز بحصانه

القاهرة- اليوم الثالث:

في الصباح، رحلة إلى شجرة العذراء مريم وأطلال هليوبوليس، ونرى فى أثناء السير قصر «العباسية»، وهو قصر فسيح شيَّده عباس باشا، ويستخدم اليوم مركزًا لمدارس الحكومة الحربية. أما المبنى ذو الطراز العربي الجميل الواقع يسار الطريق بالقرب من القصر فهو قبر الملك العادل (١٢١٨ميلادية) الذي تولى حكم القدس والقاهرة، وكاد أن يصبح زوجًا لأخت ريشارد قلب الأسد بموجب اتفاق سياسي تم بين الصليبيين والمسلمين.



(59) مقابر القاهرة من الطراز العربى

قبل الوصول إلى أنقاض هليوبوليس بقليل، وفي حديقة تؤدى إلى قرية المطرية الحديثة يوجد البئر وشجرة العذراء. وقد عبَّر الأب فانسليب (P.Vansleb) الرحالة الذي زار مصر عام ١٦٧٢ عن هذا الموضوع بالكلمات التالية:

" في ١٢ يوليو كنت برفقة بعض التجار الفرنسيين في قرية المطرية الواقعة على جانب القاهرة الشرقي، وعلى بعد ما يقرب من ساعتين متجولًا على ظهر حصان لمشاهدة الأماكن التي طهرتها زيارة سيدنا المسيح والسيدة العذراء أمه، وفي الوقت نفسه لمشاهدة الحديقة التي كان يزرع فيها قديمًا نبات البلسم . عندما ندخل في الفناء نرى على اليمين مصلّى صغيرًا لأتراك بُني على أنقاض كنيسة قبطية صغيرة كان يتم فيها تكريم بعض بقايا السيد المسيح وأمه، ويطلق عليه «المقد» والصحيح هو «المرقد» أو مكان الراحة. يوجد في هذا البئر خزان صغير ... يعتقد الأقباط أن السيدة العذراء كانت تغسل فيه عادة ملابس ابنها السيد المسيح ، وحتى عندما كانت تنشغل بعملها كانت تضعه ليستريح في المزود الذي يوجد في حائط المرقد، وهو مكان كان يتلو فيه فيما مضى رجال الدين الفرنجة القداس بخشوع...



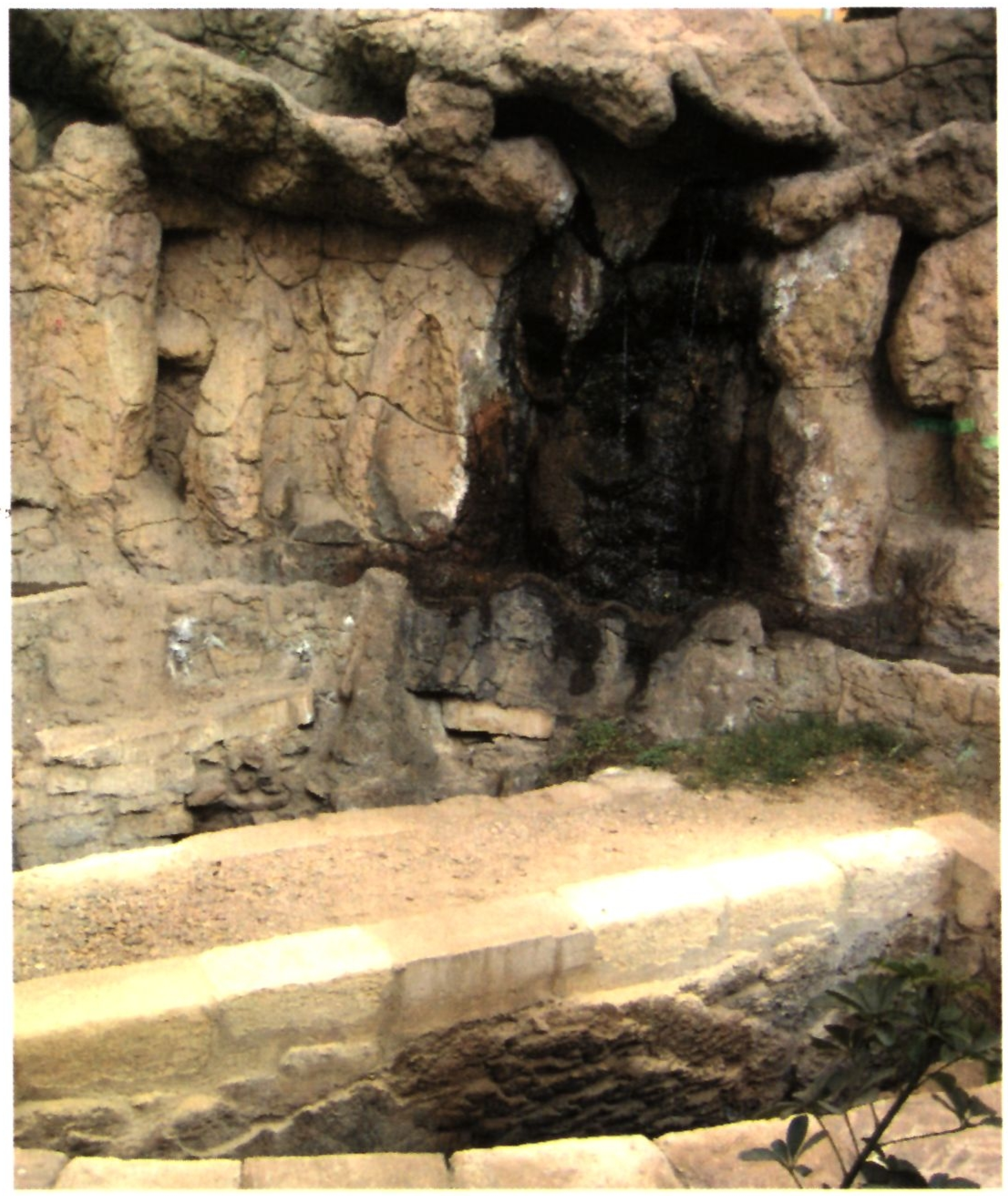
(60) محكى بئر وشجرة مريم



(61) مزود السيد المسيح

بالقرب من هذا المرقد أو المستراح يوجد بئر المعجزة ... تتناقل روايات الأقباط، ويتفق أيضًا معهم بعض المؤرخين المسلمين، أن المسيح اغتسل في هذه البئر، وأشاع بمعجزة عذوبة مياهها وجودتها الخارقة ... وبعد أن نتناول الطعام في الاستراحة، ونشرب من هذه المياه الطيبة بخشوع، ندخل في الحديقة... كنا نشاهد فيما مضى، في هذه الحديقة نفسها، شجرة الجميز التي انشقت بمعجزة حسب التقاليد القبطية لتخفى السيد المسيح والسيدة العذراء عندما حاول أتباع هيرودس اللحاق بهما، ويُقال إنهما اختبآ في هذه الفتحة، ومن ثم نجيا من أيديهم بهذه الوسيلة، وذلك بفضل خيوط عنكبوت أخفتهما؛ فقد كانت تبدو قديمة جدًا رغم أنها تكونت بفضل معجزة إلهية في لمح البصر...

يتنازع آباء كنيسة فرنسيسكان الأرض المقدسة الذين يقيمون بالقاهرة ملكية هذه الشجرة مع المزارعين بحجة أن الشجرة سقطت في عام ، ١٦٥٦، وأنهم جمعوا آخر بقايا الشجرة المحفوظة في المرهف (سكرستيا)، وقد شاهدتها كبقايا ثمينة للغاية. وعلى العكس، يشير المزارعون في الحديقة إلى أرومة رأيتها أيضًا، ويؤكدون أنها بقايا شجرة الجميز القديمة... .



(62) البئر المعجزة و خزان المياه

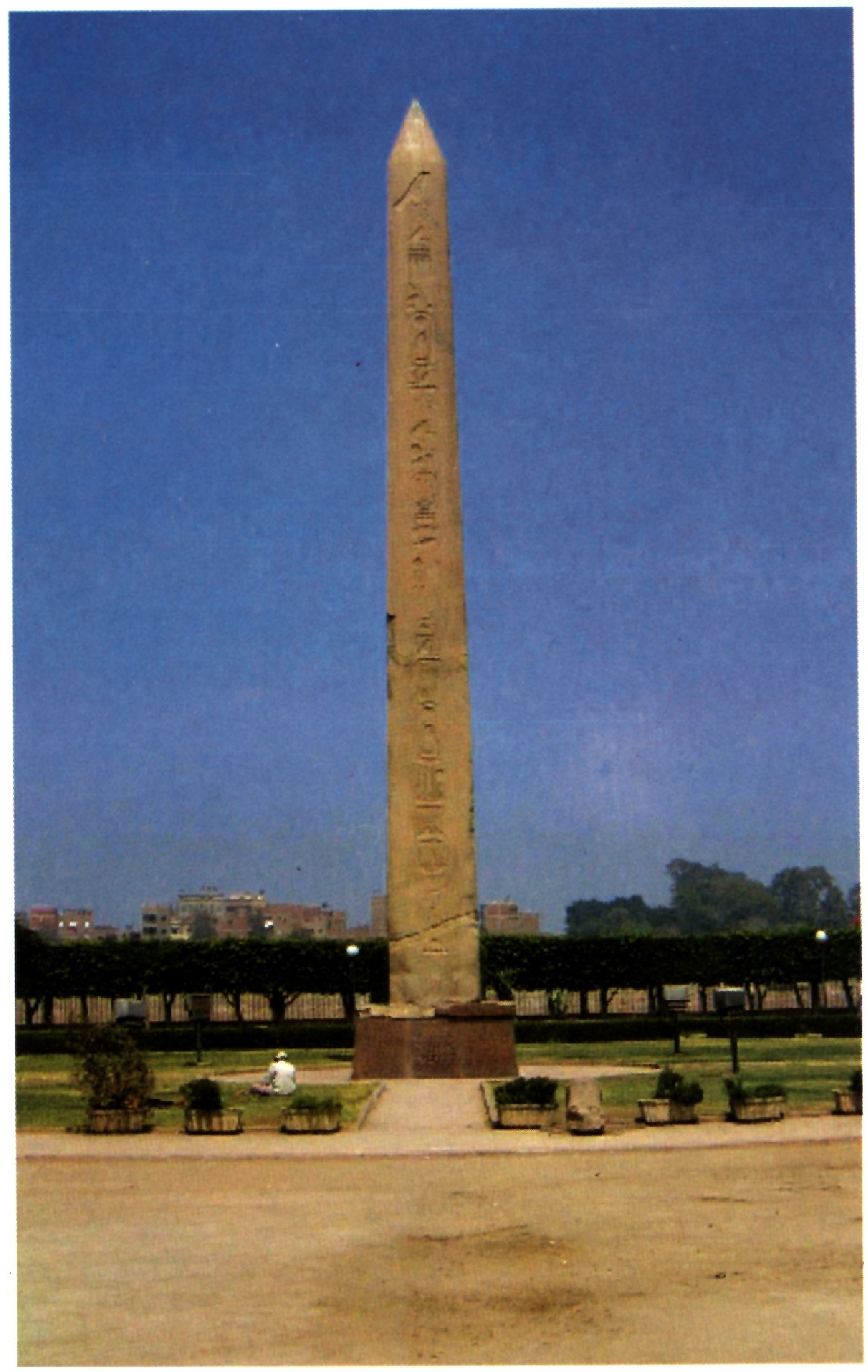




توجد آثار هليوبوليس على بعد كيلومتر، وتعدّ المسلة التي تتوسط المنطقة هي أقدم مسلة مصرية؛ حيث تضم اسم الملك سنوسرت الأول(٦)، ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويبلغ ارتفاعها ٢٠ مترًا و٢٧ سنتيمترًا وكان يعلو قمتها هريم صغير(٧) من النحاس شاهده عبد اللطيف(٨) أيضًا في موقع المسلة مكانها. وتكمل مسلة أخرى معها بانوراما واجهة المعبد الرئيسية التي من أجلها نُصبت هاتان المسلتان؛ حيث وقعت إحداهما على الأرض، وانقسمت عند سقوطها في زمن المؤرخ العربي الذي ورد ذكره، ومع مرور الزمن اختفت تمامًا.



(66) قمة مسلة المطرية

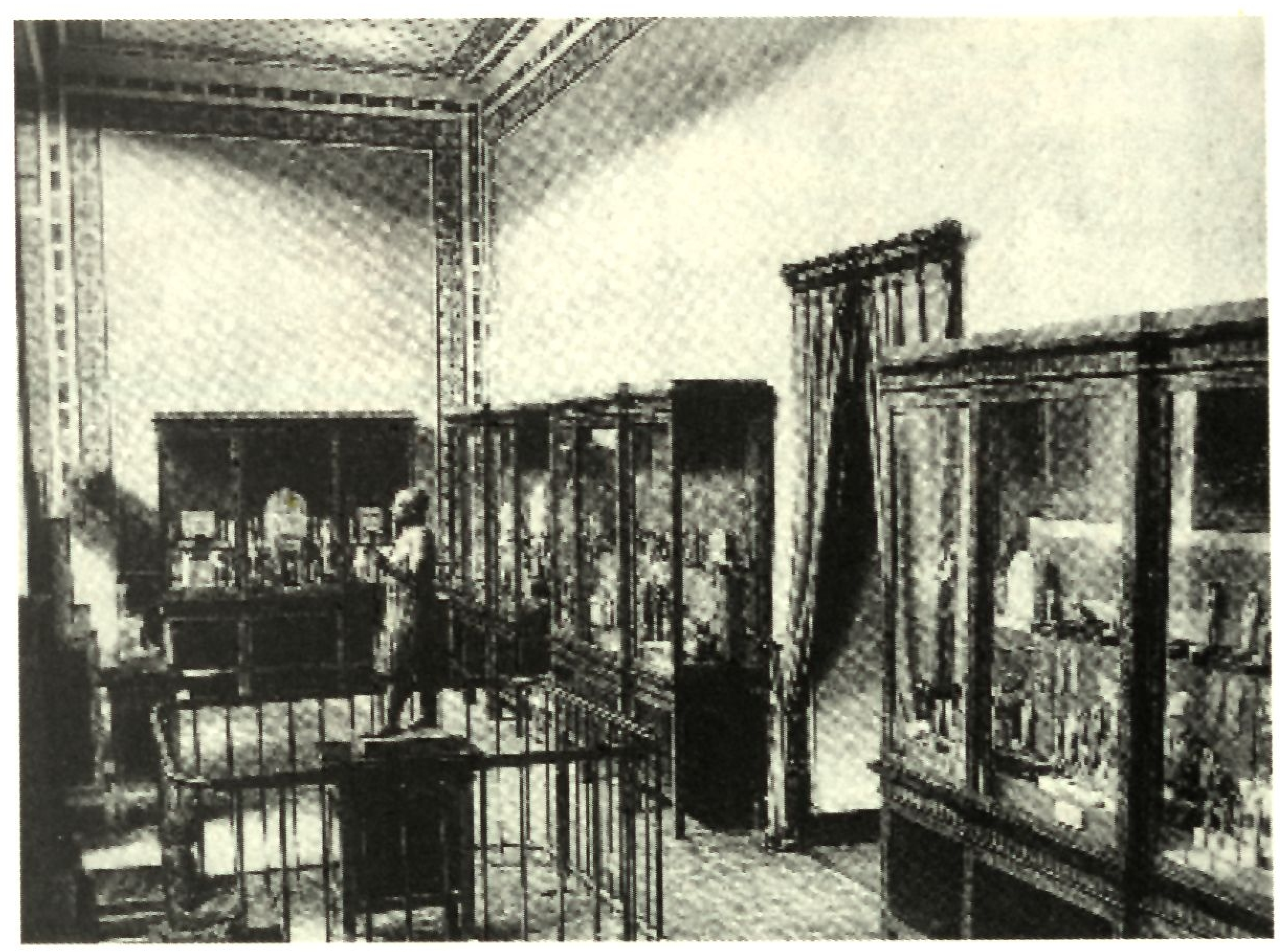


(65) مسلة هليوبولس بالمطرية

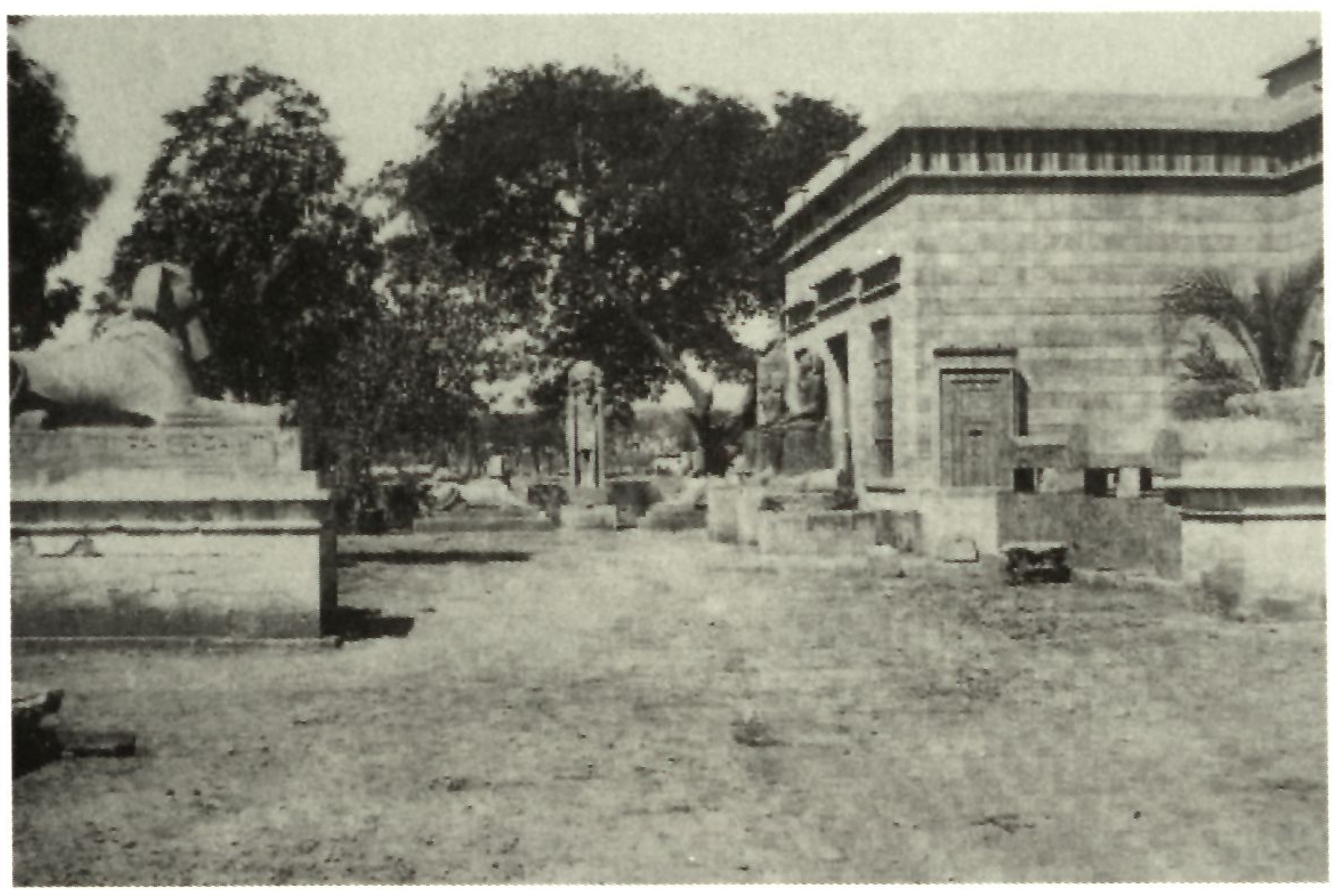
أما عن آثار المدينة فمن الصعب التعرف عليها من خلال التلال التي تُحيط بالمسلة، والتي تنتهي عند جدران ضخمة من الطوب اللبن تشكل حولها سورًا مربع الزوايا. ليس هذا السور الذي يبلغ طوله حوالى ١٢٠٠ متر وعرضه ١٠٠٠متر هو سور المدينة، بل هو السور الذي يحدد حدود فناء المعبد. ولم ينل معبد هليوبوليس شهرة بين الكُتّاب اليونانيين، ولكن المصريين أنفسهم وجدوا أنه لم يكن بحاجة إلى أن يُحاط من جوانبه الأربعة بسور مقدس مترامي الأطراف ؛ لأن هذا يتنافى مع كل تقاليد الحضارة المصرية. من جهة أخرى، فإن الأبعاد التي ذكرناها ليس فيها ما يثير الدهشة؛ حيث إننا نجد أسوارًا تكاد تكون بنفس طول معابد أقل أهمية بكثير في صان الحجر وفي دندرة على سبيل المثال.

يخصص بعد ظهر اليوم الثالث لزيارة **متحف بولاق** وقد اكتسب المتحف شهرة واسعة، ولن نتحدث عنه. وقد تم افتتاحه للجمهور في ١٨٦٣ .

منذ تولى الخديوى إسماعيل باشا العرش لم تتوقف أعمال التوسع والتطوير في المتحف، وكان من الممكن أن يصبح أول متحف مصري في العالم لو كانت ساعدته قليلًا ظروف الحفائر التي نتج عنها برديات وآثار أخرى. ومع ذلك فهو بحالته يحتل مكانة لائقة بين أوائل المتاحف؛ إذ نرى فيه ما يلي: مجموعة آثار الدولة القديمة الرائعة التي أعادت إلى الوراء حدود العلم، وساهمت في رفع راية التاريخ إلى مكانة بقيت حتى اليوم صعبة المنال، ونرى كذلك آثار الهكسوس التي اكتشفت في الحجر[٩]، وهي مجموعة ثانية أعطت أخيرًا العلم الوسيلة لكشف الحجاب المنصوب منذ زمن بعيد جدًا وبإصرار شديد بينها وبين واحدة من أكثر عصور مصر أهمية. ونرى في هذا المتحف مجوهرات الملكة« إعح حتب»، وهي عبارة عن نماذج رائعة للفن من بداية الأسرة ١٨، ونرى في المتحف لوحـات جبل برقل (Gébel–Barkel) [في السودان] التي تنقلنا فجأة إلى مملكة يتحدثون فيها اللغة المصرية القديمة،


(67) أحد صالات المتحف ببولاق

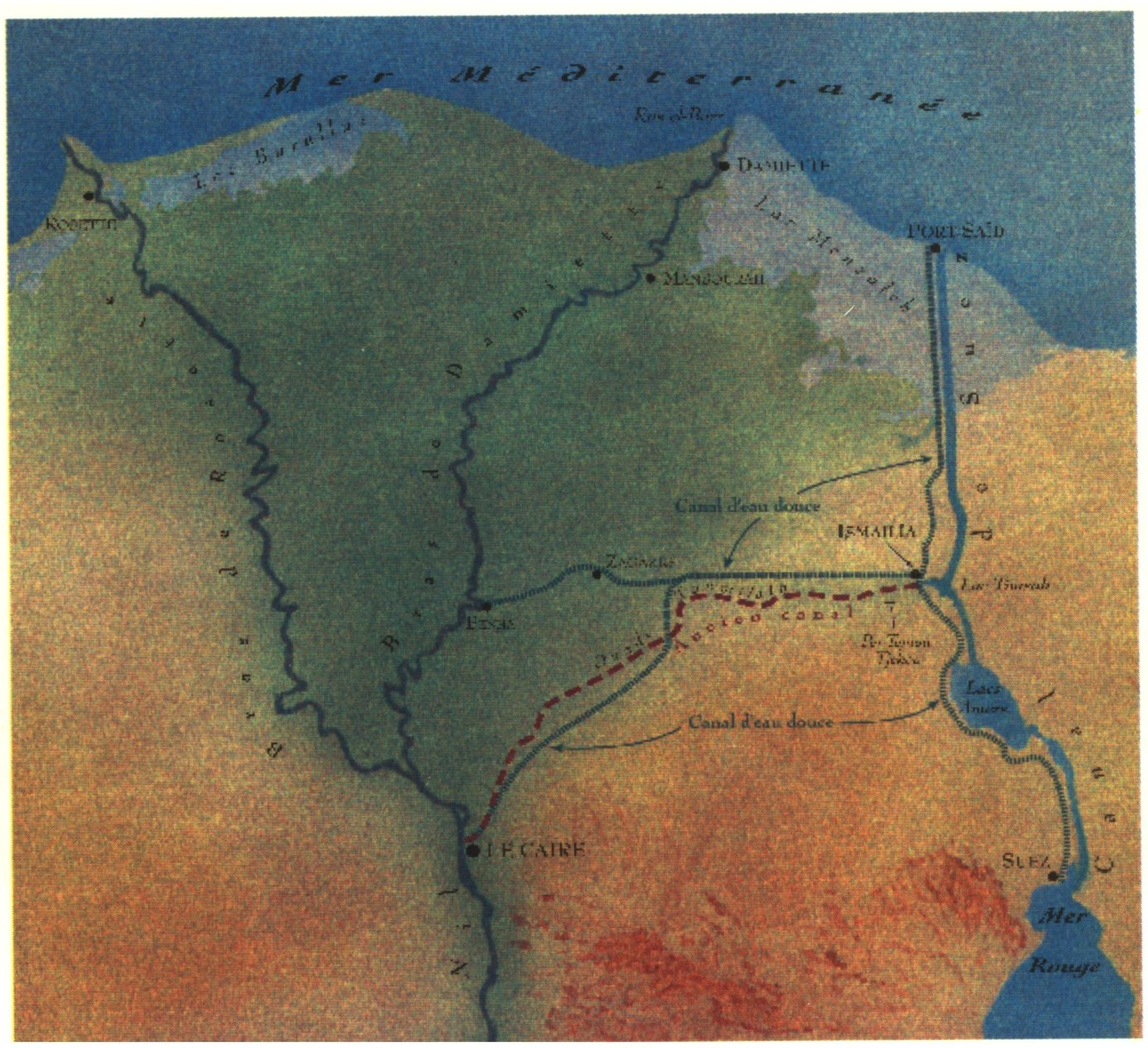

(68) أول متحف مصرى ببولاق


(69) فناء المتحف المصرى ببولاق

ويستخدم الناس فيها الكتابة الهيروغليفية، ويعبدون الآلهة المصرية، مع أنها ليست مملكة مصرية ولكنها سودانية، ونرى بالمتحف لوحة الإسكندر الثاني الغنية بالمعلومات عن جغرافية مصر وتاريخها، وليس في عهد أول ملوك اليونان (البطالمة) الذين تولوا الملك بعد الإسكندر المقدوني فحسب ولكن أيضًا في عهد ملوك الفرس، ونرى لوحة صان الحجر ، وهو مرسوم منقوش بثلاثة خطوط، وهو أكثر اكتمالًا من حجر رشيد، ولو كان قد اكتشف قبل ثلاثين سنة لأحدث ثورة في العلم.

– قضاء الصباح في زيارة القاهرة القديمة.

في أثناء الطريق نعبر ترعة عبر كوبري جميل مشيد من الطوب، واسمها « ترعة القاهرة، قناة أمير المؤمنين ، قناة الحاكم» أو بكل بساطة «الخليج» أي «القناة» . ظل اسم من قام بحفر هذه القناة موضع الشك، ويُذكر من حين إلى آخر أسماء تراجان (Trajan) وهادريان (Adrien) وعمرو بن العاص دون اتخاذ قرار حاسم لصالح واحد أو آخر من بينهم، ولكن مما لاشك فيه أنه كان مخططًا أن يتم توصيل الخليج بالترعة الكبيرة التي تربط النيل بالبحر الأحمر. في البداية، أي في زمن سيزوستريس [١٠] الذي بدأ فيه هذا المشروع كانت القناة تصل بين البحر الأحمر والنيل في تل بسطة بالقرب من الزقازيق حاليًا (Bubatis بوبستيس)[١١] ، في ذلك الوقت كانت القناة تتجه نحو رأس الوادي على مسافة طولها ٢٠ كيلومترًا تقريبًا. وكانت القناة تعبر بعد ذلك كل الوادي حتى السيرابيوم في سقارة، وكان امتدادها ٦٠ كيلومترًا. وبعد ذلك تأتي البحيرات المرة (٣٦ كم)، وأخيرًا تأتي ترعة السويس بتحول مفاجئ نحو الجنوب على بعد ٢٠ كيلومترًا. في مصر القديمة، كانت الترعة التي تربط البحر الأحمر بمصر تبدأ عند الزقازيق، ومنها تتجه نحو السويس، وكانت المسافة حوالي ١٣٠ كيلومترًا. هكذا كانت هذة القناة في عهد الفراعنة[١٢]، ويظن أن هذا العمل قد تم من قبل أحد الأشخاص الثلاثة الذين تم ذكرهم من قبل (وتتفق أغلب الآراء على اعتبار الإمبراطور الروماني هادريان هو الذي قام بهذا العمل[١٣]؛ حيث حوّل هذا المجرى، وأضاف إلى القناة الأصلية قناة أخرى اتصلت بالقديمة في نقطة لا نعرفها، وكان مصبُّ الماء في القاهرة القديمة. وفي زمن الفراعنة كانت ترعة السويس التي تصل مصر بالبحر الأحمر عن طريق الزقازيق، كانت تربط مصر بالبحر الأحمر في عهد الرومان عن طريق القاهرة القديمة.



(70) قناة تراجان تربط النيل بالبحر الأحمر

والسؤال المهم هو: متى تم فتح هذه القناة للملاحة بعد الرومان؟ لا نعرف ذلك على وجه التحديد، ولكن مما هو مؤكد أن الخليفة عمر بن الخطاب في عام ٦٤٤ م أمر بإعادة حفرها، وفي عهده كان الممر مفتوحًا، ومن المؤكد كذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور قام بإغلاقها بعد ١٢٠ أو ١٢٥ سنة عندما كان في حرب ضد أمير المدينة، ومنذ ذلك الوقت لم يتم فتحها . ولإلقاء المزيد من الضوء عن هذا الموضوع نذكر هنا علاوة على ذلك أن الزقازيق كانت تقع على فرع من فروع النيل الذي جفّ اليوم (الفرع البلوزي)، والذي كان في عهد الفراعنة أكبر وأهم مجرى ماء في النيل. يبدأ هذا الفرع من النيل إلى الجنوب من بنها بقليل ، ويتجه منها إلى الشمال الشرقي عند بلوزيوم (Péluse) ، تل الفرما الحالية ؛[١٤] حيث كان يصب في البحرالمتوسط. وفي الواقع، تم ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط في زمن الفراعنة، و تم حفر نصف مجرى الماء من السويس إلى الزقازيق فقط بسواعد الرجال والنصف الآخر كان النيل نفسه يصل من الزقازيق إلى بسطة، وهو ما كان يكفي لاحتياجات الملاحة في ذلك الوقت. ونرى من هذه التفاصيل أن فكرة وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ليست جديدة؛ إذ إنها ترجع على الأقل إلى عهد سيزوستريس، ولكن كانت وسائل التنفيذ بين القدامى والمحدثين مختلفة للغاية.



(71) قناة السويس (لوحة لريو)

اليوم، تمر القناة[١٥] في الواقع مباشرة من نهر إلى آخر، وتتجه مباشرة إلى هدفها دون أن تضيع دقيقة ولا شبر من الأرض، وتسير على الأرض المصرية دون أن تمسها. في هذا النظام تعتبر القناة وبهذه الطريقة المجرى المائي الذي تم فتحه بشكل رائع لطريق الملاحة المهم الذي يربط أوروبا بالشرق الأقصى، وهو طريق مركزه برزخ السويس وعلى العكس من ذلك كانت القناة قديمًا تخضع لسياسة العصر، وكانت القناة عملًا مصريًا وليس عالميًا، تبدأ من النيل، وكانت مصر بذلك صاحبة السلطة المطلقة؛ لأنها كانت تمتد من الزقازيق في الوقت نفسه إلى البحرين المتوسط والأحمر.



(72) بانوراما لخليج السويس والخط المباشر لقناة البحرين



(73) مجرى العيون والقلعة

وقريبًا من كوبري الخليج[١٦] نمر أمام أول قوس لقنطرة ضخمة بها ٢٨٩ قوسًا، وطولها حوالي ٢١٠٠ متر. كان يسبقها قرب النيل برج ضخم مثمن الشكل، هدم اليوم، وكان يضم جهاز رفع الماء ليصل إلى القلعة.يعتبر هذا البناء الجميل مثله مثل القلعة وأسوار المدينة من أهم اعمال صلاح الدين الذى قُصد بها المنفعة العامة



(74) أقواس قناطر فم الخليج

وبعد القناطر ندخل إلى مصر العتيقة. وكان المصريون يسمونها« بابيلون»(١٧) في عصر الاحتلال الروماني، وسماها العرب «الفسطاط»، واسمها الحالي «مصر العتيقة» (Masr- el-Attika) وتعنى "مصر القديمة".



(75) سور بابيلون

وقد تخلت مدينة الفسطاط التي كانت عاصمة لمصر منذ عهد عمرو (٦٤٠م) تدريجيًا عن مركزها لمدينة أخرى أسسها ابن طولون على مسافة قليلة من هنا (٨٧٦ م)، والتي أصبحت نفسها في عهد المعز (٩٧٢م)، العاصمة الرسمية باسم مصر «القاهرة». وفي عام ١١٦٨ عندما دخل الفرنجة مصر بقيادة أموري الأول (Amaury 1er) ملك القدس تعرّضت مدينة الفسطاط للنيران، وعندما استردت أنفاسها أصبحت أحد الضواحى وأحد الموانىء للعاصمة الجديدة على النيل.



(76) بوابة عمرو بن العاص بمصر القديمة

والهدف الرئيسي من النزهة في مصر القديمة هو زيارة قصر الشمع (قصر النور)، وهو عبارة عن حصن كان لبعض الوقت مقر إقامة أول أمراء المسلمين في مصر، وربما يكون اليوم كل ما بقي من آثار بابليون القديمة. يعتبر قصر الشمع مثل قلعة القاهرة مدينة لها شوارعها ومنازلها وأسواقها، ولكن سكانها أصلًا من الأقباط بالرغم من أن اليونانيين أقاموا فيها ديرًا، وفي بعض شوارعها يمارس التجار المسلمون أعمالهم بسلام. ويوجد بها أربع أو خمس كنائس، من بينها كنيسة « سان جورج» [الصحيح أبو سرجة][١٨].

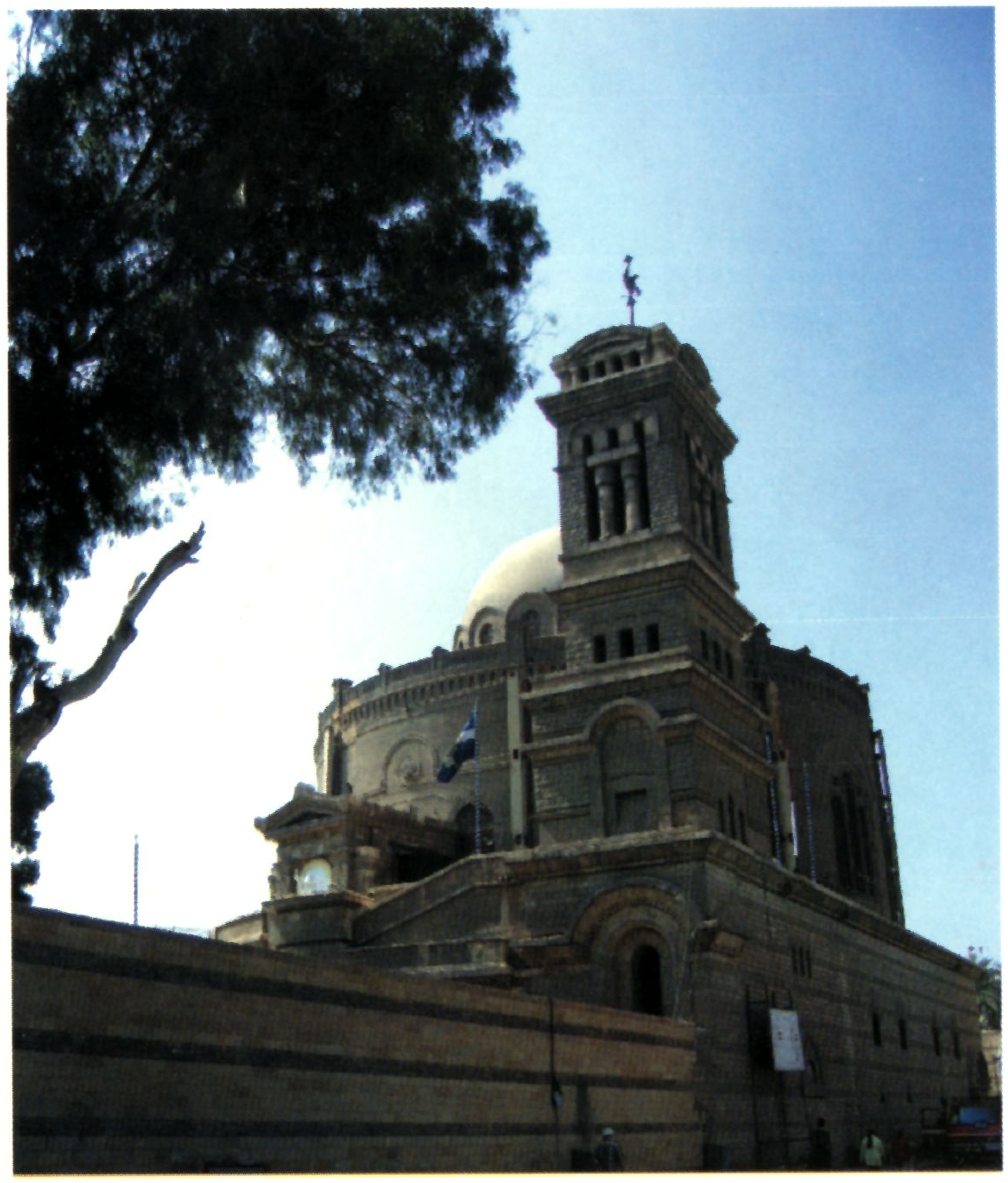


(78) حصن بابيلون وكنائس قصر الشمع

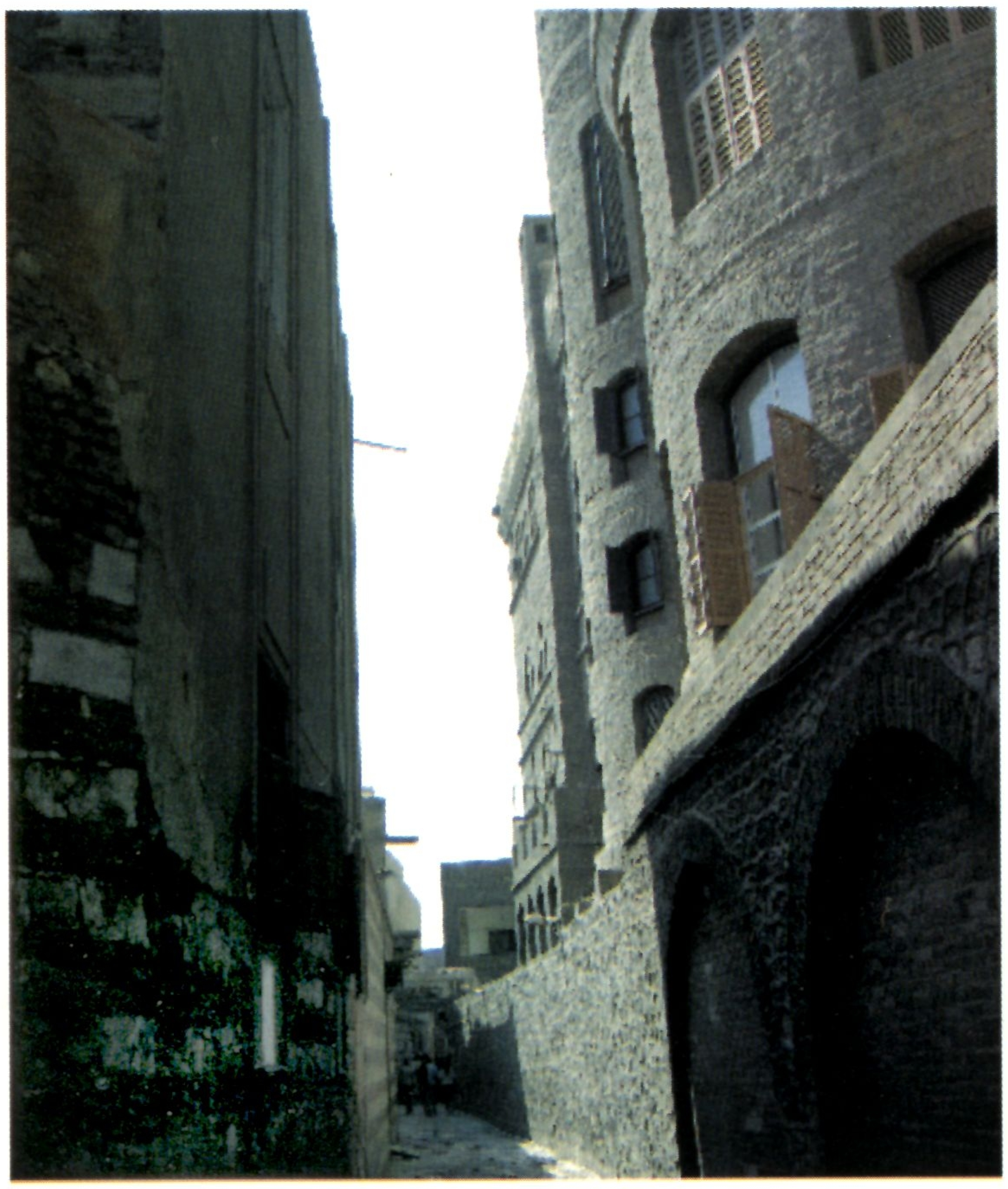


(77) سور مصر القديمة، وتظهر الكنيسة المعلقة فى الخلف

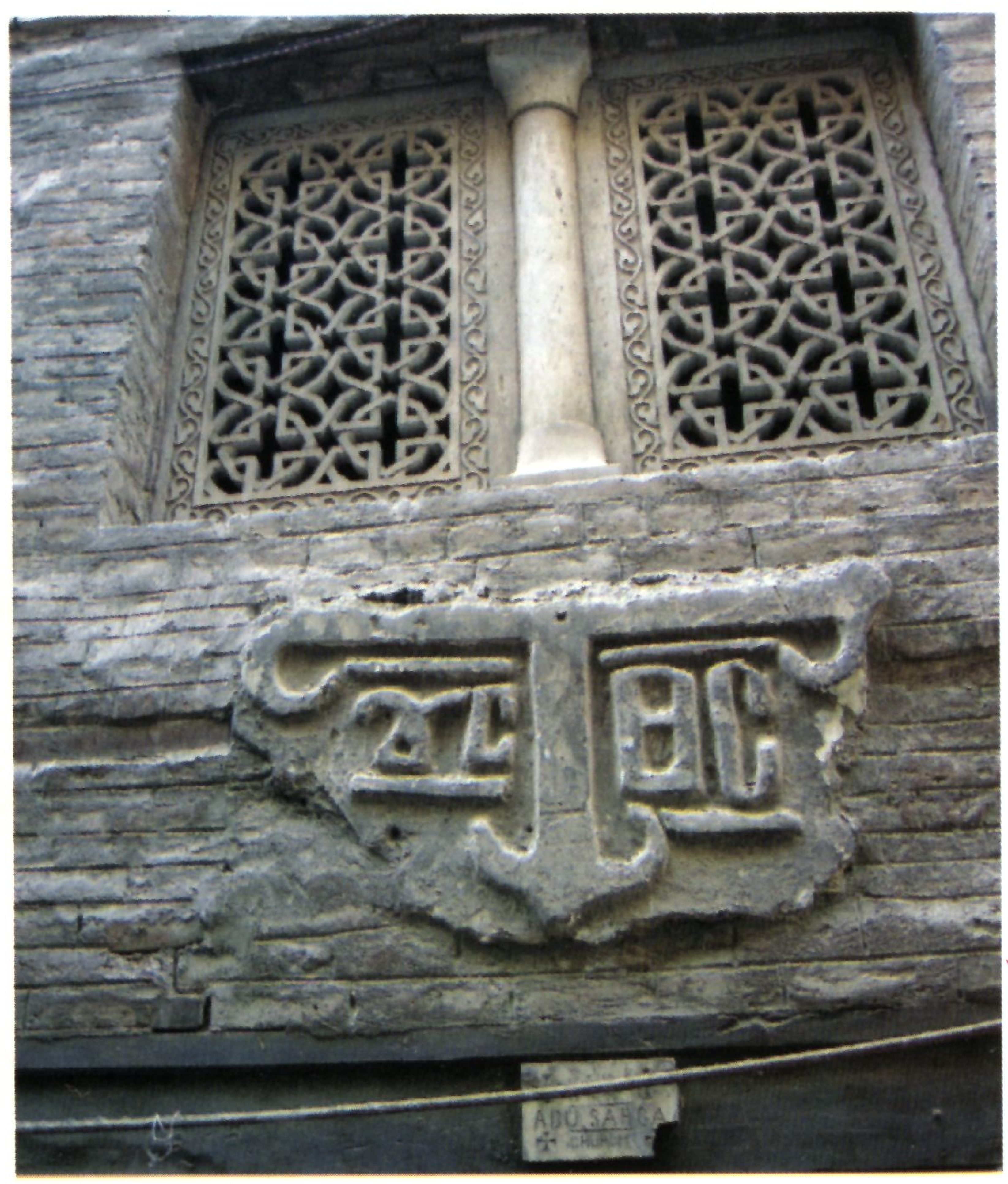
ويجد الزائر في كنيسة« أبو سرجة » كما هو الحال في هليوبوليس أثر العائلة المقدسة وخروجها من مصر. وقد قال عنها الأب فانسليب: " نرى في هذه الكنيسة مغارة صغيرة أقام فيها حسب روايات الأقباط سيدنا المسيح (الرب) والقديسة أمه بعض الوقت. وتقسم بعض الأعمدة القصيرة الكنيسة إلى ثلاثة أجنحة أو أجزاء: في الجناح الأول عندما ندخل نجد المعمودية لتعميد الأقباط، وفي نهاية الجناح الذي في الوسط يوجد تجويف في الحائط فيه حجر هو، كما يعتقد الأقباط، من آثار مخلفات المسيح المقدسة. وكان يتلو الفرنجة فيها القداس أحيانًا. وفي الجناح الثالث، يوجد حجر مقدس أيضًا من آثار المسيح ...".



(79) كنيسة سان جورج



(80) شارع بقصر الشمع



(81) كنيسة أبو سرجة

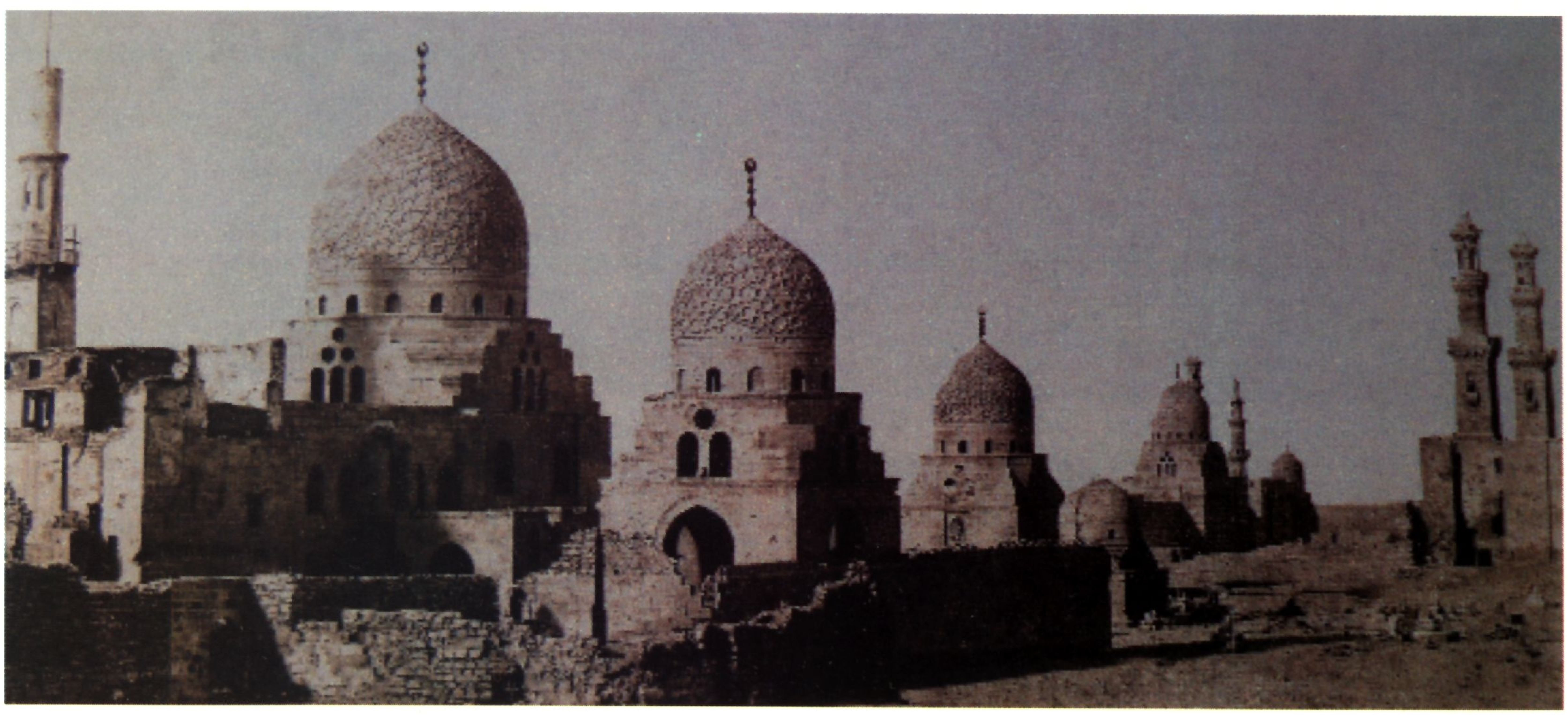


(82) لوحة جدارية باللغتين القبطية والعربية

أما جبانة قايتباي فسوف تُزار بعد ظهر اليوم الرابع. وتقع هذه الجبانة على مسافة قصيرة من باب القاهرة شرقًا وهو «باب النصر». ويخطئ الأوروبيون الذين يطلقون على هذه المقابر اسم مقابر الخلفاء. والحقيقة أن الأشخاص الذين دفنوا فيها هم أمراء عصر المماليك الشراكسة (١٣٨٢-١٥١٧ م). أما الخلفاء فقد شيدت مقابرهم في المكان الذي يوجد به اليوم خان الخليلي، ولكن لا نجد لها أي أثر باستثناء مقبرة الملك الصالح، السلطان الأيوبي العظيم، الذي قاوم سان لويس، ومات في الوقت الذي بدأ فيه الحظ يتخلى إلى الأبد عن أسلحة الصليبيين.



(83) جامع وقبة بجبانة قايتباى



(84) جبانة قايتباى

القاهرة ـ اليوم الخامس:

كانت كل المنطقة الأرضية التي تمتد على ارتفاع القاهرة بين البحر الأحمر من جهة، وأول سلاسل الجبال الليبية من جهة أخرى



(85) الغابة المتحجرة

مغطاة بحجارة السيلكس، يظهر في وسطها هنا وهناك أحيانًا منفردة وأحيانًا متجمعة في أعداد ضخمة كبيرة، غابات بلون العقيق؛ حيث نلاحظ بقايا جذوع شجرة متحجرة يصل طولها إلى أربعة أمتار. فالزوار الذين يهمهم دراسة التكوين الطبيعي لمصر سوف يقضون صباح اليوم الخامس في نزهة في اتجاه إحدى المجموعات الواقعة في جنوب شرق القاهرة، والذي يطلق عليها المرشدون الغابة المتحجرة. وسوف نكتشف فيها النخيل وأكاسيًا الصحراء مختلطة بأنواع أخرى لم يعرف بعد حتى الآن طبيعتها. وننصح ضيوف سمو الخديوي أن يقضوا بعد ظهر آخر يوم لهم في القاهرة في نزهات حرة بدون هدف في داخل المدينة. إن القاهرة هي أقل المدن في العالم التي تم تنسيقها بشكل منتظم، تختلط فيها الشوارع وتتقابل وتتقاطع، وفي هذا التشابك المعقد ظاهريًا نجد المساجد والينابيع والمنازل والأسواق، ولعل آلاف الملاحظات والمناظر التي تلفت النظر اليوم نكون قد أهملناها بالأمس.



(86) الاسواق



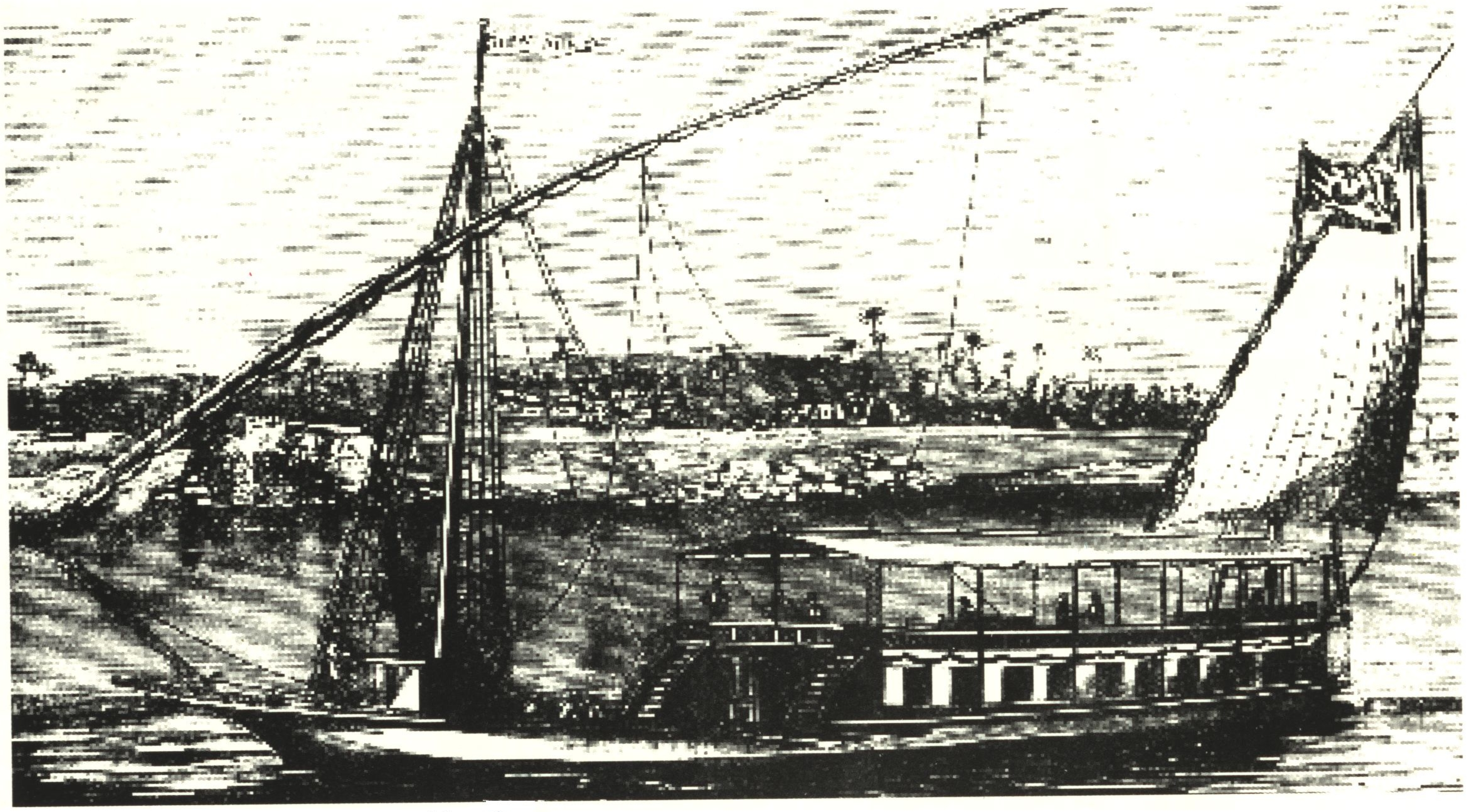
(87) زخارف عربية على خشب ملون

فزيارة الحمامات العربية لها أيضًا أهميتها. وقد لا يشد الحمام نفسه انتباه الزائر، ولكن هذه المؤسسات القريبة من قلوب المسلمين لها دائمًا جانبها الجدير بالتصوير لروعته. فنجد هنا سقفًا وهناك بابًا صُنع من خشب ملون، ونرى بعيدًا زخرفة عربية مقطوعة في جزء من حائط يمكن للزائر المولع بدقة روائع الفن العربي دراستها في مكانها دائمًا كما يحلو له. ونضيف إلى ذلك أن حمام الطمبلي (Tombaly) هو أحد الحمامات الرئيسية بالقاهرة بالقرب من باب الشعرية (Charieh). ومن المعلوم أن التفاصيل التي ذكرت لشغل الأيام الخمسة التي سوف يقضيها الزوار في القاهرة لا تشمل الزيارات والاستقبالات التي يصعب حتى الآن تحديد موعدها.



(88) حمام الطمبلي

ثانيا- الرحلة عبر نهر النيل



(89) مركب بخارية في رحلة عبر نهر النيل

سوف يكون السفر إلى صعيد مصر على مركب بخاري، ولن يتم السفر دفعة واحدة؛ لأن الملاحة في النيل وتنظيم النزهات الرائعة والأثرية تفرض مدة توقُّف كما يلي:

١- عدم الإبحار ليلًا بسبب انعطاف النهر وتغيرات مجراه شبه الفجائي؛ لذلك تتوقف السفن بالليل، وتربط بالحبال على أقرب شاطئ في المكان الذي يخيم فيه الليل.

٢- تتوقف السفن مرة أخرى عند محطات المدن التالية لتزويدها بالفحم:

المحطة الأولى	بنى سويف
المحطة الثانية	المنيا
المحطة الثالثة	أسيوط
المحطة الرابعة	سوهاج
المحطة الخامسة	قنا
المحطة السادسة	إسنا
المحطة السابعة	أسوان

وتعدّ هذه الأماكن في الوقت نفسه مراكز أقاليم عندما ينزل فيها المسافرون في أثناء التوقف يجدون الفرصة لزيارة أهم مدن الصعيد.

٣- وأخيرًا تتوقف البواخر خاصة، وذلك لإشباع فضول الزوار لدراسة أماكن معينة، وهي:

بين القاهرة وبني سويف	**الأهرامات، ميت رهينة، سقارة ....**
بين المنيا وأسيوط	**بني حسن والروضة ......**
بين سوهاج وقنا	**أبيدوس ودندرة .....**
بين قنا وإسنا	**طيبة.....**
بين إسنا وأسوان	**إسنا وإدفو وجبل السلسلة وكوم أمبو**
بعد أسوان	**الشلال وفيلة**



(90) زوار يتسلقون الهرم

وعلاوة على هذه المعلومات نوضح ما يلي:

١- جدول المسافات بين الأقاليم التي سوف يتوقف عندها الزوار.
٢- جدول المسافات بين هذه الأقاليم وبولاق مكان الإبحار.

من بولاق إلى الجيزة	٤	كم	من بولاق إلى الجيزة	٤	كم
من بولاق إلى البدرشين	٢٣	كم	من الجيزة إلى البدرشين	١٩	كم
من بولاق إلى بنى سويف	١١٥	كم	من البدرشين إلى بنى سويف	٩٢	كم
من بولاق إلى المنيا	٢٤٧	كم	من بنى سويف إلى المنيا	١٣٢	كم
من بولاق إلى بنى حسن	٢٧٠	كم	من المنيا إلى بنى حسن	٢٣	كم
من بولاق إلى الروضة	٢٨٧	كم	من بنى حسن إلى الروضة	١٧	كم
من بولاق إلى أسيوط	٣٩٤	كم	من الروضة إلى أسيوط	١٠٧	كم
من بولاق إلى سوهاج	٥٠١	كم	من أسيوط إلى سوهاج	١١٠	كم
من بولاق إلى البلينا	٤٥٥	كم	من سوهاج إلى البلينا (أبيدوس)	٥١	كم
من بولاق إلى قنا	٦٤٤	كم	من البلينا إلى قنا (دندرة)	٨٩	كم
من بولاق إلى الأقصر	٧٠٥	كم	من قنا إلى الأقصر	٧١	كم
من بولاق إلى إسنا	٧٦١	كم	من الأقصر إلى إسنا	٥٦	كم
من بولاق إلى إدفو	٨١١	كم	من إسنا إلى إدفو	٥٠	كم
من بولاق إلى جبل السلسلة	٨٥٣	كم	من إدفو إلى جبل السلسلة	٤٢	كم
من بولاق إلى كوم أمبو	٨٧٧	كم	من جبل السلسلة إلى كوم أمبو	٢٤	كم
من بولاق إلى أسوان	٩٢٠	كم	من كوم أمبو إلى أسوان	٤٣	كم
من بولاق إلى فيلة	٩٢٨	كم	من أسوان إلى فيلة	٨	كم

وسوف نكرر الآن بالنسبة لزيارة الصعيد ما قمنا بعمله عند زيارة القاهرة؛ أي تحديد كيفية قضاء وقت الرحلة ومدتها ٢٤ يومًا. ولن تكون المساجد موضوع دراستنا هذه المرة، ولن يكون الفن العربي الذي سوف يعرض علينا معجزاته؛ ففي وقت تشييد مسجد عمرو، وعندما شيد ابن طولون في القاهرة أقدم الآثار وأعرقها التي تزين هذه المدينة كانت هناك حضارة قد انقضت منذ ثلاثة أو أربعة قرون بعد أن عاشت أربعة آلاف سنة على الأقل. وسوف نجد أنفسنا أمام بقايا هذه الحضارة القديمة جدًا والراسخة للغاية، والتي لا مثيل لها في العالم.

وفي البداية نقدم موجزًا لبرنامج قضاء الوقت:

اليوم الأول (٢٢ أكتوبر ١٨٦٩)	من بولاق إلى الجيزة . توقف لزيارة الأهرامات ثم العودة إلى الجيزة ومن الجيزة إلى البدرشين مغادرة القاهرة الساعة ٧ صباحًا
اليوم الثاني	التوقف في البدرشين لزيارة سقارة. وفي الطريق أطلال ممفيس. الرجوع إلى البدرشين ثم من البدرشين إلى زاوية المسلوب
اليوم الثالث	من زاوية المسلوب إلى بني سويف. ومن بني سويف إلى المنيا (١٩)
اليوم الرابع	من المنيا إلى بني سويف التوقف في بني حسن لزيارة المقابر الصخرية. ومن بني حسن إلى الروضة
اليوم الخامس	من الروضة إلى أسيوط
اليوم السادس	من أسيوط إلى سواج. ومن سوهاج إلى جرجا
اليوم السابع	من جرجا إلى البلينا. التوقف في البلينا لزيارة آثار أبيدوس. الرجوع إلى البلينا.
اليوم الثامن	من البلينا إلى قنا
اليوم التاسع	زيارة معبد دندرة. الرجوع إلى قنا. ومن قنا إلى الأقصر
اليوم العاشر (١/١١)	طيبة. زيارة الأقصر والكرنك والمعبدين على البر الغربي
اليوم الحادي عشر	طيبة. أول يوم على غرب النيل وتشمل زيارة معبد القرنة والرمسيوم والتماثيل الضخمة ومعبد دير المدينة ومدينة هابو
اليوم الثاني عشر	طيبة. ثاني يوم على الضفة الغربية تشمل دراع أبو النجا والعساسيف شيخ عبد القرنة وقرنة مرعي
اليوم ١٣	طيبة. ثالث يوم على الضفة الغربية تشمل مقابر باب الملوك
اليوم ١٤	من الأقصر إلى إسنا ، زيارة معبد إسنا ، من إسنا إلى إدفو
اليوم ١٥	زيارة معبد إدفو. من إدفو إلى جبل السلسلة
اليوم ١٦	زيارة كهوف ومحاجر جبل السلسلة. من جبل السلسلة إلى كوم أمبو، زيارة معبد كوم أمبو
اليوم ١٧	من كوم أمبو إلى أسوان. زيارة جزيرة فيلة
اليوم ١٨	من أسوان إلى فيلة . زيارة الجزيرة والشلال
اليوم ١٩	رحلة العودة من أسوان إلى طيبة
اليوم ٢٠	من طيبة إلى سوهاج
اليوم ٢١	من سوهاج إلى أسيوط
اليوم ٢٢	من أسيوط إلى المنيا
اليوم ٢٣	من المنيا إلى البدرشين
اليوم ٢٤- ١٥ نوفمبر	من البدرشين إلى القاهرة

ونقدم الآن تفاصيل برنامج الزيارة في المحطات المذكورة بالجدول السابق

مصر العليا:

اليوم الأول - مغادرة بولاق في الصباح والإبحار حتى الجيزة. التوقف فترة لزيارة الأهرامات. طريق جميل طوله حوالي أربعة كيلومترات، يؤدي إلى هذه الآثار. الأهرامات الثلاثة الكبرى هي مقابر خوفو وخفرع ومنكاورع. أما الأهرامات الصغيرة فهي مقابر عائلة هؤلاء الملوك. كان ارتفاع الهرم الأكبر في الأصل ١٤٦ مترًا، أما اليوم فارتفاعه لا يزيد على ١٣٨ وقياس حجمه ٢.٥٦٢.٥٧٦ مترًا مكعبًا. على غير ما هو معروف ، وكل العبارات التي أخذت عن هيرودوت بالنسبة للكراهية التي انصبت على هؤلاء الملوك نتيجة السخرة[٢٠] التي فرضوها على المصريين الذين قاموا ببناء الأهرامات. وتبدو الآثار المعاصرة في الواقع شاهدًا أكثر قبولًا للتصديق من هيرودوت نفسه من أن خوفو وخفرع مثلهما مثل الملوك الآخرين، كانا في حياتهما وبعد مماتهما موضع تكريم بعبادة خاصة، أما منكاورع (Mykérinos) فقد كان ملكًا تقيًّا للغاية، وكان يُذكر في الكتب الدينية ككاتب لأشهر كتب الديانات المصرية.

أما عن الهدف من بناء الأهرامات فسوف نسيء تفسير كل ما نعرفه عن مصر وكل ما تعلمناه من علم الآثار عن التقاليد العظيمة لهذا البلد لو رأينا في هذه الأهرامات شيئًا آخر غير أنها مقابر. فمهما تكن الأهرامات فهي عبارة عن مقابر ضخمة و في كل جانب حتى في ممراتها المتقنة، ومغلقة وهي بدون نوافذ أو أبواب أو فتحة خارجية[٢١]. تعتبر المقابر بمثابة غطاء ضخم لا يمكن اختراقه أبدًا للوصول إلى جسد الملك، وقد يكون أحد هذه الأهرامات قد أظهر ممرًّا بالداخل سهل الوصول إليه، ومنه مثلًا قد تم عمل رصد فلكي كما لو كان من قاع بئر، وهكذا قد يكون الهرم عكس مقصده الخاص. وسوف يقولون دون جدوى إن اتجاه الوجهات الأربعة تدل على غرض فلكي[٢٢] ، وإن الوجهات الأربعة وجهت؛ لأنها كرست لأسباب أسطورية إلى الجهات الأربعة الأصلية، وإن بالنسبة لأثر معماري متقن كالهرم واجهة متجهة مثلًا نحو الشمال لا يمكن أن تتجه نحو نقطة أخرى غير الشمال. فليست الأهرامات سوى مقابر وكتلتها الضخمة لا يمكن أن تكون دليلًا ضد مقصدها الخاص؛ إذ إننا نجد من الأهرامات ما لا يزيد ارتفاعها عن ٦ أمتار.



(91) الأهرامات الثلاثة فيالجيزة : خوفو وخفرع و منكاورع



(92) مياه الفيضان تصل إلى قرب الأهرامات الثلاثة

ونلاحظ - علاوة على ذلك - أنه لا يوجد في مصر هرم إلا وكان في وسط جبانة، وأن الغرض من إقامة هذه الآثار مؤكد بشكل واضح وما نراه الآن من الأهرامات ليس إلا النواة؛ فقد كانت الأهرامات في الأصل مكسوة بكسوة مصقولة لكنها زالت. وكانت تنتهي بقمة هرمية[٢٣]. ولما كانت الأهرامات مقابر مغلقة بشكل محكم فقد كان لكل واحد منها (على الأقل الأهرامات التي استخدمت لدفن الملك) معبد خارجي[٢٤] بني أمام الواجهة الشرقية على بعد بضعة أمتار. وكان الملك المقدس كنوع من تجسيد الآلهة يتلقى فيه العبادة. وكانت أهرامات الجيزة الكبرى الثلاثة لها مثل غيرها معبد خارجي. والدليل على أن الأهرامات كانت آثارًا مغلقة بإحكام هو أنه عندما أراد عمرو الدخول إلى الهرم الأكبر[٢٥] لم يستطع ذلك إلا عندما فتح بعنف ثقبًا في الواجهة الشمالية بالقرب من خط مركزها مما جعله يقع مصادفة على الممر الصاعد[٢٦]. ولما كانت الأهرامات مغطاة كاملا في ذلك الوقت، ولم يكن هناك أنقاض مكدسة عند القاعدة؛ لذلك لم يكن المدخل نفسه ظاهرًا للزائر من الخارج.



(93) هرم منكاورع



(94) رحلة الضيوف لزيارة الأهرام وأبو الهول (لوحة لريو)

يوجد أبو الهول إلى الجنوب الشرقي من الهرم الأكبر. وهو صخرة طبيعية تم نحتها على المركب من جسم أسد ورأس إنسان ، وقد تم نحت الرأس فقط. أما جسم أبى الهول فهو الصخرة التى تم تكملتها بواسطة الحجر الجيرى فى الأماكن الناقصة، ويبلغ ارتفاع التمثال ١٩.٨٠ مترًا. والأذن ١.٩٧ متر والأنف ١.٧٩ متر ، والفم ٢.٣٢ متر وأكبر عرض فى الوجه من الأمام وعند الوجنتين ٤.١٥ أمتار. ولا يزال تمثال أبى الهول قائمًا على حالته. في البداية كان الاعتقاد أن أبا الهول هو أثر من آثار عصر تحتمس الرابع (الأسرة ١٨)، إلا أننا اليوم نعرف عن طريق حجر بمتحف بولاق أن أبا الهول كان موجودًا من قبل ذلك عندما أمر الملك خوفو ترميم (خوفو قبل خفرع) هذه الصخرة التي كان هدفها إقامة نصب تذكاري[٢٧]. وعلاوة على ذلك نذكر أن أبا الهول هو إحدى صور إله الشمس وهو الإله حور إم آخت (حرماخيس)[٢٨].

وبالقرب من أبى الهول، يوجد مبنى غريب، ويعتبر لغزًا أكثر من أبي الهول نفسه. ومن المؤكد أن هذا المبنى يرجع إلى عصر الأهرامات، ولكن هل هو معبد ؟ هل هو مقبرة ؟ يجب أن نعترف أن المظهر الخارجي يدل على أنه مقبرة. ويبدو هذا الصرح من بعيد للزوار على أنه مصطبة تكاد تكون أكبر بقليل من التي نجدها على سبيل المثال في أبو صِير أو في سقارة.



(96) أبو الهول والمعبد



(95) هرم خفرع

ونجد بالداخل حجرة بها ٦ مِشكاوات مركبة يبدو أن بناءها تم مثل الهرم الثالث ومصطبة الفرعون لاستقبال المومياء، وأيضًا لا يختلف التصميم بشكل ملموس عن مخطط بعض المقابر الأخرى الموجودة حولها؛ لذا يمكن ترجيح الرأي الذي يجعل المبنى الذي يهمنا مقبرة دون خرق قواعد النقد. هل يمكن بالقدر نفسه الدفاع عن الرأي الآخر الذي يجعل منه معبدًا ؟ بكل تأكيد مادام لم يترك لنا العصر أي معبد آخر يمكن مقارنته به يمكننا القول إن بناء المعابد المصرية في ذلك العصر كان يتم وفق مخطط غير مألوف مقارنة بما نراه أمام أعيننا. وعلى الجانب الآخر فمن الطبيعي التفكير في أن أبا الهول بوصفه إلهًا، فإن المبنى المجاور هو معبد لهذا الإله.

ولكن هل تكفي هذه الحجج ؟ في الواقع هل المبنى تابع لأبي الهول أم أن أبا الهول ملحق بالمعبد؟ ألا يقدم لنا كل ذلك مقبرة قديمة جدًا مزينة من أجل مزيد من العظمة بتمثال لإله ضخم ؟ ويبقى السؤال قائمًا، وعندما يصل ضيوف الخديوي إلى هذا المكان فسوف يجدون العمال منشغلين في إزالة الرمال التي تحجب المبنى من الجانب الغربي قد تؤدي إلى معلومات جديدة قادرة عن الإجابة على السؤال المعلّق. [٢٩]

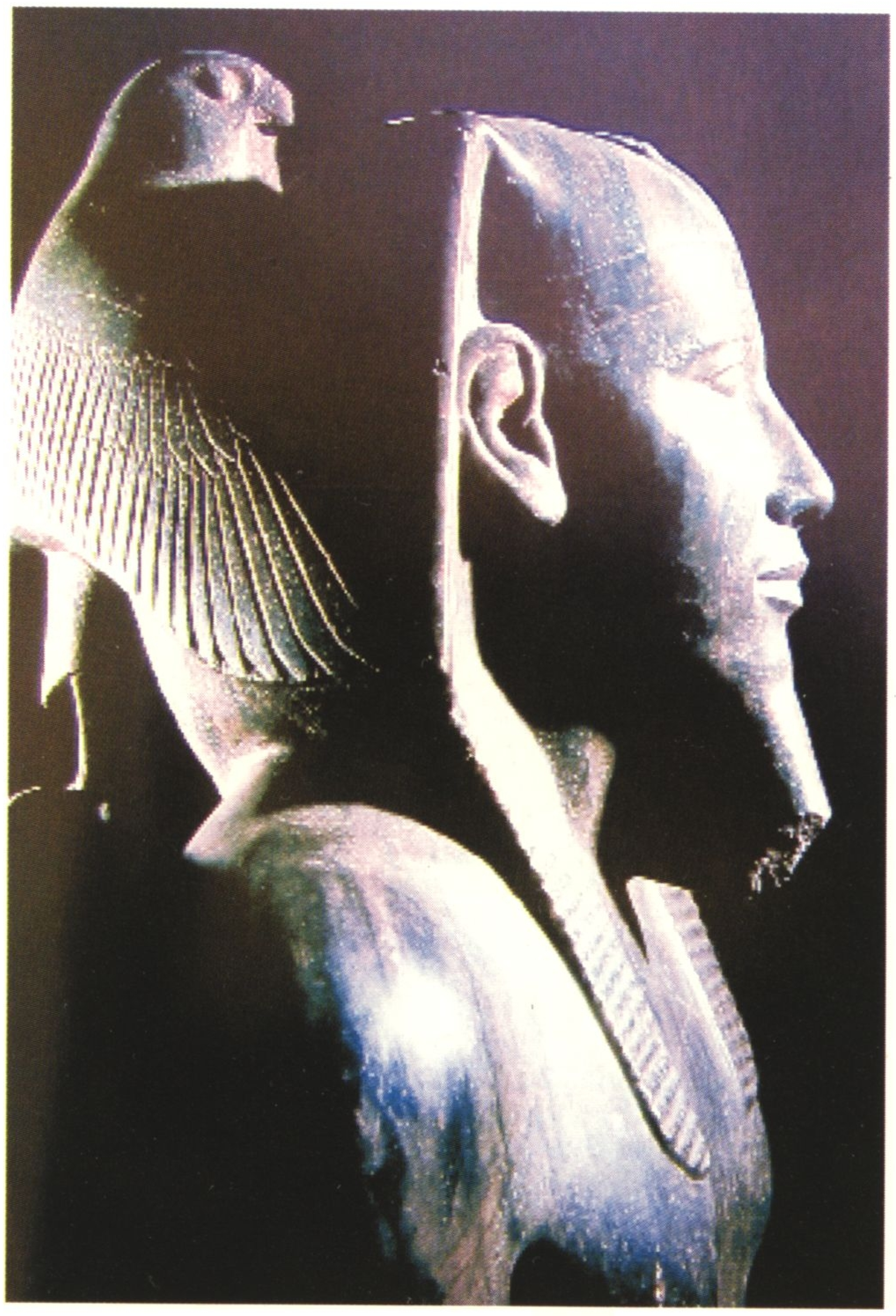
لسنا بحاجة إلى ذكر أن الموقع الذي نشغله هو أحد جبانات ممفيس مثل جبانة لويبر لاشيز (Le P. Lachaise)، وهي إحدى جبانات باريس. وترجع المقابر الموجودة فيه لمختلف العصور، ومع ذلك يغلب عليها مقابر الدولة القديمة[٣٠]، وتأخذ هذه المقابر شكل المصطبة، وهو ما يشبه الهرم الناقص مشيدًا من أحجار ضخمة، ويحجبه - وكأنه غطاء ثقيل- البئر الذي وضعت المومياء في قاعه. وسوف تقع أنظار الزوار على اثنين أو ثلاثة منها من أحسن النماذج عند الواجهة الشرقية للهرم الأكبر، وسوف تُتاح لنا فرصة أفضل لوصف هذا النوع من الآثار حينما نوجد في سقارة.

ذكرنا من قبل أن الأهرامات كانت تنتمي إلى الأسرة الرابعة، وأن معظم مقابر الجبانة ترجع إلى الدولة القديمة. قد تكون هذه المعلومات للأسف غامضة بعض الشيء بالنسبة للزوار الذين لم تشمل دراستهم الآثار المصرية. وسوف نلخص هنا المعلومات الأساسية التي يجب أن يعرفها كل زائر لصعيد مصر إن كان يود أن يتحقق من الطبيعة والبعد الزمني والقيمة المتعلقة بالآثار التي سوف يجد نفسه أمامها.

كل الآثار التي سوف نلتقي بها تنتمي إلى هذه الحضارة التي برزت قديمًا على ضفاف النيل، والتي استخدمت طوال عمرها العلامات الهيروغليفية في الكتابة. وبصفة عامة نجد أن هذه الآثار معابد، وغالبًا ما تكون مقابر. وقد اختفت تمامًا المدن المصرية القديمة بكل ما في الكلمة من معنى لدرجة أنه لا يكاد يوجد إلا بضعة أكوام من الحجارة والردم لا شكل لها، ولا تدل هنا وهناك على موقعها.

ولا يمكن تقدير طول الحقبة التي استمرت خلالها هذه الحضارة، ويُقال إن التاريخ المصري القديم بدأ مع مينا، وانتهى في عام ٣٨١ من عصرنا[٣١] مع منشور تيودسيوس(Théodose)[٣٢]، ومع ذلك من المحتمل أن تكون الحضارة المصرية التي تكونت، وكما سنرى فيما بعد قد ازدهرت منذ زمن ما حينما وحَّد مينا مصر كلها - التي كانت مقسمة بعض الوقت تحت صولجان واحد ، ومن الأكيد أيضًا أن الديانة المصرية استمرت بعض الوقت في أقاليم بعيدة خصوصًا معابد في فيلة في أسوان. ولوضع ترتيب لمجموعة الملوك التي لا تنتهي ، والتي تولت الحكم من مينا حتى ثيودسيوس، والحصول على وسيلة لتصنيف الآثار فيما بينها.

كان من المعتاد تقسيم هؤلاء الملوك مثل مانيتون (Manéthon)[٣٣] إلى أسر ملكية أو إمبراطوريات تعرف باسم جنس مستعار التي كانت العاصمة في عهدهم. ونجد عدد ٣٤ أسرة مالكة [٣٠ فقط] منذ مؤسس الملكية حتى ثيودسيوس . وقد تم عمل تقسيم آخر أوسع لتاريخ مصر آخذًا في الاعتبار بعض الأحداث المهمة وبعض التغيرات التي طرأت على اقتصاد الدولة العام إلى أربعة أقسام:


(97) تمثال خفرع بالمتحف المصرى


(98) الملك رمسيس الثانى

١- القسم الأول: ويشمل أول عشر أسر ملكية، وتسمى الدولة القديمة، وتبعد الدولة القديمة عنا بشكل كبير لدرجة أنها ضاعت في الأزمنة السحيقة. وعندما انتهت الدولة القديمة لم يكن قد ولد بعد سيدنا إبراهيم. وتشمل الدولة القديمة كلها الأسرة الرابعة والخامسة وجزءًا من السادسة[٣٤] قبل ذلك وبعده كل شيء كان غامضًا تمامًا ، هذا هو عصر الأهرامات. وجدير بالملاحظة أن فن صنع التماثيل والنقش البارز وصلا إلى مستوى لن يتكرر أبدًا[٣٥].

٢-القسم الثاني: ويشمل القرون التي تمتد من الأسرة الحادية عشرة، إلى الثامنة عشرة، وهي الدولة الوسطى. وكانت الدولة الوسطى قد بدأت منذ فترة عندما جاء سيدنا إبراهيم، ويعتبر يوسف وزير آخر ملوك الدولة الوسطى، وعلاوة على ذلك لا يهمنا أن نذكر من الدولة الوسطى. سوى الأسرة الثانية عشرة والرعاة. وتشتهر الأسرة الثانية عشرة بمقابر بني حسن. أما الرعاة (أو الهكسوس) فقد أطلق اسمهم على أصعب فترة عاشتها مصر، والتي شهدت خلال ٥١١ سنة انفصام الوحدة الوطنية وسيطرة الغزاة الآسيويين على أقاليم المملكة المزدهرة.

٣-القسم الثالث: هو الذي يطلق عليه الدولة الحديثة، ويبدأ من الأسرة الثامنة عشرة، وهي من ألمع الفترات في الدولة الحديثة، والتي نشاهد آثارها العظيمة أثناء السفر عبر النيل، وهي آثار الأسرة ١٨ والأسرة ١٩ والأسرة ٢٠. وهو عهد تحتمس وأمنوفيس ورمسيس، وهو أيضًا عهد سيدنا موسى (الأسرة ١٩). ولم تستمر هذه الحقبة المتوهجة؛ فعندما استولى شيشنق (Sésac) على أورشليم (الأسرة ٢٢) بدأ تدهور مصر الفعلي.



(100) الملكة حتشبسوت



(99) الملك منتحوتب الثانى

٤- أخيرًا القسم الرابع: ويطلق عليه العصور المتأخرة، ويشمل الأسرة اليونانية التي أسسها الإسكندر، وكذلك أسرة أباطرة روما الذين حملوا ألقاب ملوك مصر مثل قمبيز وداريوس. ولا يمثل تاريخ هذا العصر[٣٦] الذي شهد منافسات عقيمة على العرش سوى أهمية محدودة، ولكن يجب على زائر الصعيد أن يهتم به لأن معابد فيلة وإدفو وكوم أمبو ودندره وإسنا هي الآثار الأكثر اكتمالاً التي نملكها عن الديانة المصرية التي تنتمي إلى هذه العصور.

وتبقى نقطة بحاجة إلى توضيح؛ فقد تحدثنا حتى الآن عن التقسيمات التي أدخلت على تاريخ مصر، ولكن لم نذكر أي رقم يتيح لنا أن ننسب الآثار التي ندرسها إلى تاريخ ما. في هذا الأمر نمضي للأسف في ظلام حالك؛ لأن كل التساؤلات التي تثيرها دراسة الآثار المصرية ليس هناك أكثر تعقيدا من تلك التي تمس التسلسل التاريخي. ولكن إذا أخذنا في الحسبان كل العناصر، وذكرنا ولاحظنا في الوقت نفسه كل المعلومات التي توفرها الآثار وما ذكره الكُتَّاب اليونانيون، يمكن أن نخاطر بذكر بعض التواريخ كلما حانت الفرصة، وسوف نكتبها كما فعلنا بالنسبة للمساجد بجانب الآثار التي نريد أن نعرف زمنها، ترجع مثلاً الأهرامات إلى الأسرة الرابعة (٤٢٣٥ ق.م)، ولما كان خوفو أول ملك لهذه الأسرة فإن المبنى العظيم الذي استخدم كمقبرة له لا يقل عمره عن ٦١ قرنًا.



(101) الملك منكاورع مع الإلهة حاتحور ورمز أحد الأقاليم

لقد انتهينا من الأهرامات، وسوف نعود من الطريق نفسه الذي أخذناه في بداية الرحلة. وتبدأ من جديد الرحلة النيلية. في الطريق قرب قرية تدعى تامو (Tamô) يوجد المكان الذي يعتقد الأقباط أن سيدنا موسى أُلقي به في الماء. ونتجه إلى البدرشين، وتعتبر بالنسبة لسقارة ما تمثله الجيزة بالنسبة للأهرامات: أي ميناء الإبحار. وسوف نقضي في البدرشين الليلة التي تفصل بين الليلتين الأولى والثانية.

اليوم الثاني:

من الضروري الإبحار عند الفجر، في أثناء الطريق نجد تحت النخيل تلالاً سوداء غير متناسقة مغطاة بكتل الجرانيت. تظهر بين الأنقاض هنا. وهناك أجزاء من جدران مبنية من الطوب اللبن الرديء، وهذا كل ما تبقي من ممفيس.

وبالقرب من قرية ميت رهينة يظهر تمثال ضخم للملك رمسيس العظيم[٣٧] من الحجر الجيري الأبيض الجميل (الأسرة ١٩) راقدًا فيما يشبه الحفرة. عندما يمر ضيوف الخديوى على الأطلال فلن يشاهدوا التمثال: لأنه لا يزال مختفيًا تحت الماء.

وتبلغ المسافة بين النيل وسقارة حوالي ٨ كيلومترات عندما يجب السير، كما هو الحال في ذلك الحين، محاذيًا الجسور التي على شاطئ النيل.أما في الأحوال العادية عندما لا تكون الأرض غارقة في مياه النيل نسلك طريقًا مختصرًا، ويصبح الطريق أقصر بشكل ملموس.



(102) الطريق إلى البدرشين



(103) النخيل فى سقارة



(104) جبانة أبو صير



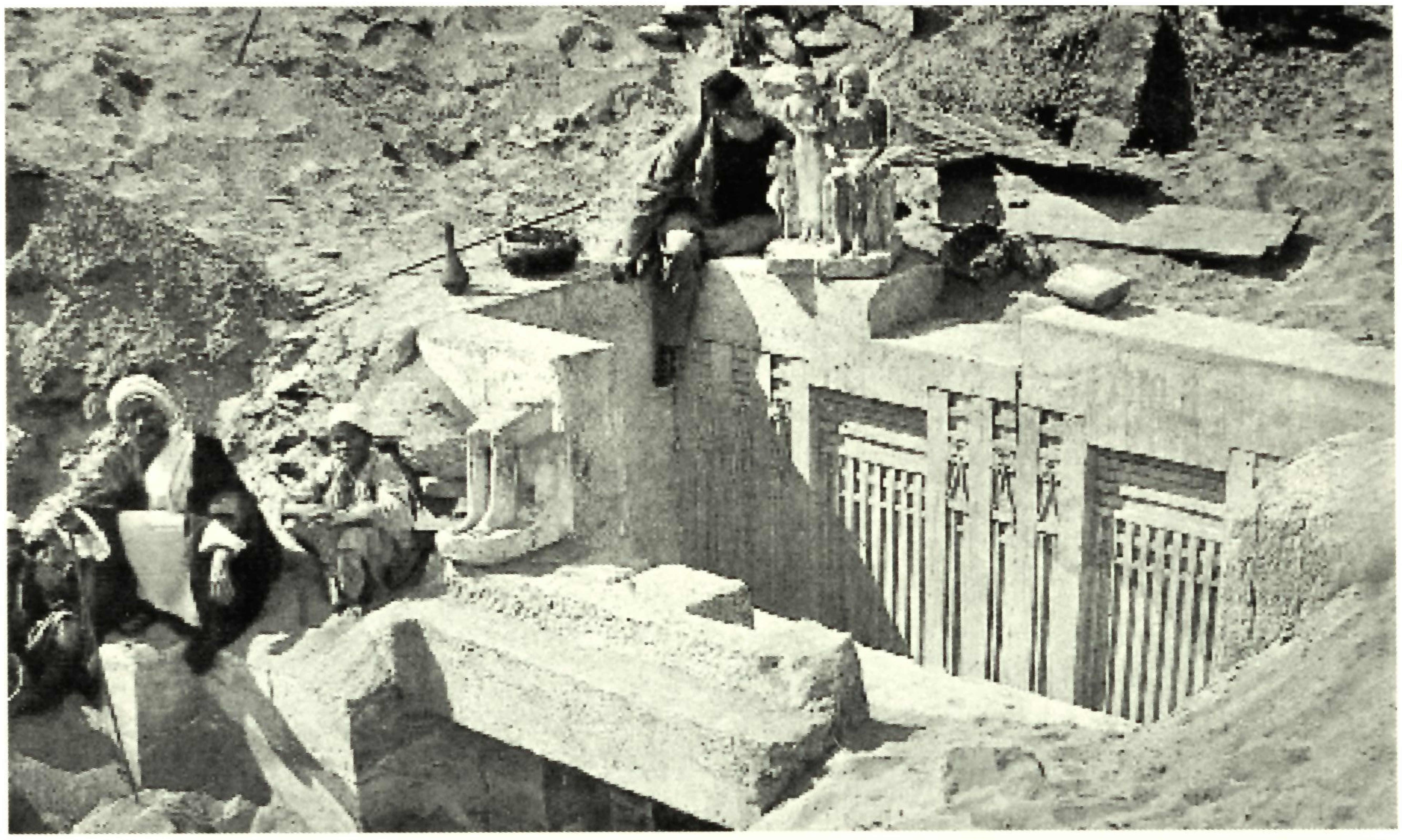
(105) مقبرة الملك زوسر [الهرم المدرج]

تعتبر سقارة القرية التي أعطت اسمها للجبانة الكبيرة التي بجوارها. وتعتبر هذه الجبانة أهم وأقدم جبانة، وفي الوقت نفسه أحدث جبانات ممفيس، وهي تمتد على حدود الرمال بطول حوالي ٧٠٠٠ متر وبعرض ٥٠٠ متر إلى ١٥٠٠متر. تعتبر «جبانة سقارة» بوجه خاص مثل «جبانة الجيزة» جبانة الدولة القديمة، ويرتفع في وسطها كنواة لهذا المجمَّع الشاسع للمعابد هرم مبني خلافًا للعادة من ست درجات [٣٨]. لو صدقت الروايات، وإن كان المكان الذي يشغل الهرم مركزه اسمه كو- كومي (Ko-Komé) وإن كان الملك أونينيفس (Onen-néphès) قد بنى في هذا المكان الذي يطلق عليه كو- كومي لنتج عن ذلك أن هرم المدرجات أي المصطبة المدرجة يرجع إلى الأسرة الأولى[٣٩]، وبالتالي يكون أقدم أثر عُرِف في مصر وفي العالم[٤٠].

وجبانة سقارة واسعة للغاية، ومن المستحيل زيارتها كلها[٤١]. والآثار التي نراها عادة هي : السيرابيوم، ومقبرة تي، ومقبرة بتاح- حوتب.



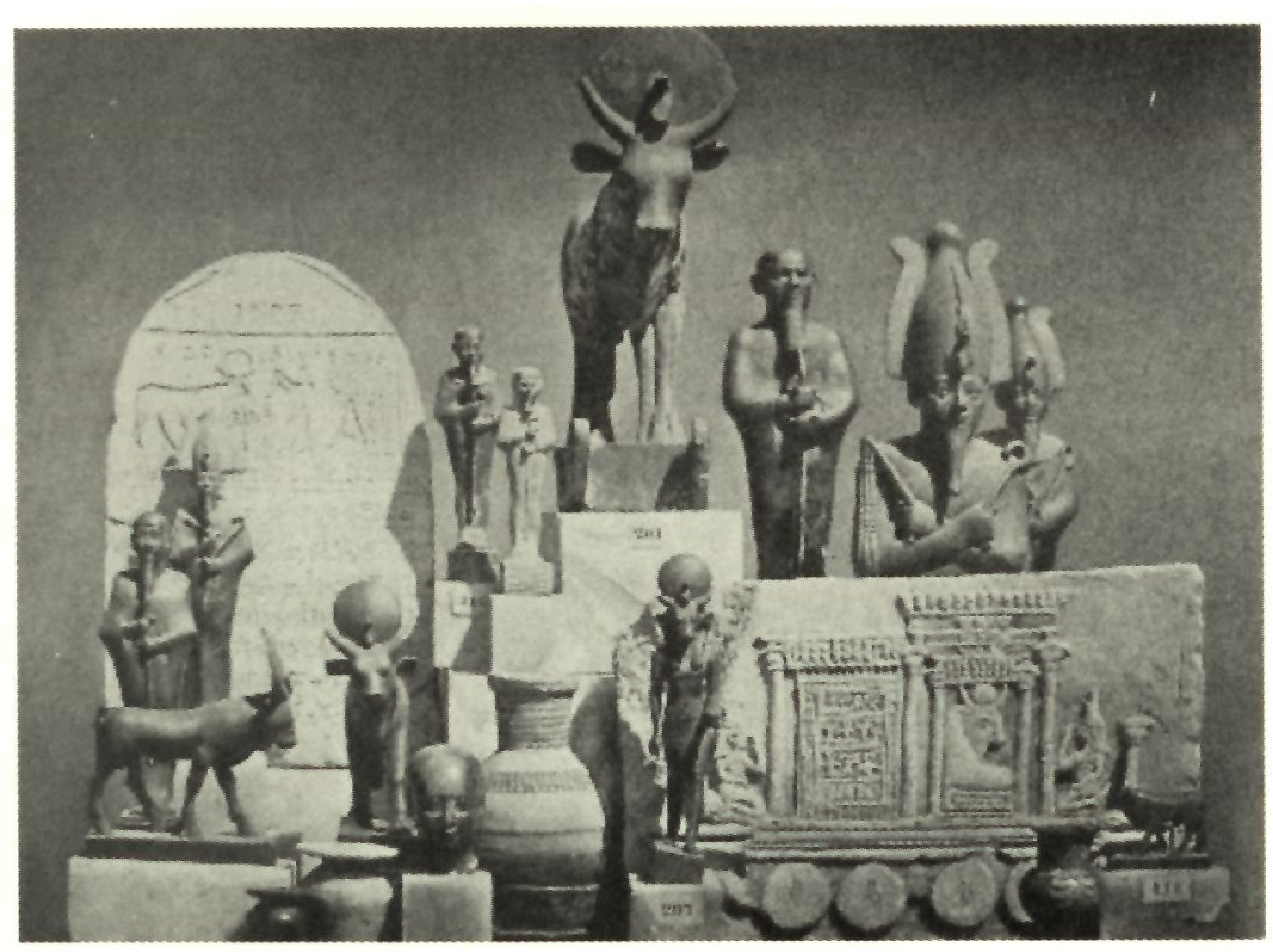
(106) مدخل السيرابيوم



(107) جزء من مصطبة بسقارة



(108) العجل أبيس



(109) الآلهة أبيس وأوزيريس وبتاح

لقد كان أبيس، وهو الصورة الحية لأوزوريس على الأرض، ذلك الثور الذي كان له في حياته معبد في ممفيس (ميت رهينة)، وكانت مقبرته في سقارة بعد موته. وكان القصر الذي يسكنه الثور في حياته يوجد في ممفيس أطلق عليه اسم أبييوم (Apiéum). أما السرابيوم فقد كان اسم المقبرة.

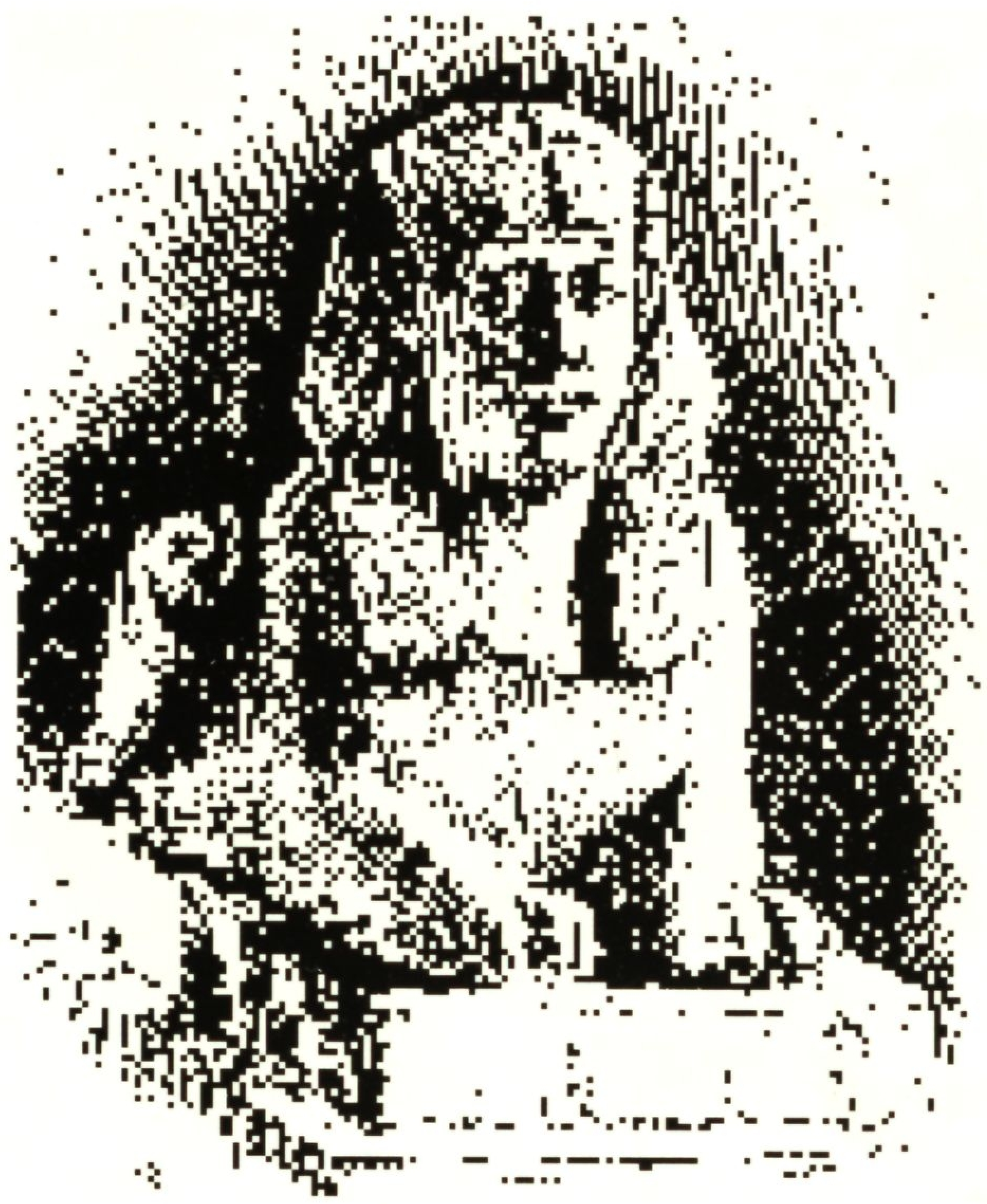
وبقدر ما نستطيع الحكم من بقايا التنقيب التي عثر عليها؛ فقد كان السيرابيوم مبنى يشبه شكله الخارجي المعابد المصرية الأخرى حتى التي ليس لها هدف جنائزي. ويوصل إليه طريق من أبي الهول، يسبقه صرحان للمعبد ، وحوله سور، ولكن يميزه عن المعابد الأخرى أن في أحد حجراته نجد طريقًا مائلاً يصل إلى الصخرة التي وبني عليها المعبد، ويؤدي إلى سراديب فسيحة. وكانت هذه السراديب مقبرة للعجل أبيس.

أما السرابيوم بمعناه الصريح أي المبنى الخارجي ؛ فلم يعد اليوم سوى سهل من الرمال مختلطة بشكل واضح بأحجار مقلوبة رأسًا على عقب، واليوم لا يوجد أثر للسرابيوم. ومع ذلك يمكن زيارة أجمل وأهم جزء من المقبرة تحت الأرض.

وسوف نوضحها تاريخيًا: تتكون مقبرة أبيس من ثلاثة أجزاء منفصلة؛ بمعنى أنه لا يوجد بينها أي اتصال مباشر.

يرجع الجزء الأول والأكثر قدمًا إلى الأسرة ١٨ وإلى أمينوفيس الثالث. وقد استخدم لدفن مومياوات العجل أبيس حتى الأسرة ٢٠، ونجد في هذا المكان المقابر مستقلة، وبقدر عدد موتى أبيس نجد عدد القبور المحفورة في السرداب هنا وهناك وبشكل ما عشوائيًا. والآن قد اختفت هذه الأضرحة تحت الرمال. أضف إلى ذلك أنها لم تكن تمثل إلا أهمية طفيفة جدًا.

ويشمل الجزء الثاني مقابر العجل أبيس من شيشنق الأول (Sche-schonk 1er)(الأسرة ٢٢) حتى طهارقة (Tahkarrah) (من ملوك الأسرة ٢٥)[٤٢]. وقد ظهر هذه المرة أسلوب جديد؛ فلم تعد القبور منفصلة. تم حفر سرداب ، وتم تجهيز جانبيه بحجرات تستخدم لدفن عجول أبيس في ممفيس. ولا يمكن اليوم الوصول إلى السرداب الذي يشكل وحده الجزء الثاني من المقبرة؛ فقد انهارت أجزاء من الأقواس، ولم تكن باقي الأجزاء على درجة كافية من الصلابة؛ لذا لا يسمح لأحد بزيارتها[٤٣].



(110) أبو الهول أمام السيرابيوم



(111) ماريت أمام مقبرة في السيرابيوم



(112) سراديب السيرابيوم



(113) تابوت من الجرانيت فى السيرابيوم

والجزء الثالث معروف لكل الناس، ويبدأ من (Psammétichus) بسماتيك الأول (الأسرة ٢٦)، وينتهي مع آخر البطالمة. وقد تم اتباع أسلوب السرداب الشائع نفسه ولكن على نطاق أوسع بكثير. ويبلغ امتداد الممرات الجديدة حوالي ٣٥٠ مترًا، وتبلغ المسافة من أول السرداب الكبير إلى آخره ١٩٥ مترًا. وقد ظهر طراز آخر هو التوابيت من الجرانيت، ويبلغ عددها ٢٤ تابوتًا في كل امتداد القبر وكلها بدون نقوش باستثناء ثلاثة تحمل أسماء أمازيس(Amasis)(الأسرة ٢٦) وقمبيز (Cambyse)[٤٤] خباشا (Khébash)[٤٥] (الأسرة ٢٧)، ويوجد تابوت رابع تخلو الخراطيش المنقوشة عليه من أسماء الملوك، ولكن كل شيء يجعلنا نرى أنه أحد آخر البطالمة. أما بالنسبة لأبعادها فتبلغ الواجهة في المتوسط ٢,٣٠ متر، وعلى عمق ٤ أمتار، وارتفاعها ٣,٣٠ أمتار، لدرجة أن هذه التوابيت الأحادية الكتلة لا يقل وزنها الواحدة داخل الآخر (بعد حذف الفراغ) عن ٦٥٠٠٠ كيلوجرام.

تلك هي الأجزاء الثلاثة لمقبرة أبيس، ولعلنا نعرف أن اكتشاف هذه المقبرة قد قدم للعلم معلومات غير متوقعة. ونحن لا نرى الآن منها - إذا جاز القول - إلا الهيكل العظمي.

ففي الحقيقة كانت المقبرة عند اكتشافها، رغم ما انتهكه المسيحيون الأوائل، لا تزال مليئة تقريبًا بكل ما هو غير الذهب و المواد الثمينة. وهناك عادة ساهمت خاصة في إثراء المقبرة بالوثائق المفيدة. في بعض أيام من السنة كان عند موت أبيس ودفنه يأتى سكان منفيس لزيارة الإله في مدفنه، ويتركون لذكرى هذا العمل الديني لوحة تذكارية (stèle) ؛ أي لوحة حجرية مربعة الشكل ومستديرة في أعلاها يثبتونها في أحد جدران المقبرة بعد نقش الشكر للإله عليها باسم الزائر وأسرته. لقد بلغ عدد الوثائق التي عثر عليها حوالي ٥٠٠ وثيقة في مكانها القديم (انظر خاصة مدخل الغرفة على اليسار)، ولما كان عدد كبير من هذه الوثائق مؤرخًا حسب نمط العصر أي بتاريخ سنة وشهر ويوم الملك الحاكم؛ لذا تتضح مقارنة هذه النصب التذكارية بما تقدمه من فائدة للعلم، وخاصة علم التأريخ.

يقوم الزوار عادة بعد زيارة السرابيوم بزيارة مقبرة أو عدة مقابر من الدولة القديمة، ومن بينها جبانة سقارة الفاخرة منذ الحفائر التي أمر بها معالي الخديوي ، واخترنا زيارة مقبرة " تي " ، ومقبرة " بتاح – حتب".



(114) مقبرة بتاح حتب فى جبانة سقارة

نعرف أن مقابر كبار رجال الدولة في الدولة القديمة عبارة عن " مصطبة"، ونعني بذلك أنواعًا من الأهرامات تم قطع طرفها قرب القاعدة، وتظهر من بعيد على شكل غطاء تابوت ضخم. ليس بها من الخارج نقوش أو بها نقوش قليلة، وبالداخل توجد بعض الغرف تم حفرها في كتلة البناء الضخمة.

ولا تُتيح زيارة سقارة سوى فرص قليلة للدراسة على الطبيعة خارج المصاطب، وتعتبر الأهرامات أكثر ملاء مة لهذا الموضوع ولكننا نجد في سقارة فرصة عظيمة لدراسة الغرف الداخلية ، ويمكن بالنسبة لهذا الموضوع أن نجد في مقابر تي وبتاح – حتب أمثلة ممتازة.

يشاهد الزائر أمامه الواحدة بعد الأخرى من هاتين المقبرتين، ولسنا بحاجة إلى أن نوضح مدى دقة ومتانة هذا العمل وتكامله وبساطته الذي يرجع تاريخه إلى ستة آلاف عام . أما بالنسبة لمعنى المناظر المرسومة والروح السائدة داخل هذه الغرفة التي تهدف إلى أن تعيد ذكري المتوفى: فينبغي علينا أن نتوقف عندها.

الجدير بالملاحظة أن كل شيء هنا غير جنائزي. في مقابر العصور القديمة (وسوف نرى منها أكثر من مثل في وادي الملوك بالأقصر) يغطي الجدران جيش من الآلهة العجيبة وغير المألوفة. ونجد المتوفى فعلاً في عالم آخر، عالم مليء بكائنات من المستحيل وصفها في أغلب الأحيان. أما هنا فلا يوجد مثل ذلك. وسوف نبحث عن صورة واحدة لآلهة على الجدران، ولكن دون جدوى.

المتوفى في العالم الآخر، ولكنه في هذه الدنيا، يظهر واقفًا وبيده عصا القيادة أو جالسًا ، بجواره زوجته ويرافقه أولاده ، الخدم أمامه، ويبدو كأنه لم يترك الدنيا بعد.

ولو تعمقنا أكثر في معنى هذه المناظر فسوف نرى أن الظاهرة التي أشرنا إليها تتضح أكثر فأكثر.



(116) صاحب المقبرة يشرف على الأعمال الجارية



(115) صاحب المقبرة وزوجته

نجد خارج باب دخول المقبرة (هذا الجزء في أغلب الأحيان قد تهدم) نقوشًا كثيرة تعتبر تقريبًا بمثابة عنوان الأثر؛ حيث نقرأ عليها اسم الراحل ومؤهلاته، ودعاء يلخص تقريبًا المناظر التي نشاهد عددًا كبيرًا منها بالداخل. ويطلب من أنوبيس (Anubis) إله الموت في هذا الدعاء: ١ - أن يمنح الشخص المتوفى دفنة طيبة في الجبانة بعد حياة طويلة وسعيدة.

٢- أن يسهل طريقه في مناطق ما وراء القبر.

٣- أن يحافظ للأبد على ما قدم له، والذي تصفه النقوش بأنها «الهدايا الجنائزية»

وترتبط هذه الأجزاء الثلاثة من النقوش بشكل خاص بالمناظر في الداخل، ومن السهل تقديم الدليل على ذلك بأنه لا يوجد منظر من هذه المناظر لا يدخل في فئة من الفئات التالية :



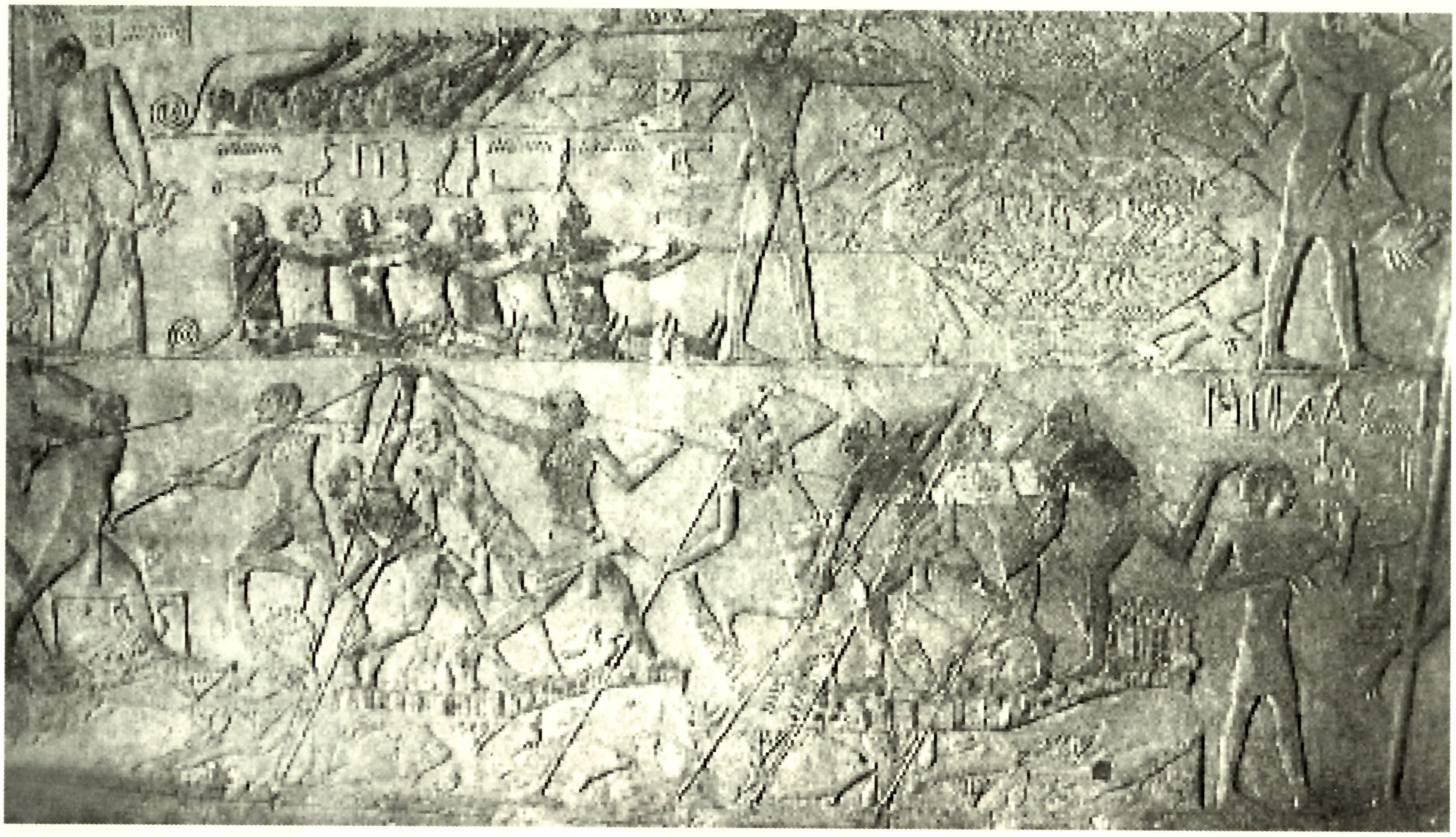
(117) مدخل مقبرة تى

١- مناظر تتعلق بحياة الشخص: تضم مقبرة تي (Ti) عددًا كبيرًا من المناظر من المهم جدًا دراستها، المتوفى في بيته، ترقص سيدات من البيت (ممر المدخل الضيق، الجدار الجنوبي). ويقوم الموسيقيون بالعزف على آلاتهم، ويرافقهم المطربون بتحديد النغم بالأيدى (ibid).



(118) مناظر الرقص والطرب فى إحدى مقابر سقارة

يصطاد المتوفى في المستنقعات (الحجرة الكبيرة، الجدار الشمالي) واقفًا في قارب من نبات البردي، ويمسك بيده طير الطُّعم (appelants) لجذب الطيور وباليد الأخرى يلقي على الطيور المائية المنتشرة في البوص الطويل عصا مُقوسة تنطلق في شكل دوامة (ibid).



(119) مناظر الصيد فى المستنقعات

وفي الماء الذي يطفو عليه القارب تتجمع التماسيح وفرس النهر، ويحاول الخدم التعامل معها . ونرى واقعة طريفة في المعركة بين اثنين من الحيوانات البرمائية وهزيمة التمساح. وبجانبه يأخذ أحد الخدم فرس النهر بخطاف ، وهو ما يُذكِّر فورًا بإسحاقى أيوب (Job) : "أتصطاد لوياتان [وحش البحر] بشص؟ أو تضغط لسانه بحبل ؟ أتضع غابًا في خياشيمه أَم تثقب فكه بخطاف ؟ (افحص عن قرب شكل المقبرة).

مشهد آخر يمثل قيام مساعدى المتوفى بصيد طيور البحر. فيما بعد (الحجرة الكبيرة والجدار الشمالي) نجد مناظر لطيفة لحياة الريف.



(120) صيد السمك فى الماء حيث التماسيح وفرس النهر

بعض البقر يجتاز معبرًا مائيًا، والعجول ترعى في المزارع، ويسوق بعض المساعدين قطيعًا من الماعز. ولا تقل حيوية مناظر الزراعة (ibid ، الجدار الشرقي). وحصاد القمح ثم تجميعه في حزم تحملها الحمير ودرسه و طحنه. أمام كل مشهد من هذه المشاهد يظهر المتوفى واقفًا أو جالسًا وعصى القيادة في يده. هنا على (الجدار الشرقي) يشاهد وضع القوارب في الحوض وهناك (الجدار الجنوبي) يراقب صنع أثاث البيت، وفي مكان آخر (ممر المدخل الضيق، الجدار الغربي) من أجله تشق مياه النيل سفن كبيرة مدت شراعها وقوارب يقودها مجدفون.



12) رعى الماشية



(122) سفينة تبحر فى نهر النيل

ومجمل القول أن كل شيء في هذه المناظر يوضح لنا تحقيق الرغبة الأولى التي تمناها الراحل عن طريق النقوش التي هي بمثابة عنوان المقبرة. يعيش تي (Ti) حياة سعيدة فعلاً في الدنيا، كما يمكن أن يتخيلها شعب يتفانى تمامًا في الأشغال الزراعية، فهو بين أهله، يحيط به خدمه ، وبلغ – كما تقول النقوش – " شيخوخة سعيدة دامت زمنًا طويلًا " (قارن نقوش مقبرة بتاح – حتب).



(123) مناظر عمل من الحياه اليومية



(124) مناظر صناعة السفن

٢- مناظر تتعلق بوفاة صاحب المقـبرة:

وهي أقل الأجزاء الثلاثة طولاً، يقف المتوفى في القارب، ويشاهد نقل جثته المحنطة إلى الجبانة، وبعدها نرى ندرة الصور، نشعر طبعًا بشيء من التورية؛ إذ يضطر منسق المقبرة أن يمر بسرعة على هذا الجزء من الزخرفة. ونلاحظ أن نقل المومياء هو المشهد الجنائزي بالفعل الذي تقدمه لنا النقوش . تصاحب هذه المناظر المتوفى حتى مقبرته، ولكن لا تلاحقه في مناطق ما وراء القبر. تعبر كل صور القبر عما في هذه الدنيا، ولا توجد صورة واحدة تتعدى هذا الخط الذي يفصل بين الحياة الفانية والحياة الأبدية.



(125) صاحب المقبرة يشاهد نقل المومياء على سفينة

٣- مناظر تتعلق بتقديم الهدايا الجنائزية:

كانت الحجرات التي نمر عبرها مفتوحة للجميع ، وكان يجتمع فيها أهل المتوفى في بعض أيام الأعياد. رغم أن هناك عادة متبعة كانت تضطر أهل المتوفى أن يضعوا في القبر القرابين من شتى الأنواع مثل الخبز والسوائل والنباتات وبعض أجزاء الحيوانات التي تم ذبحها في الخارج ، وهو ما تسميه النقوش " الهدايا الجنائزية ". والمناظر التي تتعلق بتقديم الهدايا الجنائزية كثيرة ، وتوجد على جدارى الحجرة الصغيرة الواقعة على يمين ممر مدخل مقبرة تي (Ti) مشاهد من هذا النوع: يحمل بعض الخدم على رءوسهم وأكتافهم وعلى أيديهم الممتدة الأطعمة والزهور وصواني مليئة بالأواني، تم نقش على الجدار الشرقي في نفس ممر المدخل منظر ذبح البقر المخصص لتقديم جزء كبير من الهدايا الجنائزية. فوق أسفل الجدار الشمالى فى داخل المقبرة نرى طابورًا من النساء تسوق الحيوانات، وتحمل السلال على رأسها.



(126) تقديم الهدايا والقرابين

وهكذا تم عرض أملاك المتوفى التي تساهم في إتمام الاحتفال الذي يهدف إلى عرض الأدوات الجاهزة لتظهر عينيًا في حجرة المقبرة الداخلية. وتُبرز مقبرة بتاح – حتب مثل هذه المشاهد بوضوح، وفيها يقف المتوفى (في الجدار الغربي، بين اللوحتين التذكاريتين)، ويبدأ أمامه موكب حقيقي من الخدم يقدم الهدايا، ويسير في المقدمة بعض الكهنة يرتلون أناشيد مقدسة ووراءهم الخدم يضعون على طاولة أكوامًا من القرابين استعدادًا للاحتفال، ويتلقى بتاح – حتب بنفسه الهدايا، ونشاهده يشرب من إناء يحتوي على أحد المواد التي تظهر في " الهدايا المقدمة للمتوفى ".



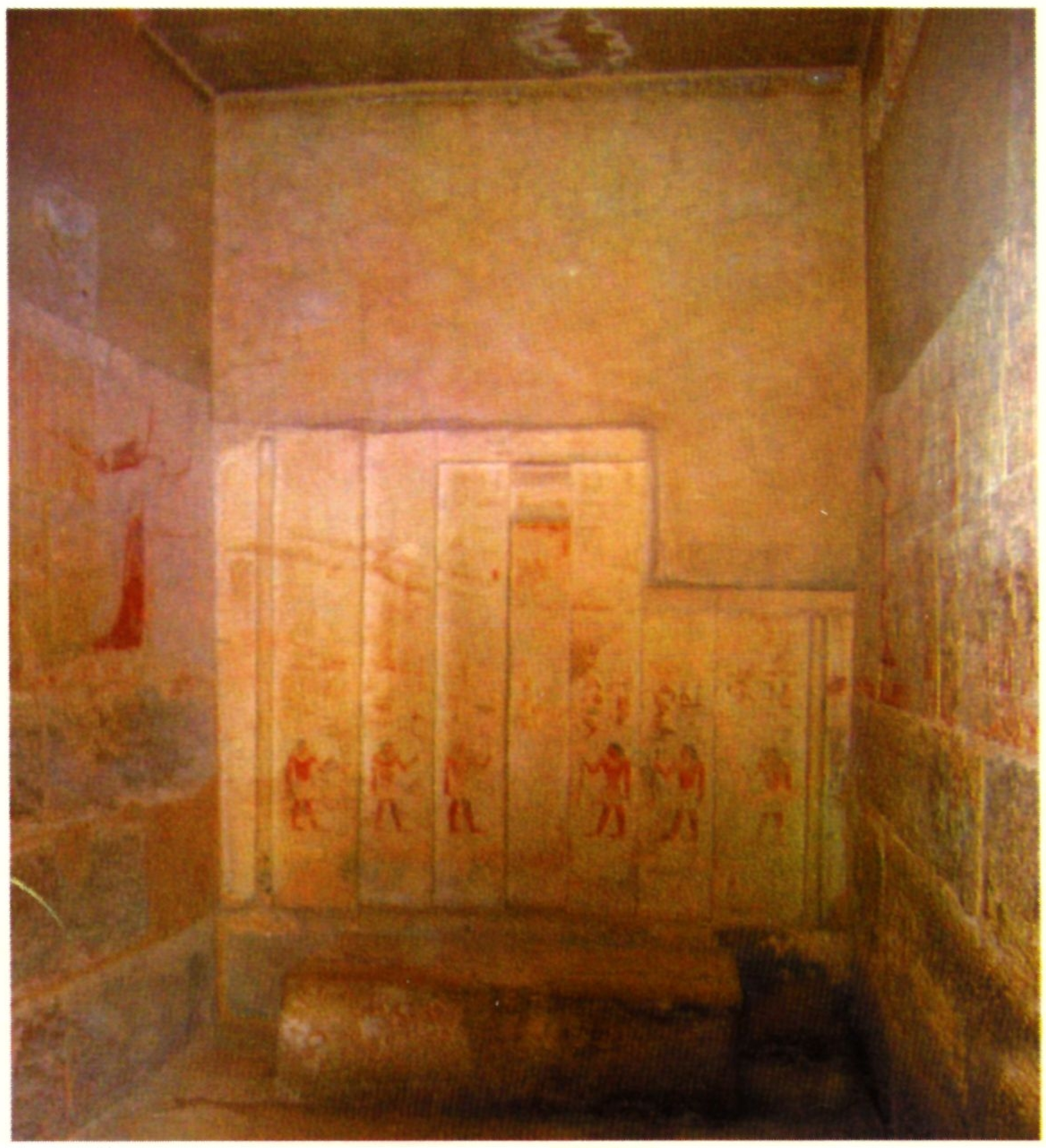
(127) صاحب المقبرة يشرب من كأس وأمامه حملة القرابين

وقد يقودنا الأمر بعيدًا لو أردنا وصف كل المناظر، بأشكالها المتنوعة التي تزين جدران مقبرة تي ومقبرة بتاح –حتب. ما نود أن نوضحه للزائر هو المعنى العام لهذه المناظر، ومن ثم سمة المقبرة الذي سجلت عليها هذه المناظر، ولا ننسى أننا هنا داخل مصطبة، ولكن تقع على نفس مستوى السهل المجاور. لا شيء هنا يدل على الحزن، ولا شيء يُذكِّر بالموت؛ إذ يبدو المتوفى في بيته، يستقبل أقاربه وأهل بيته. علاوة على ذلك هو الذي بدأ بناء المقبرة في حياته بنفسه، وأمر بنحت المشاهد التي حاولنا تفسير معناها على الجدران.

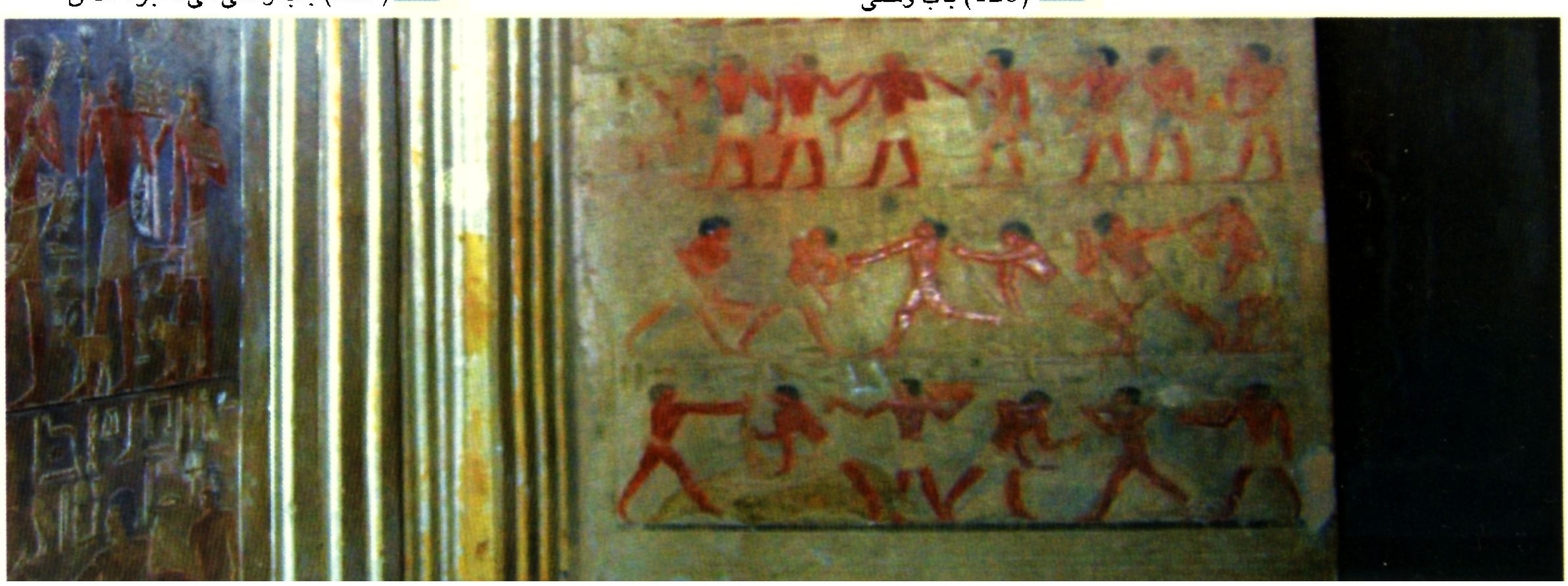
يقول ديودور(Diodore): "إن المصريين يسمون مساكنهم فنادق، نظرًا لقلة الوقت الذي يقضونه فيها ، ولكنهم يطلقون على مقابرهم« المنازل الأبدية الجميلة»، وهنا يكمن حقًّا معنى الآثار التي تهمنا؛ إذ يوجد بها كل شيء: المسكن والمزرعة والحيوانات والحقول والحصاد. ويصبح القبر في الحقيقة، نظرًا لصلابة بنائه " المنزل الدائم "، أما الروح والحياة بعد الموت فهي التي جعل المصريون منها أساسًا لمعتقداتهم، والتي لا أثر لها في هذا المكان؛ فلابد من التوجه إلى جزء آخر من المقبرة لكي نجدها. لا أحد يدخل فيه، ويجب أن يظل خفيًّا للأبد. ويقصد بذلك المدفن الجنائزي الضائع فعلًا تحت الأرض في قاع البئر الذي حُجب مدخله عن الأنظار. فيه يوجد الجسد، وفيه أيضًا تسود الطقوس؛ فقد اخترق المتوفى الخط العصيب، والآن هو في عالم غامض تسكنه آلهة من الأرواح الطاهرة.



(128) باب وهمي



(129) باب وهمي في حجرة الدفن

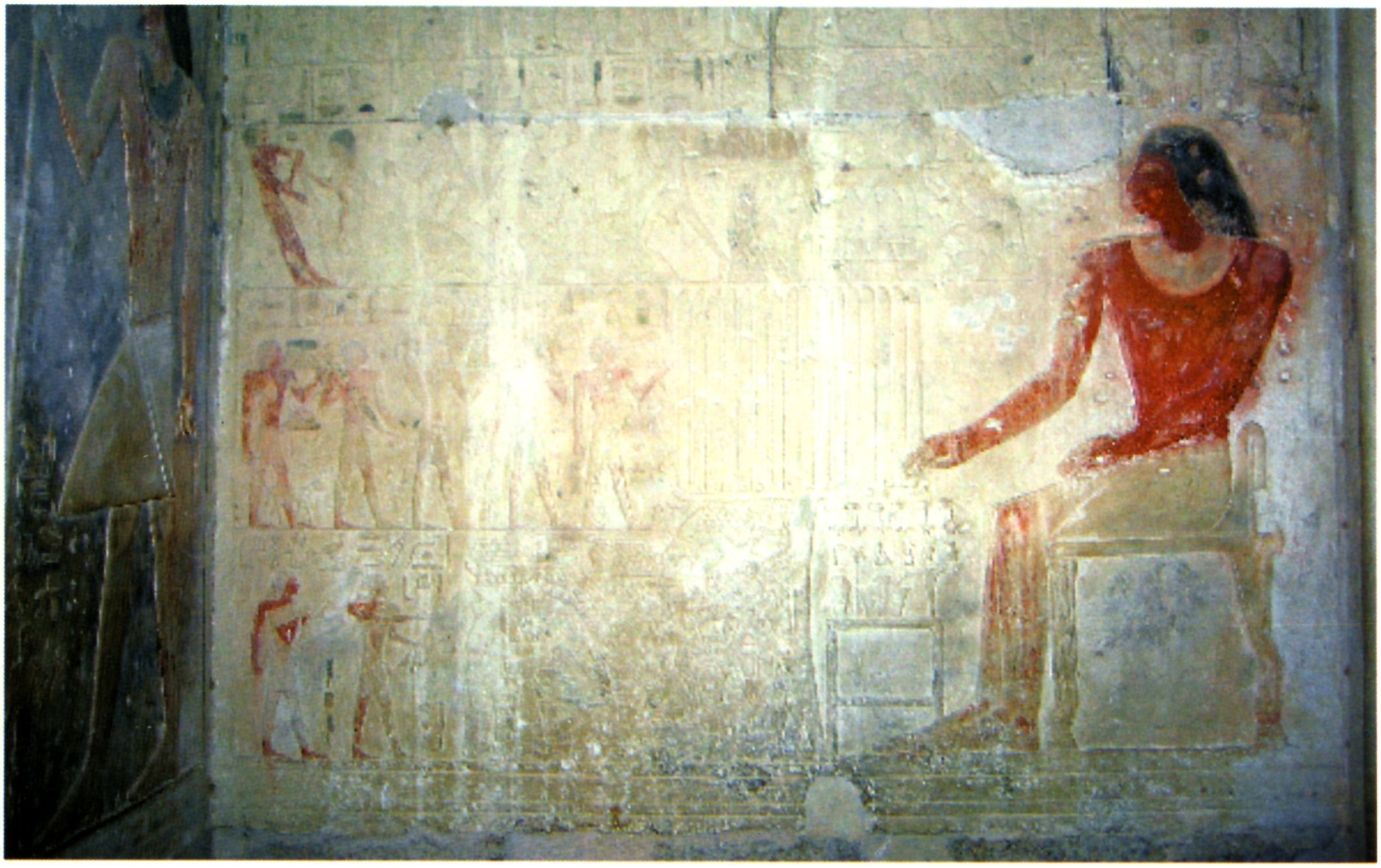


(130) استعراض الأنشطة أمام صاحب المقبرة

وخلاصـــة القـــول أنـــه مبنـــى خارجـــي يهدف إلى:

١- أن يخفي بعض الحجرات التي يمكن دخولها في كل وقت، وكثيرًا ما تزينها مناظر.

٢- وأن يحجب بئرًا عموديًّا(٤٦) عن العيون لا يمكن النزول إلى قاعه اليوم إلا بواسطة حبال، وبه يوجد مكان دفن المومياء، هذا هو حال مقابر سقارة، وأيضًا هذه هي القاعدة لكل المقابر القديمة التي نجدها في مصر.



(131) صاحب المقبرة يستعرض الهدايا

ونخصص نهاية اليوم الثاني في العودة إلى البدرشين والسفر منها إلى الصعيد. ونأخذ اتجاه بني سويف . ولما كان من المستحيل استمرار الرحلة على النيل فى أثناء الليل، فإننا سنتوقف في المساء في المكان الذي يفاجئ فيه غروب الشمس المراكب البخارية، ومن المحتمل عند زاوية المصلوب من شاطئ النيل؛ حيث منفذ أحد الطرق الرئيسية التي تؤدي إلى الفيوم.

اليوم الثالث:

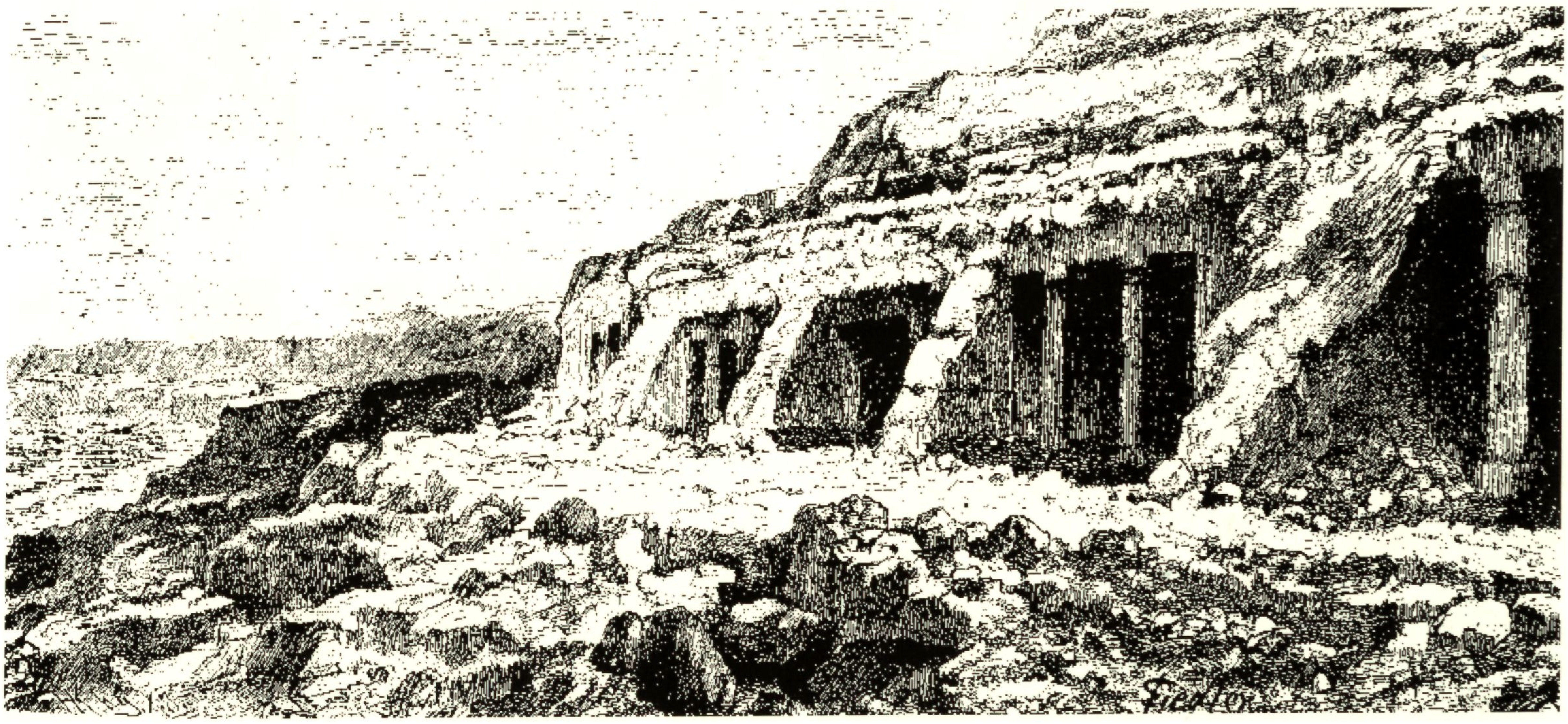
نخصص اليوم الثالث كله للسفر على النيل ، ماعدا زمن التوقف الاضطراري في بني سويف لتزويد المركب بالفحم. ومن المحتمل الوصول في المساء إلى قلوصانة (Kolosaneh) لنقضي الليل.

اليوم الرابع:

نتوقف في المنيا للتزويد بالفحم، الوصول إلى بني حسن، تم حفر مقابر[كهوف] بني حسن في صخر الجبل على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من نقطة اقتراب المراكب من الرصيف، ولا تستحق كل هذه المقابر الاهتمام نفسه،

ونجد أهمها آخر مقبرتين شمالاً.

وهي عبارة عن مقابر ترجع إلى بداية الأسرة الثانية عشرة (٣٠٠٠ سنة ق.م)[٤٧] ، وقد تم فيها دفن الموظفين الذين كانوا يعملون في الدولة بالمدينة، واستخدم الجبل الذي نزوره كجبانة، ولكن لا نعرف اسمها ولا مكانها.



(132) مقابر بنى حسن فى صخر الجبل

وتتبع هذه المقابر نفس أسلوب مقابر الجيزة وسقارة التي أشرنا إليها من قبل: حيث نجد فيها:

١- حجرة يسهل الوصل إليها كما هو الحال في سقارة والأهرامات محفورة في كتلة «المصطبة » والحجرة هنا محفورة في الصخر.

٢- بئرًا خفيًا ومسدودًا يؤدي إلى حجرة الدفن، وهنا فتحة البئر في الوسط وفي أحد أركان الحجرة.

٣- أخيرًا نجد مدفنًا جنائزيًا، وهو المكان الذي وضع فيه التابوت والمومياء، أما في الجيزة وسقارة وبني سويف فنجد المدفن في قاع البئر.



(133) زوار يتجهون إلى جبانة بنى حسن



(134) ضيوف الخديوى يصعدون إلى جبانة بني حسن

ونجد أيضًا أسلوب الزخرفة نفسه، إلا أن المشاهد تطورت قليلاً مع مرور الزمن. يوجد المتوفى أكثر من أي وقت مضى في بيته. ويكثر الاهتمام بحياة الشخص والأحداث والطوارئ يصطاد المتوفى الحيوانات البرية في الصحراء، يقدم المساعدون له الهدايا، ويؤدي بعض الأفراد ألعابا رياضية مختلفة أمامه. على كل حال وكدليل مميز للعصر القديم والجديد، لا نجد بتاتًا صورًا للآلهة.

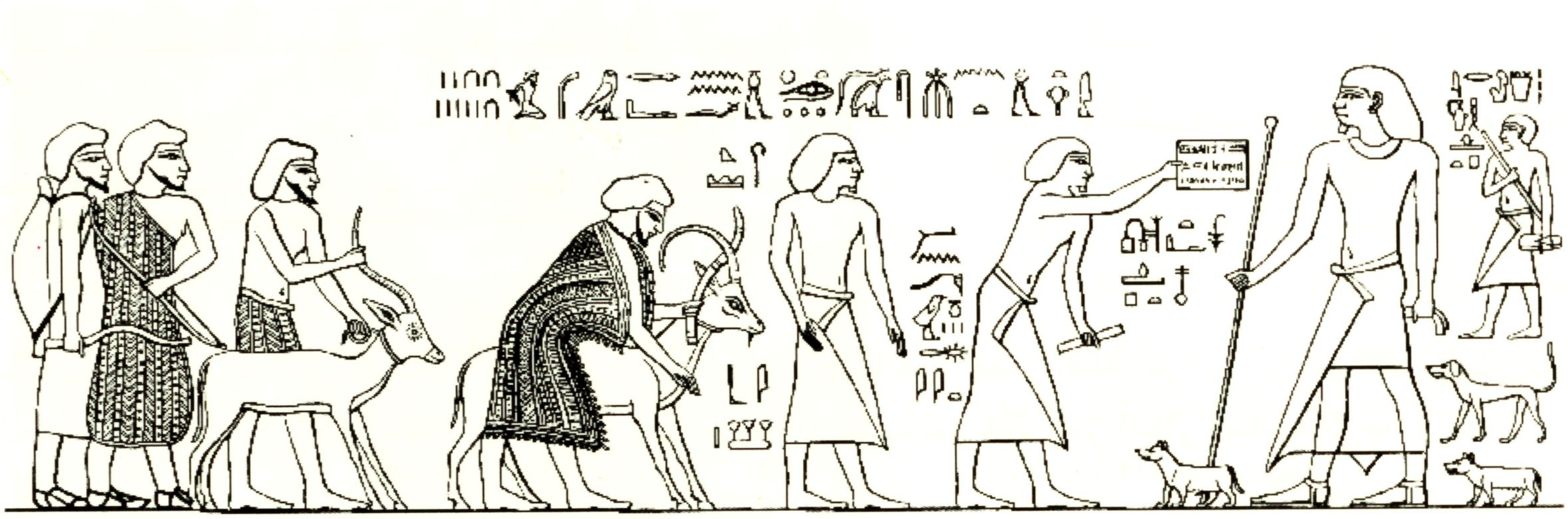
سبق أن ذكرنا أن أهم مقبرتين في بني حسن تفتحان جهة الشمال، ودون شك سوف ينظر المهندسون المعماريون إلى هذا الأسلوب بإعجاب. ومن المهم أن نؤكد مرة أخرى أن تاريخ هذه الأعمدة الفخمة التي تزين وجهات هاتين المقبرتين يرجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد رغم أن مظهرها يقترب من الطراز المعماري الدوري.

المقبرة الأولى شمالاً هي مقبرة إميني- أمنمحات (Améni-Amenemhat) (وأطلق عليها هذا الاسم تخليداً ذكرى أحد

ملوك الأسرة الثانية عشرة الذي كان يحمل اسم أمنمحات. وفي النقوش التي تغطي جانبي المدخل يحكي أميني- أمنمحات حياته؛ فقد كان قائدًا للمشاة، وقام بمعركة ضد الآبو (Apou) وأخرى ضد الحبشة، وكان الملك في عهد الملك سنوسرت الأول (Ousertasen 1er). وقد سار أميني- أمنمحات إلى القتال مع ابن هذا الملك، وكان أميني- أمنمحات أيضًا حاكم إقليم «صاه» (Sah)، وقد منحه الملك مراتب الشرف لحسن إدارته ...إلخ .

والمقبرة الثانية هي مقبرة خنوم- حتب (Khenom-hotep) ورسومها رائعة رغم ما أصابها من تلف مع الزمن، وخاصة من الرحالة الذين كلما رأوا أن الأثر قيِّم ، وكلما كان المكان جميل يقومون بتشويه قيمته بحفر أسمائهم عليه. ترجع مقبرة خنوم- حتب مثل مقبرة أميني- أمنمحات إلى بداية الأسرة الثانية عشر في عهد أمنمحات الثاني (Amenemhat II) ، ويحكي خنوم – حتب حياته كذلك في النقوش الطويلة التي حول قاعدة الحجرة . أقام والده وأمه وأجداده في مدينة منعت- خوفو (Me`nat -) (ربما المنيا). عاش فيها أبوه موظفًا ومحافظاً لأراضي الشرق في المدينة نفسها. أما هو فقد كان مثل أميني- أمنمحات حاكم ولاية (nome) «صاه» ، وبعد ذلك ذكر أعماله الحسنة فقد كرّم الآلهة وملأ المعابد بهداياه... إلخ .





(136) حاكم الإقليم يستقبل الوفد الآسيوى- مقبرة خنوم حتب - بنى حسن

مازالوا يعيشون في مصر(٤٨) . ويمكن أيضًا أن نطلق اسم عامو على «الرعاة». ولقد أصبح «العامو» الذين بقوا في مصر سكان المراعي الفظيعين الذي تحدث عنهم المؤرخون. وبعد أن انسحبوا من مراعيهم (Bucholies) قاموا بحماية بسماتيك و أميرتايوس وفيما بعد عرفوا باسم أهالي «بياميت» (Biamites) بي(Bi) هنا حرف (ال) باللغة المصرية ، وقاموا بقطع الطرق، وحطموا جنود الخليفة مروان والخليفة المأمون الذين تعدوا عليهم. وأخيرًا نرى أحفاد هؤلاء العامو بين سكان بحيرة المنزلة الحاليين [غير صحيح]، وفي الجزء الشرقي من الدلتا يعيشون على الصيد وعلى الرعي، ويعتمدون حتى الآونة الأخيرة على أنهم أجانب، ويصرون على رفض سداد بعض الضرائب. العامو الذين نجدهم في لوحة خنوم- حتب كقبيلة إذًا لهم تاريخ. و يبدو لنا بعد ٤٠٠٠ سنة أنهم أول من أصابتهم ثورة الشعوب التي تملأ تاريخ مصر، والتي لم تندثر آثارها حتى الآن.

سبعة عشر كيلومترًا تفصل بني سويف والروضة، و نقضي الليلة في الروضة بعد أن نزور فيها المصنع الرائع، والجدير بالذكر الذي أقامه سعادة الخديوى والي مصر.



(137) الوفد الآسيوى فى زيارة لحاكم الإقليم

اليوم الخامس: السفر من الروضة إلى أسيوط

ونخصص نهايته بعد الظهر لزيارة أسيوط، وهي مدينة رائعة يطلق عليها بحق عاصمة صعيد مصر، ونصل إلى أسيوط عبر طريق مزروع بالأشجار غاية في الجمال وطوله حوالي ثلاثة كيلومترات.

اليوم السادس: السفر من أسيوط إلى سوهاج

حيث يتم التزود بالفحم من جديد. والقيام برحلة من سوهاج إلى جرجا حيث نقضي الليلة. في آخر جزء من النهار يمكن زيارة المدينة التي نجد فيها أنواعًا جميلة جدًا من المساكن تم بناؤها حسب ذوق فريد يميز المباني الخاصّة في بعض مدن مصر العليا.

اليوم السابع: السفر من جرجا إلى البلينا

وننزل من المركب في البلينا، لزيارة معبد أبيدوس الذي يبعد تسعة كيلومترات عن الشاطئ. نجد في أبيدوس معبد سيتي الأول، ومعبد رمسيس، ومعبد أوزوريس (الأوزيريون)، والجبانة.



(138) صالة الأساطين فى معبد سيتى الأول بأبيدوس

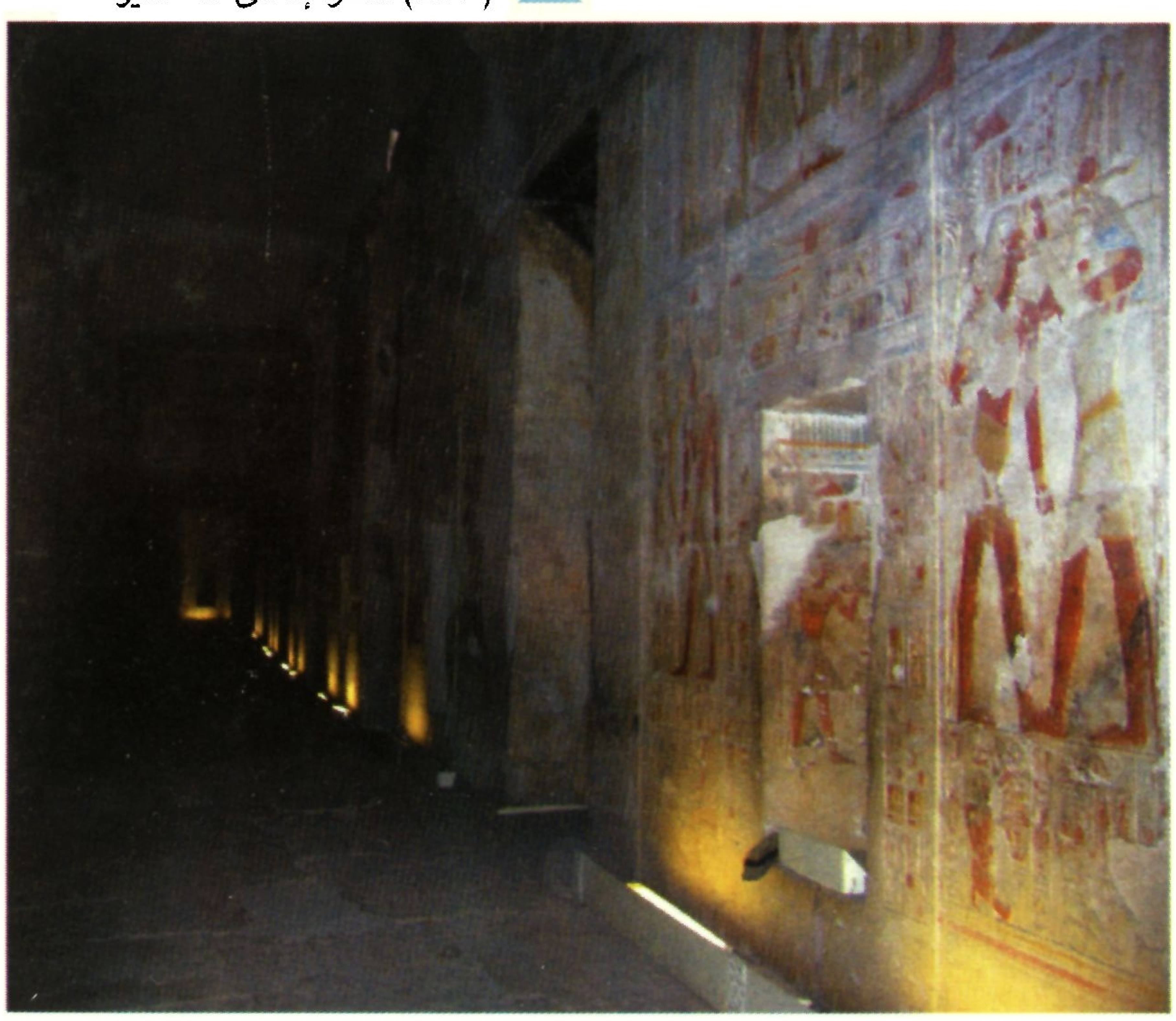
معبد سيتي هو من المنشآت الفخمة، وقد تم رفع الأنقاض عنه حديثًا بأمر الخديوي. ويعتبر معبد سيتي هو بحق المنمونيوم (-Memenoni um) بالنسبة لسترابون، وذلك لفخامة زخرفته. أسسه سيتي الأول والد رمسيس الثاني، كل ما يحمل اسم سيتي الأول في المعبد تمت معالجته بفن سوف ينال إعجاب كل الناس. وعلى العكس نجد أن تماثيل رمسيس متواضعة، لدرجة أننا نجد بها أحيانًا آثار إهمال واضح. علاوة على ذلك، يُعد معبد سيتي من المعابد المصرية التي يصعب إدراك معناها. وتحديدًا، يتكون من سبعة أروقة (nef) تؤدي إلى سبع مقاصير كما لو كان إهداء إلى سبعة آلهة(٤٩).



(139) منظر لإحدى المقاصير



(140) داخل المقصورة



(141) سبعة ممرات تؤدى إلى سبع مقاصير



(142) إيزيس ترضع سيتى الأول



(143) ممثل إحدى المقاطعات يقدم الهدايا



(144) مقدمو القرابين

الجناح الجنوبي غير متناسق تمامًا مع المبني الرئيسي، وهذه مسالة أخرى من الصعب إيجاد حلٍّ لها. نجد الملك سيتي الأول والملك رمسيس، وهما مؤسسا المعبد، يقفان وجهًا لوجه لدرجة نخلص منها إلى أن هذين الملكين حكما معًا. وبمعنى آخر، فإن المعبد كان في طور البناء حين أشرك الوالد ابنه في الحكم.



(145) الإله وب واوت يحتضن الملك سيتى الأول

وعلى سبيل العلم بالشيء عثر في معبد سيتي على قائمة بأسماء الملوك كاملة ومحفوظة [قائمة أبيدوس المشهورة التي كان لها بعض الأهمية في تحديد نظام تسلسل بعض الملوك غير المعروفين تمامًا] أفضل من التي تثرى متحف لندن (انظر المر الصاعد في جنوب الحجرة الثانية بصالة الأعمدة).



(146) الملك سيتى الأول ورمسيس الثانى أمام قائمة الملوك

في الصورة يظهر سيتي الملك وابنه الأمير رمسيس واقفين، أحدهما يقدم المبخرة، والآخر يتلو الترانيم والدعوات ، ونجد أمامهما قائمة ملوك تضم ٧٦ ملكًا (وأدرج سيتي نفسه بينهم) يقدم لهم هذا التكريم، ويظهر لنا على رأس هذه القائمة اسم مينا العريق مؤسس المملكة المصرية .



(147) سيتىالأول وابنة الأمير رمسيس الثانى أمام قائمة الملوك



(148) الملك سيتي الأول وابنه يقيمان العمود [جد] رمز أوزوريس



(150) آيون موتف يقدم البخور للملك سيتى الأول



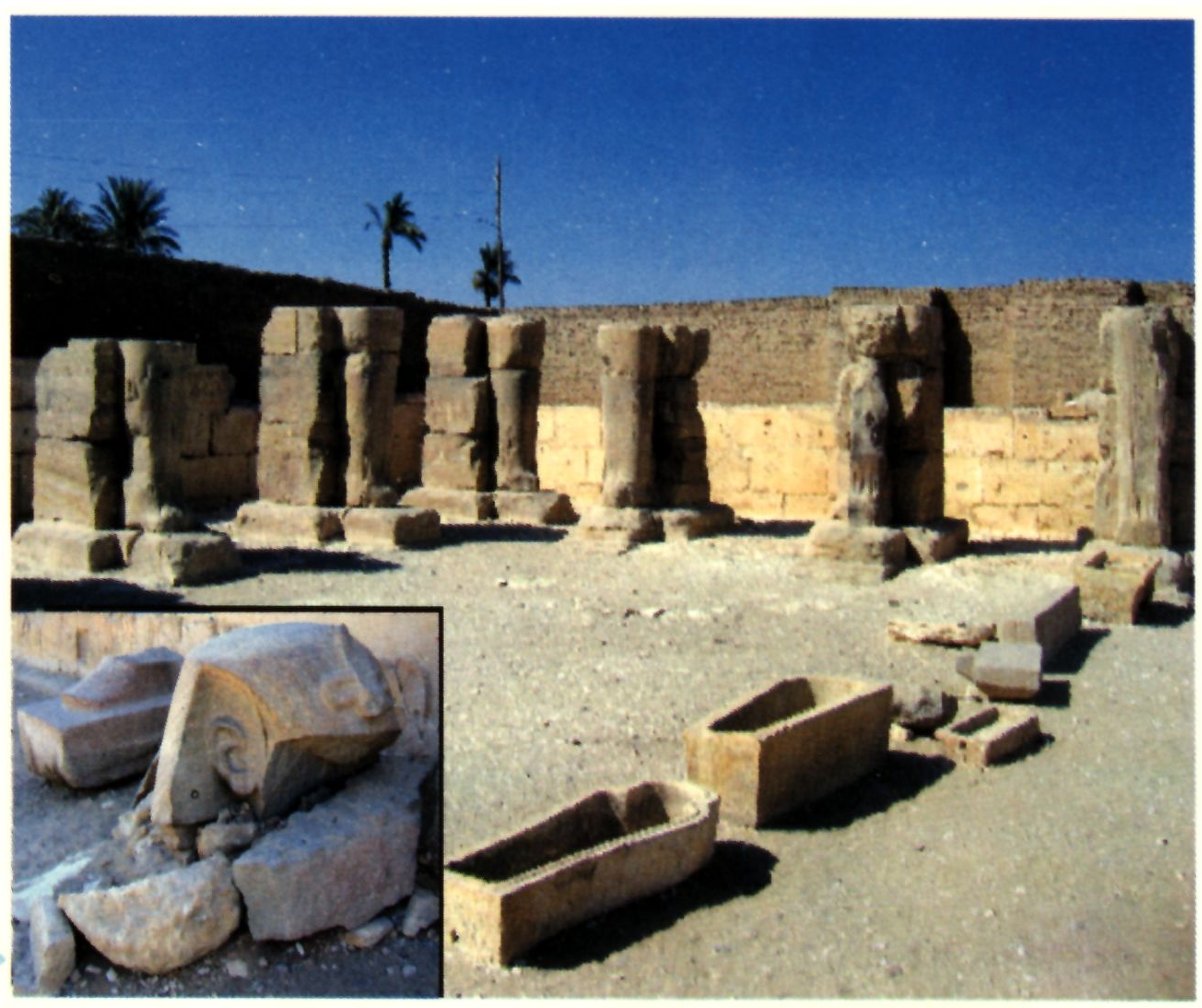
(149) الإله آيون موتف

ويوجد **معبد رمسيس الثاني** بعيدًا قليلاً على يسار معبد سيتي، ولم يتبق من معبد رمسيس الثاني إلا جدران يصل ارتفاعها حوالي ١,٥ متر عن سطح الأرض، وقد أتاح التنقيب بعد الانتهاء منه تشكيل رسم المخطط. وقد تم رفع قائمة لندن الملكية من هذا المعبد، وهي نسخة مبتورة من القائمة التي توجد كاملة في معبد سيتي.



(151) معبد رمسيس الثانى في أبيدوس

ونُدرك أن معبدًا تم إتلافه مثل الذي نراه أمامنا يظل تقريبًا صامتًا عن تفسير أمر الأسطورة. وعلى العكس من ذلك بالنسبة لتاريخ المنشأ؛ فنحن نعرف أن معبد رمسيس كان معاصرًا للمسلة المصرية بباريس؛ أي أن رمسيس الثاني بدأها، ولم يكن بعد سوى أمير يشارك في الحكم في حياة والده سيتي الأول، وأتمها رمسيس الثاني عندما كان وحده في الحكم.



(152) أطلال من معبد رمسيس الثانى

ونحن نتجه دائمًا إلى أعلى نحو الشمال نجد سورًا ضخمًا من الطوب اللبن. وفي هذا المكان كانت تقع (ثني) نجع الطينة (Thinis) مهد المملكة المصرية، وهناك أيضًا كانت توجد مقبرة أوزوريس، في أبيدوس والتي كانت مكانتها بالنسبة لسكان مصر نفس مكانة قبر السيد المسيح في القدس عند المسيحيين. بكل أسف لم يبق من أقدم مقبرة وأجلها بمصر. أي شيء مطلقًا، ولا يوجد أمل حتى في أن تساعد الحفائر على الكشف عنها(٥٠). ويوجد بالقرب من هذا المكان، وفي الميدان نفسه كومة يمكننا على العكس أن نضع فيها كل الآمال هي «كوم السلطان». ولا يعتبر كوم السلطان تلًّا طبيعيًا، ولكنه نتيجة تعاقب انهيار المقابر التي تراكمت فوق بعضها مع الزمن، وشكلت في النهاية هذه الكومة التي نراها أمامنا.(٥١) كان المصريون الأغنياء، حسب قول بلوتارك (Plutarque)، يأتون من كل أطراف مصر ليدفنوا في أبيدوس ليستريحوا بالقرب من أوزوريس.



(153) أعداء مصر صرعى تحت العجلة الحربية



(154) بعض الأسرى من الأجانب



(155) بعض الأسرى من شعوب مختلفة

ومن المحتمل جدًا أن تكون مقابر كوم السلطان ملك الأشخاص الذي يتحدث عنهم بلوتارك، ولا ترجع أهمية تل كوم السلطان إلى ذلك فحسب. فمن المؤكد أن مقبرة أوزوريس الشهيرة ليست بعيدة، وهناك بعض الأدلة التي تجعلنا نعتقد أنها قد حفرت بالضبط في الصخرة التي تشكل قاعدة التل، هكذا يرقد الأشخاص المدفونون في كوم السلطان بالقرب قدر المستطاع من المقبرة الإلهية.



(156) بعض الأعداء الذين غرقوا فى النهر



(157) العجلة الحربية وبعض المحاربين

وتقدم إذًا التنقيبات التي كانت تتم في ذلك الوقت في كوم السلطان منفعة مزدوجة: إذ يمكنها أولًا أن تضع بين أيدينا مقابر نفيسة والتي كلما اخترقنا سفح كوم السلطان تصبح قديمة أكثر فأكثر، لدرجة أنه من المعقول أن نفترض إمكانية العثور بينها على مقابر ترجع إلى الأسرة الأولى. و ثانيًا، إن عاجلًا أو آجلًا، يمكن أن تدلنا على مدخل المقبرة الإلهية التي لا تزال مجهولة إذا كانت هذه المقبرة تحت سطح الأرض. أما الجبانة فبقدر أهميتها فى أثناء الحفريات التي أمر سعادة الخديوي بالقيام بها (إذ إن أربعة أخماس النُصُب التذكارية العديدة التي نجدها في متحف بولاق أُخرجت من هذه الجبانة)،



(158) منظر للأضاحى بمعبد رمسيس الثانى

بقدر ما فقدت بالنسبة للزائر العادي أهميتها كما نراها اليوم مقلوبة رأسًا على عقب وغير واضحة المعالم. ونلاحظ أن مقابر جبانة أبيدوس ترجع أساسًا إلى الأسرة السادسة (٢٧٠٠ ق . م) والأسرة ١٢ (٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) والأسرة ١٣ (١٨٠٠ سنة)[٥٢] . ونلاحظ أيضًا أن معظم مقابر الأسرة ١٣ هي أهرامات بنيت لأسباب اقتصادية من الطوب اللبن، وتم تفريغ داخلها على شكل قبة ونلاحظ أخيرًا أنه ليس من النادر أن نجد بين مقابر ذلك العصر ومقابر الأسرة السادسة قبابًا ليست فحسب مجهزة على شكل مقطع قوطي، ولكن الحجر الذي يشكل القوس تم قطعه على شكل قنطرة.



(159) بعض الجنود الحيثيين



(160) الأوزوريون فى أبيدوس

اليوم الثامن:

نقضي اليوم الثامن حتى بعد منتصف الظهر على النيل ، ونصل إلى قنا حوالي الساعة الرابعة، وهو الموعد المناسب تمامًا لزيارة المدينة.

اليوم التاسع:

نقوم في صباح اليوم التاسع بزيارة معبد دندرة.



(161) واجهة الصالة الرئيسية فى معبد دندرة [معبد حاتحور]

ويعدّ معبد دندرة من أحسن وأهم المعابد المصرية المحفوظة وأهمها. وتم تشييده مثل كل المعابد المصرية في وسط حرم واسع يبعد ما يقرب من كيلومتر من جميع الجهات.[محيطه حوالي ١٢٠٠٠متر].

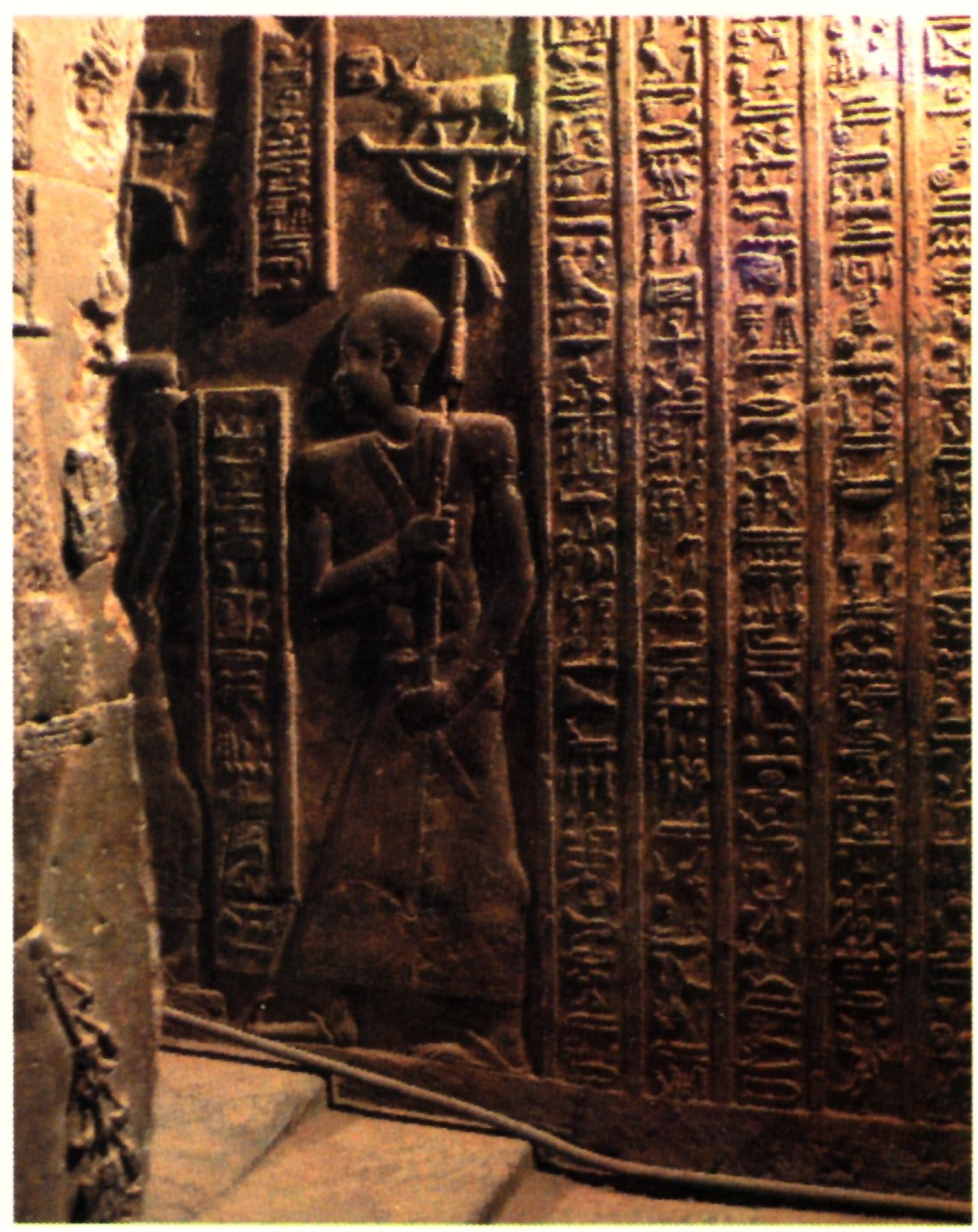


(162) معبد دندرة فى وسط حرم واسع

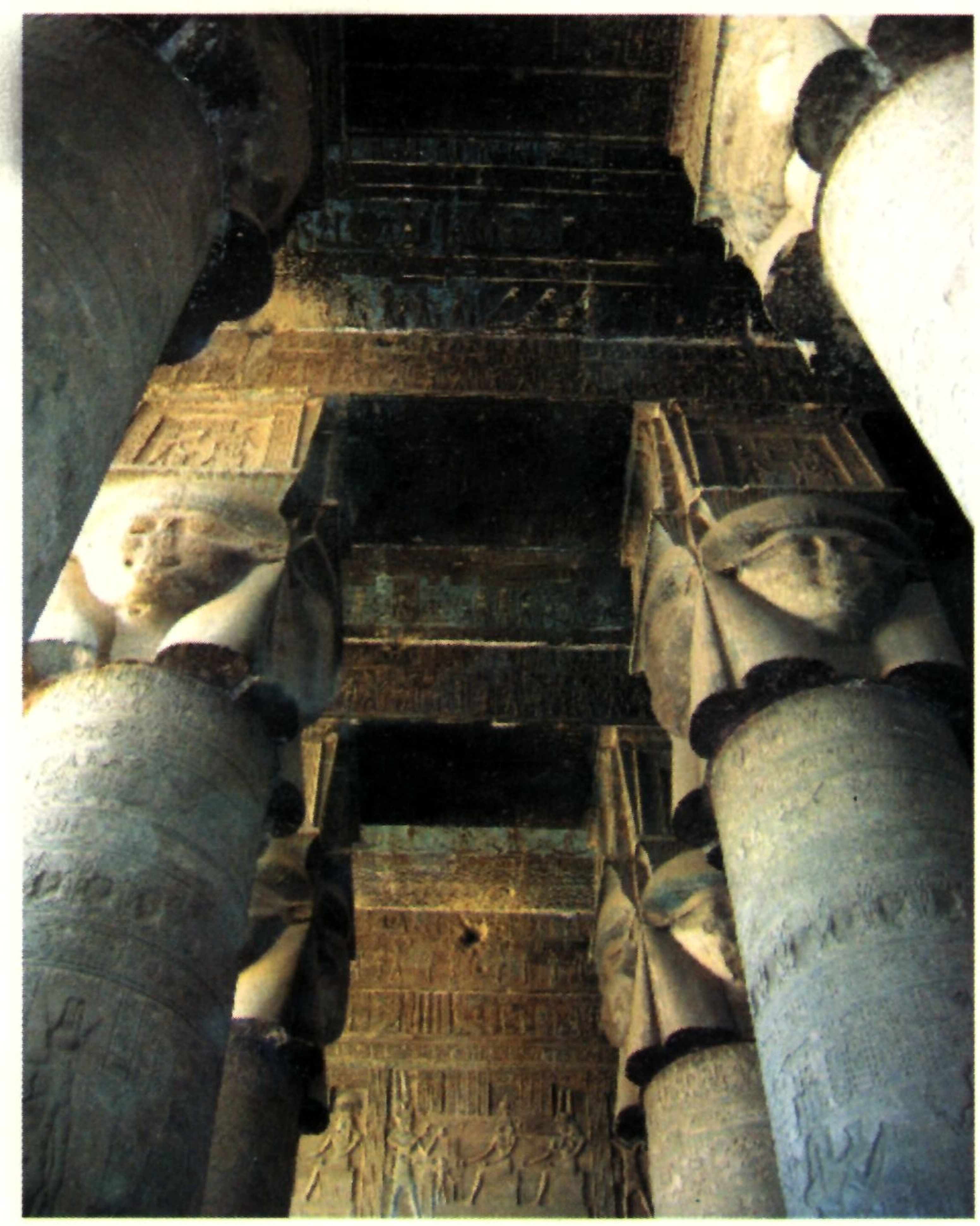


163) بوابة الصرح الأول في دندرة

ونستطيع تلخيص تاريخ معبد دندرة في سطرين: لقد بدأت أعمال البناء في عهد بطليموس الثالث عشر، وانتهت في عهد الإمبراطور الروماني تيبيريوس (Tibère)، وتم تزيين المعبد في خلال حكم نيرون (Néron)[٥٣]. وكان سيدنا المسيح يعيش في القدس أثناء الانتهاء من بناء المعبد. وتؤثر في النفس كثرة النصوص والمناظر والنقوش البارزة التي تغطي المعبد: فقد غطت الأسقف والأبواب والنوافذ و قواعد البناء وجدران السلالم.



(164) نصوص ونقوش بارزة



(165) أعمدة بتيجان حاتحورية – دندرة

ونلاحظ أن مئات المناظر التي تزين المعبد متشابهة؛ إذ يتقدم الملك المؤسس أمام أحد آلهة المعبد ويؤدي الطقوس الدينية، والواجب الديني، وهذا هو الموضوع الذي لا يمكن تجاهله. يتصرف الملك هكذا وكأنه رئيس كهنة المعبد أو بالأحرى، وكأنه حَبْر الدين الأعظم.

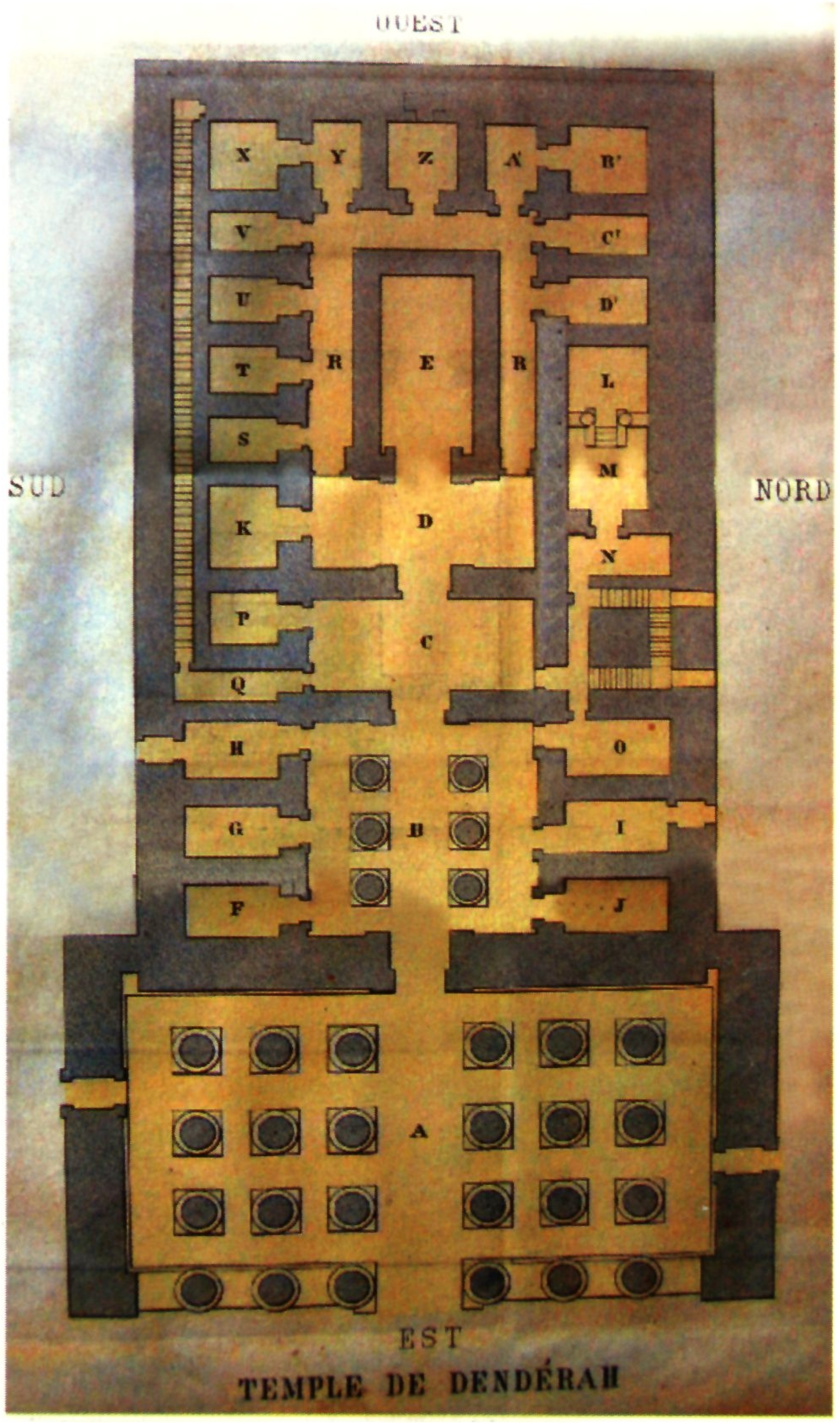


(166) الملك يقوم بأداء الطقوس الدينية أمام الآلهة

ونتساءل بالطبع عندما نكون في معبد دندرة: ما الغاية من هذا المبنى الضخم؟ وسوف نحاول الإجابة على هذا السؤال: يمكن توزيع حجرات معبد دندرة حسب موقعها إلى أربع مجموعات كما يلي:

١- تشمل المجموعة الأولى الصالة A (انظر الرسم المرفق). الصالة A عبارة عن واجهة ضخمة، مفتوحة تدخلها الأنوار الساطعة والأصوات من الخارج، وليس لها صلة مباشرة بالمعبد، وتم فتح بابين صغيرين على الجانبين لمرور الكهنة ودخول القرابين التي كما سنرى تمثل دورًا مهمًا في العبادة داخل المعبد. أما الباب الكبير فهو مخصص لعبور الملك وحده. يأتي الملك إلى المعبد مرتديًا رداءه الطويل ومنتعلاً صندلاً في قدميه وممسكًا صولجانًا في يده.

وقبل دخول المعبد يجب على الآلهة أن تتعرف عليه على أنه ملك مصر العليا والسُفلى والمناظر التي على يمين باب الدخول وشماله تصور احتفالات هذا التتويج. ونشاهد الملك خارجًا من القصر، ويتقدم نحو باب المعبد. على اليمين أي الجانب الشمالي نتعرف عليه كملك لمصر السفلى وعلى اليسار أي الجانب الجنوبي يطلق عليه اسم ملك مصر العليا. وعندما يصل إلى مكان محدد يصب الإله جحوتي (Thoth) والآلهة [حاتحور] والإله حورس (Horus) على رأسه رموز التطهير وتقوم الإلهتان (Ouat'i et Suvan) واجيت (إله الشمال) ونخبت (إله الجنوب)، بوضع التاج المزدوج على رأسه وبعد ذلك يمسك الإله مونتو (Month) إله أرمنت وطيبة وإله الحرب وآتوم (Toum) إله هيليوبوليس بيد الملك ويقودانه أمام الإلهة . ولا تعتبر الصالة A سوى المدخل أو مكان العبور، حيث يستعد الملك فيها للاحتفالات التي سوف تُقام من أجله داخل المعبد.



(168) رسم تخطيطى لمعبد دندرة



(167) الإلهة حاتحور وابنها



(169) إمبراطور رومانى يقدم القرابين للإلهة حاتحور والإلهة حور بحرتى



(170) أحد الأباطرة أمام إحدى الإلهات

٢-وتشمل المجموعة الثانية الحجرات B,C,D,E,F,G,H,I,J,K، وفي هذه المرة نكون في داخل المعبد بالفعل. كل شيء فيه مغلق، كل شيء داخله مظلم وساكن، ويجتمع الكهنة في حجرات المجموعة الثانية العشرة, ويتم فيها إعداد الأعياد، يوجد تقويم منقوش على جدران الصالة B يدلنا على طبيعة هذه الأعياد، وهي عبارة عن احتفالات دينية تطوف في المعبد، وتصعد إلى الأسطح، ثم تنزل منها لتجوب أجزاء الفناء الخارجي المختلفة حسب الطقوس المنصوص عليها. غير أن هذه الاحتفالات الدينية كانت تبدأ في الصالة B. أما الصالات الأخرى فكانت تستخدم في إعداد القرابين المخصصة للظهور في الأعياد، وتستخدم في حفظ وتخزين الشعارات التي يحملونها بعظمة خلال الاحتفالات الدينية، وهذا ما سنراه. كانت الصالتان D و C ملحقتين بالصالة B، ونجد فيهما المذابح التي كان يتم أمامها في أثناء المرور تلاوة بعض الصلوات. و بالصالة E كانت تحفظ القوارب الأربعة التي كانت تقوم بأحد الأدوار الرئيسية في الاحتفالات الدينية.



(171) ممرات داخل المعبد

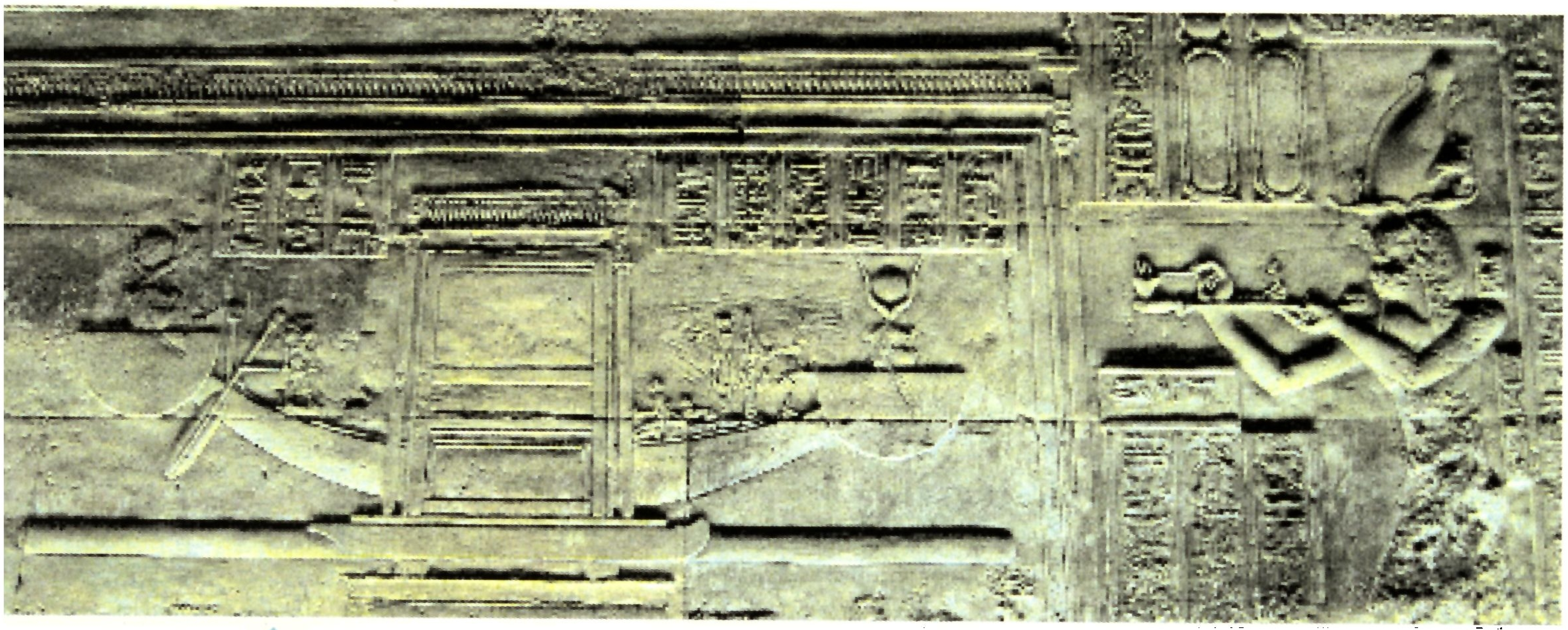


(172) تقديم القرابين - منتجات الحقول



(173) تقديم قرابين سائلة

كانت هذه القوارب توضع في وقت الراحة فوق صناديق، وعند خروجها من المعبد كانت توضع بإحكام على قضبان من الخشب لنقلها. ويوجد في وسط كل مركب مقصورة مغلقة يوضع فيها الرمز السري للإله الذي خصص المركب له. ولمزيد من الحذر تم وضع ستارة حجرية على هذه المقصورة حتى لا تراها الأنظار(قارن في الكتاب المقدس وصف السفينة).



174) القارب المقدس

الحجرة F عبارة عن معمل تعد فيه الزيوت والعطور اللازمة لتطييب المعبد وتماثيل الآلهة. الحجرة G هي المكان الذي يتم فيه جمع وتحديد المنتجات التي سوف تظهر في الاحتفالات. وتشكل الحجرتان H وI ممرين: ممر للقرابين التي تأتي من مصر السفلى، والآخر للقرابين التي تأتي من مصر العليا. ويحدد فيهما في الوقت نفسه بعض القرابين من الخبز و من الزيوت تكريمًا للإله.

والحجرة J هي كنز المعبد، وكل المناظر داخل هذه الحجرة توضح الملك وهو يكرم الآلهة، ويقدم لهم الآلات الموسيقية (الفرعونية القديمة) والدروع والمرايا وأدوات البيت من جميع الأصناف مشغولة بالذهب و الفضة واللازورد.

والحجرة K هي مخزن ملابس لتماثيل الآلهة، وتحفظ هذه الملابس في صناديق صغيرة مغلقة، علمًا بأن كل أقاليم مصر تساهم في الحفاظ على الأشياء الموجودة في الحجرة K.



(175) تقديم القرابين



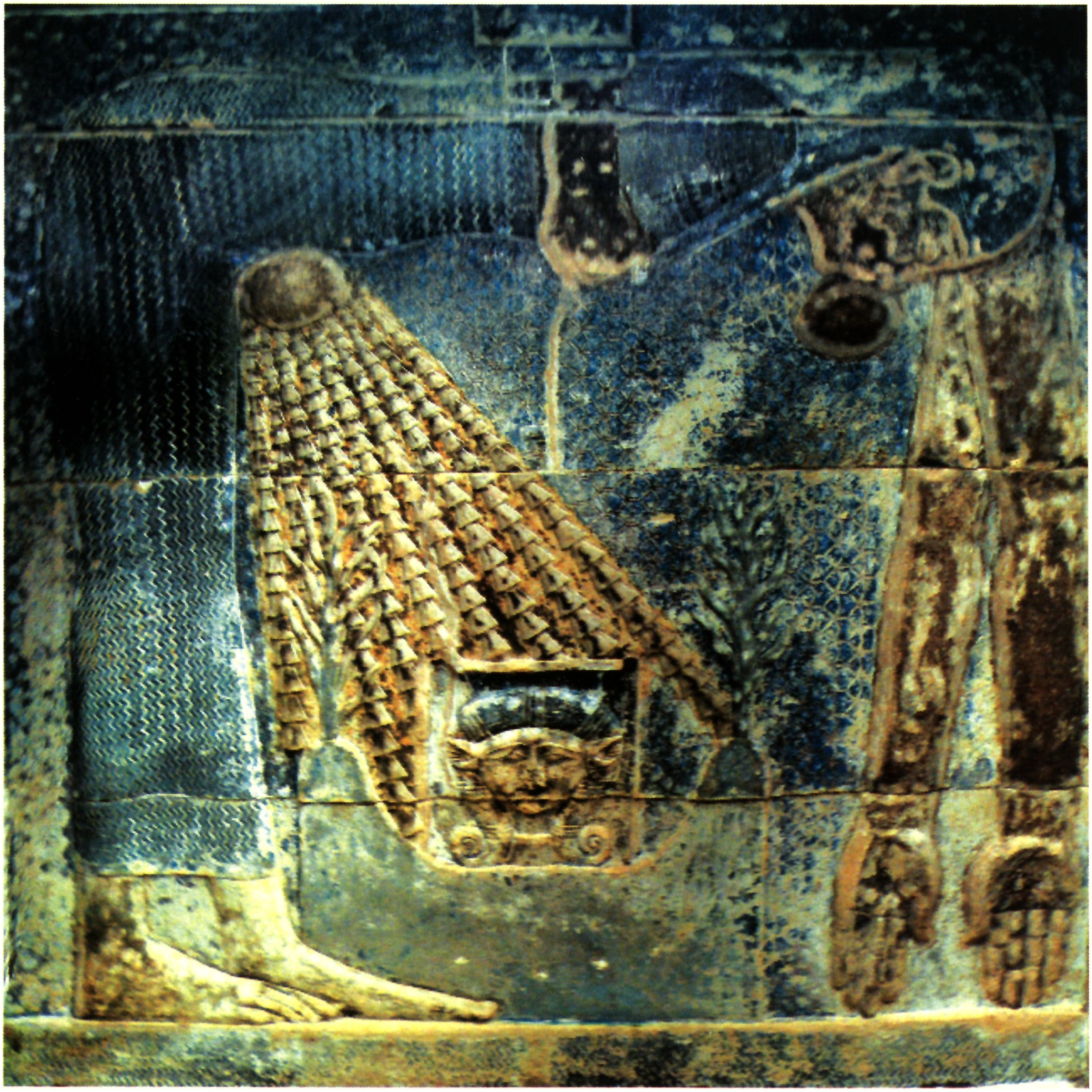
(176) تقديم القرابين

٣- وتشمل المجموعة الثالثة المقصورة الصغيرة L والفناء M، أما الصالات N و O و P وQ والسلم الشمالي والسلم الجنوبي، وأخيرًا معبد صغير ذو ١٢ عمودًا يقع على السطح، ولا يمكننا أن ندرجه في الرسم. ويعتبر عيد المعبد الرئيسي هو عيد رأس السنة الذي يحتفل به بمناسبة ظهور نجمة الشعرى اليمانية (Sirius) ، وهو في غاية الأهمية لدرجة أنه خصص له في دندرة معبد صغير داخل المعبد الكبير.



(177) مقصورة الاحتفال بعيد رأس السنة

ويتكون هذا المعبد الصغير من الأقسام التي ذكرناها . تتم تلاوة الصلوات في المقصورة L . و يتم جمع القرابين في الفناء M وجمع أطراف الذبائح. وكانت الحجرة الصغيرة N مكانًا آخر لحفظ الأشياء الثمينة التي كان لابد أن تظهر في هذا العيد الخاص. وفي الحجرات الثلاث P وQ وO كان الملك يخصص بعض القرابين.



(178) مقصورة الإلهة نوت إلهة السماء

ويتضمن احتفال عيد السنة الجديدة مثل كل احتفالات المعبد الأخرى مجموعة من المواكب، وسوف نجد تفاصيل هذه المواكب على جدران السُلمين. يسير الملك في مقدمة الموكب يتبعه ثلاثة عشركاهناً يحملون عصا يعلوها شعارات الآلهة المختلفة.



(179) موكب الكهنة على السلم فى أثناء أحد الاحتفالات

و يصعد الموكب بهذا التشكيل على السلم الشمالي، ويتوقف فوق السطح عند المعبد الصغير الذي يمثل كل عمود من أعمدته الاثنى عشر شهرًا من شهور السنة، وينزل الموكب عن طريق السلم الجنوبي.



(180) مقصورة حاتحور فوق سطح المعبد



(181) رموز الأبراج السماوية

٤- وتشمل المجموعة الرابعة الحجرات:
S,T,U,V,X,Y,Z, A'B'C'D' يوجد هنا جزء المعبد المخصص للأسطورة. وتوجد به نواة الزمن بأكملها، وهي عبارة عن كوة في الحجرة Z لا يستطيع إلا الملك وحده أن يدخلها، و تم فيها إخفاء شعار المعبد الغامض عن الأنظار، وكان عبارة عن عمود حاتحور الكبير من الذهب.

أما الحجرات فلم يكن لها مثل غيرها هدف واضح رغم أنه كان يحفظ بها الأشياء المخصصة للعبادة، ولكنها كانت أماكن خاصة لتلاوة الصلوات. في الحجرة S يتم التضرع إلى إيزيس، و خصصت الحجرة T لأوزوريس. وفي هذه الحجرة كان المفروض أن يعود أوزوريس بعد موته إلى الحياة، وهو ما كان يعبر عنه بشكل رمزي في الحجرة عند تغيير الملابس التي كانت تغطي تمثال الإله. وكانت الحجرة U المكان المقدس لأوزوريس ون-نفر (Osiris -Onnephris)، وفي هذا المكان



(182) الإلهة إيزيس



(183) حجرة أوزوريس المقدسة



(184) الطائر أبو منجل والعين المقدسة وجات

يجدد الإله جسده، ويسترد قوة أعضائه، ويبدو كأنه قد انتصر على أعدائه المتمثلين في شكل تمساح يحمل رمحًا يجعله « يتراجع إلى الوراء » .

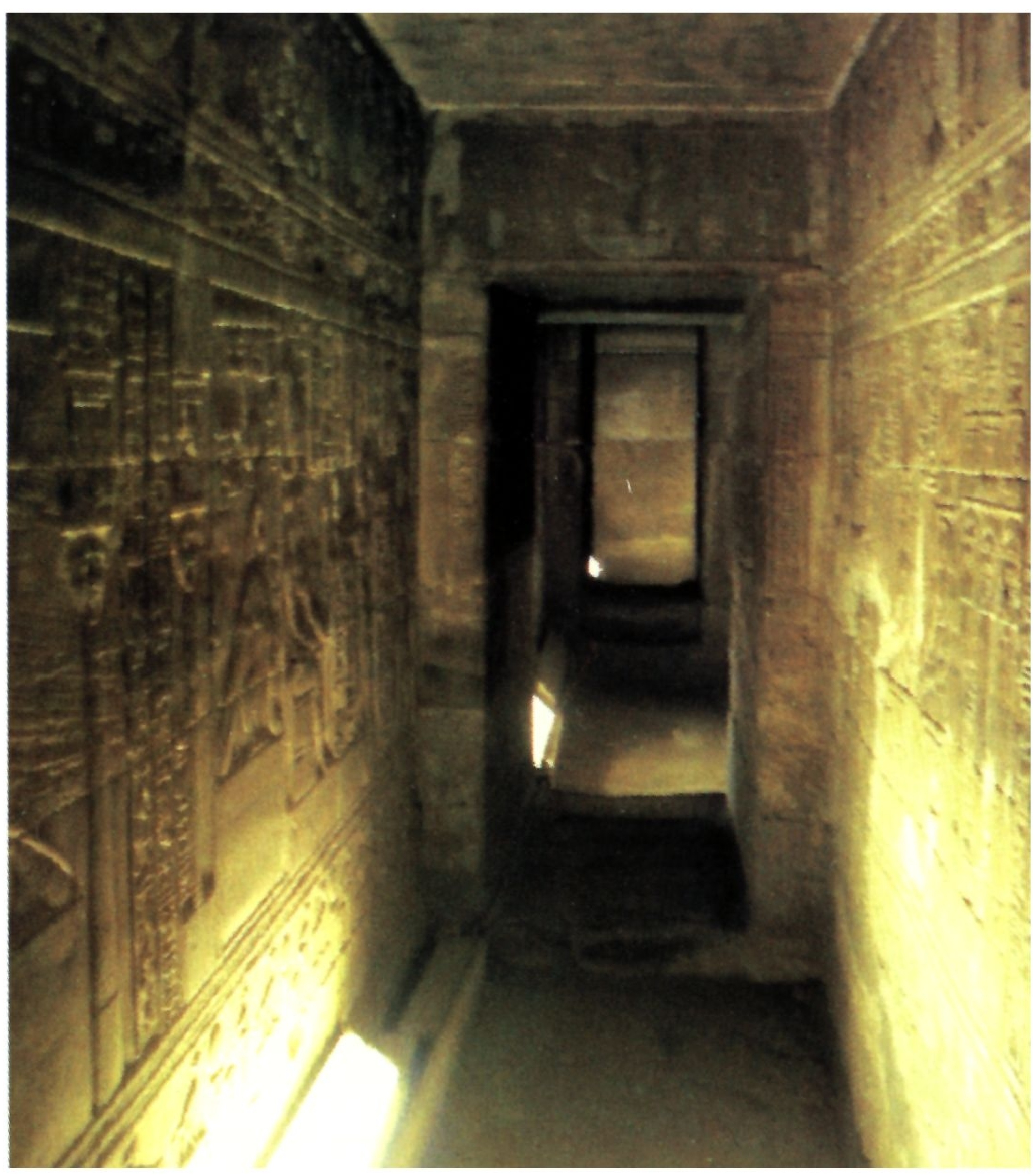
تتم في الحجرة V عملية البعث، ويظهر الإله على شكل حورس تاوى (Hor-sam-to) في الحجرتين X و Y يتم تكريم حاتحور الذي يعتبر الوعاء الذي تولد منه الشمس يوميًا . وتقع الحجرة Z في محور المعبد ، ويتم فيها عبادة الآلهة الرئيسية بكل ألقابها الأكثر شمولًا. وأخيرًا في الحجرات: "A'B'C'D" تقدم شعائر خاصة للإله باشت (Pascht) الذي يعتبر إله النار التي تُحيي الشعائر لحورس الذي يعتبر النور الذي ينتصر على الظلام وللإلهة حاتحور المرتبطة بالأرض.



(185) حورس فى القبو فى معبد دندرة



(186) الأسوار العالية التى تحيط المعبد



(187) سرداب تحت المقصورة

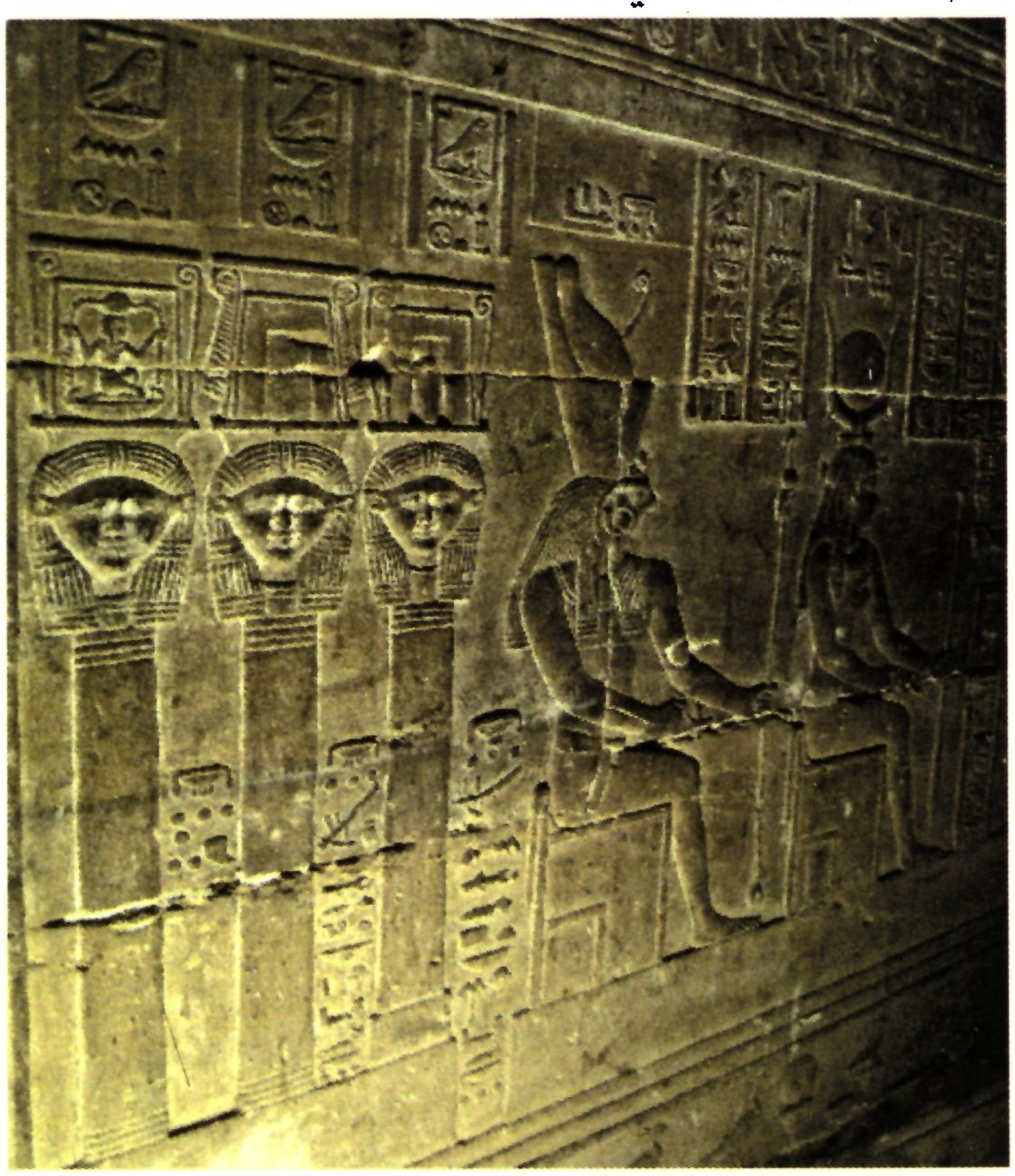
هذا هو المعبد بمعنى الكلمة؛ فليس المعبد إذا مثل المقصورة مكان يجتمع فيه المصلون لأداء الصلاة؛ إذ لا توجد فيه مساكن للكهنة ولا أماكن للتعليم ولا آثار للتنبؤ أو الوحي الإلهي. وليس هناك ما يجعلنا نفترض أنه قدْ سمح لغير الملك والكهنة بدخول أي شخص من طوائف الشعب، ولكن المعبد هو مكان للتخزين والإعداد والتقديس. وتقام بداخله بعض الاحتفالات، ويتم فيه التجمع من أجل المواكب، وتحفظ فيه أدوات العبادة، وإن كان الظلام يخيم علي كل شيء، إذ لا يوجد في هذه الأماكن شيء يدل على استخدام المشاعل أو أي نوع من الإضاءة، ويسود الظلام بشكل يكاد يكون كاملاً؛ فليس الهدف من ذلك أن يضيف الظلام من غموض الاحتفالات، ولكن الهدف كان استعمال الوسيلة الوحيدة الممكنة لحماية الأدوات الثمينة والملابس الإلهية من الحشرات والذباب والتراب من الخارج ومن الشمس، بل من الحرارة نفسها.



(188) القبو أسفل أرضية المعبد

أما بالنسبة للاحتفالات الرئيسية، والتي كان المعبد نواتها ومركزها؛ فقد كانت عبارة عن مواكب تنتشر في الخارج في ضوء الشمس حتى حدود السور من الطوب اللبن. خلاصة القول أن المعبد لم يكن إذًا بأكمله في داخل أسواره من الطوب ولكن كانت حدوده الحقيقية هي حدود الفناء الخارجي.

في المعبد نفسه كان يتم إقامة الآلهة وإلباسهم وإعدادهم للاحتفال؛ فقد كان المعبد نوعًا من [المرهف] لا يدخله أحد سوى الملك أو الكهنة، أما في الفناء الخارجي المحاط بالسور فكانت تطوف فيه المواكب الطويلة، ورغم أن الجمهور لم يكن يسمح له بالدخول، فإننا نعتقد على الأقل أن بعض الملمين بالعادات كانوا يستطيعون الوجود فيه. ونضيف إلى ذلك أنه في ظل الواقع الحالي، لا تتيح لنا المنازل القبطية والعربية التي انتشرت في كل نطاق المعبد، وفي الميدان المحاط بالسور أن ندرك كيف كان المعبد عندما أقيم منفردًا وشامخًا في وسط هذا الفضاء الواسع أمام المعبد، والتي كانت تحدد الأسوار العالية والقائمة من الطوب أركانه الأربعة في الأفق.



(189) حاتحور ورموزها المقدسة

ويوجد جزء من المعبد لم نتحدث عنه حتى الآن، وقد اعتاد الرحالة زيارته، ونقصد بذلك السراديب(٥٤) الموجودة تحت المقصورة، والتي يدفن فيها الموتى. والسراديب عبارة عن ممرات سرية، ضيقة ، طويلة أعدّت في سمك أساسات المعبد الضخمة وجدرانها. وكان هدف المهندس المعماري أن تكون السراديب عبارة عن سجون مظلمة بدون أبواب أو نوافذ، وبدون أية فتحة، وعندما يراد الدخول فيها لا يمكن ذلك دون إزاحة الحجر الذي وضعت عليه الأختام، والذي يحجب المدخل عن الأنظار. ماذا كان الغرض من هذه السراديب ؟

لا يمكن أن نشكك في الهدف المادي من هذه السراديب، فقد كان يوضع فيها تماثيل الآلهة المصرية من الذهب ومن الفضة ومن خشب الأرز ومن الخشب وبعض الآلات الموسيقية الفرعونية القديمة والعقود والرموز من كل نوع، وفي بعض أيام الأعياد كانوا يأتون لأخذها ليرتدوها للزينة في المواكب. أما في غير هذا الوقت الذي تستخدم فيه هذه الأدوات للزينة تبقى هذه السراديب محكمة الإغلاق لدرجة أننا لا نستطيع أن نشك في وجود الحجرات الداخلية بالمعبد.



(190) رأس حتحورية

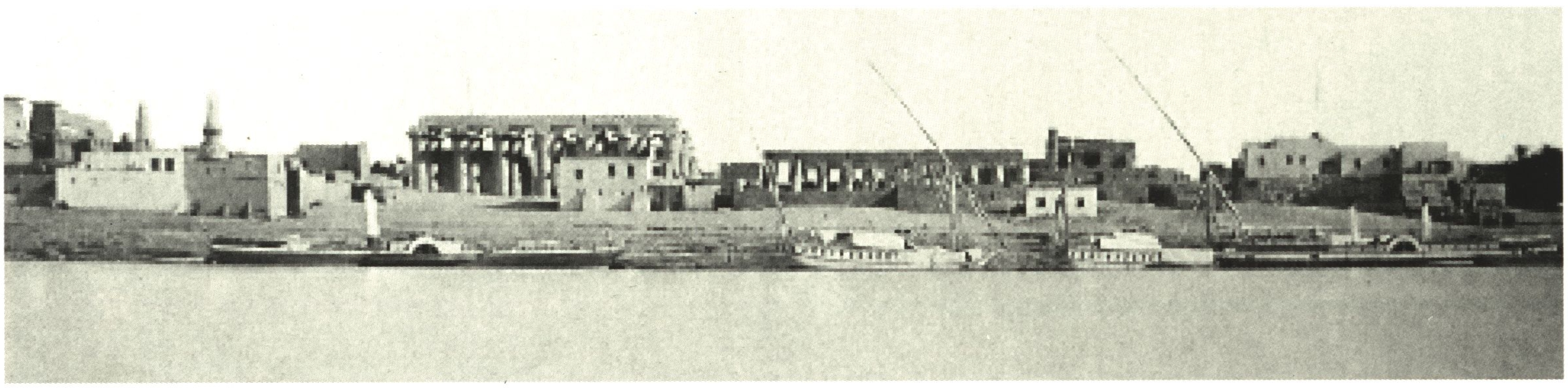
ولكن إذا كانت فكرة استخدام السرداب كمخزن قد تم إثباتها بوضوح، فليس الأمر كذلك بالنسبة للفكرة التي قامت عليها بناء هذه السراديب الخفية، رغم النقوش العديدة التى تغطى جدران هذه السراديب. ولسوء الحظ، وبقدر ما تهتم هذه النقوش بإفادتنا بمقاييس الأدوات المحفوظة بداخلها وعددها والمادة التي صنعت منها، بقدر ما تعتبر هذه النقوش بالنسبة لكل ما تبقى وبدون فائدة تذكر، ومهما يكن اهتمامنا فمن المستحيل أن تدلنا هذه السراديب على ما طبيعة العلاقة التي تربطها بالمعبد. ونتصور أن بناء هذه المرات المختفية في التربة له علاقة بأفكار الدفن والبعث والحياة الكامنة والحياة العملية والإنبات الجوفي والإزهار، والتي يقدم المعبد تطبيقات كثيرة لها.

اليوم العاشر:

تمتد طيبة على شاطئ النيل مثل باريس على شاطئ السين ولندن على شاطئ التيمز.

يقع معبدا الكرنك والأقصر على الضفة الشرقية، ويوجد على البر الغربي من الشمال إلى الجنوب معبد القرنة ومعبد الدير البحري والرمسيوم (رمسيس الثاني) والتماثيل الضخمة (تمثالا ممنون) ودير المدينة ومعبد مدينة هابو. وبالإضافة إلى المعابد السابقة هناك معابد أخرى إلى الشمال من طيبة، وقد تهدمت، وقد ترك بعضها أثرًا نتعرف عليه بالكاد.

ويوجد أيضًا على البر الغربي مقابر طيبة المختلفة ، وخلف معبد القرنة هناك جبانة يطلق عليها دراع أبوالنجا. وقبل الدير البحري توجد جبانة ثانية اسمها العساسيف، وأخيرًا على سفح التلال الواقعة خلف مقبرة رمسيس الثاني توجد جبانة ثالثة تُدعى شيخ عبد القرنة وقرنة مرعي، ولن نتحدث إلا على سبيل الذكرى عن وادي الملكات ووادي الملوك (باب الملوك) الواقعة بعيدًا في الصحراء .



(191) معبد الأقصر مطلاً على نهر النيل



(192) صالة الأربعة عشر عمودًا فى معبد الأقصر

وسوف نخصص صباح اليوم الأول في طيبة لزيارة الأقصر الذي بدا مُحاطًا بالمنازل الحديثة التي زحفت عليه بشدة. إن معبد الأقصر لا يمثل بالنسبة للزائر إلا أهمية قليلة. معبد تخطيطه غير منتظم، ويرجع ذلك إلى أن المعبد قد بني في الأصل على شاطئ النهر عموديًا على الرصيف الذي يتبع دوران النهر. ومن الناحية التاريخية، يرجع معبدالأقصر

إلى عهد الملك أمنحتب الثالث أحد ملوك الأسرة ١٨ (١٦٠٠ – ق.م) ، ويرجع الصرح[٥٥] الذي يطل على النهر إلى حكم حورس (١٤٨٠ ق.م)، وأقام رمسيس الثاني (١٤٠٠ ق.م) المسلتين والتماثيل الضخمة الواقعة خلفهما والصرح (Pylône) الذي يمثل واجهة المعبد .



(193) صرح معبد الأقصر والمسلة

ونجد بالداخل أسماء الملوك طهرقا (Tahraka) وإبسماتيك والإسكندر الأكبر الذي وإن لم يكن يرجع لعهده البناء، فعلى الأقل قام بزخرفة جزء من قدس الأقداس (sanctuaire) [إذ أعد لنفسه مقصورة داخل مقصورة الملك أمنحتب الثالث] .



(194) خلفية الصرح

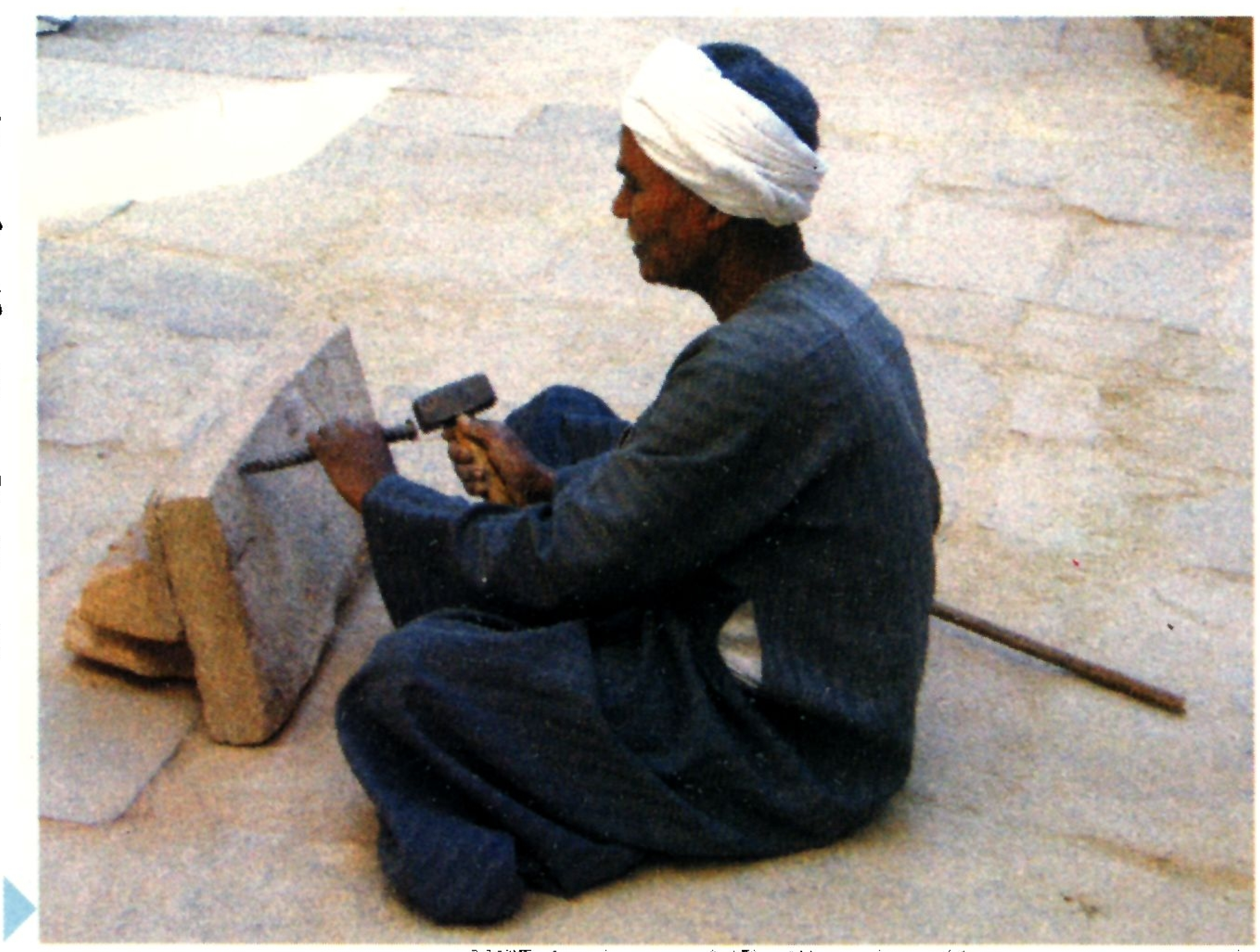


(195) مسلة رمسيس الثانى أمام معبد الأقصر



(196) تمثالا رمسيس الثانى فيمدخل معبد الأقصر

ونعرف أن الأقصر كانت إلى حد ما مركزًا غير شرعي لتجارة الآثار. ولما كانت الحفائر ممنوعة منعًا باتًا في مصر، وكانت هذه الحفائر وحدها هي التي يمكن أن تغذي هذه التجارة؛ فقد نجم عن ذلك أن أصبحت الأقصر مركزًا في الوقت نفسه لبعض الورش التي يتم فيها تقليد الجعارين والتماثيل الصغيرة واللوحات الأثرية(stèles) بمهارة قد تثير في أغلب الأحيان حيرة تاجر الآثار المتمرس.



(197) إعداد النماذج الأثرية

وسوف نتجه بعد الظهر إلى **الكرنك.**



(198) معبد الكرنك وطريق الكباش

ويعتبر الكرنك هو أعجب أطلال يمكننا مشاهدتها، ومن وجهة النظر هذه لابد لنا من زيارة الكرنك. وفي الواقع، فإنه من المستحيل محاولة توضيح تخطيط وهدف الكرنك مثلما فعلنا بالنسبة لمعبد دندرة؛ إذ كانت هناك وحدة من قبل بين عناصر المعبد فقد انتهت اليوم نهائيًا هذه الوحدة ليس فقط بسبب الدمار الذي تعرض له المعبد، ولكن أيضًا عبر العصور التي مرت عليه منذ أن كان بحالة سليمة. وسوف يجد تجار الآثار في الكرنك بعض سنابل يلتقطونها، ويجب أن يرى الزائر هذا المعبد، وكأنه أثر يثير الدهشة بعظمته وضخامته وبتكدس الأطلال التي يراها فيه، والتي تفوق التصور. ومن هذه الناحية لن نرى أبدًا الكرنك بما فيه الكفاية، وكلما جئنا إليه عظمت الفكرة التي أخذناها عنه. (انظر دليل أزاميار وجوان)؛ حيث تجد وصفًا جيداً للكرنك.



(199) أجزاء من معابد الكرنك

ومع ذلك من الصعب أن نغادر معبدًا بمثل هذه الأهمية دون التوقف عند بعض تفاصيله، وسوف نشير إلى المواقع التي من المهم اطلاع الزوار عليها، وهي:

١- صالة الأعمدة (hypostyle) :



تشمل صالة الأعمدة وحدها ١٣٤عمودًا، يبلغ طولها ١٠٢ متر، وعرضها ٥١ مترًا، وأقدم خراطيش بها تخص الملك سيتي الأول (الأسرة ١٩ ، ١٤٥٠ ق.م). و مع ذلك فإن هناك بعض الدلائل التي تجعلنا نعتقد أن سيتي لم يشيد الصالة، وأن إنجاز هذا التصميم الفخم يرجع إلى أمنوفيس الثالث(٥٦) .



٢- نقوش بارزة في الجدار الخارجي شمال صالة الأعمدة:

تعدّ هذه النقوش الغائرة أغنى الآثار التي نملكها عن فترة حكم الملك سيتي الأول؛ فقد قام الملك فيها - دون اهتمام باتباع الدقة في التسلسل التاريخي أو الطبوغرافي- باستعراض الحملات التي قام بها في آسيا الصغرى ضد الآراميين والآشوريين وقبائل الشاسو (schasou) (البدو)، ...إلخ.

يعتلى سيتي عربته التي تقودها الخيول (اسم أول الخيول: القوة في منطقة طيبة) إلى المعركة. وأعداؤه هم الشاسو [من سكان الصحراء]، ويلحق سيتي الأول بهم ويمزقهم بسهامه ومن ينجو منهم يندفع داخل قلعة كنعان (Kanana) التي يستخدمونها ملاذًا لهم.



(202) سيتى الأول على عجلته الحربية



(203) نقوش فى سقف الأعمدة

وإلى جانب هذه النقوش هناك مشهد آخر لمعركة، ولكن الأعداء فيها هم شعوب خارو[سكان فلسطين] (Kharo) يسقطون أمام ضربات الملك. لم تعد خارو منذ ذلك الوقت إلا إقليمًا من الإمبراطورية المصرية والقلاع التي استولى عليها سيتي فقدت اسمها ليحل محلها اسم آخر يضم معه اسم الفرعون المنتصر.



(204) استيلاء الملك على القلاع والحصون

ونرى معركة أخرى وهذه المرة ضد قبائل رتينو (Rotennou) (من سكان سوريا) " الذين لم يعرفوا مصر" . وقد جاء الأسرى مكبلين بالسلاسل لتقديمهم إلى آلهة طيبة.



(205) الأسرى مكبلين بالسلاسل



(206) عودة الملك المنتصر وأمامه الأسرى



يعود الملك المنتصر إلى مصر، ويتوقف عند طريق سيتي " وات إن سيتي " (Ouat'i-en-Séti)، ثم يعبر قلعة أخرى اسمها «تا سم إف إن با (ta-sam-ef-en-p...)، وبعد ذلك قلعة ثالثة (Pa-ma)،اسمها «با ما»، ويصل أخيرًا أمام مدينة مغلقة ضاع اسمها (Pithom-en) بيتوم إن يسبقه عدد كبير من الأسرى من كل الأمم . وهناك بالقرب من مجرى ماء مليء بالتماسيح يستقبل الموظفين الأساسيين بمصر الذين جاءوا يهتفون لجلالته.

(207) الأسرى من كل الأمم بالقرب من ممر مائى

مشهد رمزي عظيم، يرفع الملك السلاح على مجموعة من الأسرى يقبض على شعورهم، وسوف يقدمهم ضحية أمام آله طيبة، ونجد مشاهد حرب جديدة يحارب فيها الملك أعداء يركبون عجلاتهم الحربية ...إلخ.



(208) الملك يقبض على الأعداء ويقدمهم للإله آمون

٣- النقوش المسجلة على الجدار الخارجي جنوب صالة الأعمدة:

سوف يجد الزائر الذي ينتقل إلى الجانب الغربي لهذا الجدار إلى جوار الباب المؤدي إلى الفناء الكبير منظرًا جديرًا بالانتباه. لقد تم نقش هذا المنظر تخليدًا لذكرى معركة انتصر فيها أول ملك من ملوك الأسرة ٢٢ (اسمه شنشق في النصوص المصرية والكتاب المقدس) على فلسطين. يظهر شنشق على اليمين رافعًا ذراعه، ويضرب مجموعة من الأسرى راكعين عند قدميه. وعلى اليسار يتقدم أمامه آمون إله طيبة ورمز طيبة في صورة امرأة تمسك بيدها جعبة سهام والقوس والأسلحة. يتبع هاتين الإلهتين ما يقرب من ١٥٠ شخصًا ظهرت رءوسهم فقط وتختفي أجسامهم خلف نوع من القطع الناقص (أهليلج) (Ellipse) المُشرف الذي يصور رسم قلعة أو مدينة . وتفسر النقوش معنى هذا المنظر. تقدم الآلهة بنفسها إلى شنشق المدن التي استولى عليها في معركته. يمثل عدد الحصون عدد القرى المنهزمة، بالإضافة إلى ذلك هناك أهمية خاصة تتعلق بهذا المنظر يجب علينا ألا نتجاهلها . لقد قرأ شامبليون في الخرطوش رقم ٢٩ جودة – ملك (Joudah- melek)، وكان قد استنتج أن الرأس التى تعلو الحصن هي صورة ملك يهوذا نفسه الذي انتصر عليه شنشق، ولكن أبحاث بروجش (Brugsch) أثبتت أن جودة – ملك هو اسم قرية في فلسطين مثل الأسماء الأخرى دون استثناء، وبناء عليه لا يوجد سبب يجعلنا نرى في الشخص الذي يرمز إلى قرية جيروبوآم (Jéroboam).

ونضيف إلى ذلك أن النحات قد أعطى ١٥٠ شخصًا شكلاً يكاد يكون شائعًا يعبر في مجموعه عن شكل الشعوب المهزومة، ولكن للتعرف على الملامح الحقيقية لهذه الشعوب من الأفضل النظر إلى الشخصيات التي درست بعناية أكثر، والتي رفع عليها الفرعون المنتصر سلاحه.



(209) مجموعة من الشعوب المنهزمة



(210) تفاصيل ملامح شخصيات من الشعوب المنهزمة



(211) موقع جدار معاهدة السلام

يمتد الجدار نفسه نحو الشرق، ويتوقف عند جدار آخر يقطعه من الناحية اليمنى. وإذا صعدنا على هذا الجدار الآخر ونظرنا إلى الغرب نجد على اليمين نصًا كاملًا ليس إلا نسخة من قصيدة بن–تا– أور [Pen – Ta – Our] المشهورة. هذا العمل الأدبي الذي ألفه الشاعر لتخليد ذكرى معركة قام بها رمسيس الثاني في حربه في العام الخامس ضد قادش (Khétas)، ونجد على اليسار ما تبقى من نقوش قليلة البروز تعرض أحداث معركة أخرى بدون تاريخ ضد هذا الشعب نفسه.



(212) قصيدة بن – تا –أور عن معركة رمسيس الثانى ضد قادش

وأخيرًا نجد أسفل أقدامنا (الجانب الغربي من الجدار) لوحة تذكارية نحت عليها بكل الوسائل الضخمة في ذلك الوقت اتفاقية السلام بين رمسيس الثاني وخاتوسيلي (khétasar) ملك الحيثيين، والتي عقدت عام ٢١ من حكم الملك رمسيس الثاني.



(213) معاهدة السلام بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين

٤- مسلة حتشبسوت:

يبلغ ارتفاع مسلة هليوبوليس ٢٠,٢٧ مترًا ومسلة الأقصر بباريس ٢٢,٨ مترًا ومسلة ميدان سان بيار بروما ٢٥,١٣ مترًا ، ومسلة سان جان دي لطران في روما ٣٢,١٥ مترًا، أما مسلة حتشبسوت فارتفاعها ٣٣,٢ مترًا، ولذلك فهي أكبر مسلة معروفة. وسوف نلاحظ مدى الدقة التي وضعت بها على قاعدتها. ومحورها هو محور المعبد نفسه، وهذه الدقة (رغم وزن المسلة الضخم أحادية القطعة) تكشف حقيقة استخدام الوسائل الميكانيكية الدقيقة والقوية.



(214) جزء من مسلة حتشبسوت عند البحيرة المقدسة - الكرنك

وليست النصوص التي تغطي المسلة من أعلاها إلى أسفلها إلا عبارات تحمل اسم حتشبسوت (الأسرة ١٨ نحو عام ١٦٦٠ ق.م). وكما نعرف كانت حتشبسوت الملكة الشهيرة التي احتلت مكانة عظيمة في تاريخ الأسرة ١٨، وقد ذكر اسمها فعلاً بجانب أسماء تحتمس وأمنوفيس.كما نعرف كانت حتشبسوت الملكة الشهيرة التي احتلت مكانة عظيمة في تاريخ الأسرة ١٨، وقد ذكر اسمها فعلاً بجانب أسماء تحتمس وأمنوفيس.



(215) مسلة تحتمس الأول

ونجد في أسفل المسلة نقوشًا على خطوط أفقية تغطي الواجهات الأربعة، وتمدنا هذه النقوش ببعض المعلومات من الأفضل عدم إهمالها، ويمكن تلخيص ما عرفناه منها فيما يلي:

١) كانت قمة المسلة مغطاة " بالذهب الصافي الذي أُخِذ من رؤساء الأمم "، إن لم يكن يقصد بذلك مجرد هرم صغير من النحاس المُذهب كما كان حال هريم مسلة هليوبوليس (المذكورة من قبل صفحة ٥١)، وربما تشير هذه الكتابة إلى هذه الكرة (من الذهب ؟)، والتي نراها على بعض النقوش في سقارة.

٢) كانت المسلة – دون شك – مذهبة من أعلى إلى أسفل[٥٧]، ولحسن الحظ أن الكتابات الهيروغليفية كانت مصقولة بعناية وكانت عميقة، وثانيًا أن الوجه المسطح للأثر قد ترك خشنًا نسبيًّا نستنتج من ذلك أن السطح المصقول قد تم تجميله وحده بتكاليف باهظة، وظلت الكتابة الهيروغليفية محتفظة بألوانها.

٣) وأخيرًا تذكر الكتابة حدثًا جديرًا بأن يُنقل إلى الأجيال، ليس فقط سرعة إنجاز المسلة التي تهمنا، ولكن أيضًا الذي كان يحدث في ذلك الوقت، والذي تهشم وتم الانتهاء من كليهما في ٧ شهور منذ بداية (أعمال القطع) من الجبل .



(216) مسلة تحتمس الأول بالكرنك



(217) نقوش تغطي جسم مسلة حتشبسوت



(218) قاعدة مسلة حتشبسوت بالكرنك

ونختتم هذه المعلومات الموجزة عن الكرنك بملاحظة أخيرة. يلاحظ كل الزوار وينظرون بإعجاب إلى تكدس الأحجار التي تجعل من معبد الكرنك عند النظر إليه من بعض الجوانب أجمل الآثار المصرية. هل تهدمت هذه الأطلال على أثر زلزال ما ؟ هل كان دمار الكرنك نتيجة مرور بطليموس الزمار (Ptolemée Lathyre)، والنهب الفظيع الذي قام به هذا الأمير في طيبة بعد حصار دام عدة شهور ؟ ألم يكن ذلك بالأحرى نتيجة سوء بناء المعبد وموقعه بالنسبة للنيل ؟ ربما من الصواب تبني هذا الرأي الأخير؛ إذ يتم في الواقع بناء المعابد الفرعونية بإهمال مفرط[٥٨]. على سبيل المثال لم يصب الصرح الغربي لمعبد الكرنك بالانهيار، إلا لأنه مجوف، وبدلا من أن يكون انحناء الجدار دافعًا للمتانة فلم يكن إلا سببًا في الانهيار. وعلاوة على ذلك نلاحظ أن معبد الكرنك تعرض أكثر من غيره من المعابد المصرية عبر فترة زمنية طويلة لتسرب مياه النيل المشبعة بالنطرون (ملح البارود) التي تؤدي إلى تآكل الحجر الجيري. لقد تعرض معبد الكرنك لعوادي الزمن؛ لأن المعابد الأخرى لم تعرف قط إهمال البناءين، وخاصة بسبب بُعد موقعها بالنسبة للنيل، وتؤدى الأسباب نفسها إلى النتائج نفسها. ويمكن أن نتوقع الوقت الذي سوف نرى فيه انهيارًا يتلو الآخر، وتجد صالة الأعمدة الجميلة بعد مقاومة أخيرة قاعدة أعمدتها التي تآكل الآن أكثر من ثلاثة أرباعها، وتسقط مثلما تهاوت أعمدة الفناء الغربي الفسيح.



(219) البُحيرة المقدسة



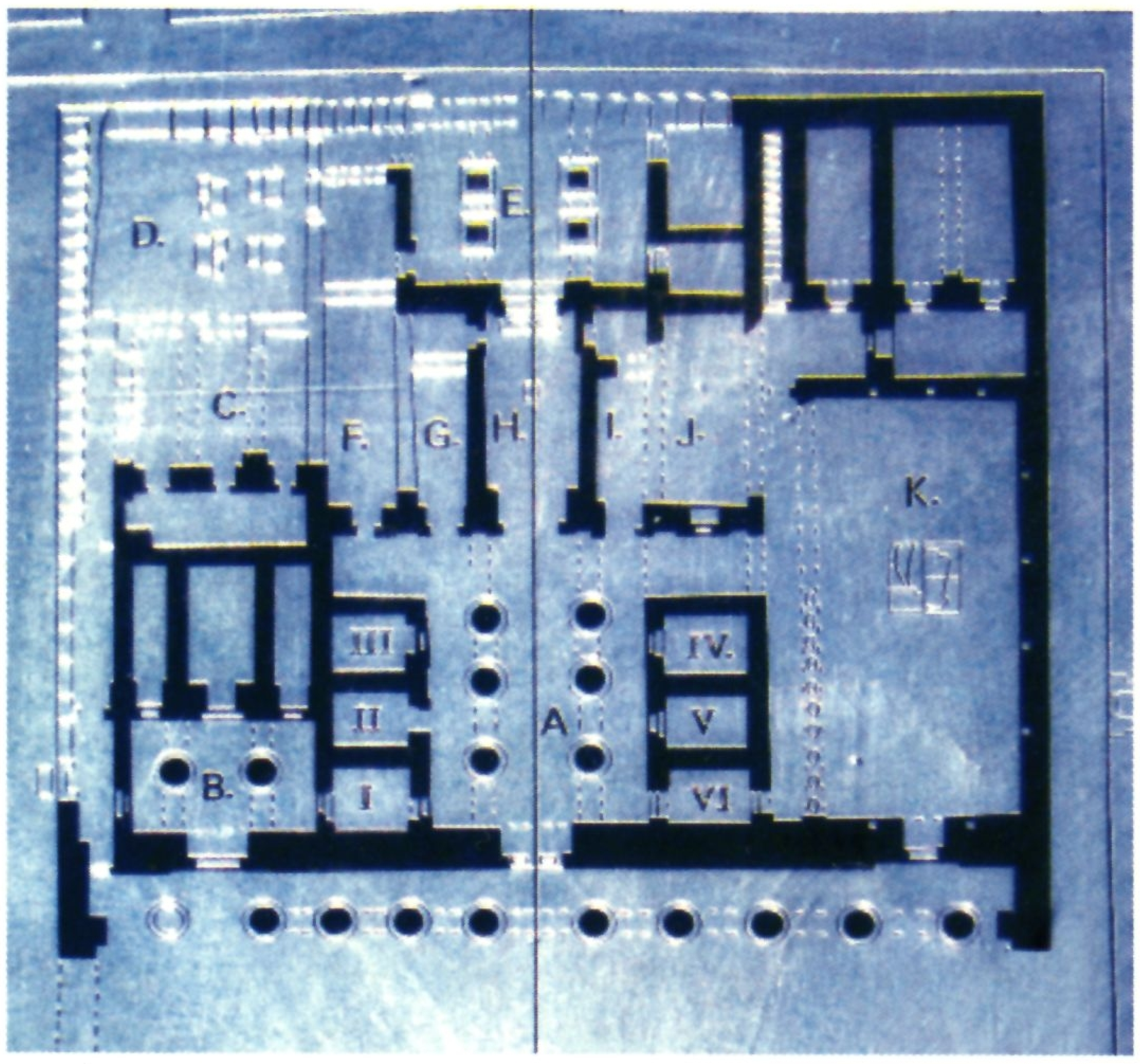
اليوم الحادي عشر:

نقضي النصف الأول من اليوم في البر الغربي لطيبة، ويتغير خط السير حسب فصول السنة. عندما يكون النيل منخفضًا، ويكون السهل الغربي جافًا يمكن أن نسلك طريقًا فيه،

وهو معاصر لمعبد سيتي الأول في أبيدوس (انظر ص ٩٥) الذي تم بناؤه مثله حسب مخطط غريب لا يمكن أن ندرك ذلك دون دراسة الكتابات المنقوشة بالداخل، والتي تساعدنا على معرفة تفاصيل الاحتفالات التي من أجلها استخدم المعبد.



(222) الملك سيتى الأول يقدم القرابين للإله أمون



(223) رسم تخطيطى لمعبد القرنة

وهو أيضًا معبد جنائزي مثل معبد سيتي الأول، وهنا يكمن في الواقع الجانب الفريد المميز لمعبد القرنة. في أبيدوس إله المعبد هو أوزوريس نفسه الذي هو ملك النار المصري (الجحيم). أما هنا (في القرنة) فإن إله المعبد هو رمسيس الأول، وقد أقام الأثر ابنه سيتي في حياته تخليدًا لذكرى هذا الملك. وهذا يفسر مكان المعبد على حافة الصحراء وعند مدخل الجبانة.



(224) المعبد على حافة الصحراء ، وعند مدخل الجبانة



(225) لوحة تذكارية بمعبد القرنة



(226) مناظر أداء طقوس أمام الآلهة

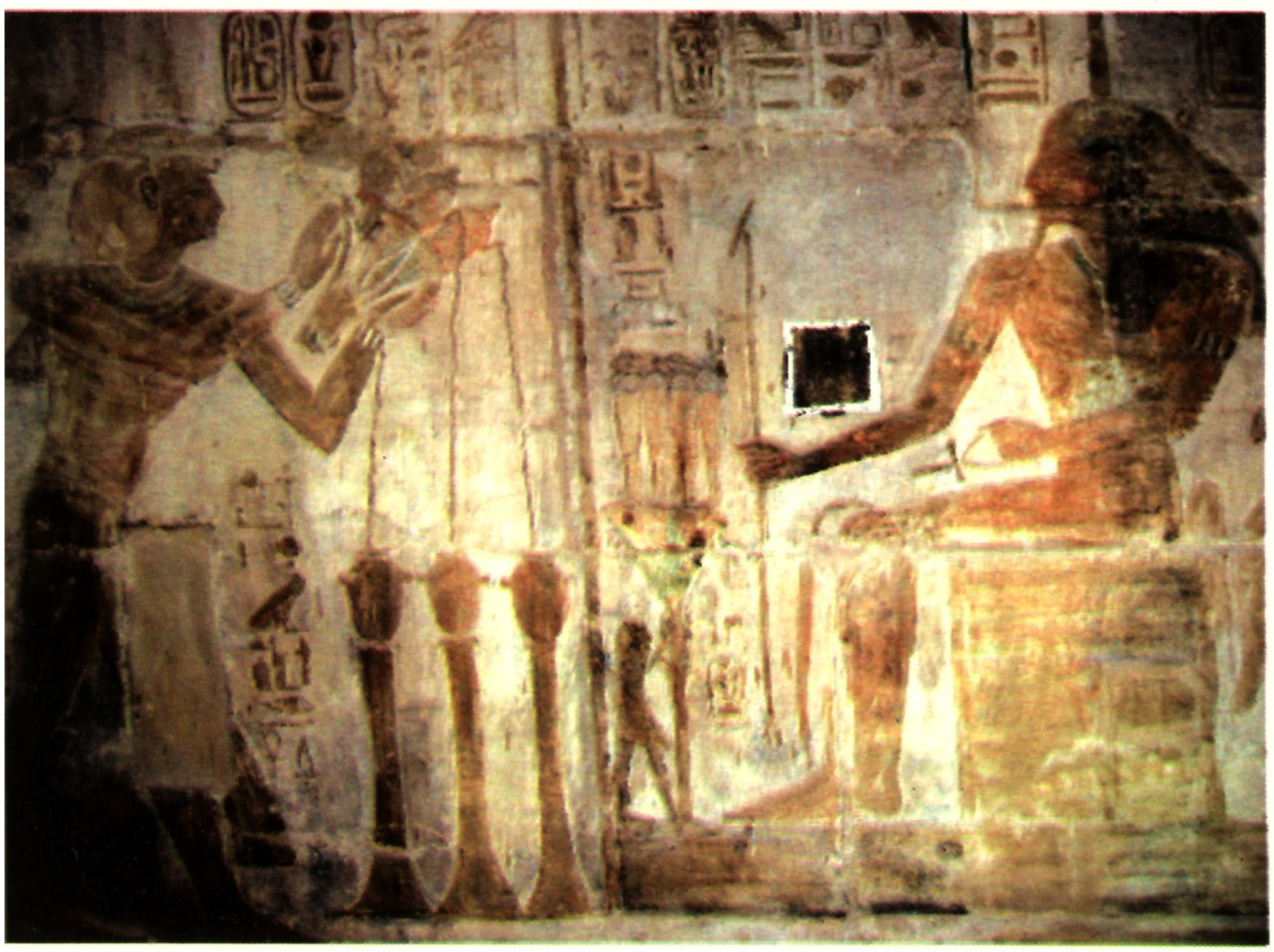


(227) تقديم طقوس أمام الآلهة

فالمعبد عبارة عن ضريح تذكاري. ونتذكر ما قلنا (انظر في ص ٨٧) عن هذا الجزء من المصطبة التي تختلف كثيرًا عن البئر، والتي كان يجتمع فيها الأهل في بعض أيام السنة؛ وحيث كان يتم معاملة المتوفى - على الرغم من أنه مات- وكأنه حى. إن الفكرة الأساسية لمعبد القرنة هي نفسها من عدة جوانب نفس فكرة المصري التي تفصل الملك عن الوطن مع بعض الاختلاف. لقد كان معبد القرنة، إن صح القول، مرتبطًا بذكرى رمسيس الأول، وكانت ذكرى هذا الملك هي التي يأتون لإحيائها في الأيام المخصصة لهذا الاحتفال. أما المومياء فكانت ترقد بعيدًا جدًا في قاع المدفن القَبوي (في القبو تحت الأرض) لباب الملوك كما كانت ترقد المومياء في مصاطب [٥٩] العصور القديمة في قاع البئر الذي لا يمكن الوصول إليه. ولا يُذكرنا تاريخ معبد القرنة فقط بتاريخ معبد أبيدوس، ولكن يُذكّرنا أيضًا بطريقة النقوش البارزة قليلاً.

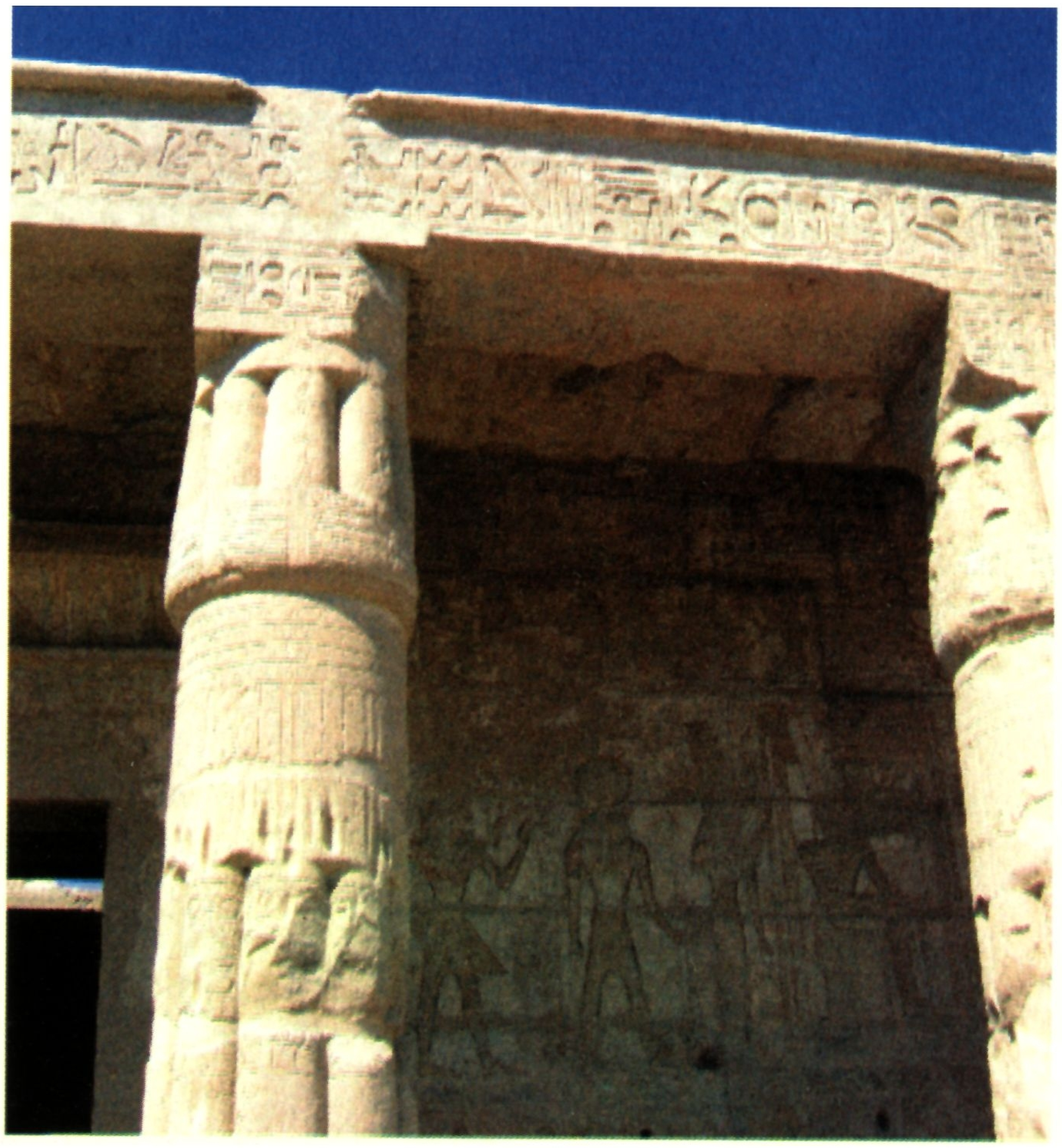


(228) الملك يقدم القرابين لبعض الآلهة



(229) تقديم قربان الإلهة «مسخنت» إلهة الولادة

فنرى الفن نفسه في الجانبين والعظمة والدقة نفسهما. عندما ندخل من الباب الأوسط إلى الصالة ذات الستة أعمدة ثم ندخل في الحجرة الثالثة على اليمين، نجد على أحد جدران هذه الحجرة رأسًا جميلة لسيتي لا تكاد تضاهيها أجمل ما قدمته جدران أبيدوس لدراستنا. وكما قلنا من قبل إن المعبد هو مبنى شيده سيتي الأول تخليدًا لذكرى والده رمسيس الأول. ولما كانت بعض أجزاء لم تنته بعد فقد استكملها الملك رمسيس الثاني وخصصها لذكرى والده سيتي.



(230) نقوش بمعبد القرنة



(231) رأس سيتي الأول

الرمسيوم

نذهب من قرية القرنة إلى معبد رمسيس الثاني عند طرف الأراضي المزروعة. ونمـــر في أثناء الطريق أمام دراع أبو النجا (Drah aboul Neggah) ونعبر جزءًا من العساسيف، ونسير بجانب جزء آخر من شيخ عبد القرنة، وبعد قليل نجد أنفسنا أمام أطلال عظيمة تنفصل عنها التماثيل العملاقة والأعمدة الضخمة بلونها الأصفر الجميل عن الجبال المجاورة خلفها. ونجد أننا الآن في الرمسيوم - معبد رمسيس الثاني.



(232) منازل لبعض قرى القرنة

وقد أطلق على معبد رمسيس الثاني (Ramasséum) قصر ممنون (Memenon) ومقبرة (تمثال) أوسيمانديـاس (Osymandias) وشيده رمسيس الثاني، وتحمل الخراطيش المنقوشة اسمه على كل الجدران ، وقد أطلق عليه شامبليون الرمسيوم، وهو الاسم الذي ظل محتفظًا به حتى الآن.



233) معبد الرمسيوم



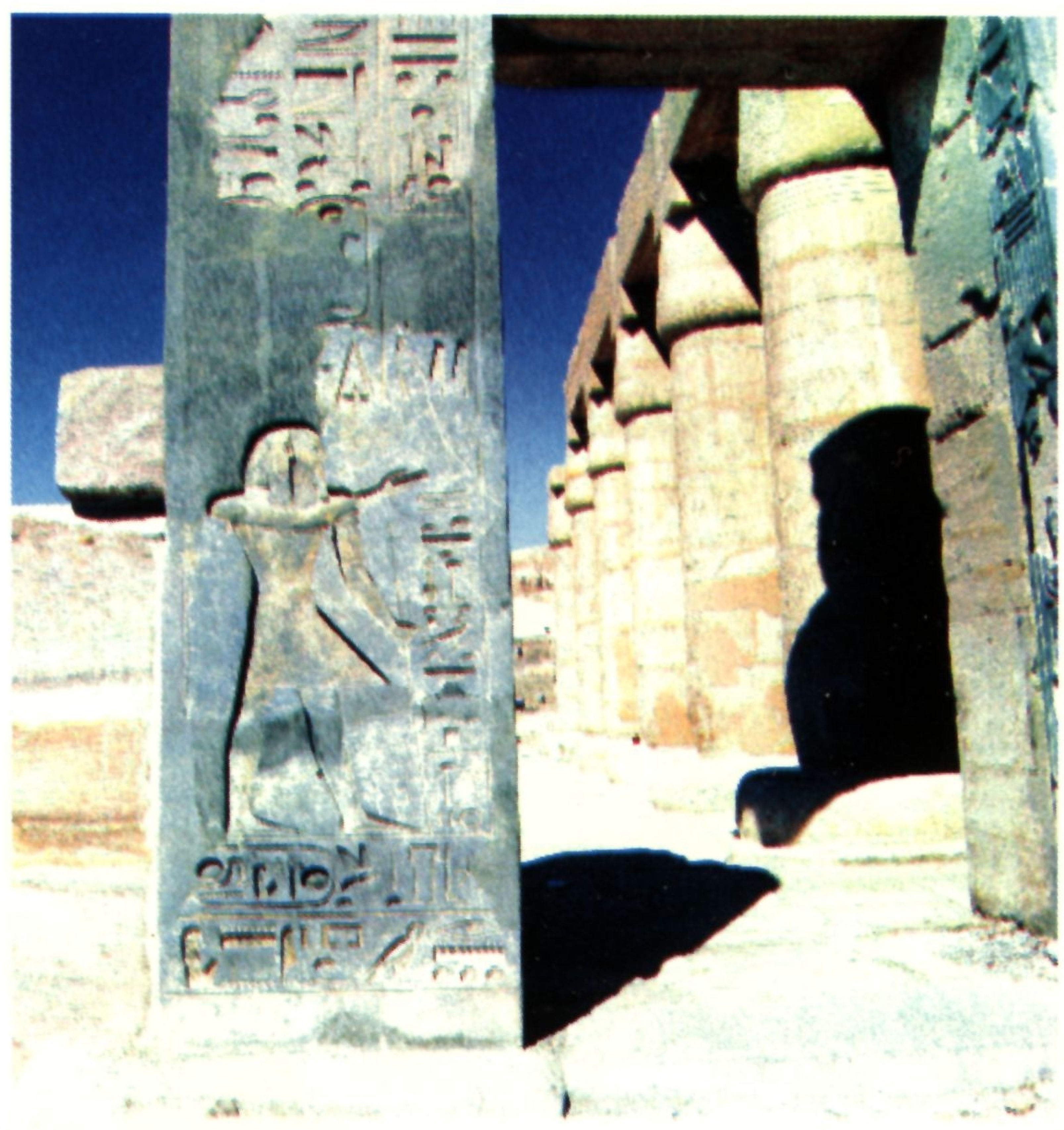
(234) تفاصيل من معبد الرمسيوم

إن الفكرة التي أدت إلى بناء مقبرة رمسيس الثاني هي نفس فكرة إقامة معبد القرنة. ويعتبر هذا المعبد ضريحًا تذكاريًا، ولكن بدلاً من أن يكون ابن الملك المتوفى هو المؤسس فإن رمسيس الثاني هو الذي قام ببنائه بنفسه لتخليد ذكراه الذاتية. عندما تحدثنا عن مقابر الدولة القديمة ذكرنا أن هذه المقابر أقامها المتوفى في حياته، وقد أثبتت أمثلة عديدة للغاية هذه الممارسة المأثورة، وهو أمر لا نزاع عليه مطلقًا.



(235) خرطوش يضم اسم رمسيس الثاني

عندما يتحدث مثلاً أمنمحات (أميني) في مقابر بني حسن ، ويحكى أنه هزم النوبيين بوصفه قائد المشاة وبصفته مدير إقليم (Sah)، وكان كريمًا تجاه الأرامل وأبنائهن، فإن هذا المديح لا يعبر عن الشفقة بالأحياء، ولكن أمنمحات (Améni-Amenomha) يشيد لنا بفضائله فيما يشبه السيرة الذاتية. فقد حدث الشيء نفسه؛ إذ قام رمسيس ببناء أثر لنفسه في جبانة طيبة في قلب حي الأموات، ويأتي الناس من بعده لاستعادة ذكراه، ويتحدث فيه بالطبع إلى الأحياء عن مدى شفقته ومجده وأيضًا عن انتصاراته.



(236) إحدى صالات معبد الرمسيوم



(237) الإله آمون والإلهة موت



(238) صرح معبد الرمسيوم

وفي الواقع، فإن مقبرة رمسيس الثاني هي مبنى جنائزي في الجزء الرئيسي منه، ونود أن نقول إنه في نظر مُؤسسه يقدم عرضًا تاريخيًا بالمناظر العديدة التي تم حفرها فيه. ومثل معبد قرنة كان أمام الرمسيوم صرحان مهدمان إلى حد ما.



(239) الملك يعتلي العجلة الحربية

ولا نستطيع رؤية النقوش في الصرح الأول إلا في ساعة معينة من النهار عندما يصبح الضوء مناسبًا. ونجد أن النقوش تاريخية تتعلق بإحدى الوقائع الأكثر غرابة في عهد رمسيس الثاني. نحن في سوريا على شواطئ نهر كل شيء يدل على أنه نهر العاصى (Oronte) . ونرى رمسيس هنا شخصيًّا، جاء والأسلحة بيده ينازع ملكية بلد بين اتحاد عريض من شعوب اختلطت باسم شائع " قادش " . وتعدّ (Alesch) أقرب مدينة، وبالمصادفة التي لم تكن أبدًا في صالح القادة المصريين وجد رمسيس نفسه فجأة محاصرًا من الأعداء، وفي الوقت نفسه فر جنوده الذين كانوا معه.

وبقى رمسيس وحده " ولم يكن معه أحد ". وعندئذ لم يملك سوى شجاعته، واندفع وسط العربات، وقتل رؤساء "قادش السفلة" [des vils Khétas] ، واضطـرت جيوشهم إلى عبور النهر بسرعة مرة أخرى ، وبفضل شجاعته الشخصية حوّل الهزيمة الأكيدة إلى انتصار.ويحكي لنا الصرح الأول لمعبد رمسيس الثاني ذكرى هذه الواقعة الحربية البارعة، نرى من جانب، الملك رمسيس مندفعًا بغضب في المعركة؛ مما جعل الأعداء يفرون هربًا من شدة الرعب، ومن جانب آخر نرى بعضهم تحت أقدام الخيول وعجلات العربة، والبعض الآخر على الأرض وقد اخترقت الرماح التي رماها الملك بيده أجسادهم، وآخرين يلقون بأنفسهم في النهر ويغرقون فيه.

ومن جهة أخرى يظهر الملك جالسًا على عرشه. ويأتي الضباط إليه لتهدئته، ولكنه يستقبلهم بالتوبيخ صائحًا: " لم تحسنوا التصرف عندما تركتموني وحدي وسط الأعداء، ولم يأت لمساعدتي الأمراء ولا القادة؛ فقد حاربت وهزمت آلاف الأشخاص، وكنت بمفردي !...".



(240) الملك وهو جالس على عرشه ، والأعداء يتوسلون إليه



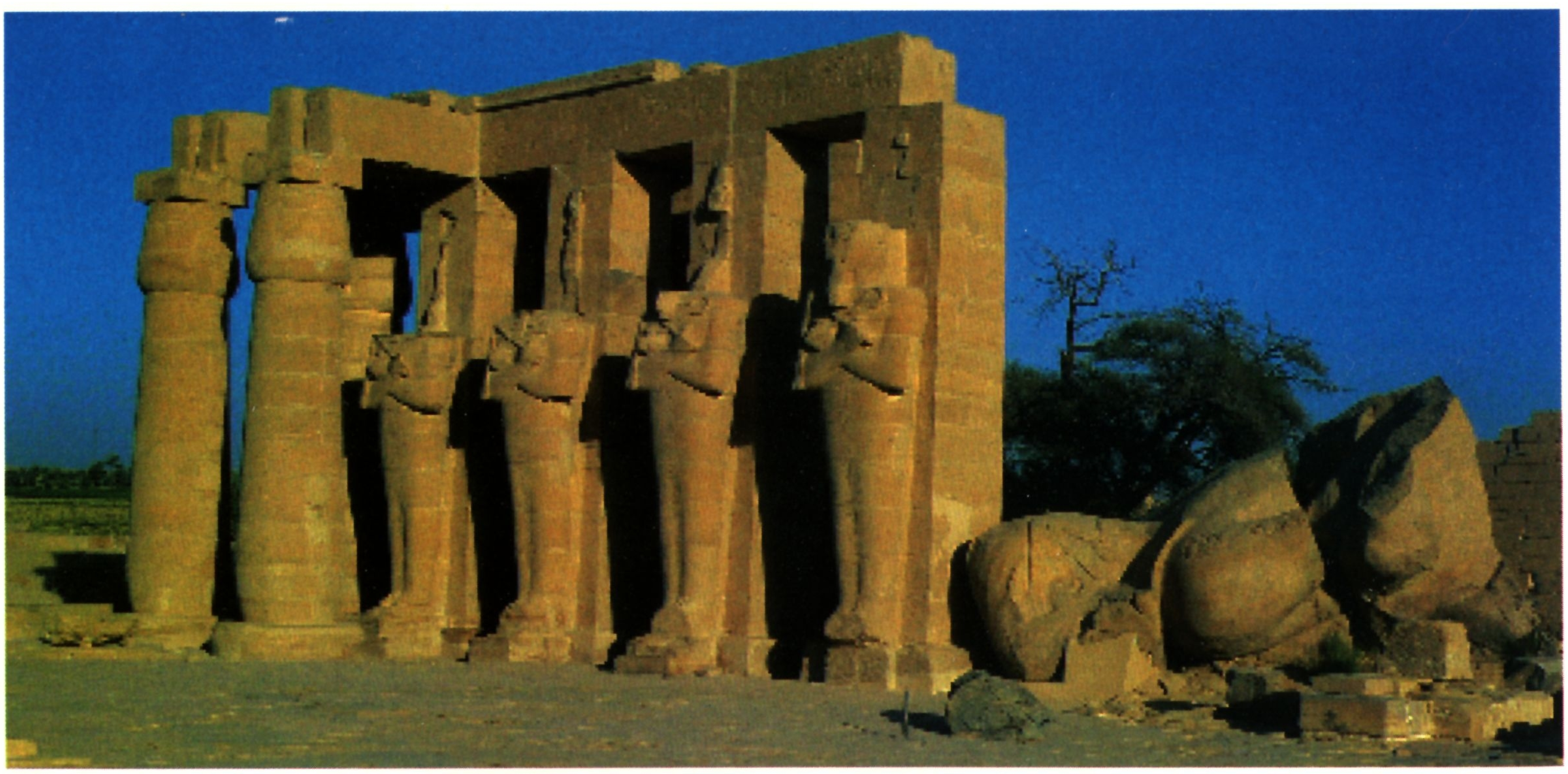
(241) الأسرى بعد معركة قادش

لقد أشرنا عند وصف معبد الأقصر إلى المسلتين الواقعتين أمام الصرح الضخم والصرح نفسه، ولكن تغاضينا عن ذكر أن المناظر التي تغطي الواجهة الخارجية للصرح هي مناظر تاريخية. والواقع أنها ترجع إلى معركة قادش نفسها، وهنا يظهر رمسيس وهو يحقق الانتصار الذي أصبح بالنسبة إليه أحد الأحداث المهمة في عصره؛ لذلك فقد أعاد نقش المعركة في الأقصر والكرنك وأبي سمبل، وسوف نجده مرة أخرى يملأ الصرح الثاني للمعبد الذي نصفه.

إن ما تبقي من الصرح الثاني لا يبدو واقفًا إلا بمعجزة التوازن، وإن لم نكن ندرك أن الفنانين الذين رافقوا الحملة الفرنسية منذ ٧٠ عامًا شاهدوه ورسموه كما نراه ونرسمه الآن لخشينا أن نراه ينهار في كل لحظة. ويؤدي هذا الصرح الثاني إلى فناء محاط بأعمدة تستند إليها تماثيل ضخمة لرمسيس الثاني وهو يحمل رموز أوزوريس. ويفسر هذا الوضع ما قلناه أساسًا عن طبيعة المعبد الجنائزي.



(242) معركة قادش



(243) تماثيل لرمسيس الثانى فى هيئة أوزورية

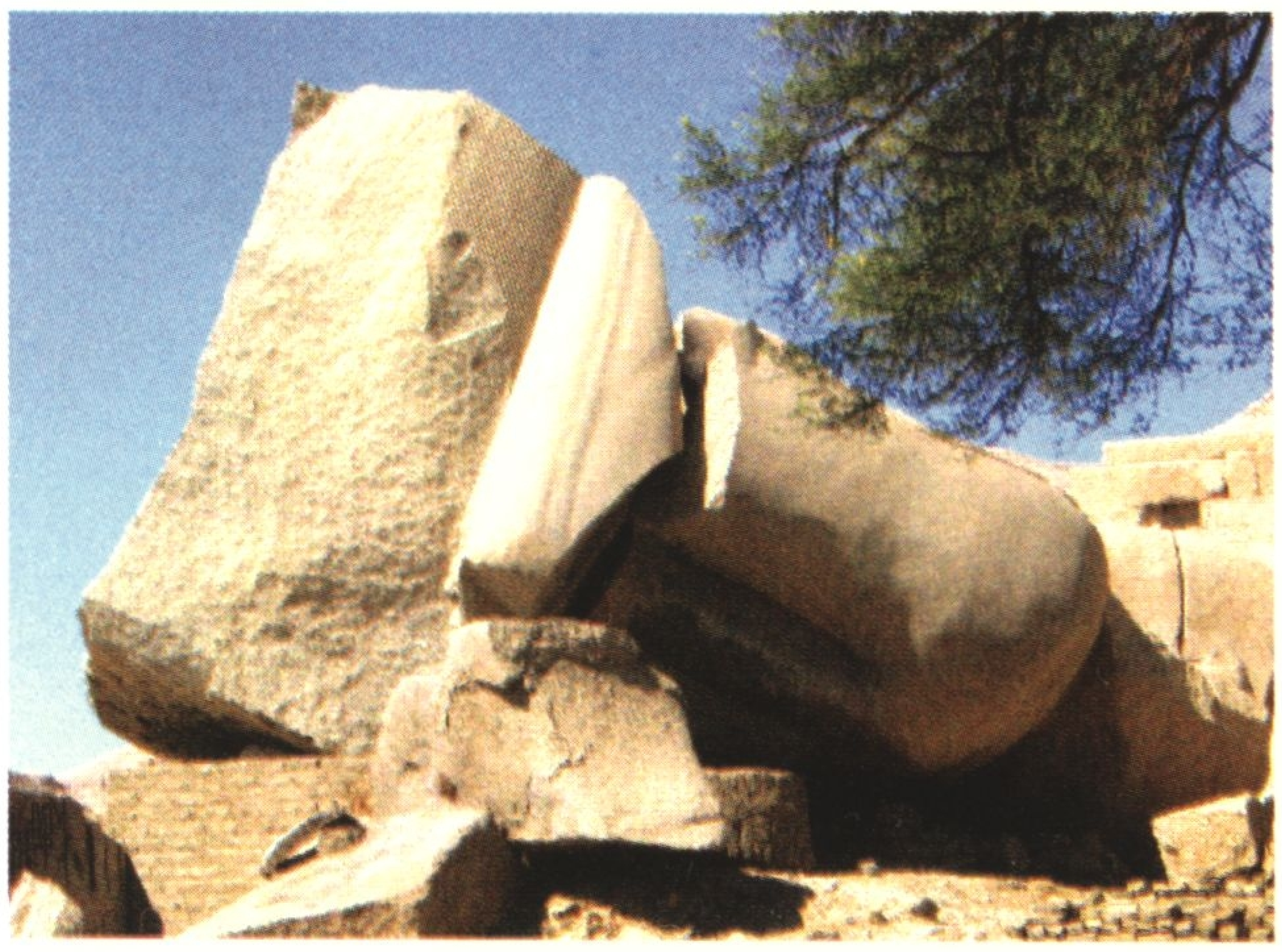
وأمام الصرح من جهة الشرق تم وضع أضخم تمثال من الجرانيت قام بنحته المصريون من كتلة واحدة من الجرانيت، بلغ ارتفاعه ١٧,٥٠ مترًا ووزنه لا يقل عن ١,٢١٧,٨٧٢ كيلو جرام، يمثل التمثال رمسيس شخصيًا. لم يبق لسوء الحظ من هذا العمل الذي يعد من الأعمال الخارقة التي أنجزها النحات المصري إلا بعض الأجزاء؛ فقد تم تشويه الواجهة، وعندما نرى هذه الكتلة أحادية الحجر قد تحطمت بهذه الضراوة، نسأل ما الذي يثير الدهشة أكثر، هل هو صبر وقوة الذين نقلوها من أسوان لتزين المعبد أم قوة وصبر الذين ألقوا بها على الأرض وأوقعوه على ظهره[٦٠] ؟



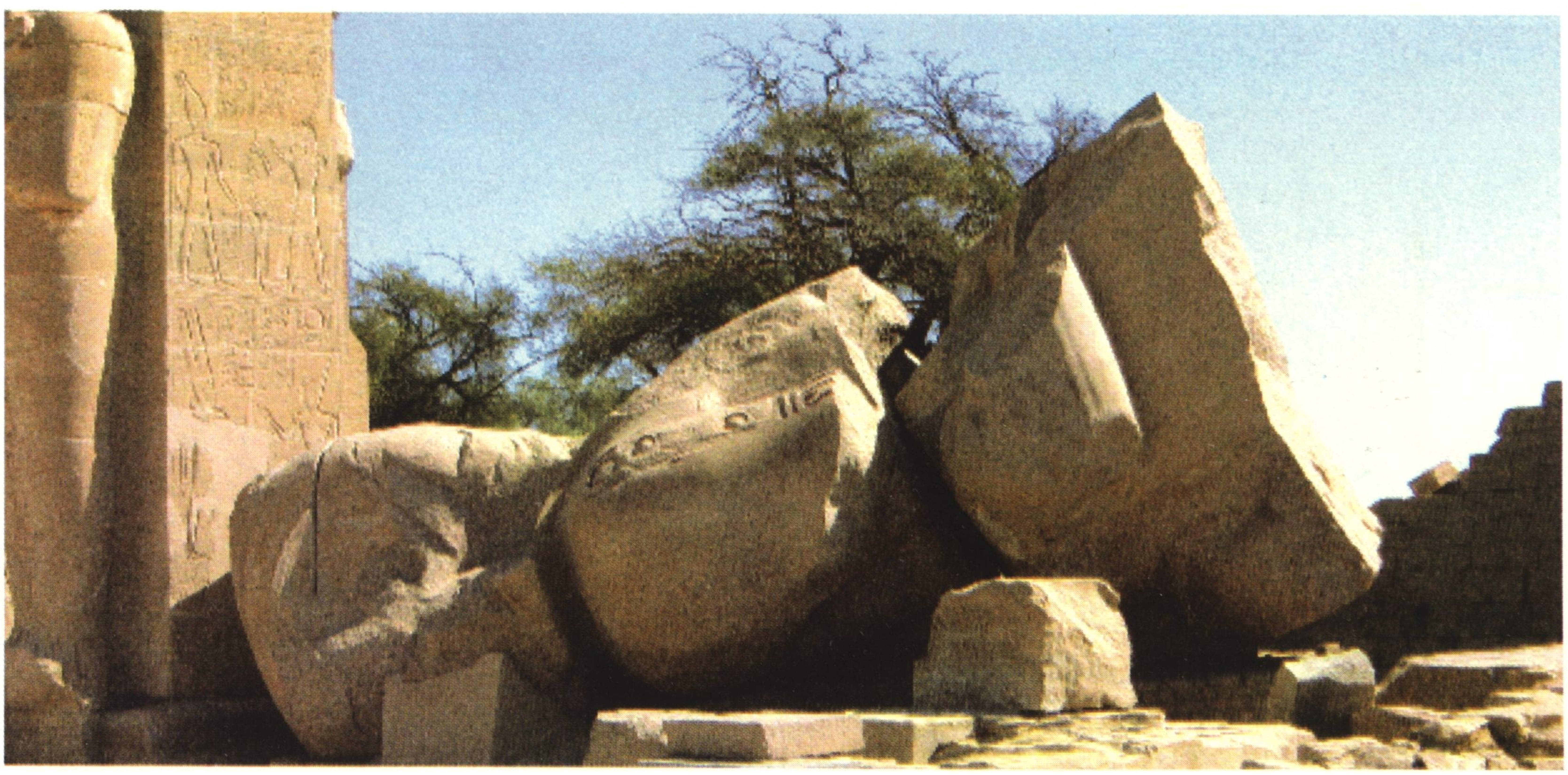
(244) قدما تمثال رمسيس الثانى



(245) خرطوش رمسيس الثانى



(246) كتل من تمثال رمسيس الثانى



(247) أجزاء من تمثال رمسيس الثانى، ويقدر وزن التمثال بألف طن

وقد تم نقش عدة مناظر تاريخية على الواجهة الداخلية للصرح التي أسند إليها تمثال رمسيس الضخم؛ حيث نجد من بينها مشهدًا لمعركة قادش. الضوء هنا أكثر ملاءمة، لذا يمكن أن نرى تفاصيل المنظر جيدًا؛ فنجد رمسيس في وسط المعركة ينشر الموت من حوله و كثيرًا من الجثث تغطي ساحة القتال: هنا كراباتوزا (Krabatousa) حامل سلاح أمير قادش، وهناك ربسوما (Rabsomma) قائد القواسين الذين سقطوا بسهام الملك. يقع نهر العاصى (L'Orente) على طريق قادش، حيث فر الحيثيون مذعورين، واندفعوا إليه.



(248) معركة قادش بالقرب من نهر العاصى

ومن الجانب الآخر من النهر نرى انتشال أحد قادة الأعداء من الأمواج. ويوجه جنوده رأسه إلى أسفل ليفرغ معدته من الماء الذي شربه. وقد كانت الأحداث التي صورها النحات هنا وهناك بكل إرادة وموهبة كثيرة ومشوقة في الوقت نفسه، نستطيع رؤيتها عندما نلقي نظرة على مختلف أجزاء المناظر العظيمة التي تغطي الصرح، ولن نتوقف هنا طويلاً أكثر من ذلك.

وتوجد في أقسام المعبد الأخرى مشاهد دينية تصور رمسيس يقوم بعبادة آلهة طيبة، كما توجد قوائم طويلة لأمراء وأميرات أسرة الملك، ولوحة فلكية اشتهرت بفضل أعمال السيد بيو (Biot). وكانت تُفتح صالة الأعمدة للاحتفالات الداخلية بالمعبد، ويثير إعجابنا أعمدتها وأناقة تيجانها من الزهور المتفتحة التي لا تملكها صالة أعمدة الكرنك الكثيفة.



(249) إنقاذ الغرقى من المعركة البحرية



(250) رمسيس الثاني في حضرة ثالوث طيبة

التماثيل الضخمة [تمثالا ممنون]

كانت هذه التماثيل الضخمة[٦١] تقع أمام صرح المعبد الذي اختفى إلى حد كبير؛ فقد كان بناء المعبد من الجير، ودُمّر ضحية كثرة مواد بنائه. وكانت توجد ثغرات في التماثيل الضخمة التي نجت؛ لأنها لم تستخدم في تزويد أفران الجير المجاورة في الوقت الحالي.

ومن دون شك كان المعبد الذي كانت التماثيل الضخمة تعلن بكل عظمة عن مدخله، بالنسبة لأمنوفيس الثالث مثل الرمسيوم بالنسبة لرمسيس الثاني ومدينة هابو بالنسبة لرمسيس الثالث. ونرى من هنا أن هدم هذا المعبد قد حرم العلم من وثائق كان يمكن أن تلقي ضوءًا كبيرًا على واحد من أهم الحكام في تاريخ مصر.



(251) تمثالا ممنون لأمنحتب الثالث

وقد دخلت في ثغرات التمثالين أحجار من العقيق، وكان التمثالان في الأصل من كتلة واحدة. فَقَد التمثال الواقف إلى اليسار الجزء الأعلى على أثر إصابة سوف نعود إليها فيما بعد، وتم بناء هذا الجزء من جديد من كتل وضعت على شكل مساند، ولكل من التمثالين قاعدة منفصلة من المادة نفسها.



(252) أحد تمثالى ممنون

على اليسار نجد تمثال ممنون الذي يعرفه جيدًا الرحالة الذين زاروا أرض الفراعنة في أثناء فترة أول قرنين من الزمان سيطر فيها الرومان على مصر. وقد خصصه أمنومفيس الثالث لتزيين واجهة معبده. وقد ظل يعرف الناس هذا التمثال الضخم على أنه تمثال أمنومفيس إلى اليوم الذي أسقط فيه زلزال عام ٢٧ميلادية الجزء الأعلى منه[٦٢]. ومن العجيب أن هذه الحادثة التي فقد على أثرها التمثال قيمته، كانت سببًا في شهرته. وقد لوحظ بعد قليل أن رنينًا صوتيًا يشبه صوت البشر يخرج من القاعدة التي بقيت مكانها عندما تلقي شمس الصباح بأشعتها على الأثر. وليس هذا الرنين سوى نتيجة أصوات منبعثة من الطوب المبلل بماء ندى الليل، والذي تعرض لحرارة الشمس. ولكن بالنسبة لليونانيين والرومانيين الذين كانوا يزورون مصر في ذلك الوقت، ولم تلبث أن أخذت هذه الظاهرة طابع المعجزة. كان التمثال يقع في حي من أحياء طيبة يُطلق عليه الممنونية، وكان ممنون في إطار التقاليد التي راجت بين الأجانب هو المؤسس الشهير لمباني هذا الجزء من المدينة.

عندما تم رفع التمثالين أمام الصرح على قاعدتهما، كان ارتفاعهما ١٩,٦٠ مترًا، وهو ما يعادل ارتفاع منزل من خمسة طوابق في مدينة باريس. وبدون حساب القاعدة لا يبلغ ارتفاع التمثالين سوى ١٥,٦٠ مترًا. وبالإضافة إلى ذلك عمق ما دفن في الأرض (١,٩٠ متر) وهو نفس العمق في معبد الكرنك.

ولسنا بحاجة إلى أن نضيف إلى ذلك أن هذين التمثالين يقدمان أمنومفيس الثالث وهو جالس في وضع كهنوتي. أما التمثالان في ظهر المقعد فهما لأم هذا الملك وزوجته.

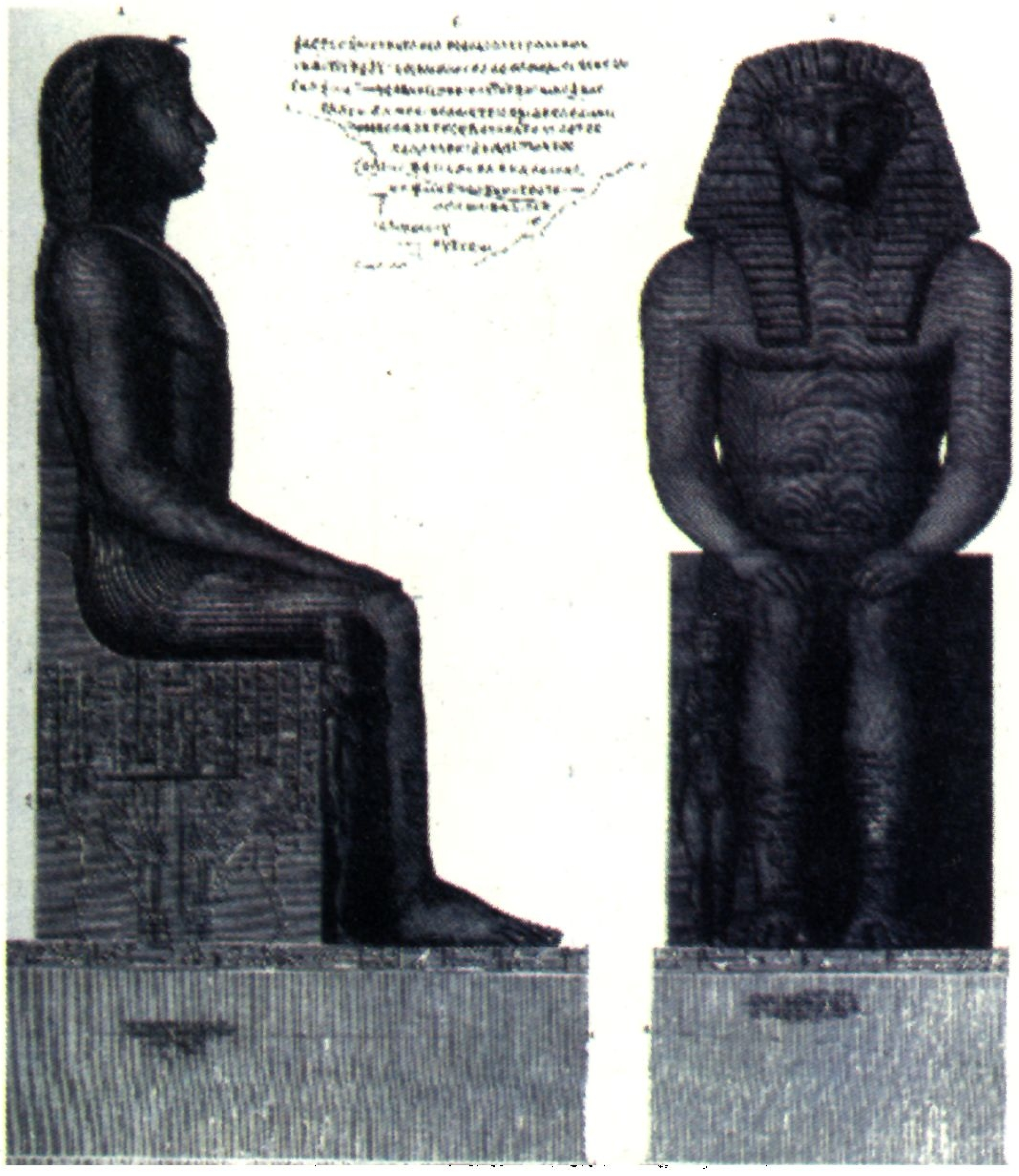


(253) الملكة تى زوجة أمنحتب الثالث

ألم يكن الصوت الذي نسمعه شكوى ممنون يناشد أمه إلهة " الفجر"؟ وانتشرت بسرعة شهرة التمثال. وجاء الناس من كل صوب لسماع الصوت العجيب، وبدأوا ينقشون على ساقي التمثال شهادات الإعجاب لحسن الحظ الذي أتاح لهم مشاهدة هذه المعجزة. وأخيرًا، وبعد قرنين ونصف أراد سبتمبوس سفيروس (Septime Sévère) أن يُسكت شكوى البطل، وأن يجعل صوته أكثر جمالاً عندما حاول إعادة التمثال الضخم إلى ما كان عليه. ولم ينجح في ذلك إلا قليلاً، فلم يعد البطل يشكو أبدًا، وتوقف الصوت المكتوم؛ توقف تحت كتل الحجر الرملي التي مازلنا نراها إلى اليوم في مكانها، وتوقف الاستماع إليه إلى الأبد.



(254) نقوش على قاعدة التمثال



(255) تمثال ممنون (من كتاب وصف مصر)

وبمجرد فحص سيقان التمثال نستطيع أن نرى كثرة شهادات الإعجاب التي تحدثنا عنها من قبل. وكانت الشهادات مؤرخة عامة، وأقدمها من عصر نيرون وأحدث الشهادات ترجع إلى حكم سبتمبوس سفيروس. وقدم عصر هادريان وحده ٢٧شهادة بين مجموعة المقتنيات دون حساب الشهادات، وهي الأكثر عددًا التي ليس عليها إشارة إلى تاريخ بعينه . وفي أغلب الأحيان جاءت النقوش في صورة نثر، وتأخذ أبسط الأشكال مثل ما يلي: " سابين أغسطس (Sabine Auguste)، زوجة الإمبراطور قيصر أغسطس سمعت مرتين ممنون خلال أول ساعة "، وشهادة أخرى :- « أنا ... فيتالينوس (Vitalinus) خبير الخطط الحربية في طبرية ومعي زوجتي بوبليا سوزيس (Publia Sosis)، سمعت ممنون في العام الثالث ... في شهر بوشون (pochôn) مرتين في ساعة ونصف » ، وكان يستخدم الشعر أحيانًا ، ونذكر المثلين الآتيين كنموذج لهذا النوع: " أنا ، بيترونياموس (Pétroniamus)أخذت عن أبي اسم دويليوس (Duillus) إيطالي المولد ، أمجدك بهذه الأبيات من شعر الرثاء ، وأهدي

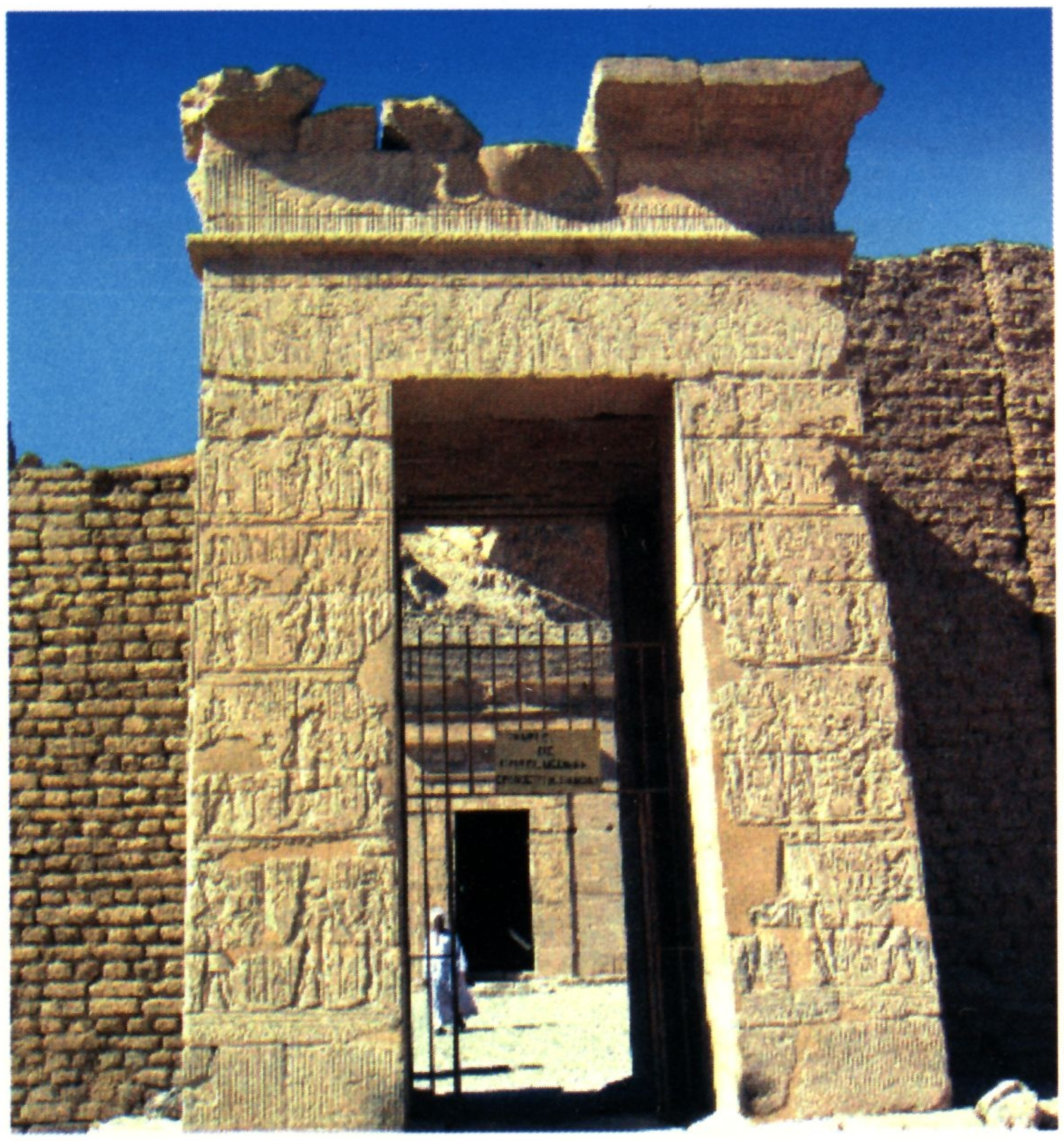
الإله الذي يخاطبني هدية من الشعر. ولكن مقابل ذلك، أيها الملك، امنحني عمرًا طويلاً. يأتي الكثيرون إلى هذا المكان لمعرفة ما إذا كان ممنون يحفظ صوتًا في الجزء المتبقي من جسمه. أما هو جالس على عرشه وقد فقد رأسه، يدوي متنهدًا ليشكو لأمه من إهانة قمبيز (Cambyse)، وعندما تلقي الشمس البراقة بأشعتها، يعلن بزوغ النهار إلى الناس الحاضرين هنا" . أمك إلهة الفجر ذات الأصابع الوردية ، يا ممنون الشهير، جعلتك تغني لي وأنا أسعد بسماعك. في السنة الثانية عشرة من أنطونان المشهور، شهر بوشون فيه ١٣ يومًا، سمعت صوتك، مرتين، يا أيها الكائن الإلهي ، عندما تغادر الشمس مياه المحيط العظيمة . في قديم الزمان جعلك المشترى (Jupiter) ابن المريخ (Saturne) ملكًا على الشرق ، والآن لم تعد سوى حجرة ومن الحجرة يخرج صوتك . لقد كتب جيميلا (Gémella) هذه الأبيات بدوره وقد جاء هنا مع زوجته الغالية روفيل (Rufilla) وأولادهما".



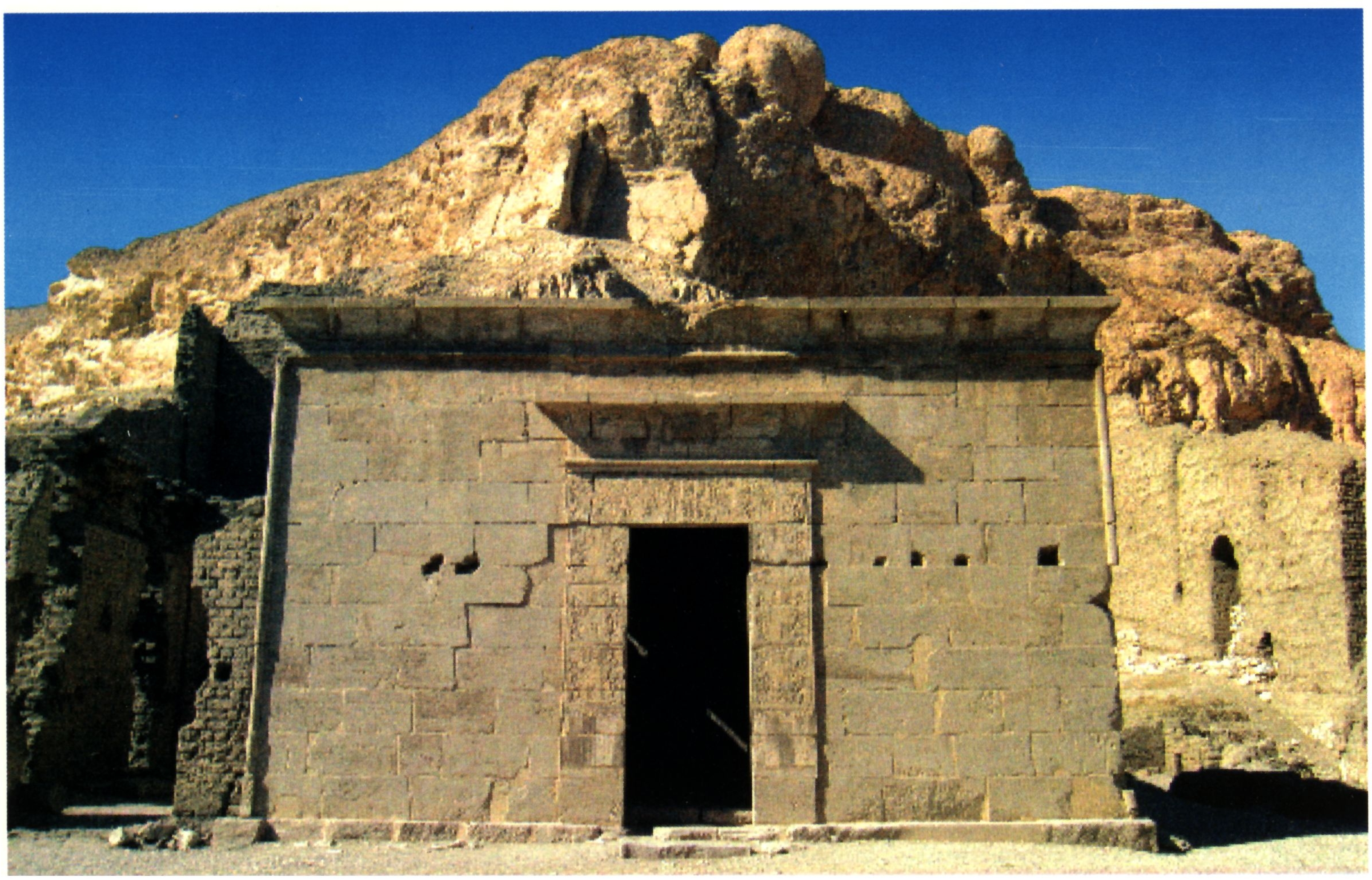
(256) شهادات الإعجاب على ساق التمثال

معبد دير المدينة

عبارة عن معبد صغير تائه في ثنية أرضية بين التماثيل الضخمة ومدينة هابو، خلف الجزء من الجبانة القديمة المسماة قرنة – مرعي . بدأ بناءه بطليموس فيلوباتير (Ptolemée Philopator)، وأنجزه من تبعوا هذا الملك. وليس هناك من شك أن المكانة التي يشغلها في الجبانة ووجود أوزوريس بين الآلهة بالداخل، يجعل الغرض من الأثر جنائزيًا، ولكن كما يحدث دائمًا، لا تقودنا النقوش بعيدًا عن المقصد النهائي للأثر والفكرة العامة التي عمل على إبرازها.



(257) مدخل المعبد البطلمي بدير المدينة

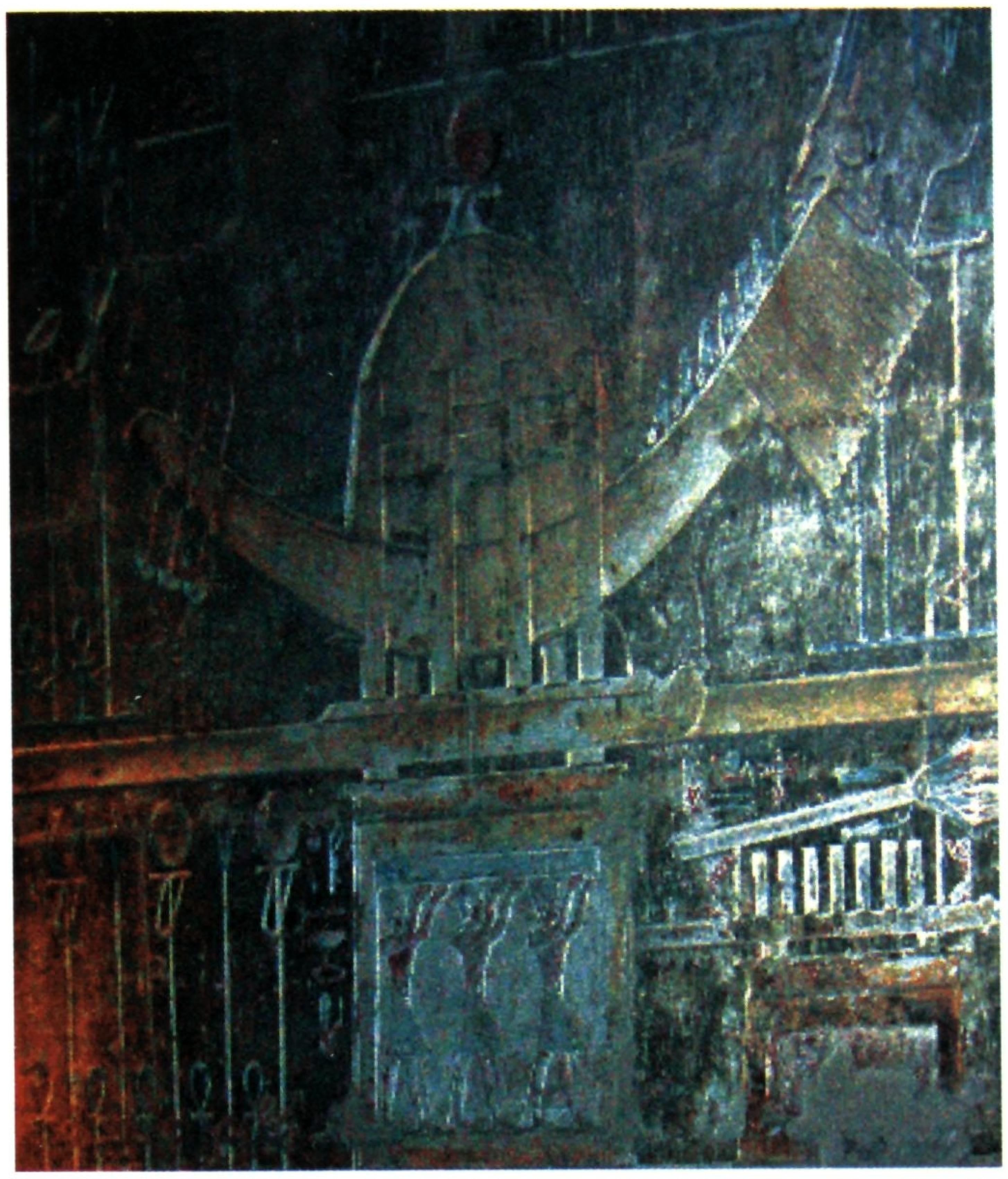


(258) مدخل صالة معبد دير المدينة

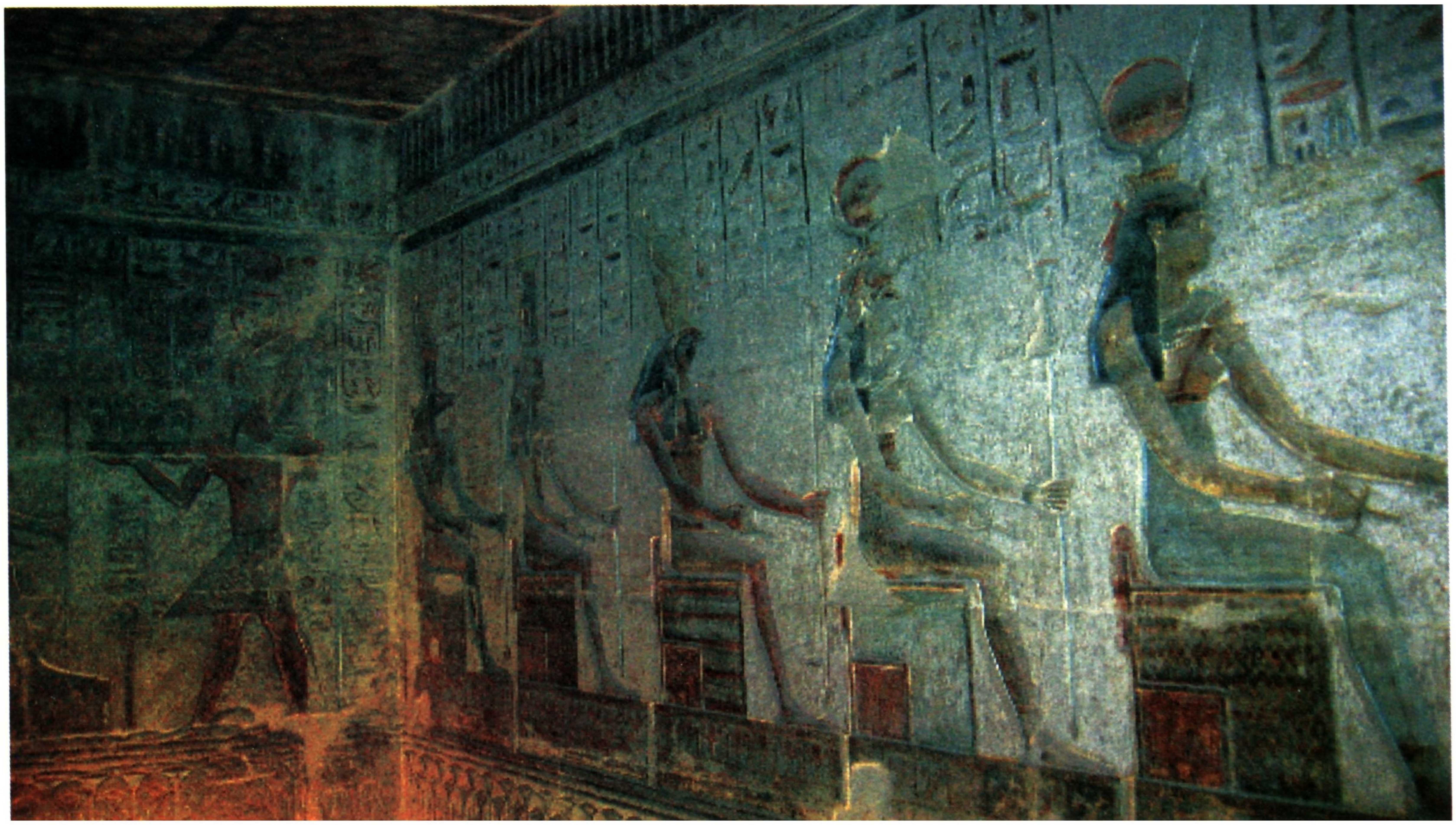
ولم نكن لنوصي الزُّوار بأن يكلفوا أنفسهم مشقة زيارته إن لم تكن واجهته الأنيقة للغاية تستحق المشاهدة حسب نموذج لا نجد في مصر أكثر حفظًا منه، وكذلك سوف نهتم بفحص النافذة العجيبة المفتوحة في الجدار الجنوبي لإحدى الحجرات الداخلية.



(259) النافذة المفتوحة فى الجدار الجنوبى



(260) مركب الإله سوكر



(261) مجموعة الآلهة والإلهات داخل المعبد بينها أوزوريس وحاتحور

مدينة هابو

عندما نعبر الضفة الجنوبية من طيبة قادمين من الشمال كما هي الحال في هذه اللحظة، نلاحظ في أقصى الجنوب من أبعد مكان نائي منه تلاً رمادي اللون تظهر من بينه هنا وهناك بعض المباني ذات اللون الأصفر الذهبي. والتل هو القرية القبطية التي تكونت بعد انهيار الديانة المصرية حول المعبد الذي نلاحظ أطلاله، والتي أخفت المعبد رويدًا رويدًا، و أدت في النهاية إلى تغطية المعبد بالكامل. والمعبد هو مدينة هابو[٦٣]، واسمه قد أخذه عن القرية السابقة التي حلَّ محلها الآن.



(262) قرية بالقرب من هابو



(263) آثار من القرية القبطية بمدينة هابو



(264) أطلال معبد هابو

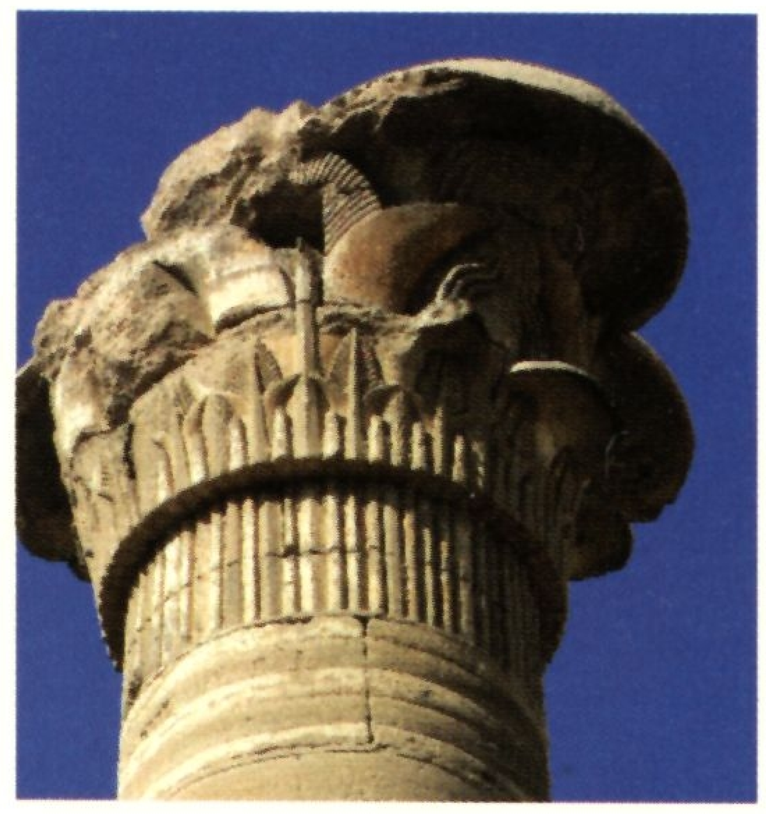
بالنسبة لمعظم الرحالة، فإن مدينة هابو تمثل المعبد الشهير الذي شيد مثل قصر فرساي لتمجيد رمسيس الثالث، ولكن في الواقع مدينة هابو تتكون من معبدين كما يلي :

١) معبد تحتمس الثاني: يتكون من تيجان الأعمدة المشيدة في نهاية الفناء الأول، ومن الأسلوب الركيك، وخاصة الخط الهيروغليفي، ندرك أن المدخل يرجع إلى العصر الروماني، ونقرأ فعلاً أسماء تيتوس (Titus) وهادريان (Adrien) وأنطونيوس(Antonien) على مختلف أجزاء الفناء.

ويؤرخ الصرح المشيد نصفه، والذي نجده بعد الفناء للعصر الروماني مع أن الباب الفاصل بينهما يرجع من جهة إلى عهد بطليموس الزمار (Ptolémée Lathyre)، ومن الجهة الأخرى إلى عهد بطليموس أوتيل(Ptolémée Autèle) .



(266) معبد تحتمس الثانى



(265) تاج عمود



(267) أجزاء من معبد تحتمس الثانى

نجد بعد ذلك فناءً صغيرًا يحيط في نهايته صرح من أكثر الأبنية أناقة. وهنا يجب إدراك التواريخ. ونرى بوضوح هنا وهناك بعض الخراطيش من عهد طهرقا (Tahraka) (الأسرة ٢٥ ، عام ٦٨٠ ق.م) (Nectanébo II) ومن عهد نختنبو الثانى (الأسرة ٣٠ ، عام ٣٥٠ ق. م)، ولكن أحيانًا يجب معرفة الكاتب الحقيقي للخرطوش الذي سلبه بطليموس الزمار (Ptolémée Lathyre) من نختنبو الثاني الذي كان قد أخذه بدوره من طهرقا.عندما نعبر الباب المفتوح في وسط الصرح، ونتخطى الفناء الآخر الذي يلي الباب نجد أننا في المعبد. وأقدم الخراطيش التي نجدها فيه هي خراطيش تحتمس الثاني وأكثرها عددًا خراطيش تحتمس الثالث. وتأتي بعد ذلك في عهد بطليموس (Ptolemée Physcon) خراطيش من كل العصور تقريبًا، ومن الطريف دراسة التداخل وسط الترميمات التي تعرض لها المعبد.



(268) معبد تحتمس الثانى

والآن وقد عرفنا مؤسس معبد تحتمس وتواريخه المختلفة ، نسأل ما الغرض من هذا المعبد ؟ وفيمَ خصص هذا المبنى الصغير قبل أن يقيم رمسيس الثالث بجانبه الأثر الفخم الذي يجذب وحده الآن كل الاهتمام، وهو ما لا تفصح عنه النقوش؟!

٢) معبد رمسيس الثالث:

يعدّ معبد رمسيس الثالث بعظمته وتوافقه وأهميته التاريخية وأسلوبه وتنوع المناظر التي تزينه أحد الآثار المصرية التي تترك زيارتها أجمل وأقوى انطباع.

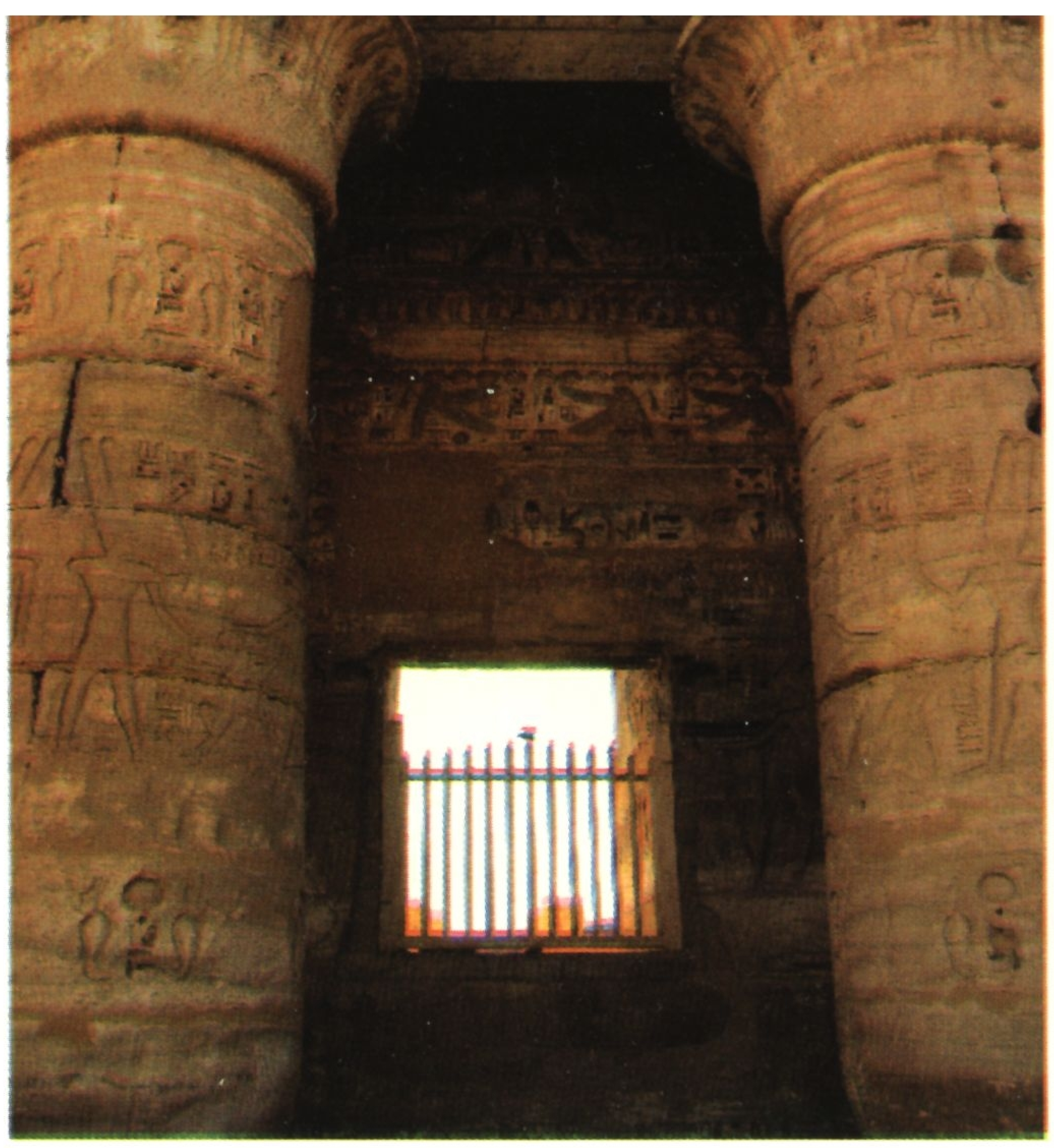
ويتكون من جزءين يفصل بينهما فناء: الجزء الأول يطلق عليه "القصر". وهو ما نجده في البداية عندما نعبر المبنى من باب الدخول . ويجيء بعد ذلك "المعبد" بكل ما في الكلمة من معنى، والذي يعلن قدومه عن مدى عظمة الصرح.



(269) الفناء والصرح الأول فى معبد هابو

(ا) – القصر[٦٤]:

يضم كل صفات المسكن الملكي، برجان كبيران مربعان وجدرانه الأربعة المائلة بشكل متناسق تتجه نحو مركز مشترك تشكل هيكل المسكن الرئيسي وتستحق تفاصيل هندسة العمارة الدراسة. من الخارج، تظهر النوافذ محاطة بزخارف غير عادية ذات طابع فريد (انظر خاصة الجانب الشمالي). يحمل الأسرى المنبطحون أرض الشرفات التي تبرز من الحائط، في الطوابق العليا نرى مساند مخصصة لحمل أطراف المدرج الروماني الذي كان يجب أن يمتد فوق ممر المدخل، ويحمي الواجهة الشرقية من الشمس،



(270) نافذة يطل منها الملك على الاحتفالات فى الصالة الرئيسية

ولكن يظهر الطابع الخاص للمبنى أساسًا في الغرف الداخلية. وهنا نجد رمسيس الثالث فعلاً في بيته وبين أسرته، تقدم له إحدى بناته[٦٥] الزهور، ويلعب الضامة [الشطرنج] مع ابنة أخرى، ويتلقى الفواكه من ثالثة، ويداعبها ليعبر عن شكره لها .



(271) العناصر المعمارية للقصر



(272) الصرح ناحية الجنوب حيث رمسيس الثالث فى رحلة صيد



(273) رءوس أسرى تحمل الشرفات على جدران الصالة الرئيسية

ونتصور أن في مبنى بمثل هذه الأهمية لا يمكن أن ينسى رمسيس التاريخ، ولابد أن يبرز شخصيته كفاتح. يظهر رمسيس فعلاً من باب المدخل وهو يقدم الأسرى من الأعداء إلى الآلهة. ويدهشنا بحق مهارة النحات المصري الذي تمكن أن يعطي لكل أسير خصائصه البشرية. ولنتذكر أننا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن علم (ethnographie) خصائص الشعوب والأجناس لن يجد في أي مكان آخر أمثلة أكثر أصالة لدراسة الأمم التي كانت تقيم في ذلك الوقت في آسيا الغربية وليبيا والسودان. عند الباب الشرقي يتسع فجأة الممر الذي يؤدي إلى القصر، ويكوّن نوعين من الساحات الصغيرة المربعة، ولنسأل النحاتين الذين زينوا الجدار الغربي لهذه الساحات. ونجد هنا خصوصًا رءوس الأسرى التي تم نحتها بفن جميل، والتي لا يمكن أن تكون سوى صور شخصية من ناحية اليمين، ونقصد بذلك القول الجانب الشمالي الذى يضم الأسرى الآسيويين، ومن ناحية الجنوب نرى الأسرى من ليبيا ومن بلاد كوش، وتم ذكر الأسرى الآسيويين كما يلي:

١- " رئيس الخيتيين (Khétas) الحقير أسير حي "، وجهه سمين، وبدون لحية، وأذناه مزينتان بحلقات كبيرة، ورأسه مغطاة بطاقية ملتصقة يخرج منها ذيل يتهدل على الظهر.

٢- " قائد بلاد أمارو(Amaro) الحقير" وجهه مستطيل ولحيته مدببة.

٣- " قائد الأعـداء من تعكـارة (T'akkara)" يرتدي طاقية عريضة مقطوعة عموديًا على الرأس، وجهه سمين، وبدون لحية.



(274) تقديم الأسرى وحصر عدد القتلى من الأعداء



(275) أسرى من الشعوب الخاضعة لمصر



(276) أجناس الأسرى وملامحهم المميزة



(277) الشعوب المنهزمة مكبلة

٤- " بلاد الشردن (Schardina) الموجودة في البحر المتوسط " الشخص الذي يمثل هذا البلد يلفت النظر بخوذته التي تعلوها كرة،

٥- " قائد الأعداء من الشاسو (Schasou)" .

٦- " بلاد توسرا (Tousra) الواقعة في البحر ،

٧- " قائد الأعداء من كا (Ka...) ". صف الأسرى من ليبيا، ومن بلاد كوش (Kousch) أصابه التلف كثيرًا. وكذلك نرى:

١- " قائد جنس كوش(٦٦) الحقير"، وقد أعطاه النحات بشكل استثنائي ملامح الزنجي رغم أن المصرين أنفسهم قد ضموا كوش إلى جنس الشاميت (Chamites) ،

٢- تهدم.

٣- تهدم . ونرى أن الشخص الممثل كان كوشيًا،

٤- " قائد بلاد ليبو (Libou) ليبيا"، لحيته مدببة، وتتدلى خصلة من شعره على أذنه.

٥- " قائد بلاد التورس (Tourse)" جنس كوشي آخر، ونلاحظ أن الأنف أقنى، والرداء الكبير مزركش بالسجف .

٦-" قائد الشاوش(Maschaouasch) "، يدهش كثيرًا بمظهره الضخم .

٧-" قائد بلاد الطراوة (Taraoua)" يكمل هذا الشخص السابع مع الأول والثالث والخامس مجموعة شعوب كوش الأربعة التي تظهر في المنظر ممزوجة بشعب ليبيا.



(278) شعوب البحر بغطاء الرأس المميز



(279) الأعداء بملامحهم المميزة

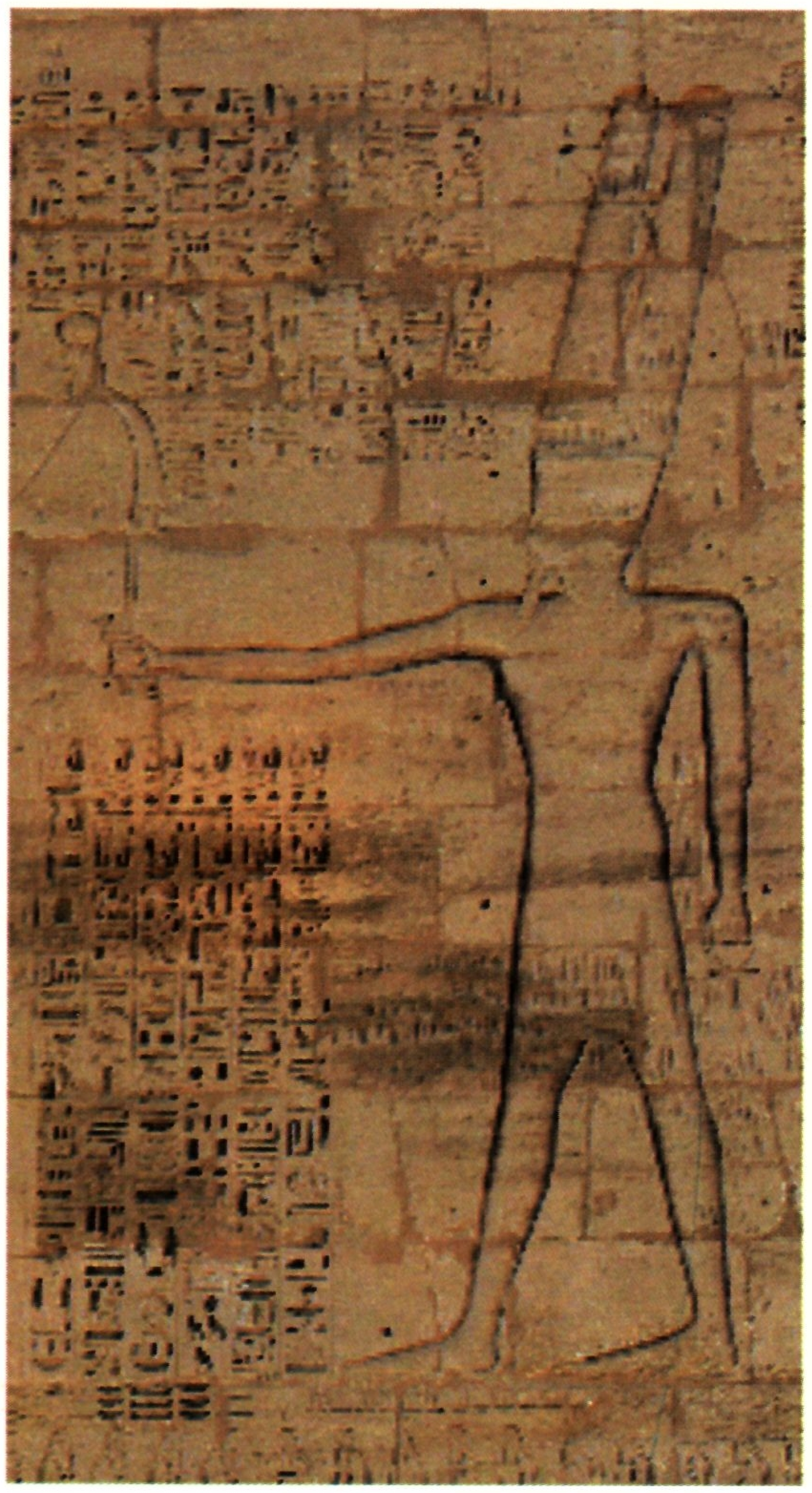
ولن نجد في قصر مدينة هابو خراطيش غير خراطيش رمسيس الثالث، كما لا نجد في الرمسيوم غير خراطيش رمسيس الثاني.

(ب) – وسوف تقتصر علاقتنا على رمسيس الثالث وحده بداخل المعبد.

يصوّر الصرح الأول بمفرده دراسة أحادية من المهم أن نكرس لها عناية خاصة. لوحات تذكارية كبيرة يرجع تاريخها إلى عامى١١ و ١٢ تشير إلى الحملات العسكرية التي شنها رمسيس على الليبيين والماشواش (Maschaouasch) وشعوب أخرى هرعوا من ليبيا ومن سوريا ومن جزر البحر المتوسط ليتحالفوا ضد القوات المصرية. وعلى واجهة الصرح من الجهة الشمالية نجد منظرا لابد من الإشارة إليه بسبب الأسلوب الشعري الذي يتسم به أحد النقوش التي نراها في هذا المنظر. يضرب الملك بمقمعته (عصا صغيرة تعلوها كتلة معدنية) مجموعة من الأسرى راكعين.



(280) الملك يضرب بمقمعته مجموعة من الأسرى



(281) أمون يحمل سيف الحرب

يقدم له آمون – حور ام آخت سلاح المعركة. بعيدًا عن الأسلوب الرنان الغامض قليلاً، يتلخص الحديث الذي يوجهه الإله للملك فيما يلي: " أدير وجهي نحو الشمال، وأريد أن تكون فينيقيا (Phénicie)[٦٧] تحت أقدامك، وأريد الأمم التي لا تعترف بجميل مصر أن تأتي لك بمالها وأموالها واللازورد .

أدير وجهي نحو الشرق، وأريد أن تمنحك الجزيرة العربية كل ما تملك من منتجاتها من الروائح وخلاصة العطور والخشب النادر ومن كل إنتاجها. أدير وجهي إلى الغرب، وأريد أن يقدم سكان بلاد تحنو (Tehennou)[٦٨] لك ولاءهم...إلخ ».

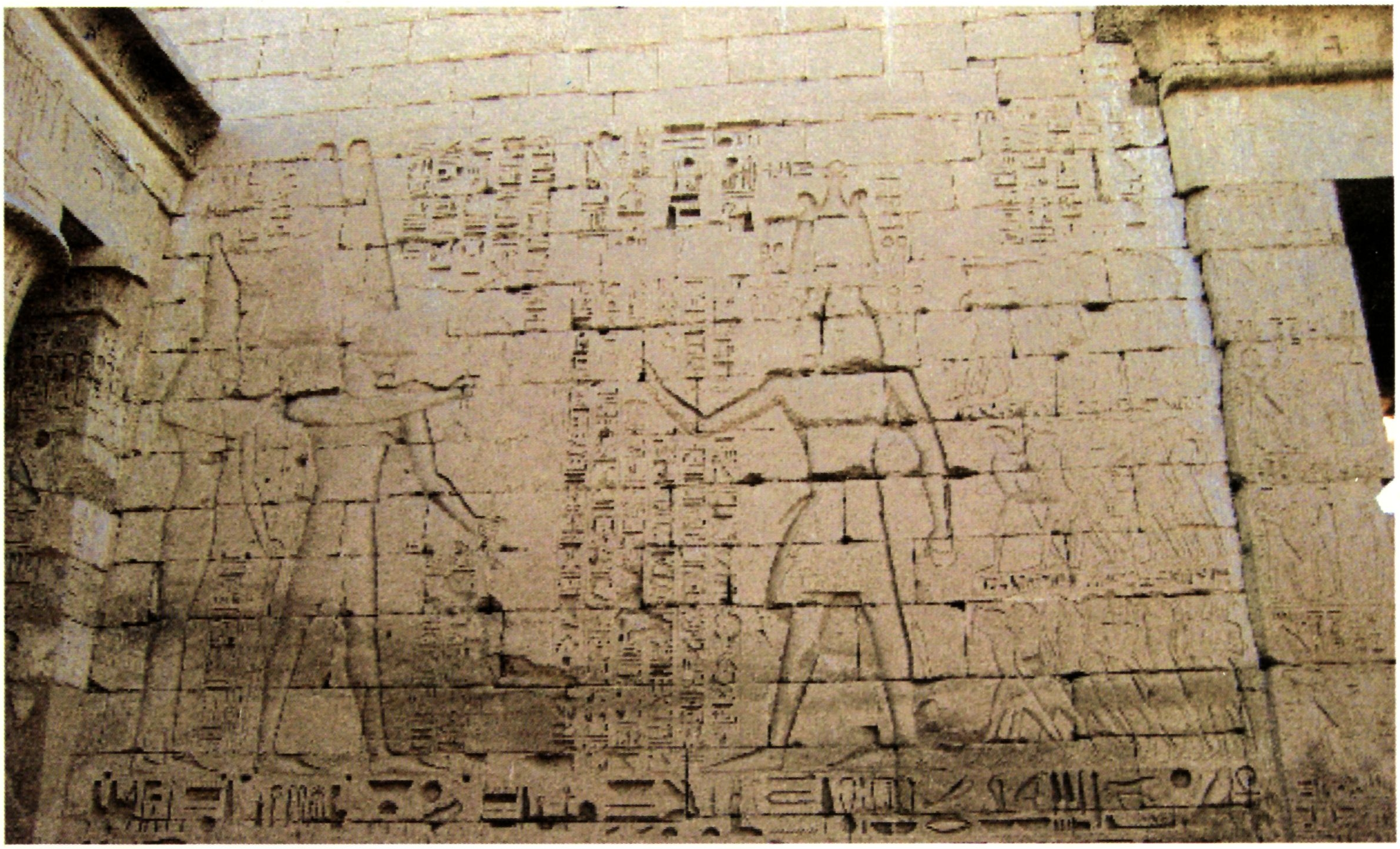
ويلفت الفناء الذي يلي الصرح الأول النظر بتماثيله الضخمة المستندة إلى الأعمدة التي تحيط أحد جوانبه. ويظهر الطابع الجنائزي للأثر كما هو الحال في الرمسيوم؛ حيث إن هذه التماثيل ليست إلا تماثيل الملك مرتديًا رموز الإله أوزوريس.



(282) تماثيل الملك متخذًا الصورة الأوزورية

وعندما ندخل في هذا الفناء الثاني نجد أمامنا واجهة الصرح الثاني الأمامية. لوحة كبيرة تغطي الكتلة الجنوبية.





(284) رمسيس الثالث يقدم الأسرى لآمون وموت

في جانب منها نرى الإلهة آمونت (Amont) والإلهة موت (Mout)، وفي جانب الإلهة نرى رمسيس وهو يقدم للآلهة مجموعة من الأسرى اصطفت في ثلاثة صفوف. ولو حكمنا بمظهر ملابسهم العام نجد أن هؤلاء الأسرى هم ثلاثة فروع من شجرة واحدة؛ تمثل المجموعة الأدنى البورصاته (Poursata) [ويمكن أن نقرأ أيضًا البولستا (Poulista) أي الفلسطينيين (Philistins) أجداد الذين جاءوا فيما بعد للإقامة على حدود مصر] . أما المجموعة التي في الوسط فتجعلنا أمام التعناؤيون (Taanaouna). وأخيرًا في المجموعة العليا نرى الشكرش (Schakrasch)، وهي مجموعة نعرف اسمها من النقوش الموضوعة تحت أقدام الملك. كل هذه الشعوب – كما سنرى– هم سكان جزيرة أو سكان بعض جزر البحر المتوسط التي تحالفت ضد رمسيس، وشكلت مع شعوب آسيا الغربية تحالفًا، استطاع رمسيس الانتصار عليهم بعد معارك شديدة في البر والبحر.

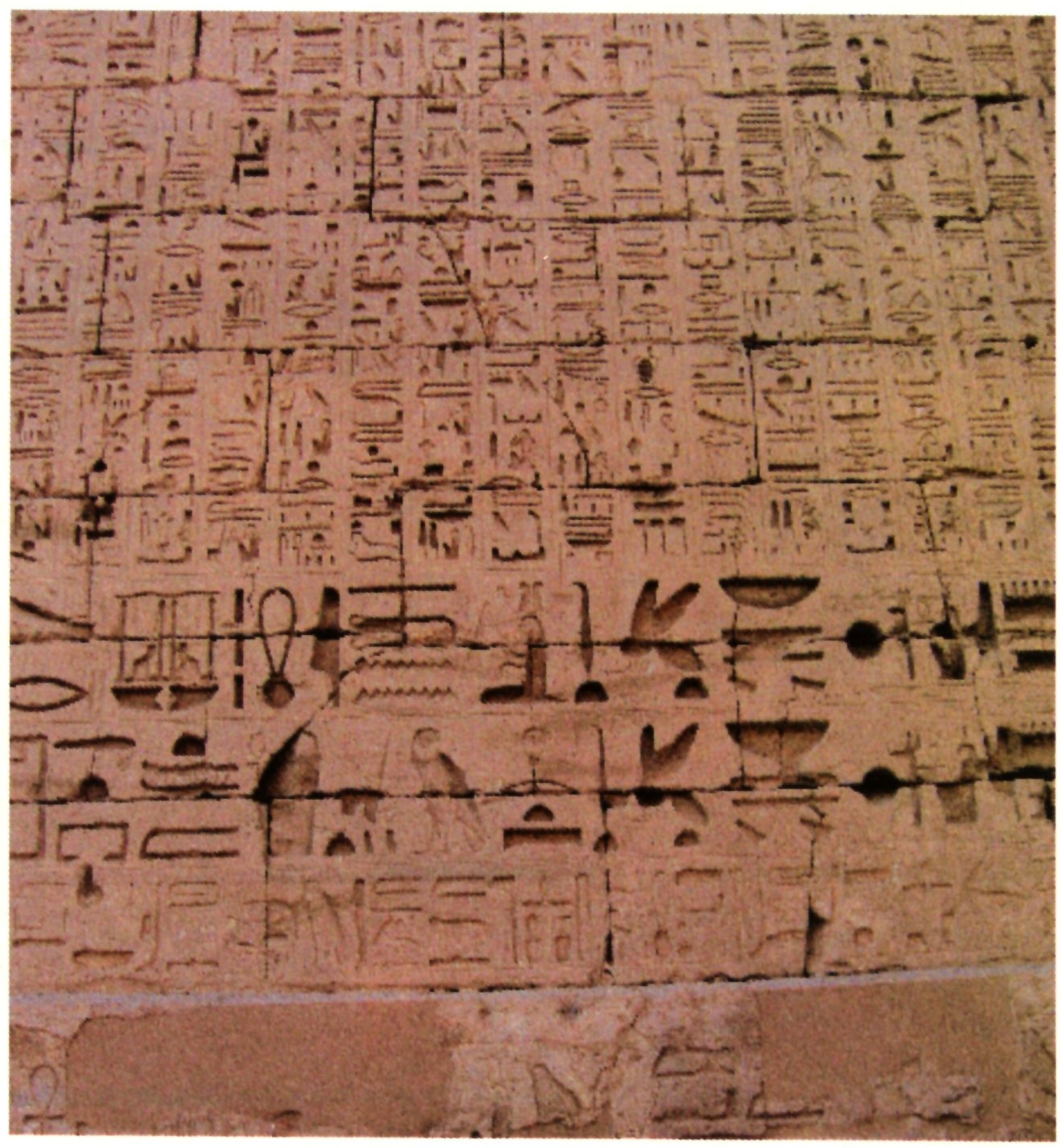
وعلى الجانب الشمالي تم نقش نص طويل جدًا ونادر للغاية كان موضوع دراسة قام بها السيد دي روجيه (de Rougé) . تتضمن السطور الخمسة الأولى سردًا لألقاب الملك. وتبدأ المعلومات المهمة مع بداية السطر السادس. كانت بعض شعوب آسيا قد تحالفت ضد مصر مثل شعوب الخيتا (Khéta) وأتي (Ati) وكركمسكا (Karkamaska) وأراتو (Aratou) وأراسا (Arasa). وانضم إليها مجموعة أخرى من الشعوب هي شعوب البروساتا (Poursata) والتعكارا (T'akkara) والشكلاشا (Schakrascha) التعناؤيون (Taanaouna) والأوشاشا (Ouaschascha)، وكلها شعوب ساحلية .

وقد قابل رمسيس أعداءه الأقوياء في مكان لم يحدد بعد جيدًا في سوريا الشمالية. وقد وقعت المعركة الأولى، والتي خرج رمسيس منها بالطبع منتصرًا. ومعركة أخرى دارت هذه المرة فوق البحر، وانتهت بهزيمة المتحالفين. وهكذا بفضل شجاعة رمسيس نجت مصر من الخطر الذي كان يهددها، واحتفظت لبعض الوقت بحدودها في آسيا الغربية.



(285) نصوص هيروغليفية لإحدى معارك رمسيس الثالث

نعبر الباب المشيد من الجرانيت، والذي يجمع بين الكتلتين في الصرح الثاني، ثم ندخل في فناء واسع، وهنا يمكن أن نرى أعظم وحدة منسجمة الأجزاء تركتها لنا الآثار المصرية. تحيط الفناء من الجهات الأربعة ممرات مغطاة بتماثيل زاهية الألوان. أمام الممرات في الشمال والجنوب أعمدة ضخمة تيجانها تمثل زهرة اللوتس المقفولة. تستند الممرات من الشرق ومن الغرب إلى أعمدة مربعة تم سند تماثيل الملك على ظهرها. تغطي وسط الفناء بعض جذوع أعمدة من الحجر الرملي تم قطعه بدون عناية، بجوار ثلاثة أو أربعة أعمدة مازالت قائمة، وهي أثر يرجع للزمن الذي كانت فيه مدينة هابو مدينة قبطية شَكَّلَت كنيستها هذا الفناء الرائع الذي نوجد فيه.



(286) تفاصيل من نصوص هيروغليفية لإحدى معارك رمسيس الثالث



تغطي الممرات الداخلية على الواجهات الأربع لوحات عديدة يجب أن نصرف النظر عن وصفها. وعندما ندخل من جهة اليسار نجد لوحة تصور معركة حربية. ولابد أن يكون الزائر قد تعود الآن على أشكال صور الملك الضخمة وهو يقود عربته الحربية بين أعدائه الذين يهربون من أمامه خائفين؛ لذا لن نعود إلى ذلك مرة أخرى. أما الأعداء هذه المرة فهم من الليبو(Libou). صوّرهم الفنان في أقصى المنظر ببراعة تدهش أكثر مما تبهر وهم مدحورون بعضهم فوق بعض.



(288) عودة الملك منتصرًا وتقديم الأسرى من الأجانب

يوجد على الجدار الجنوبي منظر آخر يبين لنا الأمراء والقادة يقدمون الأسرى إلى الملك المنتصر. وتذكر النقوش أن عدد الأسرى بلغ ألف أسير والقتلى ثلاثة آلاف. ويوجد بجانبها نقوش تتعلق بهذه المعركة، ولكن لسوء الحظ لم تحفظ جيدًا. وفي المنظر الثالث يظهر الملك وهو يعود منتصرًا إلى مصر تسبقه وفود كثيرة من الأسرى المقيدين بالسلاسل وتتبعه جيوشه. والمنظر الرابع تصوره لنا وهو يدخل طيبة ويقدم الأسرى إلى آلهة المدينة.

تحتل هذه اللوحات الكبيرة عن الحرب أسفل السجل من جهات شرق وجنوب وغرب الفناء، ولكن في أعلى السجل تم عرض مشاهد من طابع آخر لا تقل عنها أهمية. وقد وصفها شامبليون بعناية لدرجة أننا لا نستطيع أكثر من أن نترك الكلمة إلى مؤسس دراسة الآثار المصرية الشهير:



(289) رمسيس الثالث يتلقى بياناً بعدد القتلى من الأعداء

كتب شامبليون في " مراسلات من مصر " (Lettres écrites d'Egypte ص 344 الطبعة الأولى) " يخرج رمسيس من قصره محمولاً في ناؤوس (naos)، وهو عبارة عن نافذة غنية الزينة يحملها ١٢ (oeris) من القادة العسكريين والرأس يزينها ريش النعام . يجلس الملك حاملا كل أوسمة القوة الملكية وهو يجلس على عرش أنيق تغطي جناحيه صور العدل والحق من الذهب، يقف أبوالهول رمز الحكمة المرتبطة بالقوة والأسد رمز الشجاعة قرب العرش لحمايته كما يبدو. يلوح جنود حول الناؤوس بالمراوح الكبيرة وبالمراوح العادية، يمشي فتيان صغار من طبقة الكهنوت بالقرب من الملك، يحملون صولجانه وجراب قوسه وشعاراته الأخرى".

" يظهر تسعة أمراء من العائلة الملكية وموظفون كبار من طبقة الكهنوت وبعض القادة العسكريين وهم يتبعون الناؤوس سيرًا على الأقدام في صفين، ويحمل بعض المحاربين قواعد ومدرجات الناؤوس، وتنهي المسيرة فصيلة من الجنود. ويسبق الفرعون كذلك مجموعات متنوعة : فرقة موسيقى تشكل مقدمة الموكب ، نلاحظ فيها الناي والنفير والطبل والمنشدين ، وتأتي بعد ذلك الأسرة والمقربون من الملك، ونحصي من بينهم عددًا كبيرًا من الكهنة، وأخيرًا يقوم ابن رمسيس الأكبر وقائد الجيش من بعده بإشعال البخور أمام أبيه".



(290) رمسيس الثالث محمولاً على محفة في إحدى الاحتفالات

" يصل الملك إلى معبد حورس، ويقترب من المذبح، ويسكب الخمر، ويشعل البخور، يحمل ٢٢ كاهنًا تمثال الإله على محفة فاخرة تتقدم وسط المراوح الكبيرة والمراوح وغصون الزهور. يسير الملك على قدميه وعلى رأسه تاج الوجه البحري يسبق الإله ويتبع مباشرة الثور الأبيض، رمز آمون – حورس الحي أو آمون- رع ، ثور أمه. ويقوم كاهن بإلقاء البخور على الحيوان المقدس، وتظهر الملكة زوجة رمسيس في أعلى المنظر كشاهدة على الموكب الديني، بينما أحد الكهنة يلقي بصوت مرتفع الدعاء المكتوب حين يخترق نور الإله عتبة المعبد، و يتقدم تسعة عشر كاهنًا حاملين الشعارات المقدسة المختلفة والأواني وقوائم الاقتراحات وكل أدوات العبادة، ويفتتح سبعة كهان الموكب الديني حاملين تماثيل صغيرة على أكتافهم تمثل الملوك القدماء الذين سبقوا رمسيس يشاهدون انتصار خليفتهم".



(291) الملك يستعرض أحد المواكب

ثم يأتي بعد ذلك مشهد الطيور الأربعة التي سوف نختصر وصفها. هذه الطيور الأربعة هي أولاد أوزوريس وحماة الجهات الأربع الأصلية يطلقهم كبير الكهنة لكي يذهبوا ويعلنوا في الجنوب والشمال والغرب والشرق أن رمسيس مثل الإله حورس قد وضع توًّا على رأسه رمز السيطرة على الأقاليم العليا والسفلى. وقال شامبليون: " يمثل الجزء الأخير من النقوش البارزة الملك وعلى رأسه تاج الوجهين (Pschent) وهو يشكر الإله في معبده . يسير الملك وراء طاقم الكهنوت والموسيقى المقدسة يرافقه حرسه الخاص. ونراه بعد ذلك يقطع حزمة قمح[٦٩] بمنجل من الذهب، وعلى رأسه تاج كما لو كان خارجًا من القصر، يستأذن من الإله آمون - حورس وهو يريق الخمر راجعًا إلى معبده. وتظل الملكة شاهدة على هذين الاحتفالين الأخيرين، ويدعو الكاهن الآلهة، ويقرأ كاتب المعبد دعوات وصلوات، ويبقى بالقرب من فرعون الثور الأبيض وصور الملوك القدماء على نفس المستوى".


(292) رمسيس الثالث يقدم قربانًا للإله أمون


(293) موكب القوارب المقدسة

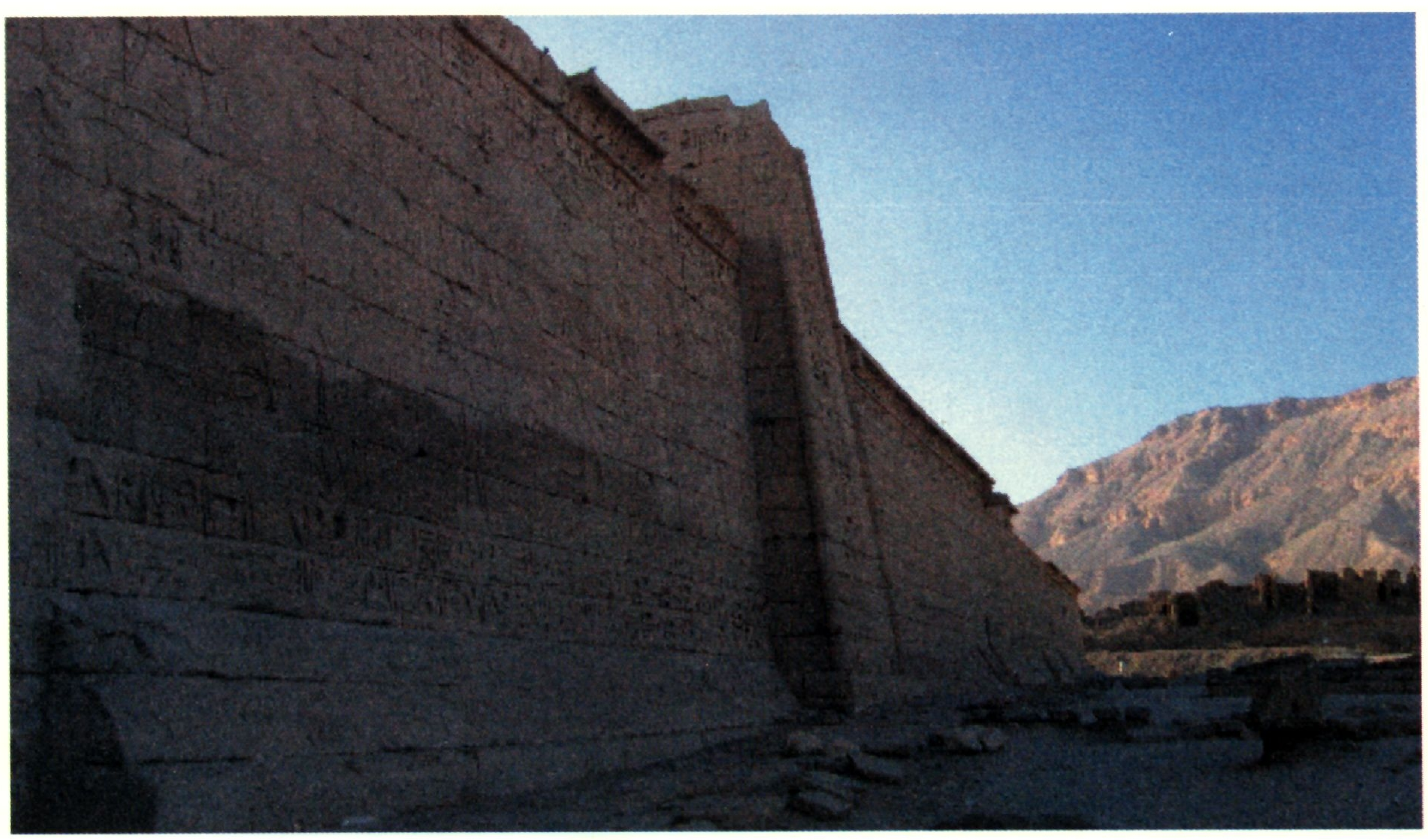
لقد عرفت أجزاء المعبد الغربية منذ زمن قريب أعمالاً كبيرة أمر بتنفيذها سمو الخديوي والي مصر، وسوف يدرك الزائر ذلك من كمية الرديم التي تم رفعها من المعبد عندما يعرف أن هذا المكان هو نفسه الذي كان يوجد فيه أعلى قمة تل بناء القرية القبطية، ولكن لسوء الحظ لم تثمر العملية عن النتائج المنتظرة منها وكان كل ما نتج عن رفع الأنقاض عن الجزء الخلفي من المعبد أعمدة مقطوعة الرأس وحجرات خالية ونقوش دينية ليس لها إلا أهمية عادية تتعلق بأساطير من هذا النوع. (٧٠)

قد نعتقد من كم الأحجار التاريخية الضخمة حقًّا التي وجدناها أمامها أن الذين قاموا بتنظيم المعبد قد استنفدوا جهدهم في الداخل، وأن مدينة هابو لم يعد بها ما يفيدنا علميًّا، ومع ذلك ليس هناك ما يدل على ذلك.

نترك الحديث عن الجدار الجنوبي الخارجي الذي نقشت عليه قائمة الأعياد التي يحتفل بها في المبنى المقدس، والذي لا يقدم إلا أهمية أقل بالنسبة للأشخاص الذين لا يرغبون في دراسة الموضوع دراسة عميقة. ولكن الجدارالخارجي الشمالي، مهما كان مزدحمًا، يعتبر بالنسبة لنا دهليز متحف حقيقي تم فيه ترتيب عشر لوحات بتنسيق تدلنا عن أحداث المعارك التي شنها رمسيس الثالث في العام التاسع (٧١) من حكمه ضد الليبيين والتعكر (T'akkaro).



(294) معبد تحتمس الأول قبل الترميم

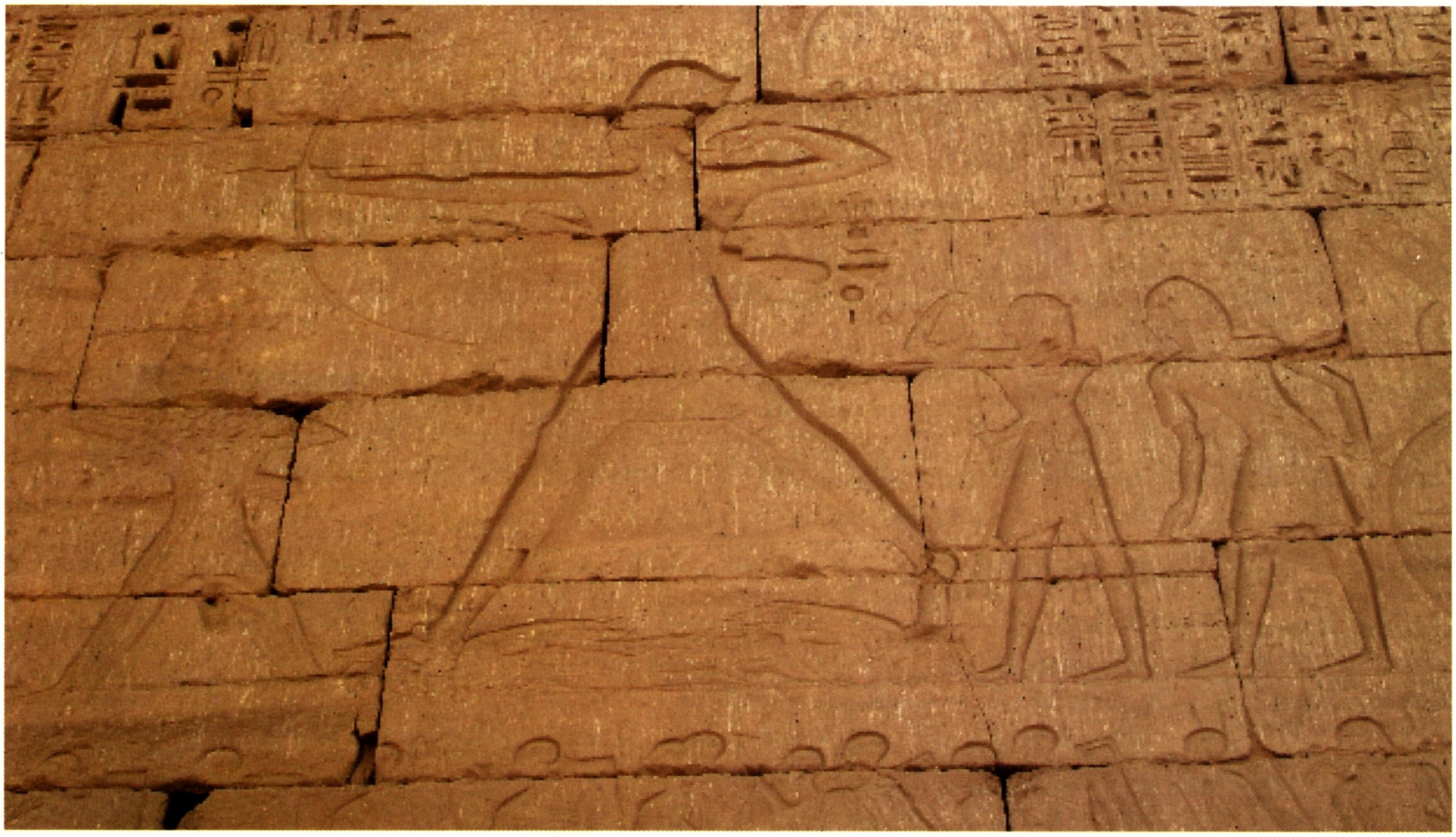


(295)الجدار الشمالي حيث سجلت المعركة البحرية

المنظر الأول : خروج الملك والجيش إلى الحرب . زحف الجنود، وسوف نفحص في هذا المنظر أسلحة الفرق...إلخ.

المنظر الثاني : معركة كبرى وانتصار عظيم . الأعداء هم الليبيون من جنس تمحو (Tamahou) . مثل أبطال هوميروس الملك يحارب بنفسه. يصعب وصف المذبحة.

المنظرالثالث : تم قتل ١٢٥٣٥من الأعداء ، يجيء القادة العسكريون بالأسرى إلى الملك المنتصر.



(296) الملك يرمى السهام فى المعركة البحرية



(297) رمسيس يرجع إلى الوراء يهاجم من جاءوا عن طريق البحر

المنظرالرابع : يخطب الملك أمام قادة الجيش . القوات تحمل السلاح مستعدة لمهاجمة العدو من جديد. تفاصيل عجيبة للدراسة.

المنظر الخامس : زحف جديد . استعراض القوات. هنا وهناك ليست النصوص المكتوبة سوى مديح للملك وشكرًا للآلهة.

المنظرالسادس : معركة أخرى وانتصار آخر . الأعداء هم التهكر وقد دحرهم الملك وهاجم معسكرهم. بعض النساء والأطفال يفرون وهم راكبون عربات تجرها الثيران.

المنظرالسابع : هجوم آخر . يخترق الجيش بلدًا غزته الأسود ربما في أحد جبال لبنان. يقتل الملك أسدًا ويجرح آخر. وربما في هذه الأماكن قام الملك أمنوفيس الثالث بقتل مائة وعشرة أسود، ونجده يفخر في جعران بمتحف بولاق أنه ذبحها بيده في السنوات العشر الأول من ملكه.

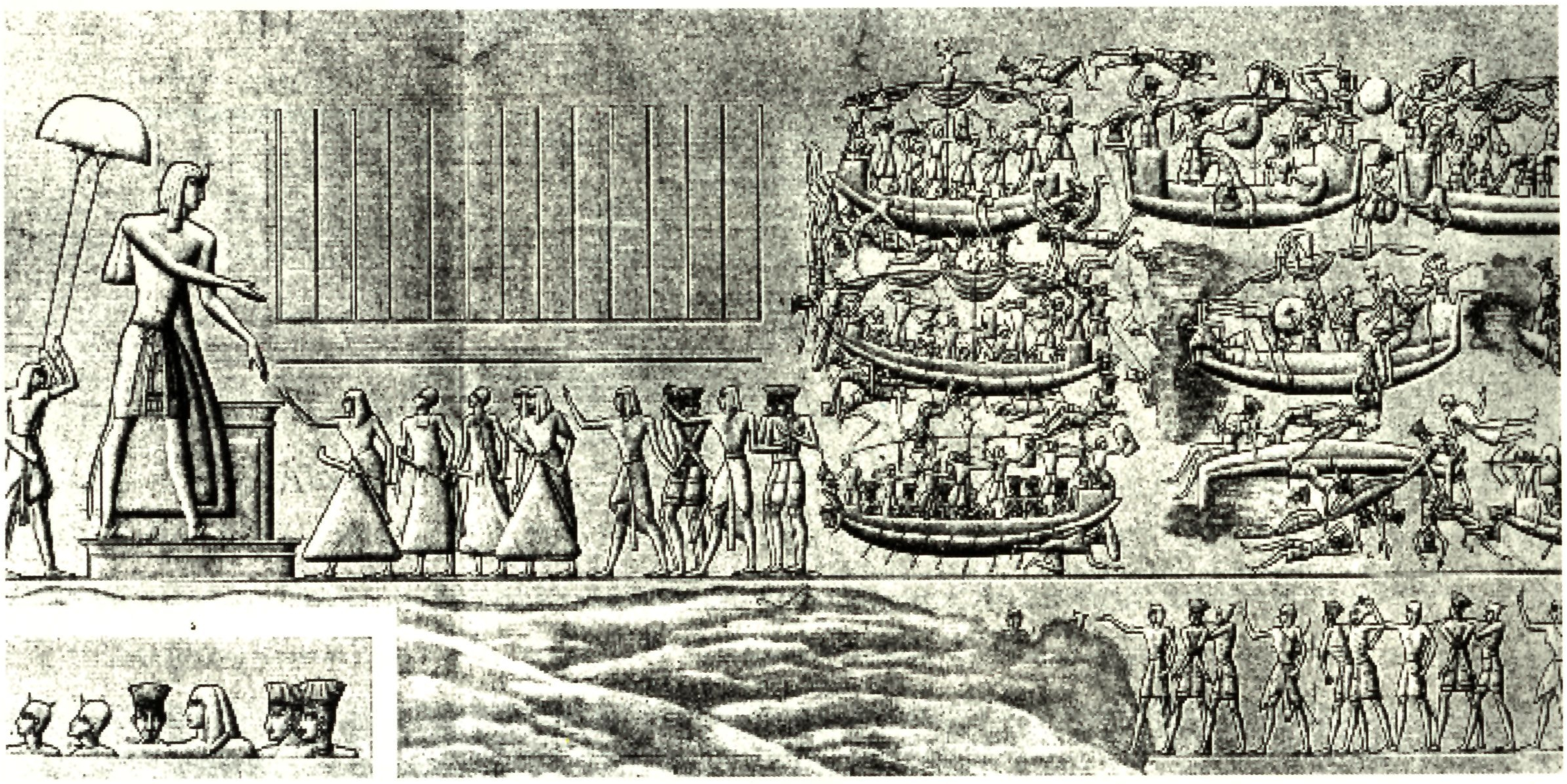


(298) المعركة البحرية – من كتاب وصف مصر (1)

المنظر الثامن: يوضح المنظر معركة بحرية في مصر. يجري المشهد بالقرب من الساحل أو عند مصب النهر. هاجم الأسطول المصري أسطول التعكر (T'akkaro) يسانده أسطول الشردن (Schardina). في أثناء التلاحم نلاحظ سفن العدو التي غرقت تطفو منقلبة رأسًا على عقب. وقف رمسيس على الشاطئ، ويساعد حاملة الأقواس (القواسون) الأسطول المصري على تحقيق النصر، وذلك بتشتيت العدو بوابل من الحراب.



(299) المعركة البحرية – الجدار الشمالي لمعبد هابو

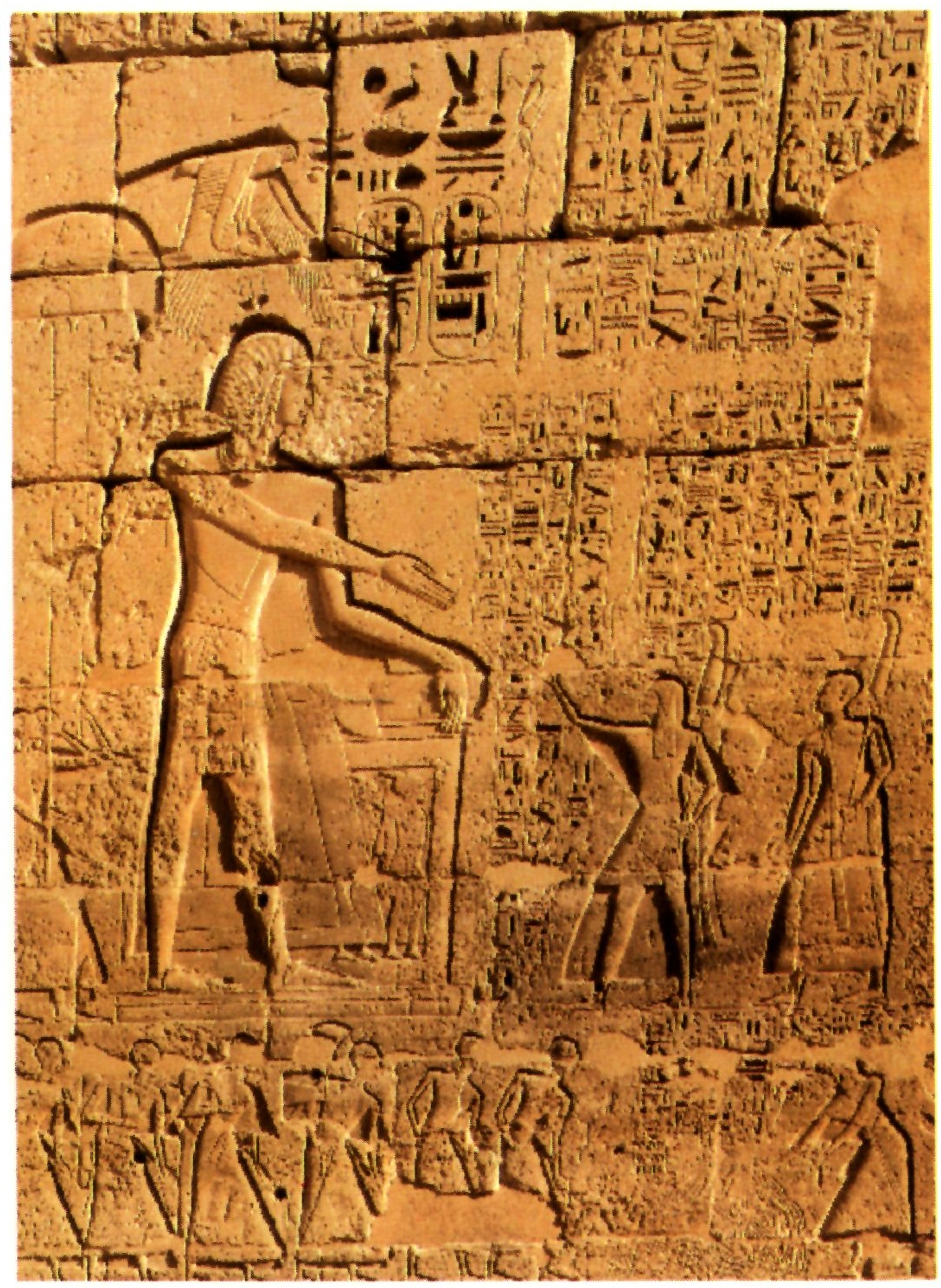


(300) المعركة البحرية - من كتاب وصف مصر (2)

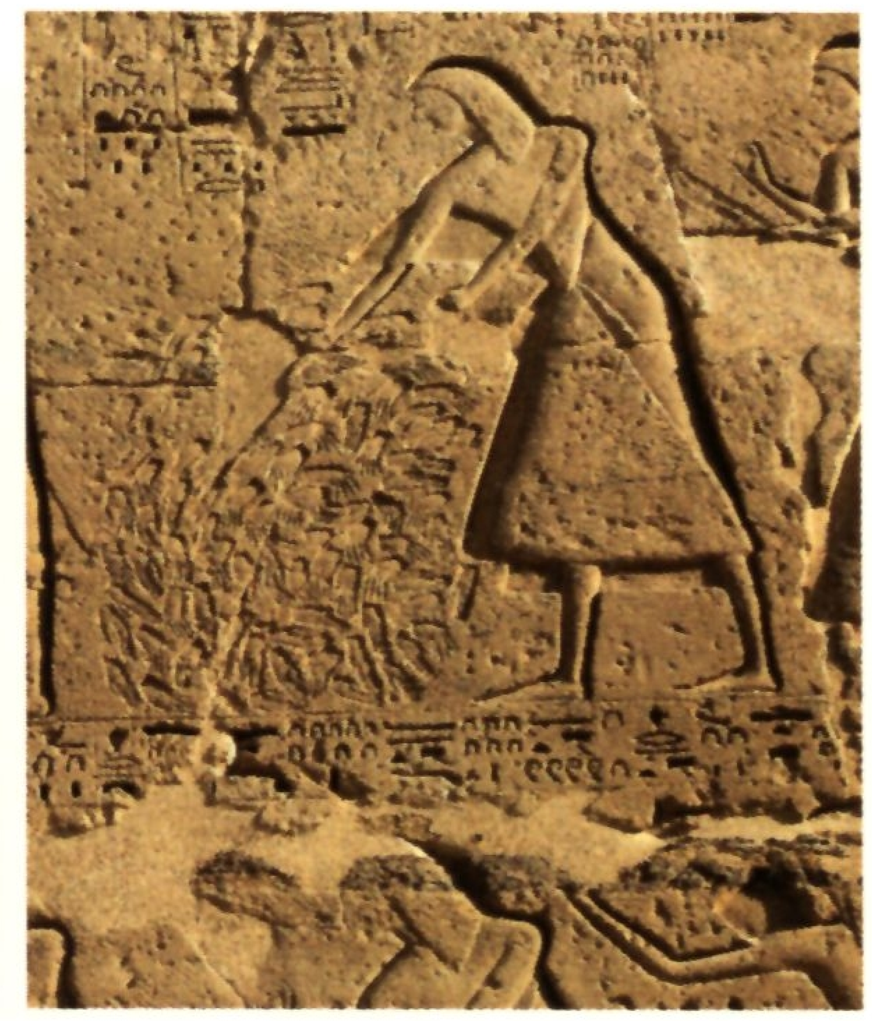
المنظر التاسع: بدأ السير نحو مصر، يتوقف الجيش في مكان حصين أطلق عليه مجدل رمسيس - حاكم إيون [هليوبوليس] (Migdol-en-Ramses-haq-on) . يتم إحصاء عدد الموتى بعدد الأيادي المقطوعة في ساحة القتال. ويسير الأسرى في عرض أمام الملك، ويلقي الملك خطبة في أبنائه وقادته.

المنظر العاشر: العودة إلى طيبة . يقدم الملك الشكر للآلهة. خاطب الآلهة وخاطب الأسرى الذين يطلبون من الملك أن يبقي على حياتهم ليمجدوا أيضًا شجاعته وبطولته وقتًا طويلاً.

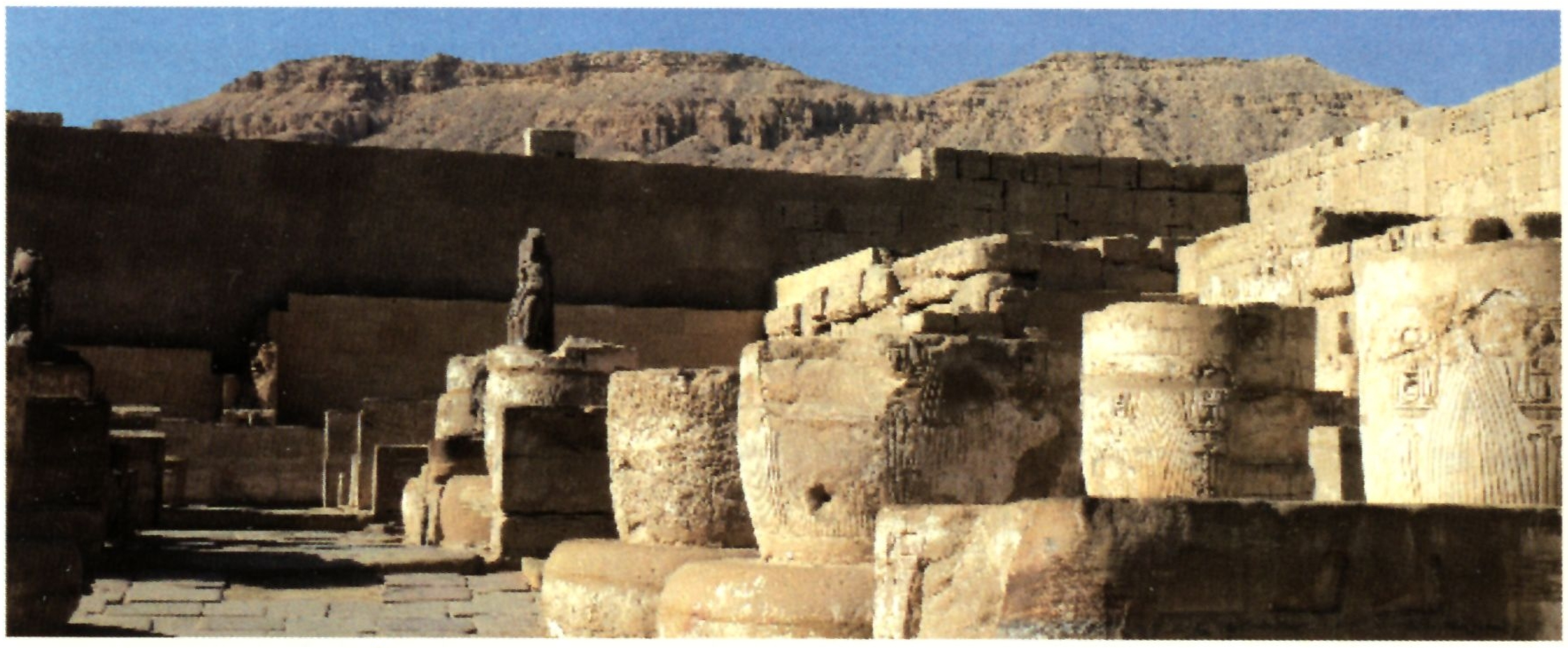
نرى من هذا الوصف المختصر للغاية لمدينة هابو مدى أهمية هذا الأثر الرائع الذي درسنا أجزاءه الرئيسية. ولو حاولنا الآن معرفة هدف الملك من وراء بنائه لن نستطيع حل المشكلة إلا كما تم حلها من قبل في الرمسيوم. ولم يكن اختيار الموقع على حدود الصحراء والجبانة بـــلا جدوى؛ إذ نجد في ذلك شيئًا، وكأنه اهتمام بالأجيال أو مؤسسة دائمة لصالح ملك مشهور. إنها تخليد ذكرى وذاكرة رمسيس الثالث.



(301) تقديم الأسرى للملك



(302) إحصاء القتلى من خلال أكف الأيدى



(303) الصالة الأخيرة

فهــو شخصيًّا الذي يقيم في مدينة هابو. بقيت مسألة أخرى تحتــاج إلى دراسة. هذا الجزء المخصص للأسرة، والذي أطلقنا عليه اســـــم "القصر" هل هو حقًّا قصر مما قد يجعل من جناح مدينة هابو النموذج الوحيد للعمارة المدنية الذي نعرفه حتى الآن؟ وننبه لو أن هذا الجناح يمثل قصرًا؛ فذلك لأن القصور المشيدة من الطوب كانت متينة مثل المعابد نفسها، ولماذا لم تصلنا آثار قصر آخر؟ لن نبت بالتالي في أمر معرفة أين يقيم الملوك، وهو سؤال محير كثيرًا لأننا نعرف أنهم لا يسكنون في المعابد. ولكن نرجح أن جناح مدينة هابو لم يكن بالنسبة للملك مسكنًا[٧٢] . الفكرة أنه من بُعد وعلى الطبيعة يوحي بخطوط العمارة العامة، وهي فكرة أبراج النصر «مجدل» (migdol) التي حفظت لنا النقوش البارزة تخطيطها في الكرنك والأقصر والرمسيوم ومدينة هابو نفسها، والتي كان يشيدها الملوك على الحدود كوسيلة للدفاع عن مصر، وفي الوقت نفسه كان بمثابة أثر تذكاري لانتصارهم، وبذلك يكون جناح مدينة هابو صرحًا معماريًا عسكريًا يخلد ذكرى ملك محارب، وليس أثرًا معماريًا مدنيًا.





اليوم الثاني عشر:

يشمل برنامج اليوم الثاني عشر زيارة مختلف جبانات طيبة ومعبد الدير البحري. سوف نتَّبع لزيارة الجبانة الطريق نفسها لزيارة المعابد.

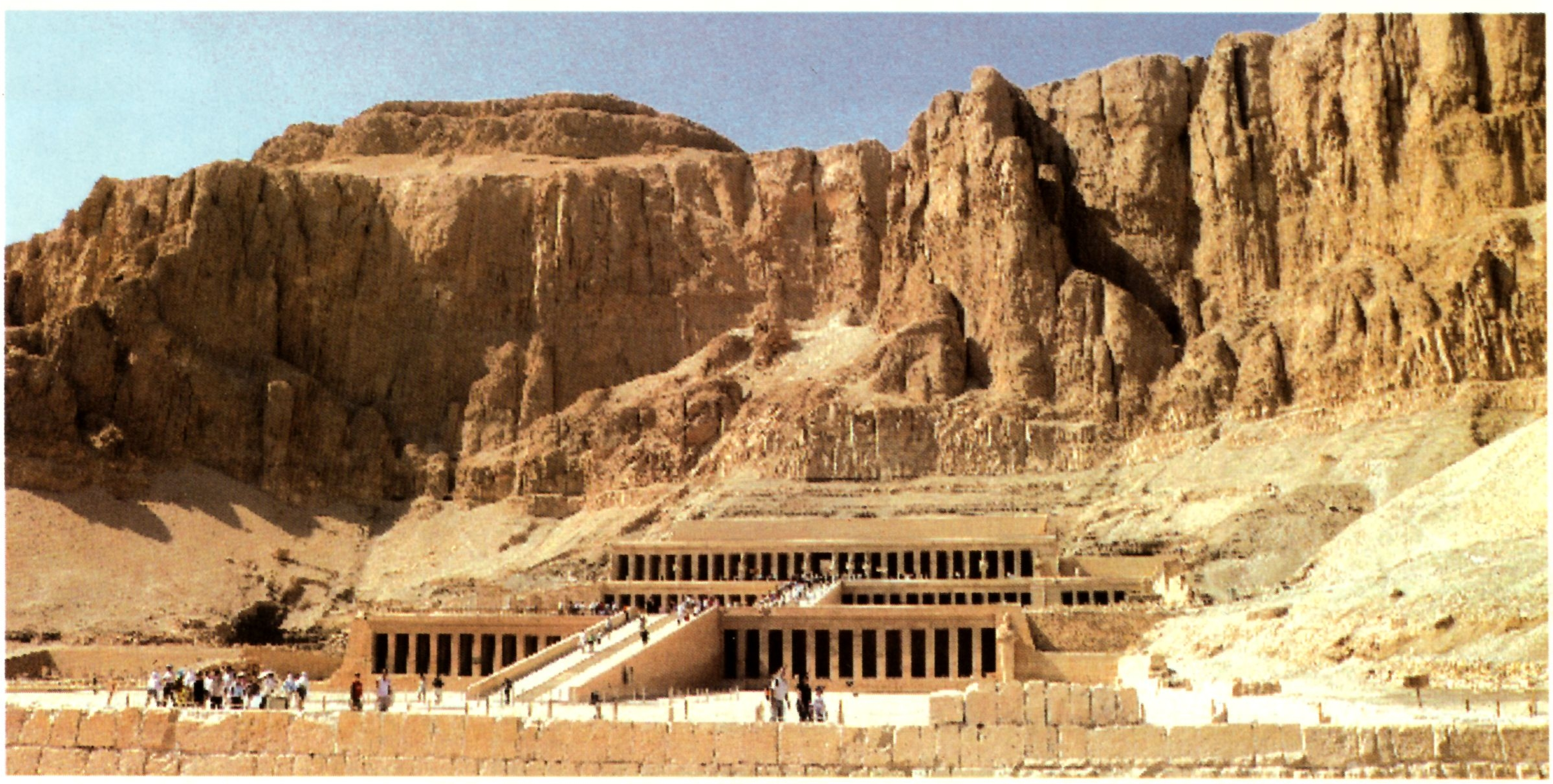
نتجه أولاً نحو معبد القرنة. تعتبر الساحات الكبيرة المربعة الشكل، والتي تخترق جوانبها الثلاثة أبواب مصفوفة بتناسق هي مقابر العامة لا يوجد فيها ما يثير الانتباه. عندما نغادر معبد القرنة ونتبع حدود الأراضي المزروعة نرى أمامها وعلى اليمين طبقات من التلال قلبتها حفائر كثيرة رأسًا على عقب، وهي الجبانة المسماة دراع أبو النجا. وتعتبر بالتأكيد جبانة دراع أبو النجا أقدم جبانة في طيبة. ونجد فيها خصوصًا بعض مقابر الأسرة الحادية عشرة، والسابعة عشرة، وبداية الأسرة الثامنة عشرة. وقد عثر فيها على مقابر ملوك إنتف (Entef) (الأسرة الحادية عشرة) الذين توجد توابيتهم في باريس وفي لندن. ويأتي منها أيضًا تابوت الملكة إعج – حتب (Aah-Hotep) ومجموعة جواهرها المشهورة (في متحف بولاق). وللأسف الشديد لا توجد مقبرة في دراع أبو النجا تستحق الرؤية؛ فقد كانت فخامة العصر ترجع إلى المومياوات والمقاصير الداخلية النادرة للغاية، والتي علاوة على ذلك لا تحتوي على زخرفة.



(306) إحدى جبانات القرنة – غرب الأقصر

ونكمل السير نحو الجنوب لنصل إلى جزء آخر من الجبانة لا يشبه نفس مظهر دراع أبو النجا. وهي جبانة العساسيف (Assassif). في دراع أبو النجا يميل لون الأرض التي أجريت فيها التنقيبات إلى اللون الأصفر يختلط بها كسر من طوب أحمر رديء، ونكاد لا نلاحظ بها كسرة حجر جيري. وهنا الأرض ليست، إذا جاز القول، إلا من الجير الناعم. ويرجع هذا الأمر أولاً إلى مادة الصخر التي حفرت فيها المقابر، وهي في العساسيف عبارة عن حجر جيري أبيض فاخر. ويرجع الخلاف أيضًا إلى تقاليد العصر. ونجد في العساسيف مقابر الأسرات ١٩ و٢١ و٢٦. وفي ذلك الوقت ظهر البذخ أكثر في زينة المقاصير الخارجية. وفي أجزاء مختلفة شُيِّدت أبنية صغيرة للأسف تم هدمها. وبالإضافة إلى ذلك نرى دائمًا جدرانًا سميكة من الحجر الجيري كانت تستخدم دون شك في تحديد الأجزاء المخصصة للجبانة. أعطت كل هذه المجموعة العساسيف مظهرًا فريدًا لا يوجد في دراع أبو النجا. وعلاوة على ذلك ففيما يخص المومياوات لا نجدها في قاع البئر العميقة كما هي الحال في سقارة، ولكننا نجدها إما في الأرض الجرداء أو في داخل سراديب الدفن المبنية على عمق متر أو مترين.علاوة على ذلك مقابر العساسيف التي يمكن رؤيتها قليلة العدد والأهمية. ومن الصعب معرفة موقعها دون اللجوء إلى خريطة، والأفضل الرجوع إلى المرشدين الذين اعتادوا أن يُطلعوا الرحالة عليها.

بعد المرتفع الذي تحتل العساسيف مركزه يوجد جزآ الجبانة اللذان أطلق عليهما اسم شيخ عبد القرنة وقرنة مرعي. وفي هذا المكان تم حفر المقابر على جوانب التلال. وأُعدت هنا وهناك أبواب كبيرة مربعة مطلة على السهل، وتم ترتيب بعضها بشكل متناسق يجعلها من بعيد تشبه بطاريات قلعة [batteries]. ومن جهة أخرى، فإن لهذه المقابر أهمية لا تعرفها مقابر العساسيف ولا في دراع أبو النجا. ويعتبر أسلوب التخطيط هو التخطيط نفسه المتبع في مقابر سقارة وبني حسن ؛ إذ تحل حجرة محفورة في الصخر محل المقصورة الخارجية الصغيرة التي يجتمع فيها الأحياء لتكريم المتوفى، تخترق البئر التى تؤدى إلى سرداب دفن الموتى المغلق إحدى هذه الحجرات. أما زخرفة المقابر فلها في بعض الحالات أهمية كبيرة للغاية، خاصة عندما تمثل الموضوعات أحداثًا عن حياة المتوفى. هكذا نجد في مقبرة المدعى حوي (Houi)، وهو موظف من الأسرة ١٨ تم رسم بعض لوحات تفقد وضوحها يومًا بعد يوم وتستحق المزيد من الدارسة. كان حوي، ولقبه أمير كوش، الحاكم العام للنوبة العليا، وتوجد لوحة تظهره، وقد جاء ليتولى المنصب. تتقدم أمامه شعوب من كل الألوان والأجناس. البعض سود ملامحهم بارزة بوضوح، والآخرون يمثلون نموذجًا من السود، لونهم داكن، والبعض الآخر أيضًا لونهم أسمر لهم ملامح أهل الشمال، ويوجد أيضًا رجال بشرتهم سمراء مثل المصريين، ومختلطون بسيدات بشرتهم بيضاء. وقد ساقوا الكثير من الزراف وبقرًا قرونها طويلة تنتهي على شكل الأيادي أمام حوي. وأحضروا لصاحب المقبرة حلقات من الذهب وسبائك من النحاس وجلود حيوانات برية ومراوح ذراعها طويلة وريش نعام. وتبين لوحة أخرى حوي عائدًا من مهمة في بلاد رتنو (Rotennou) (في سوريا) مقدمًا للملك وهو جالس على العرش ممثلي هذه الشعوب، يرتدون أردية واسعة ألوانها زاهية وملفوفة عدة مرات حول الجسد. عبيدهم عراة حتى الوسط، ولونهم أحمر وأبيض، كلهم بلحية مدببة . أما الهدايا التي يقدمونها للملك فهي عبارة عن خيول وأسود وسبائك من المعادن الثمينة وأواني من الذهب والفضة مصنوعة بشكل عجيب.



(307) معبد الدير البحرى

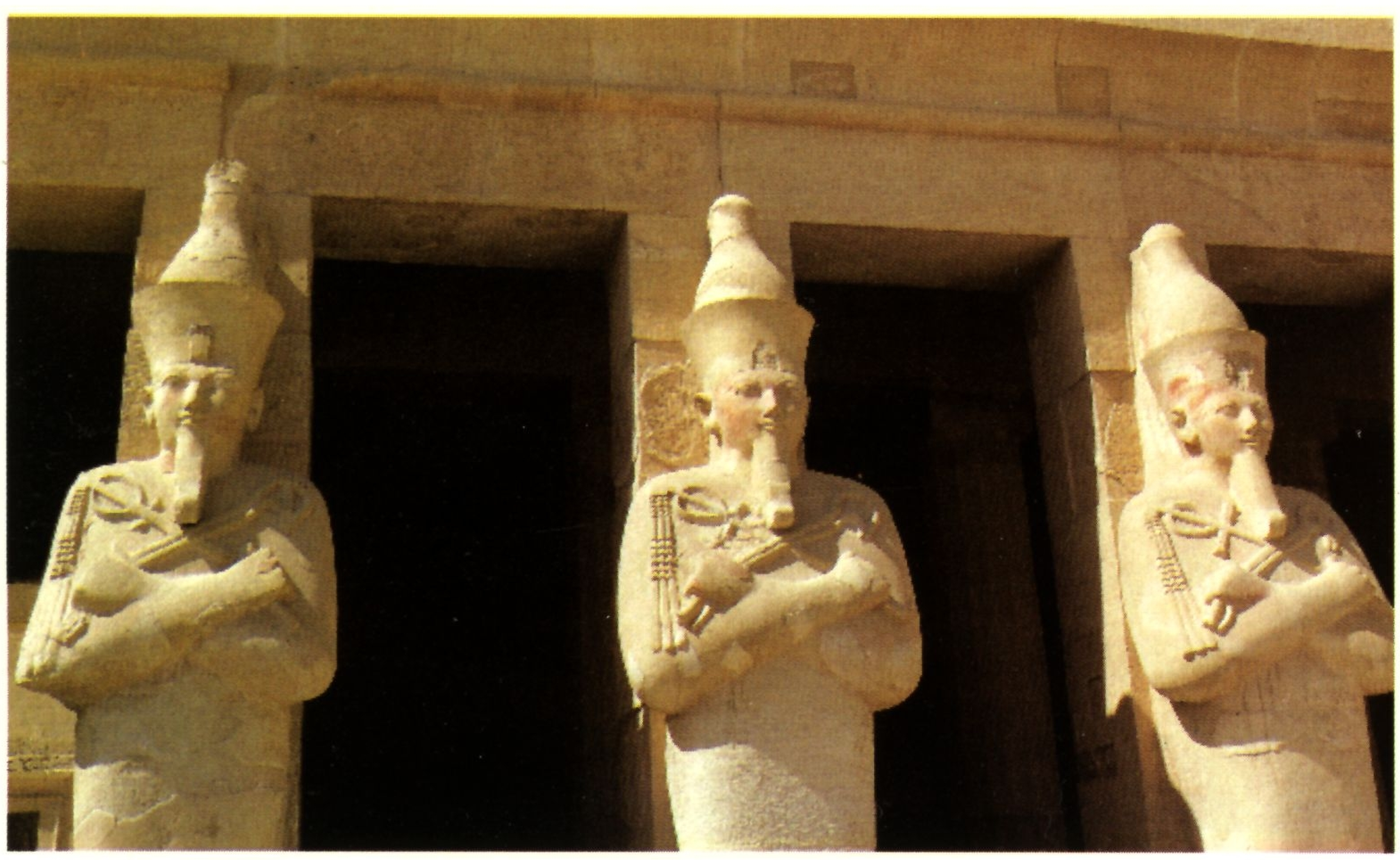
ونرى من هذا المثال وحده أهمية مقابر شيخ عبد القرنة والقرنة مرعى. وعلاوة على ذلك سوف نكرر بشأنهم ما سبق أن قلناه عن مقابر العساسيف . ويختار حاكم قنا المرشدين ليرافقوا ويوجهوا المسافرين. ولعدم وجود خريطة يمكن أن تدل على المقابر الرئيسية التي يمكن زيارتها؛ فمن الأفضل الثقة بالمرشدين. ولا يفوتنا أن نقول إن مقابر شيخ عبد القرنة والقرنة مرعي هي دون استثناء من آثار الأسرتين ١٨ و١٩ (٧٣). عندما تنتهي زيارة مقابر تلال الجنوب نرجع أدراجنا، و ننحرف قليلاً إلى الشمال لنتجه نحو الدير البحري. في الطريق نقطع بالعرض طرف العساسيف الغربي. المقبرة الضخمة التي يشير المرشدون إلى بابها في نهاية وادي، هي مقبرة بيتامنوفيس (Pétaménophis)(٧٤)، ولا ننصح بدخولها إلا الزوار الذين لا يزعجهم رائحة الخفافيش المنتشرة في هذا السرداب. بعد ذلك بقليل نجد بابًا كبيرًا من الطوب يثير الانتباه بسبب التنظيم غير المألوف لقوالب الطوب المكون للقبة التي فوق المدخل. ومن الصعب بمكان تحديد بدقة جزء الجبانة التي بها هذا الباب؛ حيث إن هذا الجزء تعرض بالتناوب لاستغلال تجار الآثار وأصحاب أفران الجير، وقد تعرضت في أثناء النصف الأول من هذا القرن أكثر مما تعرضت له منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة من عمرها. كل ما يمكن أن نقول إن في طرف العساسيف الغربي قد ترجع أقدم المقابر إلى الأسرة ٢٦، وأن أحدثها ربما ترجع إلى من حكموا مباشرة بعد الإسكندر (البطالمة).

معبد الدير البحري

يحتل معبد الدير البحري قاع المنخفض الذي تعتبر العساسيف مركزًا له. ويستند المعبد إلى جبل رأسي يصل سفحه المقابل إلى الوادي الذي سوف نعرفه عما قليل باسم « باب الملوك».

ولا يوجد شك حول نشأة هذا المعبد؛ فقد شُيِّد معبد دير البحري تمجيدًا للملكة حتشبسوت مثلما كان معبد مدينة هابو تمجيدًا لرمسيس الثالث. ويرجع اختيار المكان الذي شُيِّدت فيه هذه المعابد التذكارية إلى دوافع دينية خاصة بمصر لن نتحدث عنها من جديد. تغطي جدران الدير البحري خراطيش مختلفة تثير بمجرد النظر إليها بعض الغموض في ذهن الزائر، وذلك لأن حتشبسوت كان لها عدة أسماء على التوالي حسبما كانت تشارك الحكم في عهدي تحتمس الثاني وتحتمس الثالث (٧٥)، وحسبما كانت وصية على العرش باسم الأخير أو حكمت باسمه. إن علم الآثار على ما نعتقد لم يقل كلمته الأخيرة بصدد هذه الأسماء المختلفة، وقد نجد التفسير في النقوش التي تم حديثًا الكشف عنها، والتي مازالت غير معروفة تمامًا في معبد الدير البحري.


(308) خراطيش بأسماء حتشبسوت


(309) الملكة حتشبسوت فى شكل أوزير

شُيِّد الدير البحري حسب تخطيط غريب لا يمت بصلة حتى من بعيد إلى المعابد المصرية الأخرى؛ إذ كان يسبقه ممر طويل من تماثيل أبي الهول هدم رأسًا على عقب، ومسلتان لا نزال نرى حتى الآن قاعدتهما. من هذا الموقع يرتفع المعبد بدرجات نحو الجبل، ويتم المرور من ساحة إلى أخرى عبر مدرجات مائلة.

لقد تم بناء معبد الدير البحري من الحجر الجيرى الأبيض الجميل[٧٦] ويمكن أن نتعجب أن جدارًا واحدًا منه مازال قائمًا إن لم نكن نلاحظ أن ما تقدمه العساسيف بمواردها وقربها من الهضبة لسارقي الآثار من تسهيلات لا يسمح بها الدير البحري.

وفضلاً عن ذلك فمن المحتمل أن يكون معبد الدير البحري معبدًا قد تم تركه مبكرًا. فمنذ الأسرة ١٢ بدأ استخدامه فعلاً كجبانة، وعثر في إحدى حجراته (وهي التي سوف نتحدث عنها الآن) على مومياوات من العصر البطلمي مكدسة حتى السقف تقريبًا، تعلو طبقات مومياوات أخرى قد يرجع أقدمها إلى الأسرة ٢٦.



(310) نصوص من معبد الدير البحرى



(311) الملكة حتشبسوت

ولم يُهمَل التاريخ في الدير البحري ولا في الرمسيوم ولا في مدينة هابو، ولكن من الصعب القول إن كانت الأحجار التي نلقاها مبعثرة هنا وهناك تخص مجموعة واحدة أو أكثر. عندما نصل إلى المعبد من جهة الشرق؛ أي أسفل المعبد تقريبًا، نجد أول منظر يمثل عرضًا لبعض الفرق، الضباط أمام الأبواق، والجنود يحملون أسلحتهم. يمسك بعضهم غصن الزيتون بأيديهم. ونلاحظ أيضًا الأعلام المرفوعة على السارية فوق خراطيش الملكة حتشبسوت. وبكل تأكيد نرى أمام أعيننا استعراض بعض الفرق المنتصرة عائدة من المعركة.



(312) مجموعة من الجنود وهم يحملون أغصان الزيتون

وبعيدًا يوجد منظر آخر أكثر وضوحًا هذه المرة في نهاية المعبد تقريبًا، وعلى بعد خطوات فقط من باب الجرانيت الذي نشاهده من كل أطراف السهل المجاور. ولا نرى أمامنا سوى نهاية المنظر. كانت حتشبسوت قد أرسلت قواتها للقيام بحملة في بلاد بونت [arabie][٧٧]. وأشرفت الحملة على نهايتها، ويصل الأسرى والرهائن (الجدار الجنوبي).





(314) اكوام البخور من بلاد بونت



(315) أشجار البخور في بلاد بونت

ويقوم الأسرى بوضع الغرامات المفروضة على المهزومين والرهائن في أكوام، و يقدم الأسرى أشجارًا كاملة وضعوا جذورها في سلال. ومن المهم دراسة لون البشرة والأسلحة والملابس، وسوف نرى أيضًا بكل اهتمام رسم الأكواخ التي تنتهي بقبة. ونجد أننا على شاطئ البحر[الأحمر] الذي يمكننا صفاؤه بسهولة من رؤية الأسماك،وتتقدم فصيلة من الفرق المصرية لاستقبال القادمين. وتوجد نهاية المنظر على الجدار الغربي، وفي الجزء الأعلى موكب جديد من الأشخاص الذين جـاءوا وهم يتوسلون

وفي أسفل المنظر اقترب الأسطول المصري من الشاطئ ؛ حيث يتم شحن الجزية، وهنا أيضًا تم رسم الأسماك بطريقة فنية يقدرها المتخصصون في تاريخ الطبيعة. وموضوع ثالث يزين الحجرة المجاورة ناحية الجنوب. وهذه المرة لم نعد في البحر الأحمر بمياهه الخضراء، ولكن فوق النيل بمياهه الزرقاء. تشق النهر بعض المراكب المزينة بفخامة[٧٨].

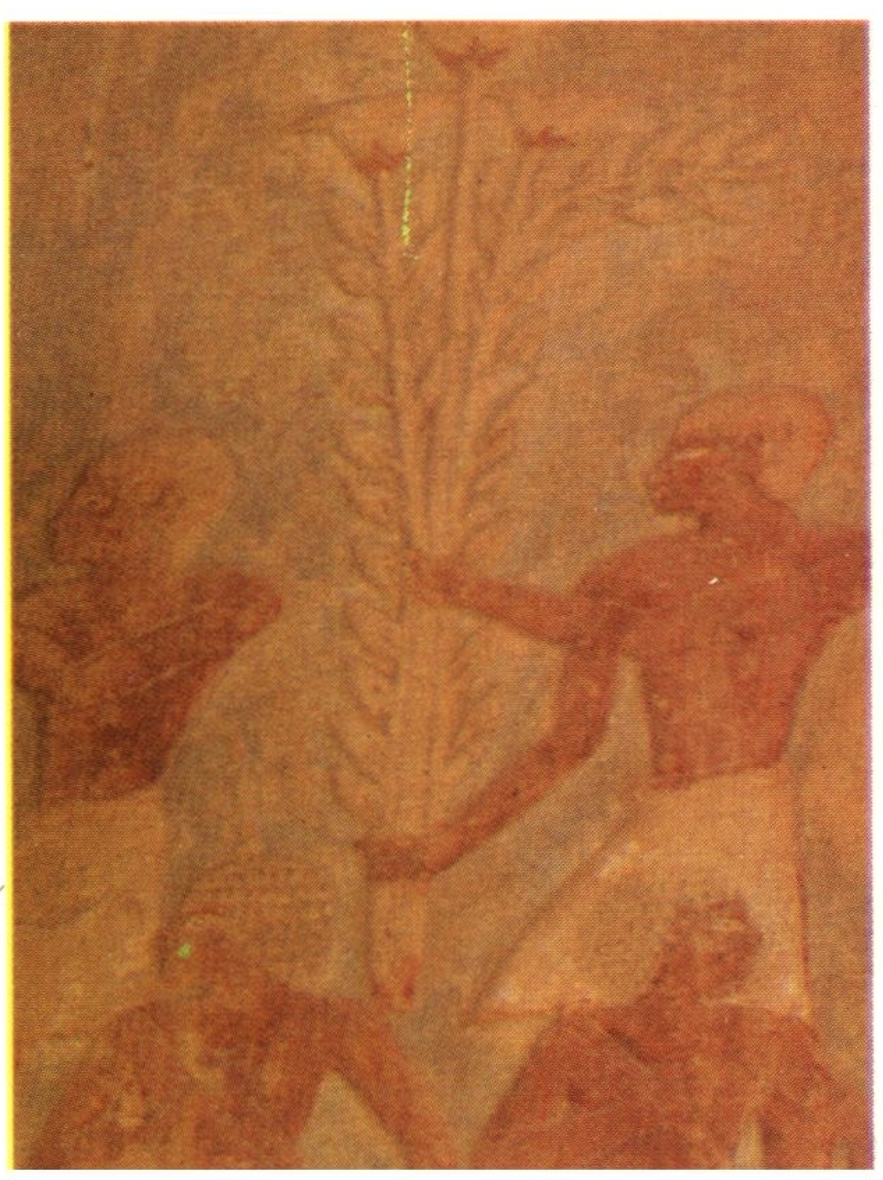


(316) السفن القادمة من بونت

ونرى في أسفل المنظر أفواجًا أخرى وهي تسير،   ولكن مهما تكن أهميتها لا يمكن القول إن هذه الأحداث ترتبط بالمعركة الذي خلد ذكراها المشهد العظيم في الحجرة الرئيسية.



(317) جنود فى استقبال بعثة بلاد بونت



(318) جندى يحمل غصن الزيتون

وبالقرب من هذا المكان نرى بابًا جميلاً أمامه أنقاض متكدسة يوصلنا إلى حجرة مازالت نقوشها تحتفظ بروعة ألوانها. وسوف ننظر بإعجاب على وجه الخصوص من كل جانب من الجوانب في نهاية الممر الشخصية الملكية التي تشرب من اللبن الإلهي من ضرع حاتحور في أجمل صورة تمثل البقرة التي استطاعت أن تظهرها لنا النقوش المصرية البارزة.



(319) الملكة حتشبسوت فى رحاب الإلهة حاتحور



(320) نجوم السماء وقرص الشمس المجنح



(321) تاج عمود حتحورى

اليوم الثالث عشر:

باب الملوك هو عبارة عن سان دنيس (Saint-Denis) ملوك الأسرات من ١٨-٢٠ . ويؤدي مفترق طرق إلى وادٍ آخر يقع بعيدًا قليلاً إلى جهة الغرب؛ حيث تم دفن آخر ملوك الأسرة ١٨.

والوادي الوحيد الذي نزوره عادة هو الأول، وهو وادي الملوك الذي يضم مقابر ملوك الأسرات من ١٨ - ٢٠[٧٩].

الطريق الذي يوصل إلى الوادي يوحي بالفعل بأنه طريق الموت. لا يوجد به قشة عشب تُبهج النظر وكل ما به حزين وكئيب، وكأن نارًا قد أحرقته وصدعت الصخور وسودتها. يبلغ طول الطريق من النيل ٦ كيلومترات تقريبًا.

تم حفر كل مقابر باب الملوك في الصخر، وهي تتكون من ممرات مائلة تمتد بعمق إلى حد ما في باطن الجبل. بعد وضع المومياء الملكية في مكانها يتم غلق الباب، وتسوى الأرض من حوله حتى لا تكشف أية علامة خارجية عن مكان المقبرة. ونرى من هنا أن الفكر الذي قامت على أساسه هذه الآثار الجنائزية بعيد كل البعد عن الفكر الذي قاد بناء المقابر الأخرى التي درسناها حتى الآن. بالنسبة لملوك باب الملوك لابد أن تكون الحجرة الداخلية التي كان يجتمع فيها الأحياء لتكريم ذكرى المتوفى[٨٠] مباني ضخمة تذكارية مبنية عند مدخل الجبانة. وقد يكون من أهم الآثار وأكثرها صلابة وهي وحدها التي وصلت إلينا.



(322) مدخل جبانة وادى الملوك



(323) مدخل مقبرة رمسيس الثالث

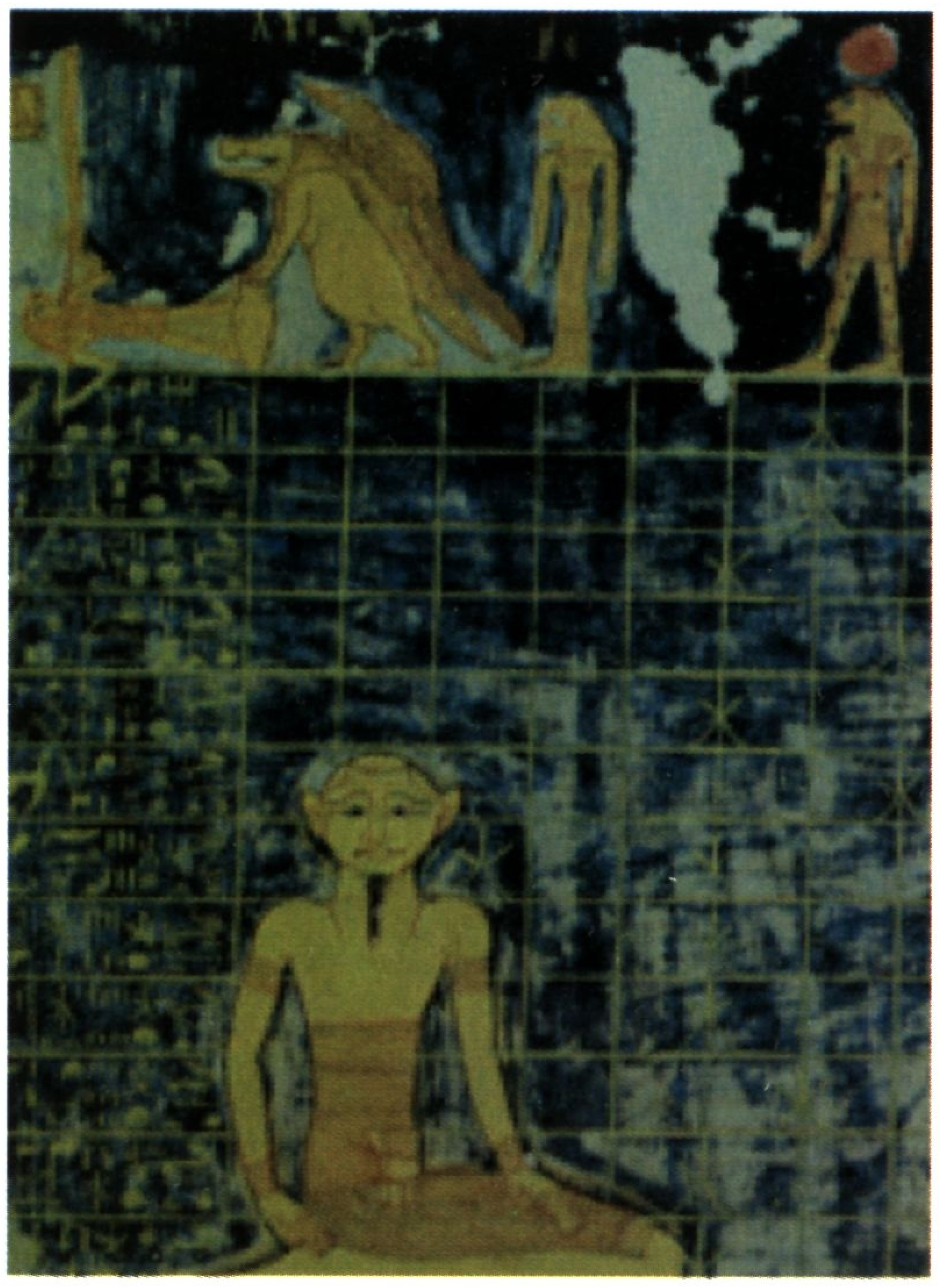
وقد كان عدد المقابر التي اكتشفت في الوادي الرئيسي ٢١ مقبرة في عام ١٨٣٥، ومنذ التنقيبات التي أمر بها الخديوي بلغ عددها ٢٥ مقبرة، ولكن ليست كل هذه المقابر ملكية؛ فقد كان لبعض الأمراء وأيضًا لكبار الموظفين شرف حفر مقابرهم بجوار مقابر ملوكهم.

ونقرأ في ما كتبه استرابون:" في أعلى الومنيوم (Memmonium) توجد بعض مقابر الملوك في الصخر على شكل كهوف، ويبلغ عددها أربعين تقريبًا ، وهي رائعة الصنع وتستحق الرؤية ". واستنادًا إلى هذه الفقرة قلنا إن حسن إدارة التنقيبات في وادي الملوك قد ينتج عنها اكتشاف المقابر الخمسة عشرة الغائبة، ولكن بافتراض أن استرابون لم يضع مقابر وادي الملكات في حسابه لمقابر الملوك التي يتحدث عنها؛ فمن المعقول أن نلاحظ أن أول ملوك الأسرة ١٨ لم يكن في باب الملوك، وتبدأ السلسلة عند أمنوفيس الثالث[٨١]، ومن هذا الملك حتى آخر ملك في الأسرة ٢٠، لا يمكن القول إنه ينقصنا ملك واحد لا نعرفه جيدًا باستثناء حورس. ولكن ترتيب الملك حورس تاريخيًا غير مؤكد، وعلى كل الأحوال، ولما كان هو آخر[٨٢] ملوك الأسرة ١٨؛ فقد يكون لنا حظ أوفر، ونجد مقبرته في الوادي الغربي إلى جانب الملوك الذين عاصروه، والذين دفنوا فيه. وهناك ما يدعو إذًا إلى الاعتقاد أن حفائر وادي الملوك مهما يكن الجهد المبذول فيها، فلن يعطي نتائج مرضية مقارنة بالصعوبات التي يسببها بُعد المسافة ومشقة توفير المياه للرجال العاملين في هذا الموقع . ويستحق الوادي الغربي وحده الكشف بجدية بمعول الحفار؛ ففي هذا المكان قد نستطيع التعرف على ملوك الأسرة ١٨ التي لم نكتشف مقابرهم.

بالنسبة للزوار الذين لا يهتمون كثيرًا بعلم الآثار يكفيهم زيارة ثلاثة أو أربعة من بين مقابر وادي الملوك، ونوصي بالمقابر التالية:

١- مقبرة سيتي الأول :

وقد أطلق عليها اسم بيلزون[٨٣]، وهي أكثر مقابر وادي الملوك روعة؛ إذ تفوق المقابر الأخرى في عظمتها وكثرة التماثيل التي تزينها. لقد اكتشفها بيلزوني منذ خمسين عامًا، وقد وجدها قد انتهكت حرمتها. وفي ذلك الوقت لم يكن ينقص نقش بارز على جدرانها، وكانت ألوانها زاهية كما عرفت في البداية. وبعد قليل سوف يرى الزائر وهو خارج من المقبرة ما تعرضت له من تشويه منذ ذلك الوقت. وهناك أسطورة ما تسند هذه الأفعال إلى نزعة حقيقية لهدم النفائس (نزعة همجية لتخريب الآثار الفنية والصنائع) عند المستكشفين لمصرالذين هم بعيدون عن كل اتهام؛ لأنهم أدوا خدمات هائلة إلى علم المصريات. ومن الأصح أن نقول إن هذه الاعتداءات على أحد آثار مصر الجديرة بالاحترام ترجع إلى تجار الآثار والسياح أنفسهم؛ فهم الذين بعدم اكتراثهم يشترون فعلًا بعض الآثار بأثمان باهظة ، وليس هذا الأمر بعد التفكير العميق سوى إساءة بالغة للعلم لا يمكن إصلاحها.



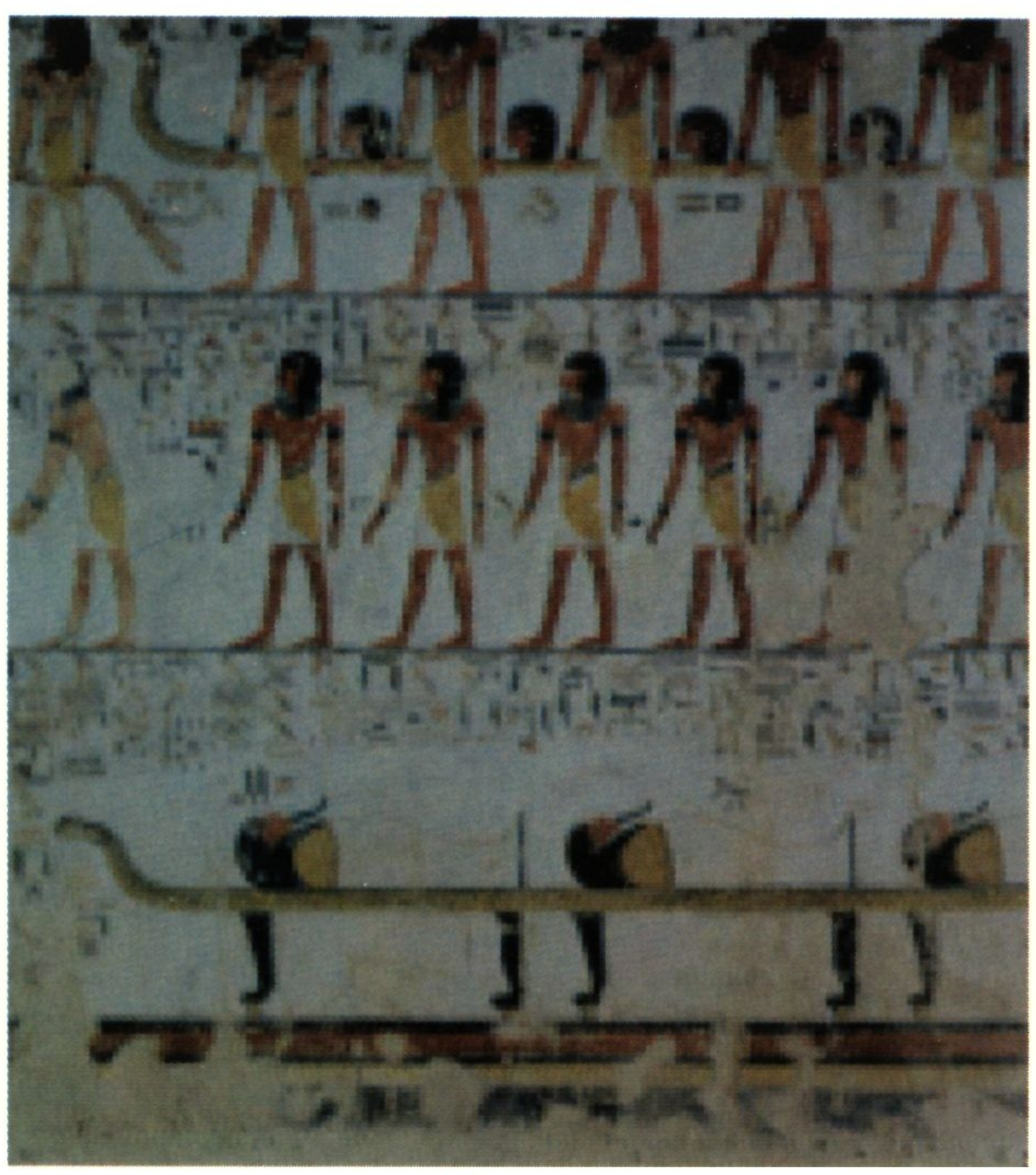
(325) مناظر فلكية في سقف المقبرة



(324) مناظر فلكية في إحدى المقابر

ومع أولى خطواته نحو المقبرة يشعر الزائر وكأنه في عالم جديد تمامًا. فلا يرى أمام نظره لوحات سقارة وبني حسن التي تُدخل البهجة على النفوس؛ فهنا لا نجد المتوفى بين عائلته ومحاطًا بأهله. فليست هناك صناعة للأثاث أو وضع المراكب في ورشة الصيانة، ولا نرى في المزارع الواسعة العديد من الحيوانات والبقر والظبي والعنز البري والإوز والبط وآنسات من

(Numidie) [شمال أفريقيا] تسير أمام المسئولين. كل شيء إذا جاز لنا القول أصبح غريب الأطوار وخياليًا. اتخذت الآلهة شكلاً غريبًا، تتسرب الثعابين الطويلة هنا وهناك أسفل الحجرات أو تتحرك على الأبواب[٨٤].



(327) مناظر من الكتب الدينية



(326) مناظر دينية



(328) سفينة رع في رحلة الليل



(329) سيتي الأول يقدم القرابين

نرى بعض المحكوم عليهم تُقطع رءوسهم وآخرين يُلقى بهم في النار الحارقة. في الحقيقة قد يُصاب الزائر الذي يدخل وحده في هذا السرداب بنوع من الرعب إن لم يكن يعرف في النهاية أن جوهر هذه المناظر الغريبة هو العقيدة الأكثر مؤاساة، والتي تضمن للروح السعادة الخالدة بعد مصائب الحياة. هذا هو فعلاً معنى المناظر التي تزين جدران المقبرة. ويقال إن المصريين كانوا يحاكمون ملوكهم قبل دفنهم، ويجب فهم هذه الأسطورة بمعناها الرمزي. إن محاكمة الروح بعد فصلها عن الجسد والمحن التي تغلبت عليها بفضل الفضائل التي أظهرتها على الأرض، ذلك هو موضوع المناظر التي تكاد لا تنتهي، وتغطي مقبرة غرفة الدفن . أما الثعابين التي تقف على كل باب وهي تبث سمومها، فهي تحرس إحدى بوابات السماء لن تمر الروح إن لم تثبت تقواها وفعلها للخير.

وهذه النصوص الطويلة التي نشرت على الجدران هي أناشيد رائعة تغنيها الروح لتكريم الآلهة وتمجد عظمتها فيها. والمتوفى بعد الحكم عليه بأنه جدير بالحياة الأبدية، وبعد اجتياز الاختبارات، يصبح هو نفسه إلهًا، ومن الآن فصاعدًا، ويصبح روحًا طاهرة تسبح في عالم فضائي لانهائي. وهكذا تمثل مناظر المقبرة رحلة خيالية للروح حتى المستقر الأبدي؛ فهي تأخذ الروح بعد أن تغادر الجسد، وتجعلنا نشاهد مثولها من حجرة إلى أخرى أمام الآلهة، ونشاهد تطهيرها تدريجيًا. وفي النهاية يتبين لنا في الحجرة السفلى الكبيرة ولوجها النهائي إلى الحياة، " ولن يدركها موت آخر". عندما اكتشف بيلزوني المقبرة كان هناك تابوت جميل من المرمر يرقد في الحجرة السفلى، وقد سُرق ونُقـــل إلى إنجلـــترا، وهو الآن من مقتنيـــات السيد سلاؤن (Slaone) الخاصة.

ونلاحظ في وسط الحجرة السفلى نفسها بئرًا تغوص بعمق في الأرض. وكان لابد أن تستمر المقبرة في هذا الاتجاه. إما أن يكون سيتي قد توفي قبل انتهاء الممر أو (وهو الأكثر ترجيحًا) أن يكون العمال قد واجهوا في القاع طبقة من الصلصال الطيني كان الحفر فيها يمثل عقبات فعلية وتم ترك الممر، وعند العودة إلى الحجرة تم حجب مدخل الممر ببلاطات حجرية وضع عليها التابوت نهائيًا.

٢- مقبرة رمسيس الثالث:

وتُدعي مقبرة بروس (Bruce) أو عازفو القيثار (Harpistes). وبقدر ما تظهر مقبرة سيتي بكمال نقوشها، وبقدر ما تقدم للفنان نماذج نادرة للدراسة بقدر ما نجد أن مقبرة رمسيس الثالث متواضعة ولا تليق برمز مدينة هابو.

توجد بعض الحجرات تستحق لفت النظر، وذلك في وسط المقبرة على جانبي أول ممرين، نلاحظ فيها المنظر الأكثر تنوعًا مثل المراكب والأثاث والأدوات المنزلية والملابس العسكرية والأقواس والنبال والرماح الصغيرة. أحد هذه المناظر تم تنفيذه بأسلوب متميز لا نلاحظه في أجزاء أخرى من المقبرة، يبين لنا ذلك عازفو القيثار المشهورون، والذي حققت النسخ العديدة المسروقة منها لهم الشهرة. وأطلق اسم ضريح بروس (Bruce) على مقبرة رمسيس الثالث تخليدًا للرحالة الذي يحمل الاسم نفسه، وهو أول من كشف عن المقبرة وأعلن عنها .

لا نلبث أن ندرك عندما ندخل المقبرة أن التخطيط الذي صممت به في البداية قد تغير، وأن ممر المدخل بدلاً من أن يستمر على اتجاهه الأول تحول فجأة إلى اليمين. ويرجع ذلك إلى بساطة حفر المصريين لمقابرهم. في الواقع أساء المهندس المكلف بحفر مقبرة رمسيس أخذ المقاييس لدرجة أنه وقع على بعد بضعة أمتار من المدخل على مقبرة مجاورة؛ مما اضطره أن يغير مساره الأول ليحافظ عليها.

يزين حجرة المقبرة الرئيسية تابوت من الجرانيت الوردي قطع على شكل خرطوش ملكي. لقد انتشله السيد سولت (Salt)، ويوجد التابوت في اللوفر والغطاء في جامعة كمبريدج.

ونجد في مقبرة رمسيس الثالث نقوشًا يونانية، وليس لهذا الأمر علاقة بالسرداب (مدفن تحت الأرض) الذي يهمنا. هناك مقابر أخرى كثيرة مغطاة بالنقوش وبعدد أكبر منها بكثير. ونستنتج من ذلك أن مقابر وادي الملوك منذ زمن البطالمة كان يزورها الأجانب، ولا يمكن أن تكون المقابر التي فُتحت بهذه الطريقة إلا تلك التي قام الملك الفارسي قمبيز (Cambyse) بسرقة المومياوات الملكية وتبديدها، وهو ما كان ينزع كل صفة القدسية عن هذه الآثار بالنسبة للمصريين.



(330) عازف القيثارة (من كتاب وصف مصر)



(331) رمسيس الثالث



(332) سفينة رعَ فى رحلة النيل

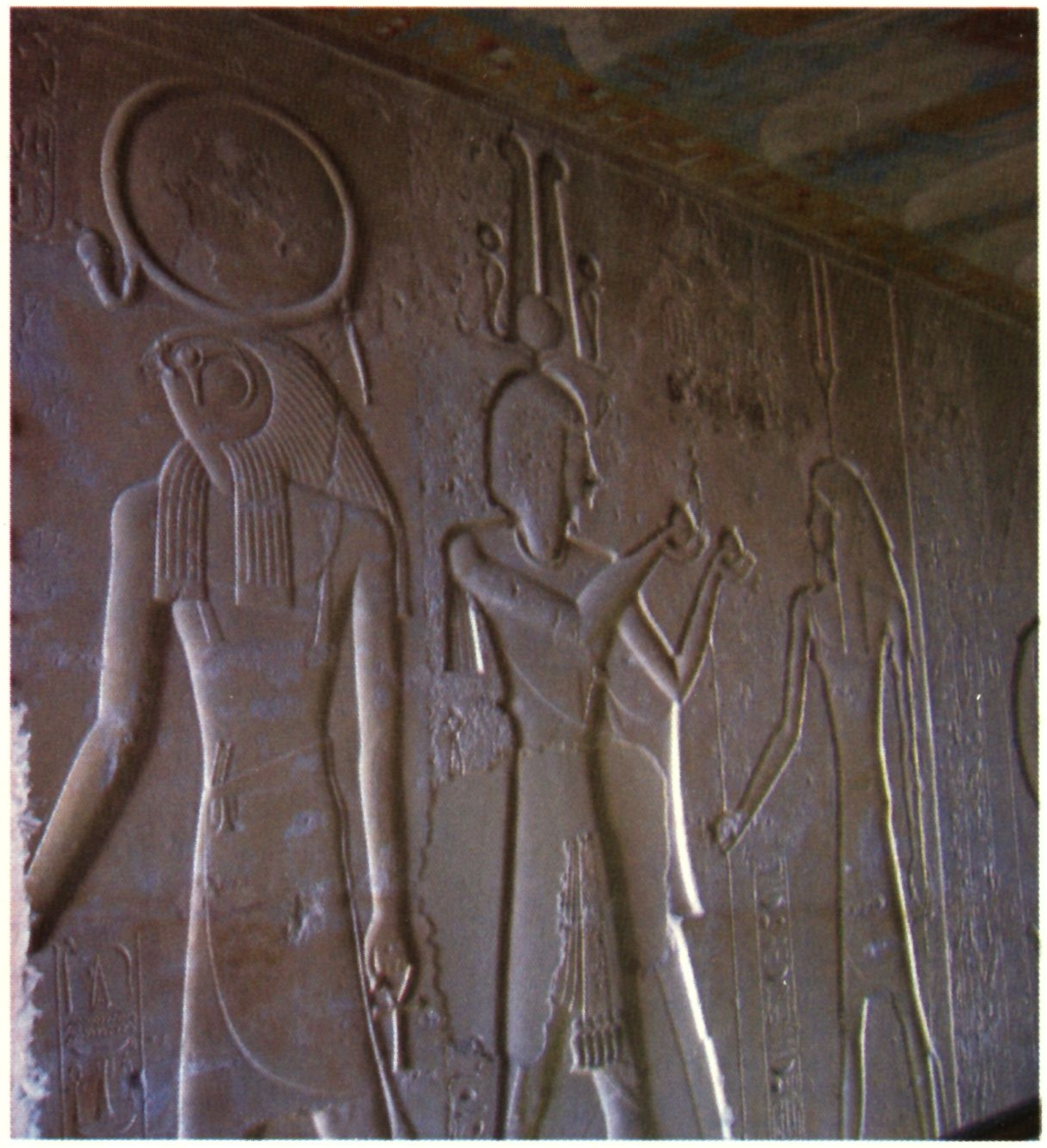
٣- مقبرة سيتي الثاني: تقع في أقصى الودي غربًا. وليس هناك ما يلفت النظر إليها سوى بعض اللوحات بارزة النقوش السميكة التي نراها على اليمين وعلى اليسار عند الدخول. وتجد الأعين التي اعتادت على رقة مقبرة سيتي الأول صعوبة في رؤية ضخامة هذا النحت مهما بدا جذابًا للوهلة الأولى.



(333) مقبرة سيتى الثانى

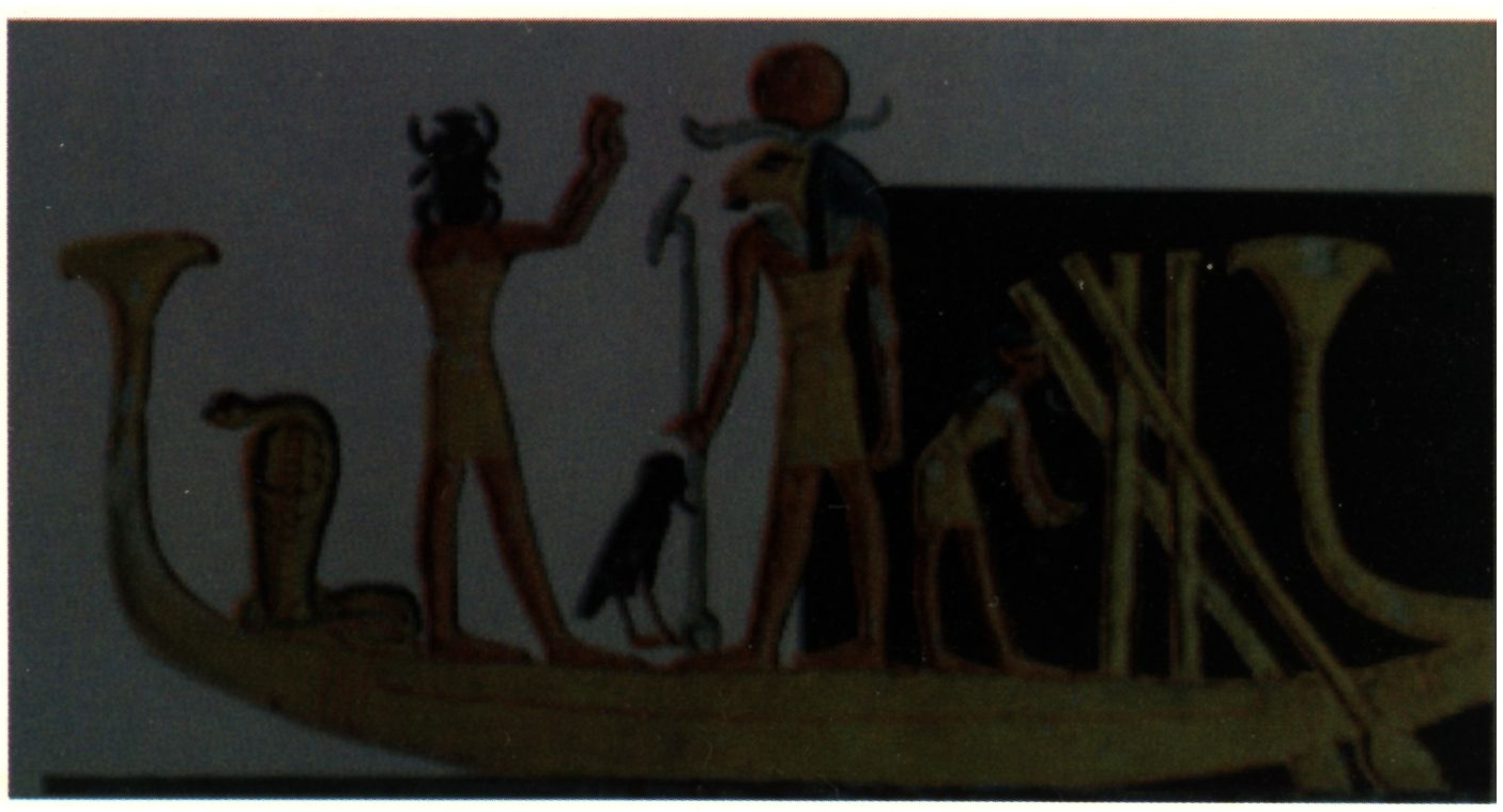


(335) تابوت سيتى الثانى

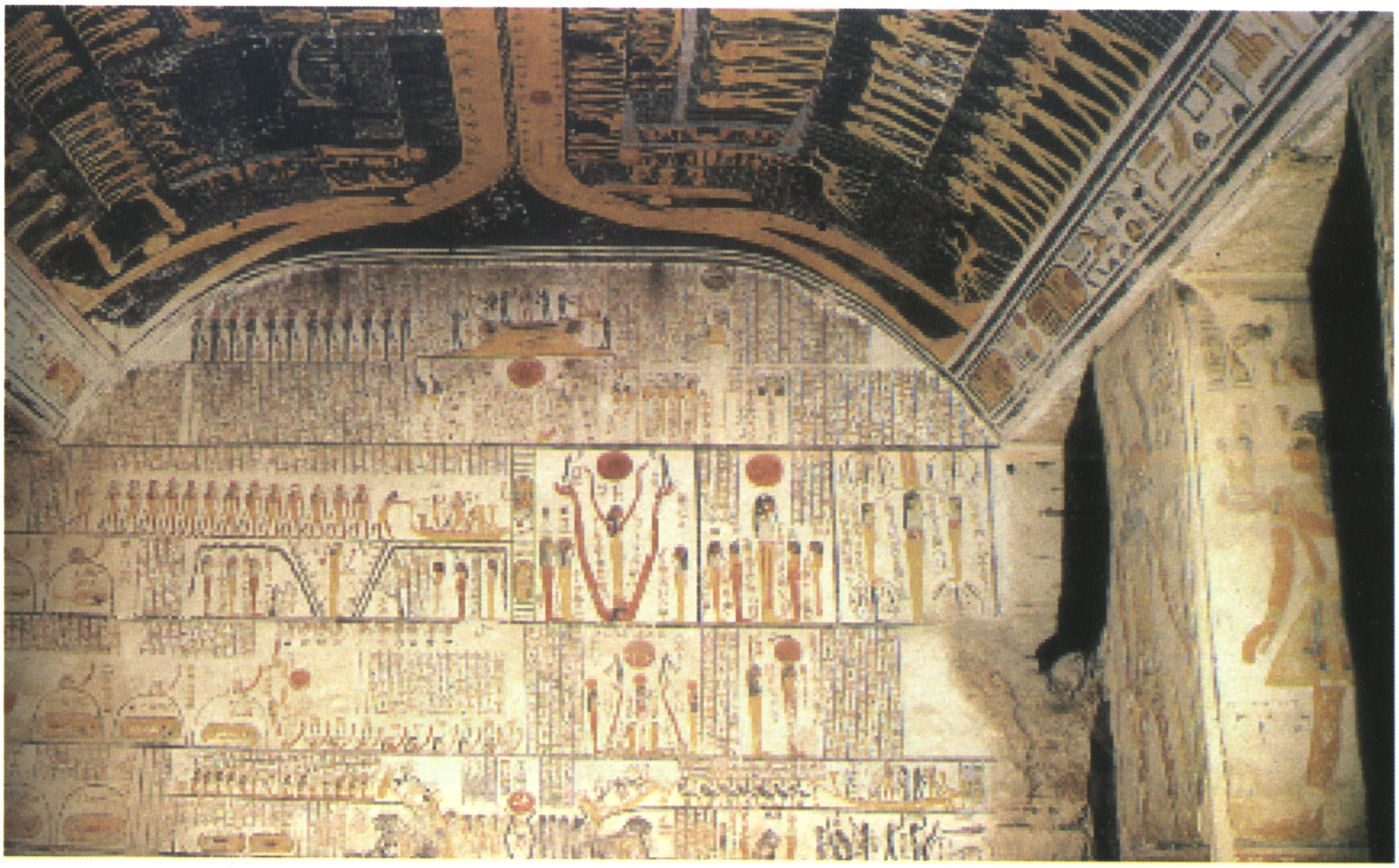


(334) نقوش من مقبرة سيتى الثانى

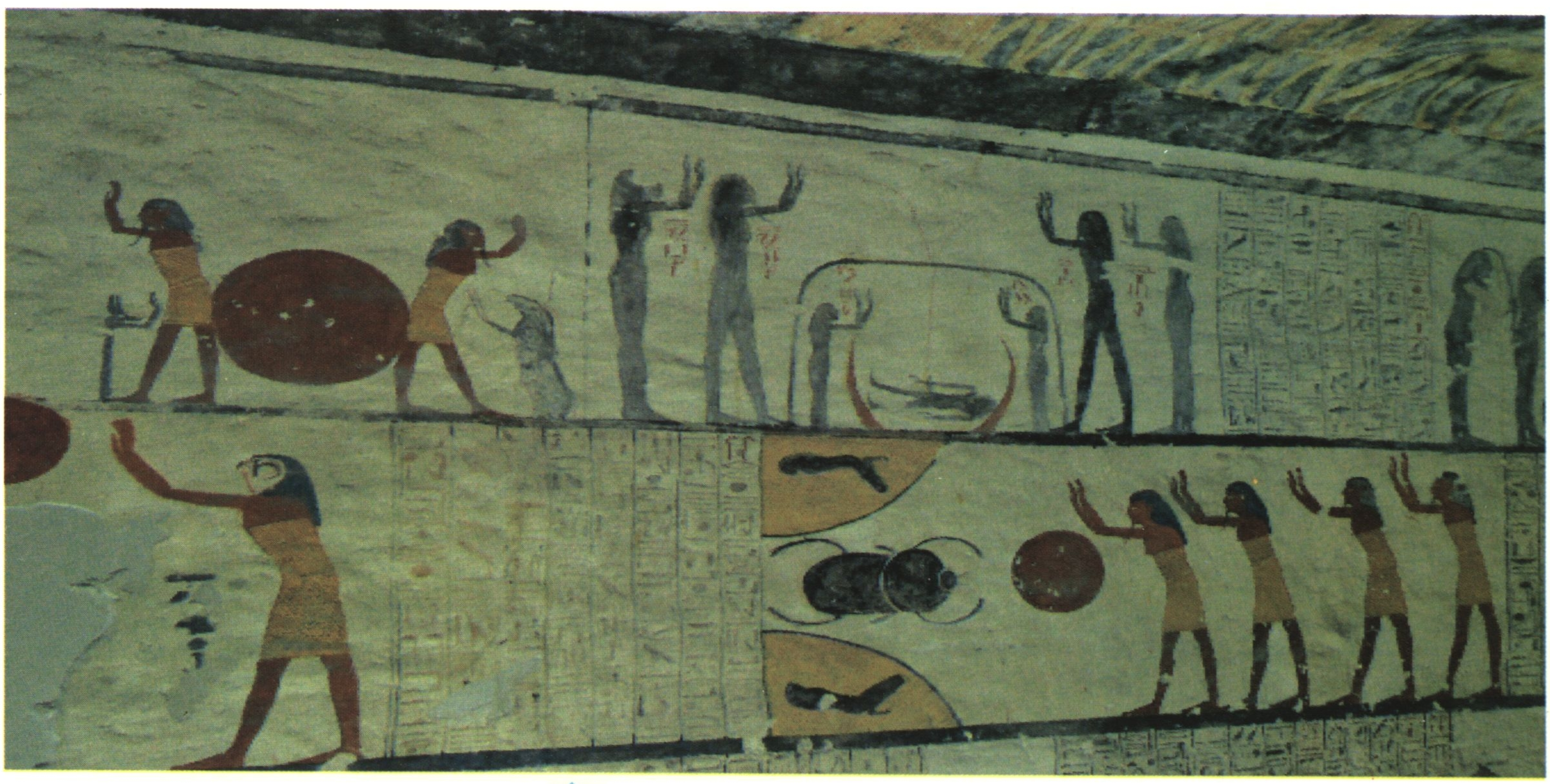
٤ – مقبرة رمسيس الرابع: تختلف عن المقابر الأخرى باتساع ممراتها وارتفاع سقفها وقلة الميل الذي فرضته طبيعة الصخر، ويمكن زيارتها بسهولة على ظهر جواد. يرقد التابوت في القاع وهو من الجرانيت وأبعاده ضخمة. وبعد أن شاهدنا مقبرة بيلزوني لن نرى إلا لترويح النفس هذه الألوان الفاترة وهذا النقش دون فن، والذي غطته آلاف النقوش اليونانية وأخفت بعضًا من معالمه. لن نواصل هذه التوضيحات أكثر من ذلك. ونلفت نظر الضيوف الذين لم تعجبهم بما فيه الكفاية زيارة المقابر الأربعة الجميلة السابقة إلى زيارة "مقبرة رمسيس السادس" و يظهر من الحكم على النقوش التي نجدها بالداخل أن الرحالة السابقين، ولأسباب غير معروفة، كانوا يطلقون عليها اسم مقبرة ممنون (Memnon) ؛ فهي رائعة بصور السقف المتعلقة بالفلك.



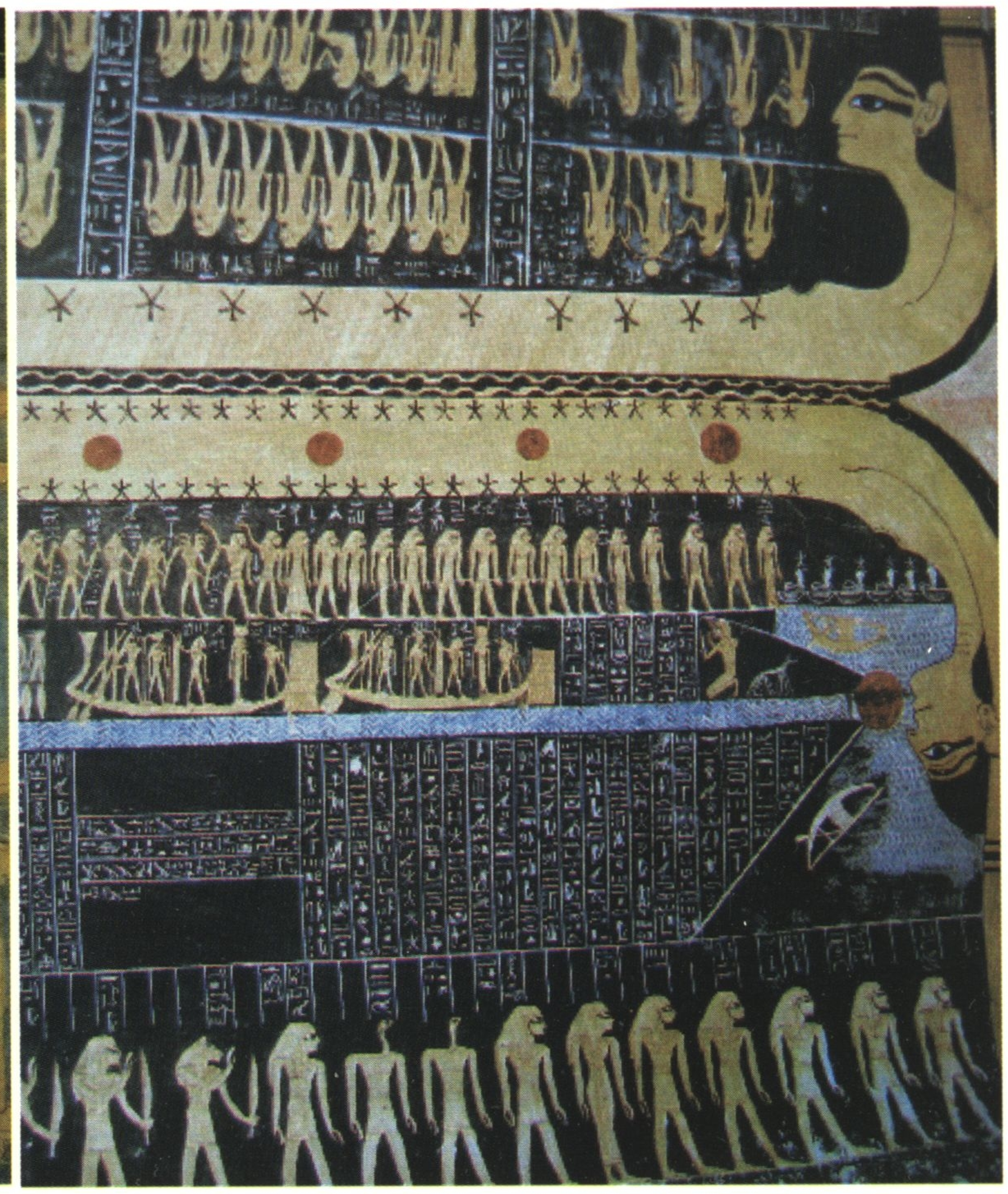
(336) مركب إله الشمس



(337) مناظر دينية - مقبرة رمسيس السادس



(338) ولادة الشمس - كتاب الأرض رمسيس التاسع



(339) الإلهة نوت إلهة السماء



(340) مناظر من مقبرة الملك

وقد يرتاع الخيال من " مقبرة رمسيس التاسع" لطول الوقت الذي قضاه الفنانون الذين قاموا بتزيين الجدران ومن الألوان الغريبة التي يلعب بها أسلوب العصر دورًا كبيرًا للغاية، ويجب ألا نرى في المقبرة غير تطبيق فعال للغاية لتصورات البعث بعد الموت والخلود التي وُعد بها المتوفى والتي تغلب على مناظر المقبرة. أما مقبرة رمسيس السادس فقد أخذت رقم ٩ عند ويلكنسون (Wilkinson) ومقبرة رمسيس التاسع رقم ٦، ويعرفها المرشدون بهذه الأرقام التي يذكرونها عادة للزوار.

ويمكن الاختيار بين ثلاثة طرق لنرجع من باب الملوك إلى النيل. يأخذ المتعجلون طريق الصباح، وهو الطريق المباشر. وإن تبَّقى بعض الوقت يمكن أخذ الممر الصاعد على جانبي الجبل، وعند بلوغ القمة أو النزول مرة أخرى نحو الشرق أو بالاتجاه نحو الجنوب والهبوط في الحالتين وعر، ويتم سيرًا على الأقدام. يؤدي الطريق الأول إلى الدير البحري وإلى العساسيف، والطريق الثاني بعد مجموعة من المنحنيات يؤدي إلى خلف مدينة هابو، ويتيح للزائر فرصة أخرى لرؤية هذا المعبد والرمسيوم ومعبد القرنة.

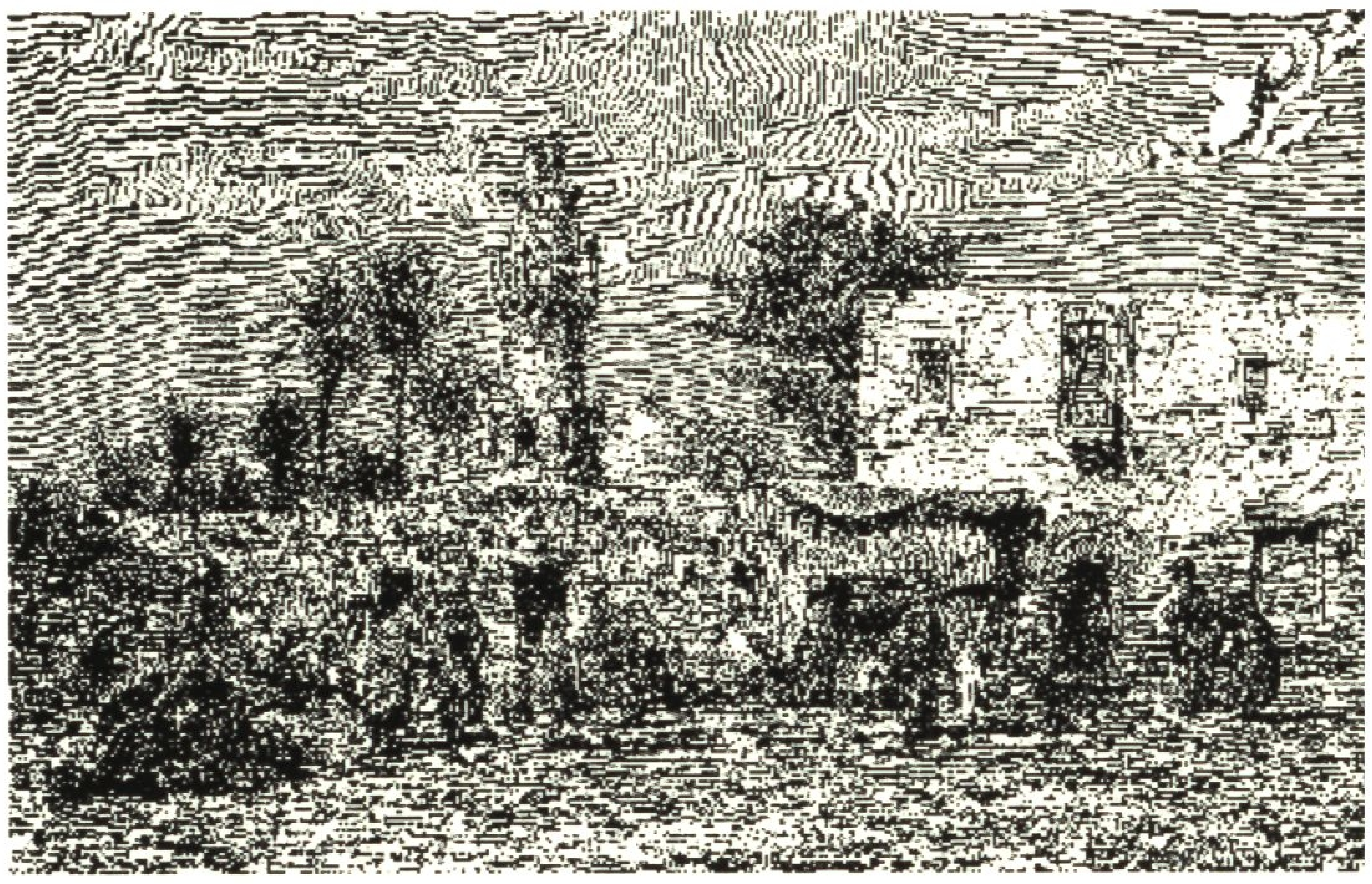


(341) تفاصيل مناظر الفلك



(342) فرعون يعبد قرص الشمس

اليوم الرابع عشر:


(343) منازل مدينة إسنا

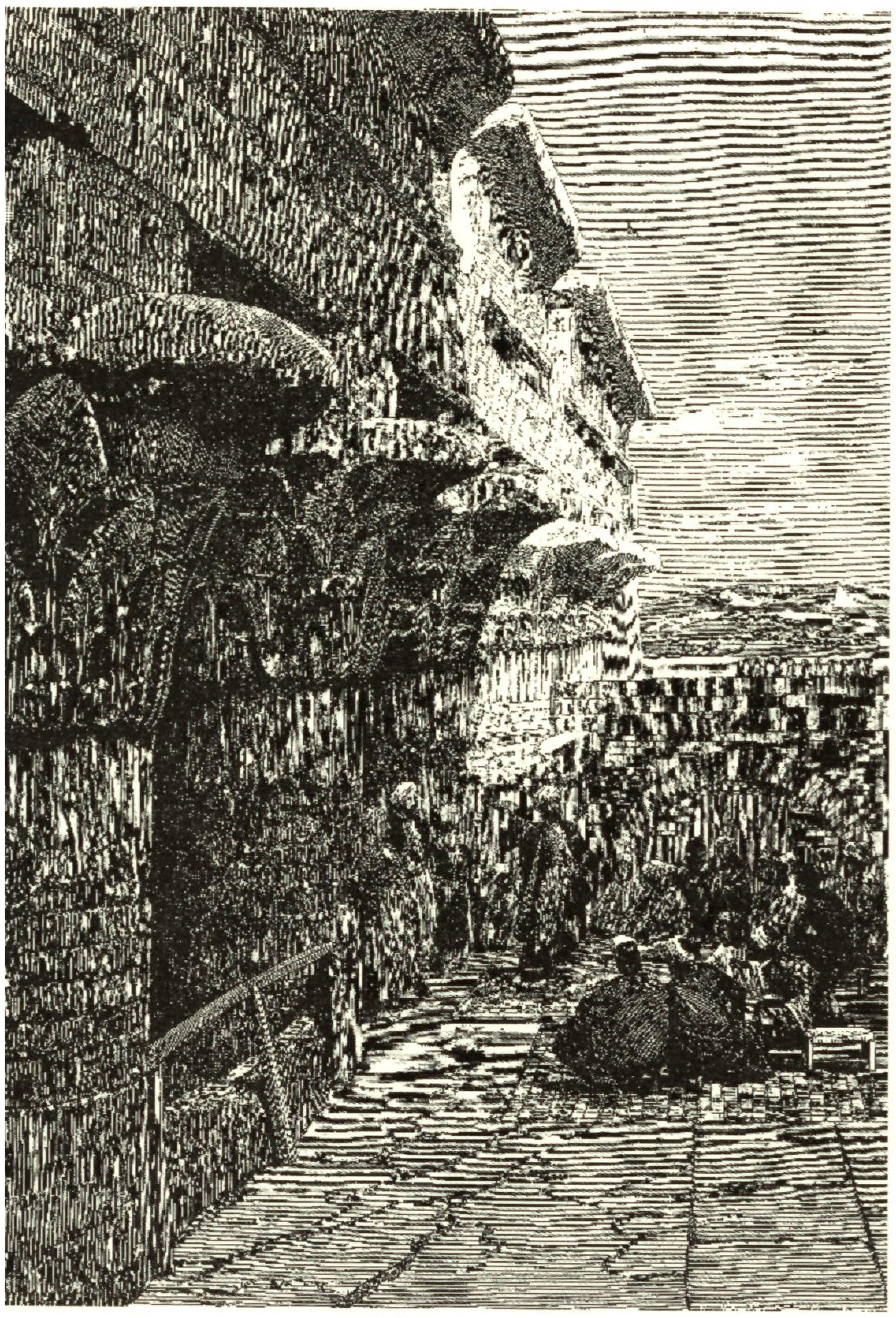
عند مغادرة الأقصر في الصباح، نصل إلى إسنا في وقت مناسب للتزود بالفحم ولزيارة المعبد والذهاب لقضاء الليلة في إدفو.

يقع معبد إسنا في وسط المدينة. ويمكن رؤية صالة الأعمدة فقط، والتي تم تنظيفها حتى الأرضية. ويُقال إن أجزاء أخرى من المعبد ترقد تحت منازل المدينة التي تحجبها عن الأنظار، وحسب رواية أخرى ربما استطاع شامبليون علاوة على ذلك رؤية قدس الأقداس، وتعرّف فيه على اسم تحتمس الثالث (Thoutmès)، ولكن تحتاج هذه المعلومات إلى التأكد منها جيدًا قبل أن ندخل مجال العلم في آخر الأمر . ومما لا شك فيه أنه في هذه الحالة، لا نرى في معبد إسنا إلا الصالة الخلفية الكبيرة.


(344) واجهة صالة معبد إسنا

ترجع الواجهة وكل أعمدة هذه الصالة إلى العصر الروماني. نقرأ عليها خراطيش كلود (Claude) ودومتسيان (Domit-ien) وكومود (Commode) سبتيم- سيفار (Septime-Sévère) وكراكلا (Caracalla) وجيتا (Geta). وفي نهاية الصالة التي تؤرخ للعصر اليوناني يظهر جزء شيّده بطلميوس إبيفان (Ptolemée Epiphane).

يبدو نحت الصالة رديئًا وكتابة النصوص سيئة للغاية، ويتخللها تلاعب بالألفاظ وتورية وكلمات منصرفة عن مدلولها، ولا بد من انتباه مستمر وكفاءة خاصة لمعرفة معاني الجمل التي تختفي وراء رداءة الكتابة التي نرى أمامنا نموذجًا منها. ومع ذلك نلاحظ في السقف تيجان أعمدة، تجعلنا نتخيل من خلال آثار الدخان الأسود الذي يغطيها عملاً متقنًا ودقيقًا، وسلامة الأشكال تبدو منذ البدء مدهشة بالنسبة لمعبد من ذلك العصر، وذلك لأن العمارة لم تتدهور بنفس سرعة فن النحت والنقش.



(345) الأهالي في معبد إسنا

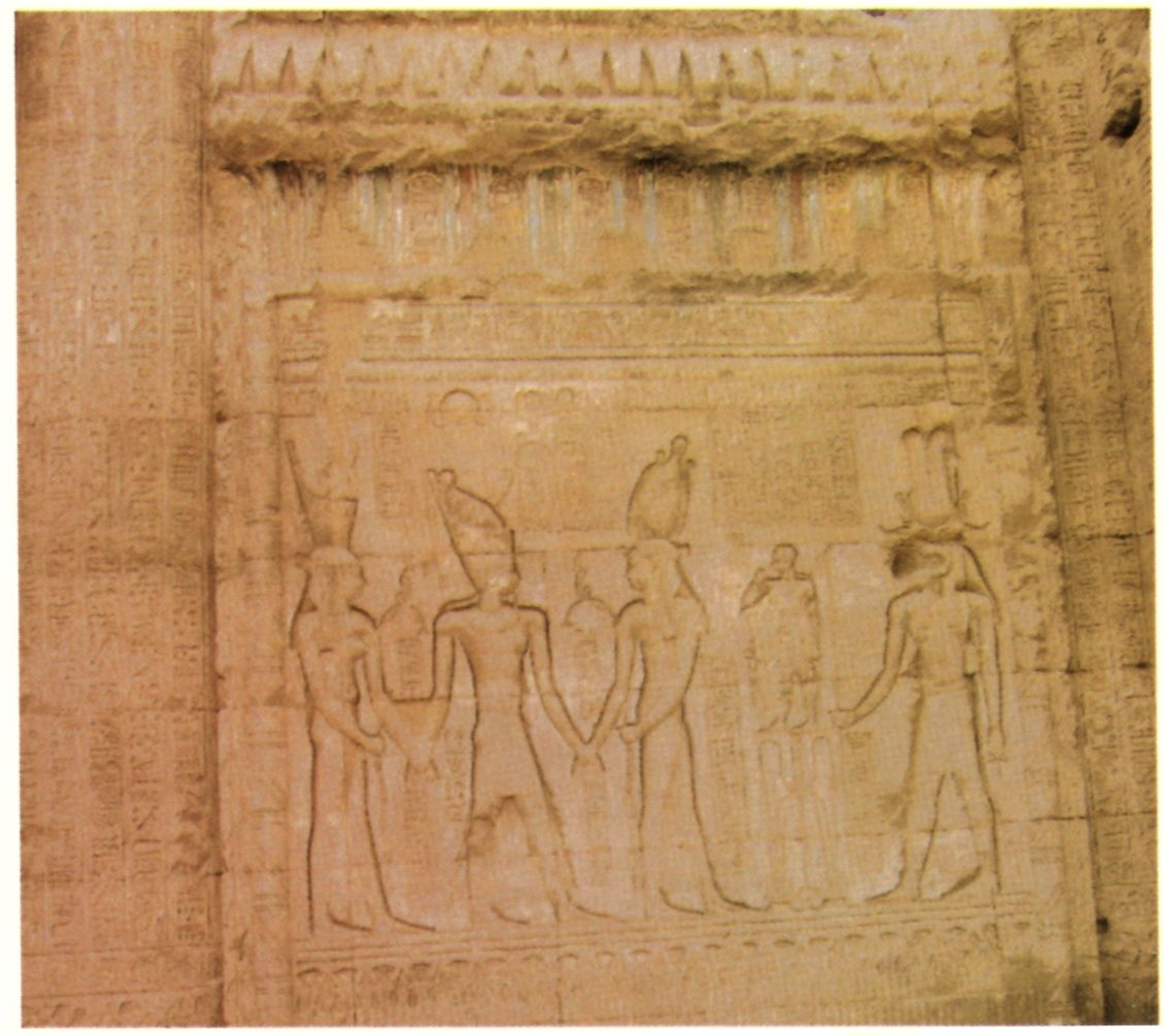


(346) تيجان أعمدة معبد إسنا

بعد فترة وجيزة من قدوم البطالمة كان النحت والنقش يتدهوران باستمرار، وكأن اليونانيين لم يتمكنوا من التعود على هذه الأشكال التقليدية، وكانوا دائمًا خارج الطبيعة التي تفرضها التقاليد على هذين الفنين. وعلى العكس استقل فن العمارة، ودخل في طريق جديد حقق فيه مكاسب كبيرة، واكتسبت الأعمدة المزيد من الأناقة دون أن تتخلى عن أسلوب العارضة المرتكزة على عمود من حجر واحد ، وبالتالي دون قرار توسيع المسافة بين الأعمدة، ارتفعت الأعمدة بجسارة حتى السقف. وقد ظهر هذا التأثير خاصة في التيجان.



(347) أعمدة من معبد إسنا



(348) الملك فى حضرة الآلهة فى واجهة معبد إسنا



(349) الملك يقدم الأسرى للآلهة



(350) الإله خنوم



(351) شبكة صيد الأرواح الشريرة

كانت باقة اللوتس الجميلة، والتي تشكل في معابد فيلة نموذجًا جميلاً من التيجان قد نبتت فعلاً في مدينة هابو والكرنك، ولكن تغيرت هذه الأشكال القديمة في عهد اليونان وتجددت، وتم خلق أشكال جديدة. وخلاصة القول، أن اليونانيين تركوا فن النحت البارز العملي والتقليدي ينقرض بين أيديهم بمجرد وصولهم إلى مصر. أما فن العمارة الأقل صلة بالكهنوت فقد عرف بعض الازدهار؛ حيث بدأ يظهر فقط في عصر اليونان كظاهرة لفن متطوّر؛ فالعمود لم يعد يبدو وقد تحطم تحت عوارضه المرتكزة على عمود أحادي الحجر والتيجان المختلطة خطوطها بشكل عجيب، والتي يقدم لنا معبد إسنا بعض النماذج الرائعة منه.

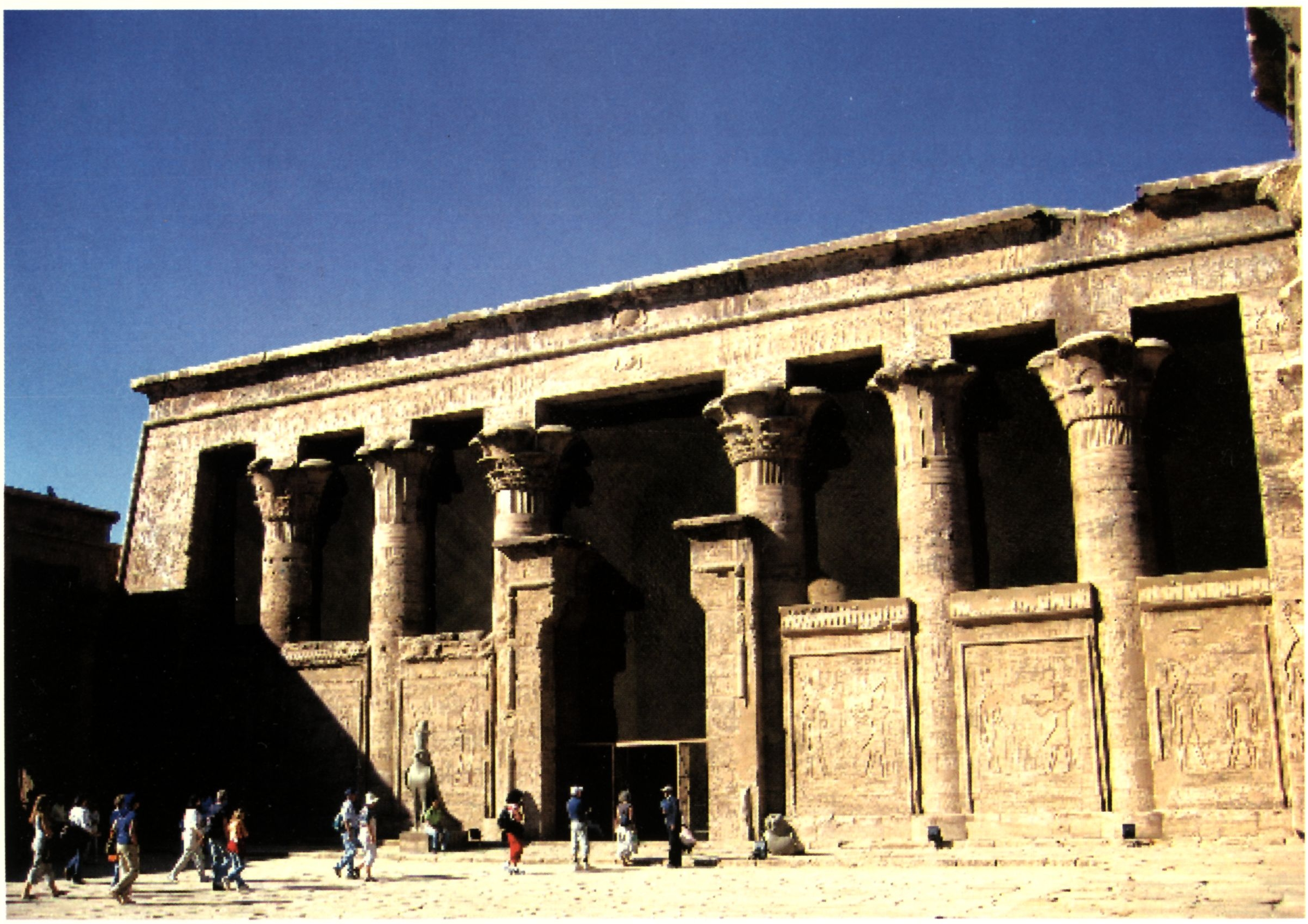
اليوم الخامس عشر:

تقع إدفو على مسافة قريبة من النهر، ويمكن بسهولة للذين يمكنهم السير عشرين دقيقة الوصول إليها سيرًا على الأقدام، ويخصص صباح اليوم الخامس عشر لزيارة إدفو.

ومعبد إدفو من الآثار التي تعلن عن نفسها، والتي لا يستطيع أي وصف أن يعطي فكرة عنها؛ فصرحه الجميل وحائط السور لا مثيل لهما في مصر. أما بالنسبة للمعبد فهو يُذكِّر عن قرب بتخطيط (إن لم يكن في تفاصيل بنائه) معبد دندرة بنفسه، ولن يغيب ذلك عن أحد.

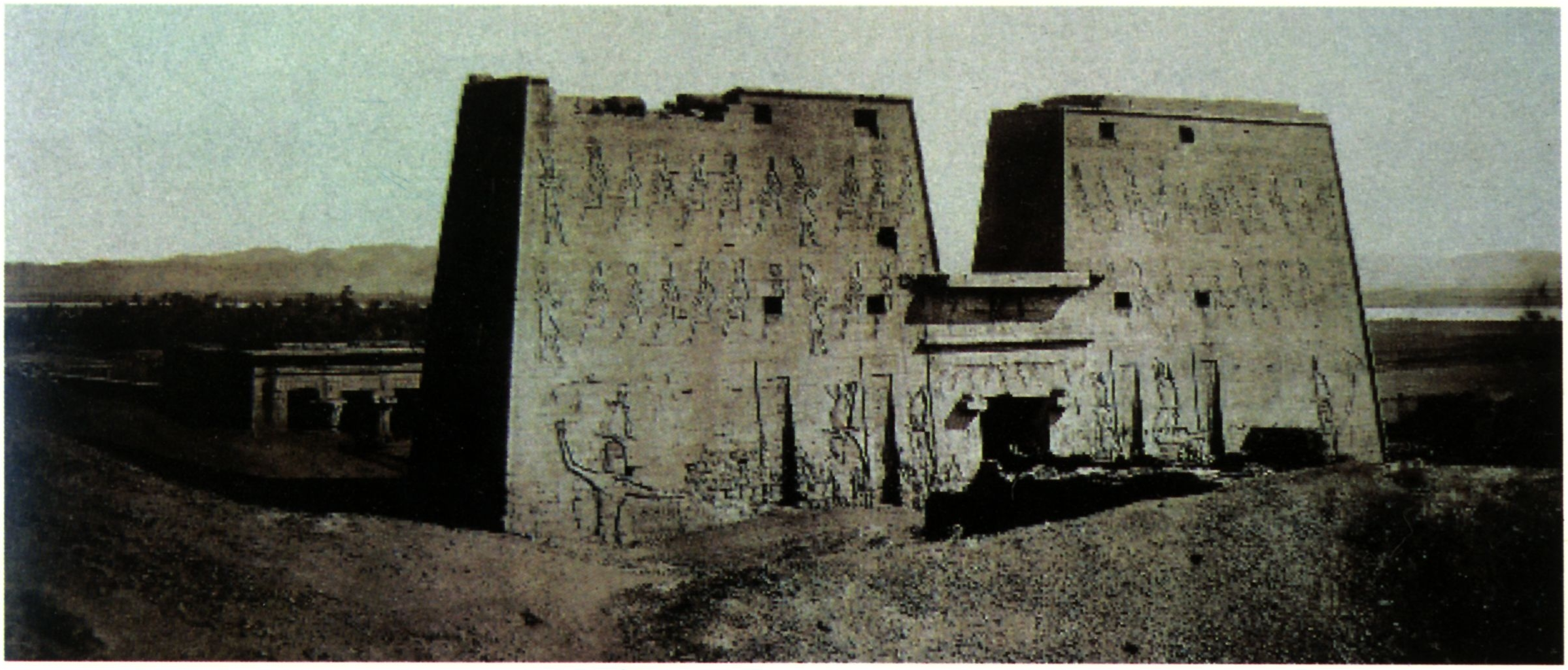


(352) صرح معبد إدفو



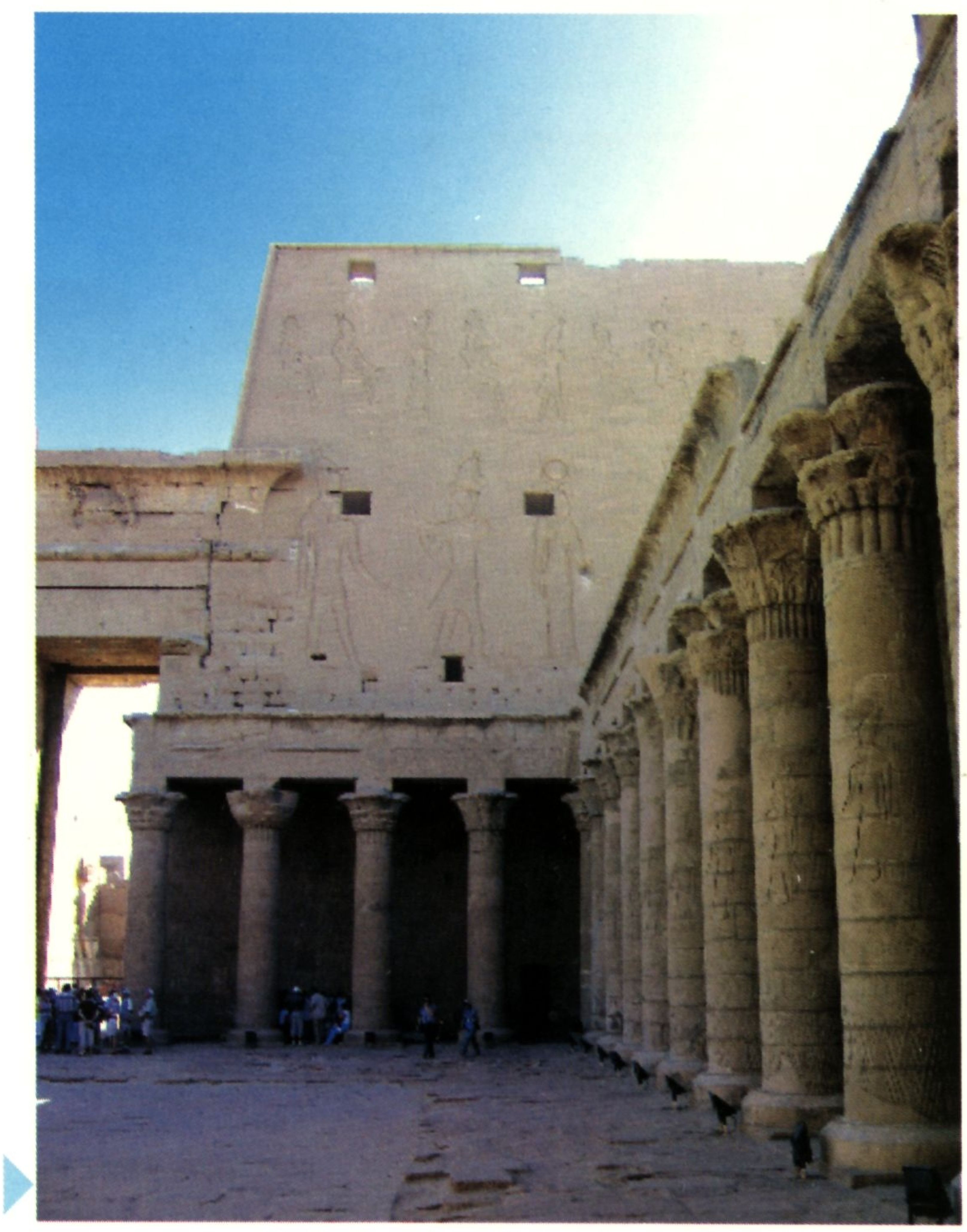
(353) صالة أعمدة بمعبد إدفو

لقد كانت أعمال التنقيب في إدفو أكبر عمل أثري أمر به الخديوي منذ بضع سنوات حين طغت القرية الحديثة على المعبد، وغطت المنازل وحظائر الحيوانات والمحلات المختلفة أجزاء المعبد. وتكدست الأنقاض بالداخل حتى بلغت أسقف الحجرات تقريبًا. ونقدر الجهد الذي تتطلبه عملية رفع الأنقاض عندما ندخل المعبد اليوم الذي لا يوجد فيه سطر من الكتابة بعيدًا عن منال فضول الرحالة أو الباحثين.



(354) واجهة معبد إدفو قبل رفع الأنقاض فى عهد الخديوى

لقد أسس بطليموس الرابع فيلوباتور (Philopator) معبد إدفو، ويرجع تشييد قدس الأقداس إلى عهد هذا الملك والحجرات التي تحيط به وبناء المقصورة ، وبوجه عام كل الجزء الخلفي للمعبد نفسه. وقام بطليموس الرابع فيلوباتور بتزيين بعض صالات المحور، وترجع صالة الأعمدة التي تشكل الواجهة الضخمة أمام المعبد إلى عهد فيلوميتور(Philométor) وبطلميوس التاسع إيورجيتس الثاني (Evergète). ويوجد على المر الخارجي أسماء أيورجيتش على أحد الجوانب، وعلى جانب آخر أسماء بطليموس التاسع (الإسكندر)، وأخيرًا تم زخرفة الصرح الذي شيد في عهد بطليموس الثالث عشر ديونيسس (Dionysos).



(355) فناء فى معبد إدفو

وتجدر الإشارة إلى بعض النقوش العجيبة التي تشغل جزءًا من القاعدة خارج المعبد. ونفهم منها أن كل حجرة لها اسمها لدرجة أنه سيكون من السهل إعادة تشكيل رسم مخطط المعبد بواسطة العلامات الهيروغليفية. وبالإضافة إلى ذلك فقد سُجلت مقاسات هذه الحجرات نفسها بالذراع وجزء من الذراع، ولما كان من الممكن إحداث المقارنة بين الحجرات نفسها، فإن ذلك يؤدي إلى معرفة حدود مقارنة دقيقة بين مقاييس مصر القديمة والمقاييس الحديثة.ونلاحظ أيضًا أن المهندس المعماري لهذا المعبد الذي يدعى (Ei-em-hotep Oersi-Path) إيمحتب-مر- سابتاح (إيمحتب Imouthès ابن بتاح Phtah) قد وقع باسمه على عمله. وأخيرًا لا ننسى أن نضيف أن نقشًا آخر يفيد أن المعبد الذي بدأ بناؤه في زمن فيلوباتور (Philopator)، وانتهى في زمن أيورجتيس الثاني (II Evergète) اكتمل بعد توقف عدة مرات بسبب حرب عام ٩٥، وهو ما ينطبق دون شك على البناء نفسه وليس على الزخرفة؛ لأنه قد انقضى ١٧٠ سنة منذ بداية حكم فيلوباتور حتى موت ديونيسوس (Dionysos) آخر الملوك الذين توجد لهم خراطيش في المعبد.


(356) زخرفة التيجان


(357) لوحة مقاييس


(358) الملك يؤدى أحد الطقوس أمام إحدى الإلهات

في ركن إحدى الحجرات توجد كتلة واحدة من الجرانيت الرمادي الجميل نصبتها دون شك سواعد حديثة نسبيًا، تجذب بحق الانتباه: في دندرة قدس الأقداس عبارة عن كوة في الحائط تشغل جدار الحجرة الأخيرة.أما هنا فإن قدس الأقداس هو الأثر الذي نراه أمام أعيننا. وتدل النقوش التي تزينه على المصدر والتاريخ، ويمكن أن نؤكد أن الكتلة المقصودة قد نحتها نختنبو (Nectanéb 5) الأول [الأسرة ٣٠] ليستخدم كمقصورة في المعبد، واليوم تم هدمه وحل محله المعبد الحالي. ومن غير المفيد أن نضيف أنه كما هو الحال في دندرة هذا النوع من المثوى الضخم كان يحفظ فيه الرمز السري الذي كان يعتبر حرز المعبد. (le palladium): إلهة الحكمة عند الإغريق.

تبلغ طول واجهة معبد إدفو ٤٠ مترًا وطول المعبد بأكمله ٧١,٨٥ مترًا دون حساب الصرح وحائط السور، وإذا أضفنا الصرح تصبح الواجهة ٧٦ مترًا والطول ١٣٧,٦٠ مترًا، ويبلغ ارتفاع البوابة ٣٥ مترًا؛ أي أقل عشرة أمتار عن نصب تذكاري ميدان فاندوم (Vendôme)[٨٥]



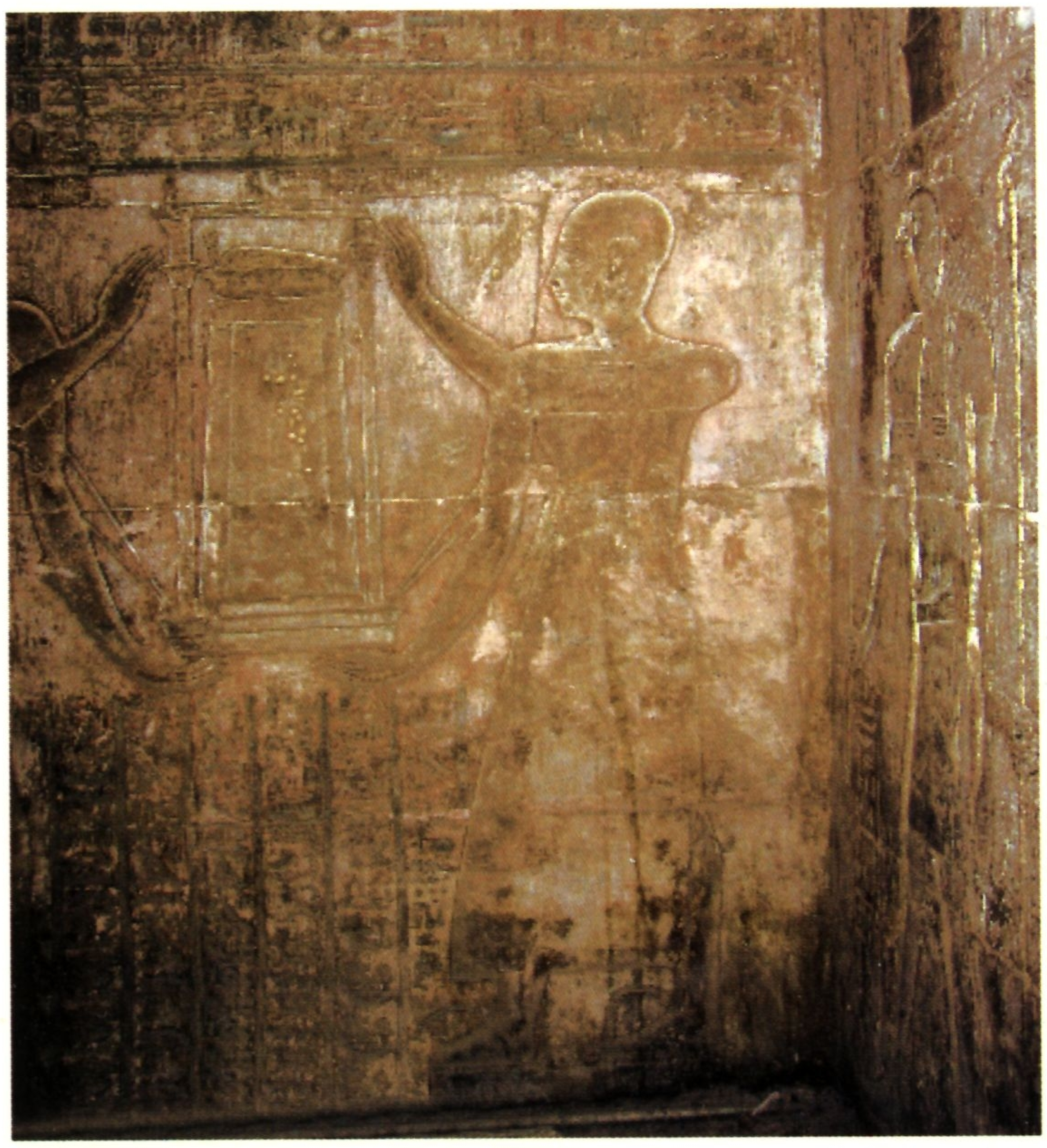
(359) ناووس الإله حورس فى قدس الأقداس بمعبد إدفو



(360) بيت الولادة الإلهية (الماميزى) بمعبد إدفو

تم بناء معبد إدفو ومعبد دندرة بصورة واضحة بالتخطيط نفسه، وهما نتاج فكر واحد استجابة لنفس المتطلبات، وكان الهدف المادي لعناصر أحدهما هو الهدف المادي نفسه لعناصر الآخر، وهو ما تؤكده بلا شك دراسة نقوش إدفو. يتجمع الكهنة في صالة الأعمدة الثانية، ويجرى إعداد موكب يوم رأس السنة في المقصورة الصغيرة وتحفظ القرابين في بعض الحجرات ...إلخ.

أما الصرح فليس هناك ما يدل على أنه استخدم لغرض آخر إلا ليعلن من بعيد عن المعبد، والذي يشكل هو نفسه المدخل الضخم.



(362) الإعداد للمواكب الدينية



(361) الإله حور بحدتى إله المعبد



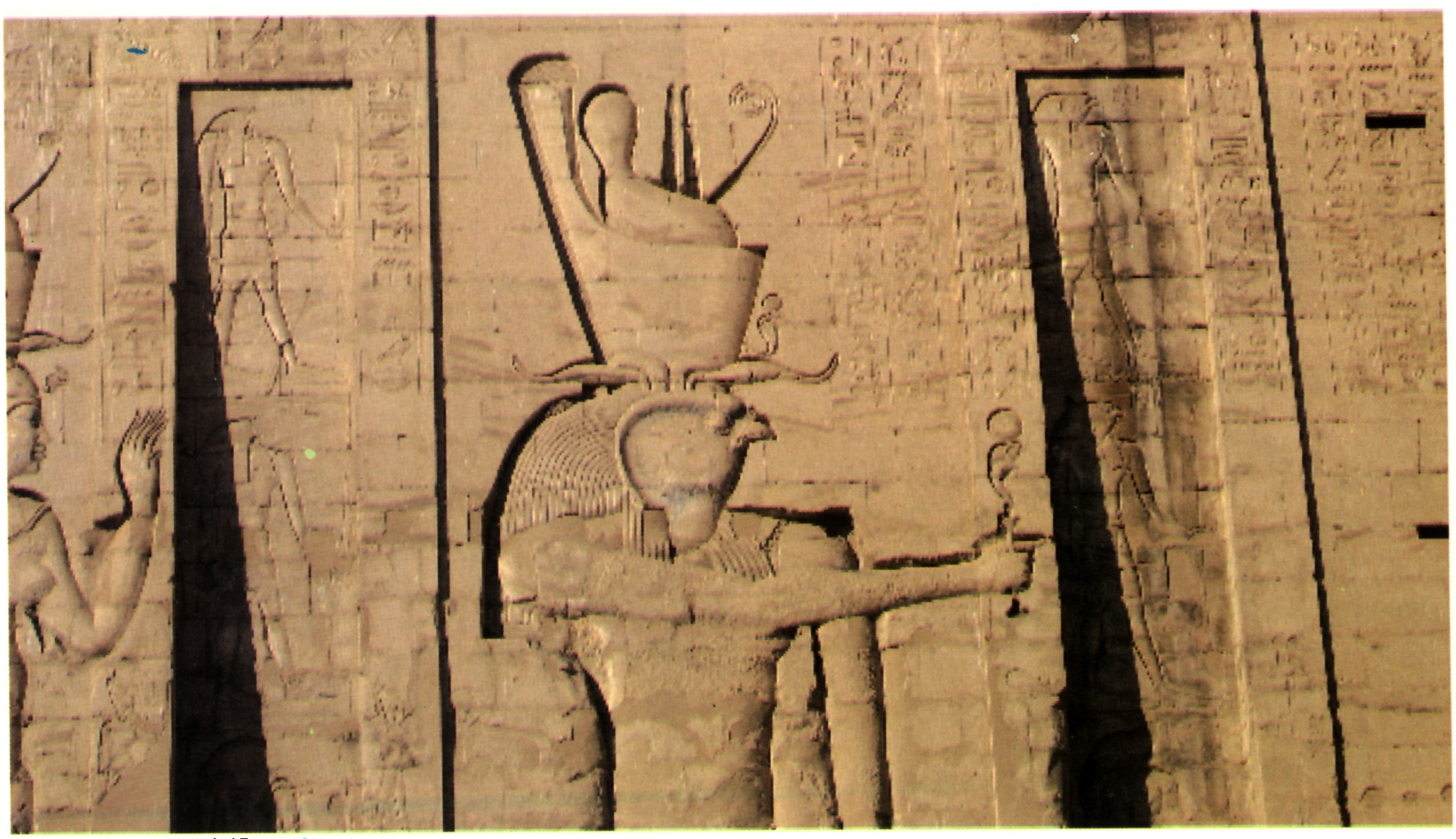
(363) تقديم القرابين

ونلاحظ في واجهة الصرح الخارجية أربع فجوات نهايتها عمودية، ولا شك في استخدامها. ففي هذه الفجوات تثبت الساريات الضخمة التي توضع فوقها الرايات لتزين البوابة الضخمة. ولو كانت هذه الساريات على الأرض (لا يقل ارتفاعها عن ٤٥ مترًا)، فإنه لن تتوافر لها ضمانات صلابة كافية إلا إذا ثُبتت على البوابة بآلات لهذا الغرض. وكانت تستخدم لتحقيق مرونة حركة هذه الآلات فجوات الحجرات الداخلية بالصرح، والتي ترى من الخارج نوافذها مُربعة الشكل في مستوى الحزّة العمودية.

بعد زيارة المعبد والرجوع إلى المركب تخصص نهاية اليوم الخامس عشر في الرحلة من إدفو إلى جبل السلسلة.



(364) جزء من واجهة إدفو، وتظهر الفجوات لتثبيت الساريات



(365) الإله حوريحدتي

اليوم السادس عشر:

إن جودة الحجر الرملي وقرب النهر في الوقت نفسه من الضفتين وسهولة رسو المراكب المحملة هي الدوافع التي حددت اختيار الموقع الذي نوجد فيه، لتجعل منه أكبر محجر لقطع الأحجار في مصر.

توجد أكثر محاجر جبل السلسلة روعة على الضفة اليمنى، وتوجد هذه المحاجر في أغلب الأحيان في الخلاء. بعض المحاجر سويت بحافة منحدرة ارتفاعها من خمسة عشر إلى عشرين مترًا، والبعض الآخر أُعدت على شكل درجات كبيرة غائرة بالتتابع. وسوف نلاحظ علاوة على ذلك مدى العناية والمنهج، وكذلك الحذر والاحتراس المتبع عند استخراج الحجر. ويبدو أنه تم تقطيع الجبل قطعًا متساوية كما يقطع الحطاب الماهر ألواحًا من جذع شجرة نادرة، وإن لم نكن على يقين من ذلك لأسباب أخرى، فإن مجرد رؤية محاجر جبل السلسلة قد تثبت لنا أن وحشية أعمال البارود[٨٦] لم يكن يعرفها الذين استغلوا هذه المناجم.



(366) محاجر السلسلة على النيل



(367) محاجرالسلسلة على الضفة الشمالية



(368) مقابر صخرية فى جبل السلسلة



(369) قطع الحجر من محاجر جبل السلسلة



(370) مقابر صخرية فى جبل السلسلة



(371) مقابر صخرية من الخارج



(372) داخل إحدى مقابر جبل السلسلة

لم تكن محاجر الضفة الشمالية ممتدة ولا سهلة الزيارة مثلها، ولكن وجود بعض الكهوف على شاطئ النهر يمنحها أهمية لا تعرفها المناجم الأخرى بتاتًا. ونلاحظ أنه لا توجد مقابر بين هذه الكهوف، وترجع غالبية هذه الكهوف إلى عادات المصريين الذين كانوا يخلدون ذكرى مرورهم ببعض الأماكن المشهورة بواسطة نصب تذكاري. هكذا عند جبل السلسلة حيث تجرى شعائر خاصة لنهر النيل المنحصر بين جبلين، ونجد على الصخر نقش أناشيد للنيل لا ينقصها بعض العظمة.



(373) واجهة معبد الملك حور محب



(374) أعمدة معبد حور محب

يعدّ كهف سبيوس الكبير[٨٧] الذي يرى الرحالة من بعيد أعمدته الأربعة الضخمة نموذجًا لهذه الآثار التذكارية. رغم أن عددًا كبيرًا من الأشخاص استخدموه فيما بعد، وتركوا فيه آثارًا ثمينة للغاية، إلا أنه يرجع إلى حكم حور محب، آخر ملوك الأسرة ١٨.

وقد نخرج عن إطار الموضوع لو بدأنا في وصف كل ما يقدمه من أهمية كهف سبيوس بجبل السلسلة، وسوف نشير فقط إلى اللوحتين المنحوتتين الواحدة إلى جانب الأخرى في الزاوية الجنوبية الغربية من الأثر.


(375) الإلهة حاتحور تغذى باللبن الربانى حور محب

يصور المنظر (على الجدار الجنوبي) إلهة وهي تغذي باللبن الرباني الملك حور محب وهو مازال طفلا. لم تبلغ مصر أبدًا- مثل اليونان- الجمال المثالي[٨٨]، ومن المحتمل أنه لم يخطر ذلك أبدًا ببالها، ولكن تعتبر النقوش الغائرة في سبيوس جبل السلسلة مثلًا للفن المصري وأحد الأعمال الجميلة التي يمكن مشاهدتها. في الواقع ليس هناك في أي مكان آخر رسم أكثر روعة، والذي يبث في هذا المنظر بعض العذوبة الهادئة التي تبهر وتحير في الوقت نفسه.


(376) الملك حور محب طفلاً يشرب من اللبن الربانى



(377) موكب انتصار حورمحب

إلى جانب ذلك، توجد لوحة أخرى منقوشة على الجدار الغربي، اشتهرت باسم «انتصار حور محب». يجلس الملك على عرشه يحمله اثنا عشر ضابطًا من الجيش. ويحمل ضابطان آخران فوق رأسه مروحة كبيرة بيد طويلة. تصور هذه اللوحة عودة الملك منتصرًا إلى مصر بعد حملة ضد الكوشيين بالسودان، ويسبق الموكب جنود مسلحون، ويلحق بهم الأسرى من الأعداء في أوضاع تدل على حالة من الفزع.



(378) الملك حورمحب على عرشه يحمله ضباط من الجيش



(379) الأسرى من الأعداء فى حالة فزع



(381) الأسرى يسبقهم جنود مسلحون



(380) الأسرى وهم مكبلون

شغل استكشاف جبل السلسلة جزءًا كبيرًا من اليوم السادس عشر، ونتجه إلى كوم أمبو، ولم تغرب الشمس بعد حينما نصل إلى ذلك المكان؛ لذا نجد لدينا الوقت أيضًا لزيارة المعبد.



(382) معبد كوم أمبو

وقد لا نجد ما نقوله عن هذا المكان الذي إن عاجلاً أو آجلاً سوف يكون فريسة لنهر النيل مهما أحطناه بالعناية، مثل إدفو ودندرة هو من أعمال ملوك اليونان الذين جاءوا بعد الإسكندر، ويحمل في أجزاء مختلفة أسماء فيلوميتور (Philométor) ويورجتيس الثاني (Evergète II) وديونيسوس (Dionysos)



(383) صرح معبد كوم أمبو

ويمثل خاصية فريدة؛ إذ إنه يجمع بين معبدين متجاورين لتكريس عنصرين متناقضين دائمًا: الأول النور المعبود باسم حور- ور، والآخر الظلام الذي يرمز إليه الإله سبك الذي يرمز له بالتمساح (Sébek)[٨٩].



(384) معبد كوم أمبو يطل على النيل



(385) معبد كوم أمبو



(386) الإله سوبك



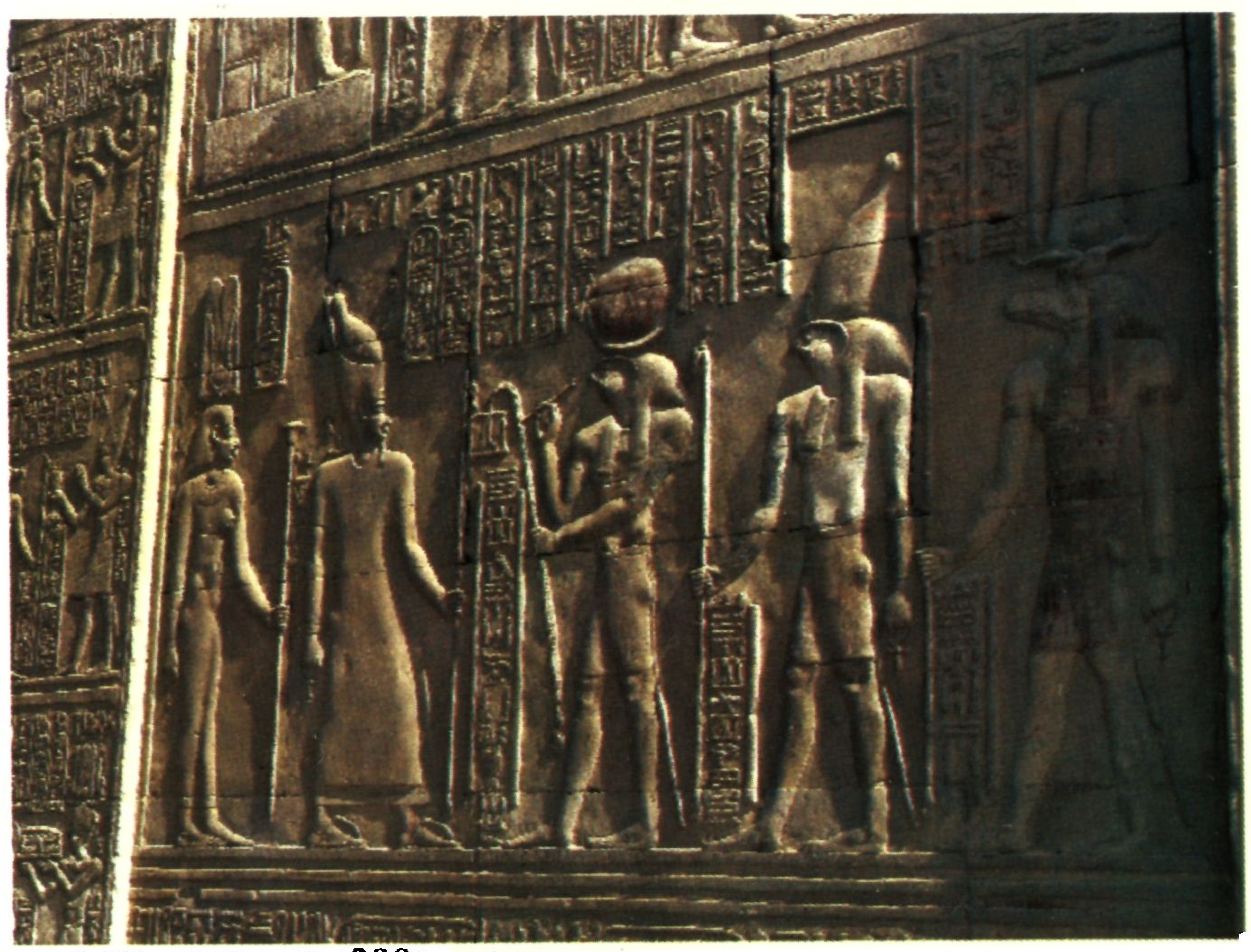
(387) الإله سوبك



(388) بعض أعمدة كوم أمبو



(389) تيجان أعمدة من كوم أمبو (١٨٦٩)



(390) تقديم القرابين للآلهة

ومع ذلك لو كنا نزور كوم أمبو بهدف معرفة عصره فقط، فلسنا بحاجة إذا جاز القول أن نترجل. يبدو معبد كوم أمبو حين نلمحه من بعيد وكأنه معبد بطلمي. تظهر هنا في الواقع المناظر التي أوحى بها معبد إسنا. عندما جاء اليونانيون تلقت العمارة المصرية بمعناها الصحيح دفعة إلى الأمام، ومن هذه اللحظة برز العمود ذو التاج الفريد المركب، والذي لا يوجد إلا في المعابد المصرية في العصرين البطلمي والروماني.

انتهى اليوم السادس عشر، وغدًا عندما نصل إلى أسوان نكون قد وصلنا إلى نهاية الرحلة.

اليوم السابع عشر

الرحلة بين كوم أمبو وأسوان ليست طويلة. بعد أربع أو خمس ساعات من السفر بدأنا نشاهد ناحية الجنوب جبالاً تبدو على قمتها حصون(٩٠). وعند سفح هذه الجبال جزيرة خضراء تمامًا تفصل النيل إلى قسمين متساويين تقريبًا. وإلى اليسار تضيء بعض المنازل البيضاء المشهد الطبيعي في قلب واحة من النخيل. ويميز الوصول إلى أسوان أن النهر يبدو قد انتهى في هذا المكان، وتبحث العين دون جدوى عن نهاية له.



(391) النيل عند أسوان ومقابر قبة الهواء



(392) نهرالنيل عند أسوان

أسوان تذهل المسافر. وفي أسوان نعتقد أننا في عالم جديد. انتهت فيه مصر ويبدأ بلد آخر، لن نجد في أي مكان آخر الجمع بين الكثير من المصريين والأتراك والأجانب والبيشاري عراة الأجسام وسمر البشرة من كل جنس. ويتميز سكان الخرطوم خاصة في أسوان بهيبتهم الرائعة، وبشرتهم السوداء، ورؤوسهم اللطيفة التي تذكر بأحسن نموذج من سلالة الشمال.



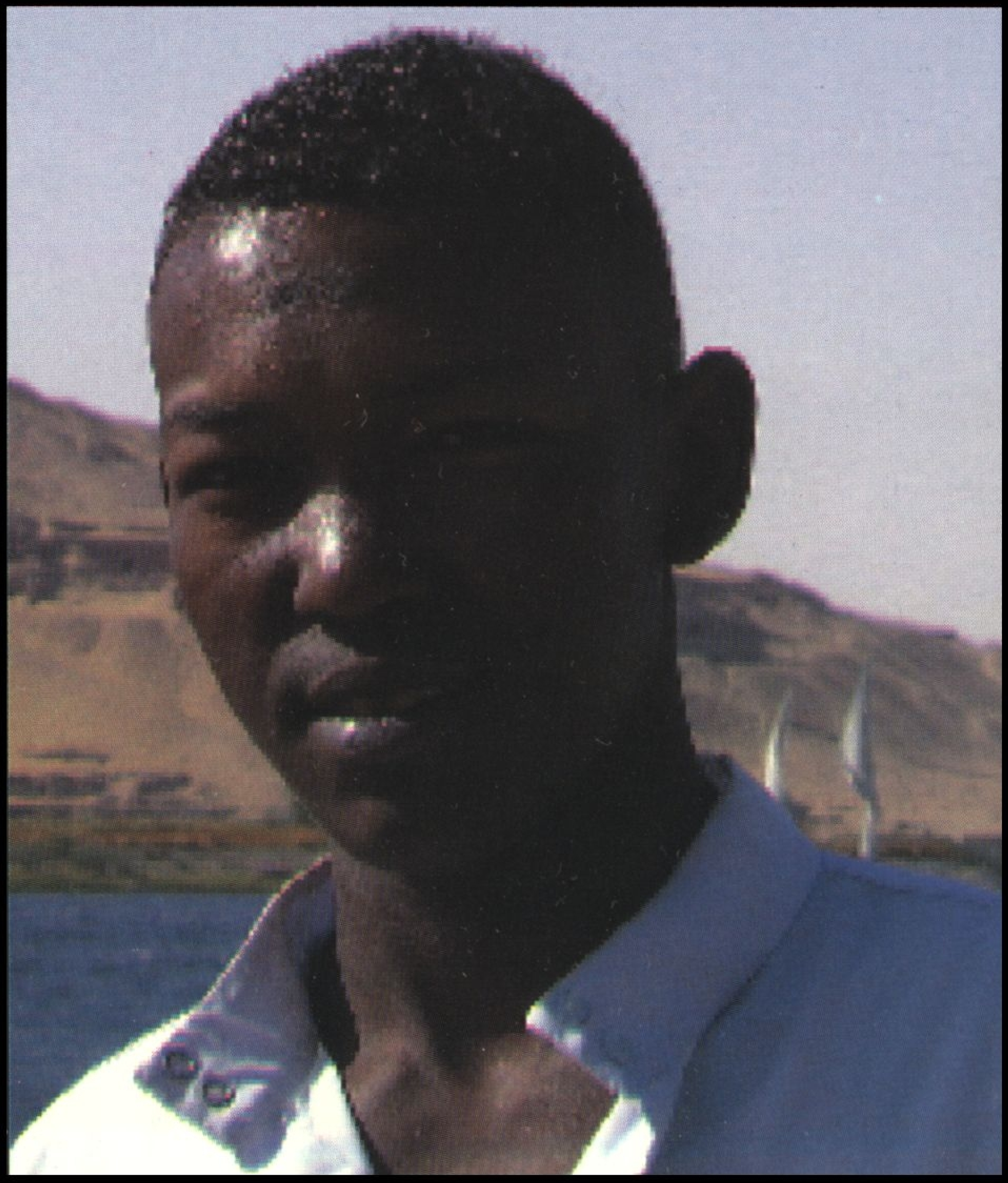
(393) مسكن بأسوان



(394) فتاة من أسوان



(395) رجل من أسوان



(396) شاب من أبناء أسوان



(397) بضائع ومنتجات محلية فى سوق أسوان



(398) رماح ونبال قديمة الصنع



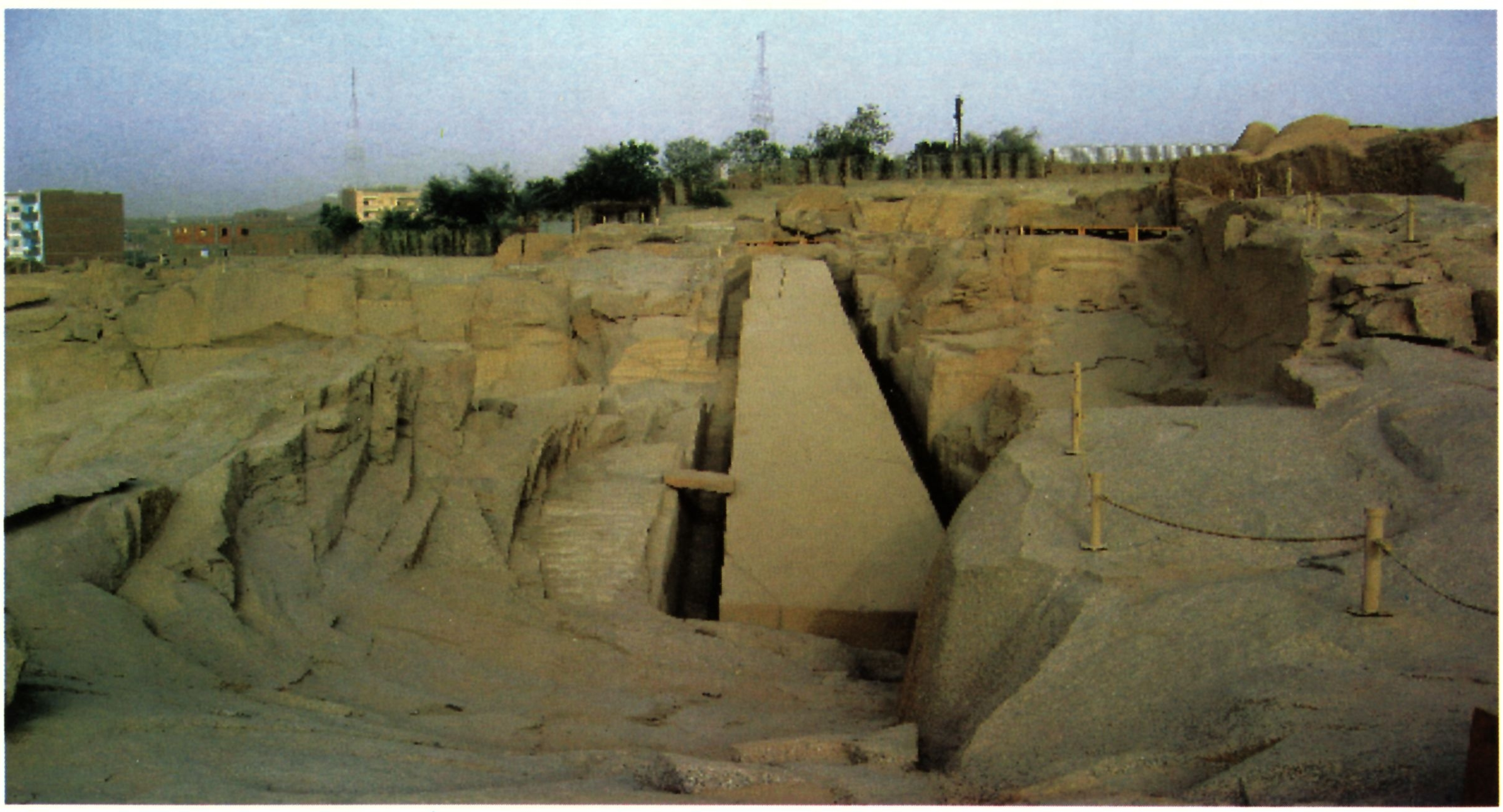
(399) وجه من الأبنوس

وإضافة إلى هذه المناظر نلاحظ على الشاطئ بضائع ومطاطًا وأنياب فيلة وجلودًا لذوات الأربع، وتضاعف رؤية طريقة لفها العجيبة من الشعور بالغربة. ويتجول تجار في وسط كل هؤلاء الناس لا يبيعون الآثار القديمة، ولكن (دبابيس) عصا مُدببة الرأس من الأبنوس ورماحًا صغيرة وحرابًا ونبالاً نصلها من الحديد، ويقولون إنها مسممة.

لم تحتفظ، إذا جاز القول، أسوان بذكريات قديمة، ولكن الزيارة عبر المدينة ممتعة. لو ابتعدنا قليلاً عن الطريق جنوبًا، نجد في نهاية حفرة معبدا صغيرًا من العصر البطلمي اكتشف حديثًا في أثناء عمليات الحفر التي أمر بها سمو الخديوي[٩١]، ونجد بعدها بكيلومتر مسلة [٩٢] مازال أحد جوانبها ملتصقًا بالمحجر الذي كان قد بدأ قطعها منه.



(400) جزء من المسلة المكسورة فى المحجر الشرقى



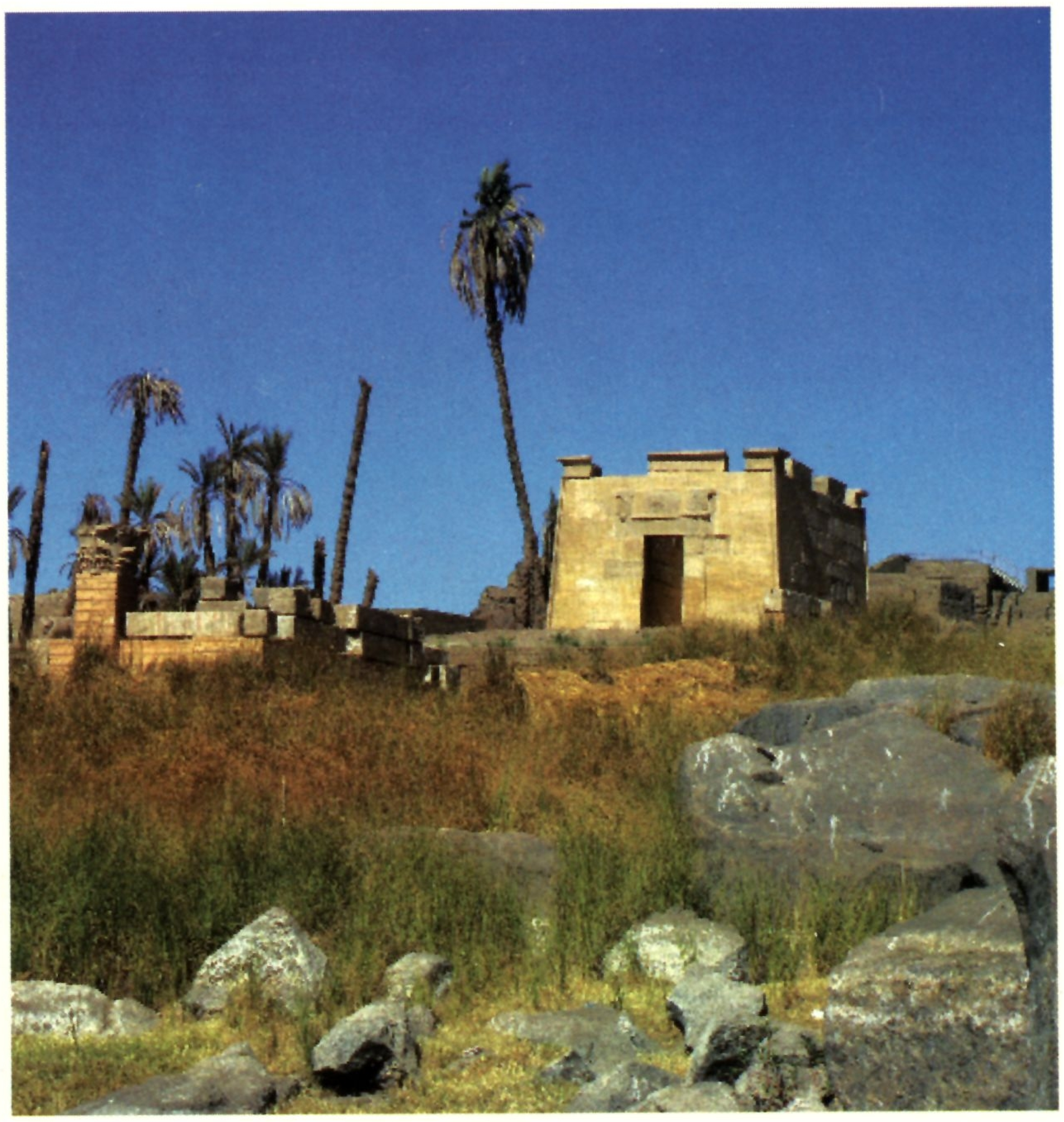
(401) المسلة فى المحجر الشرقى

ومن الجانب الآخر من النهر، وبالضبط أمام أسوان، توجد جزيرة الفنتين. وفي أسوان لا يزال العنصر المصري يسيطر على السكان. وعندما نصل إلى جزيرة الفنتين نندهش كثيرًا؛ لأننا لا نرى حولنا إلا نوبيين.

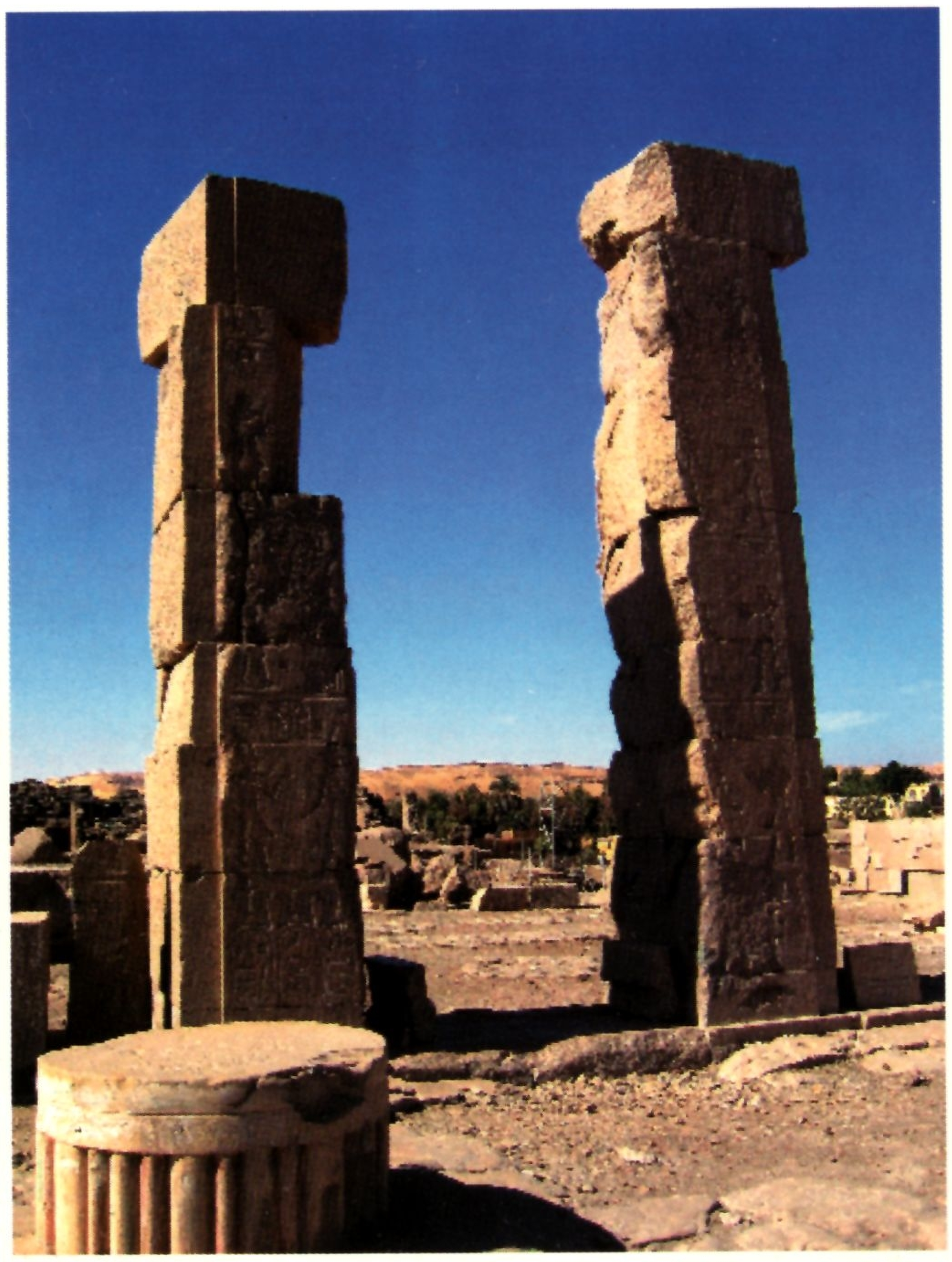


(402) أطلال من جزيرة الفنتين

منذ سبعين عامًا كنا نشاهد في جزيرة الفنتين معبدًا كان نصفه قد هدم أطلق عليه رجال أعمال اللجنة المصرية الكبرى معبد الشمال، ومعبدًا آخر أبعاده رائعة أطلقوا عليه اسم معبد الجنوب، وبفضل الرسومات التي تمت في ذلك الحين نعرف أنه لأمنوفيس الثالث [أحد ملوك الأسرة ١٨]، ويبدأ ببوابة ضخمة من الجرانيت، وينتهي بمرفأ (ميناء) عمودي على النهر يسبقه مقياس النيل من جهة الشمال.



(403) المعبد البطلمى فى الفنتين



(404) مدخل لأحد المعابد

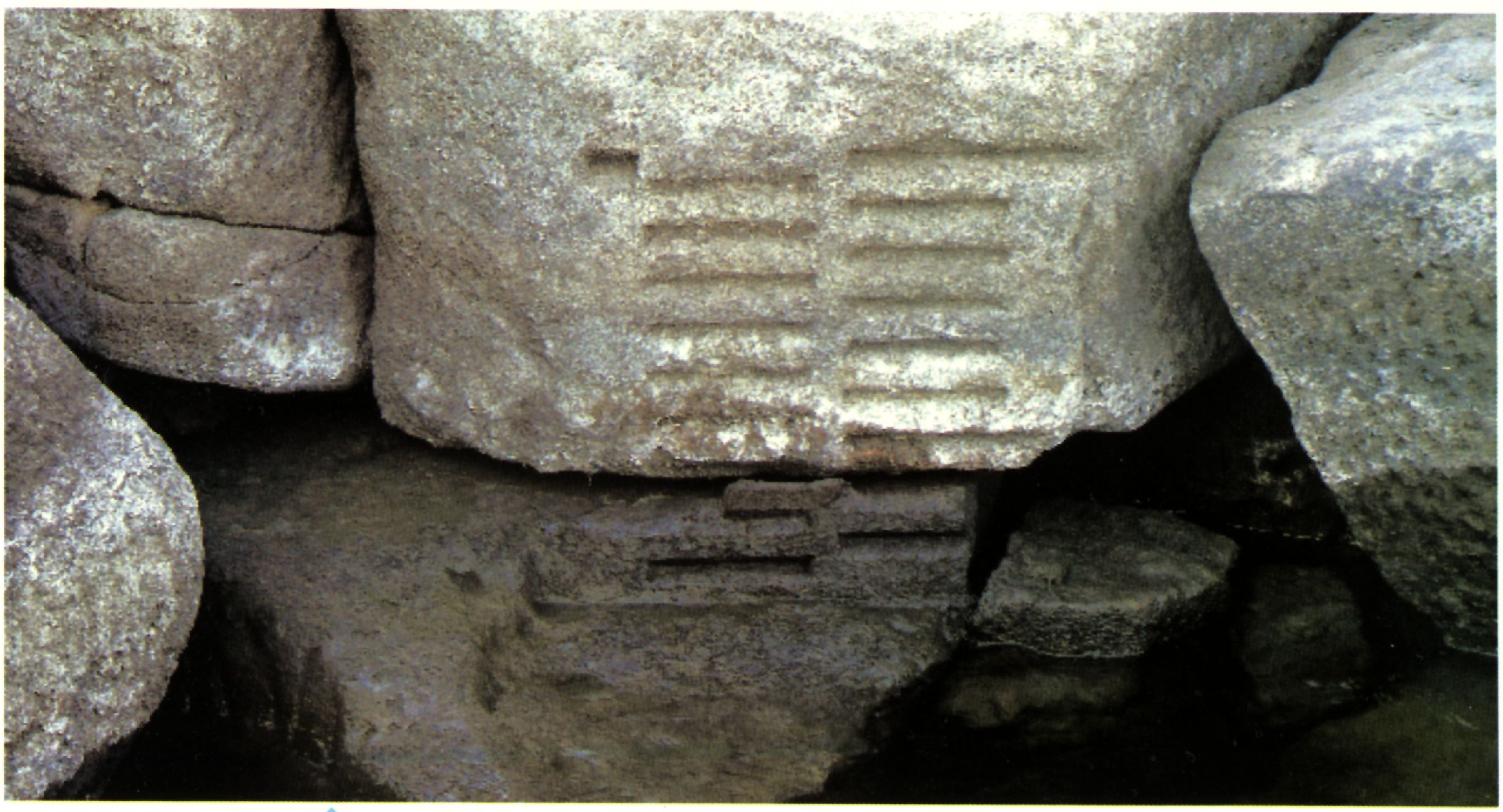


(405) جزيرة الفنتين والمعبد - من كتاب وصف مصر



في عام ١٨٢٢ اختفى كلا المعبدين ومقياس النيل. ولا يزال المرفأ الذي يرجع إلى العصر الروماني قائمًا، واستخدمت فيه مواد لا حصر لها مصدرها مباني أكثر قدمًا، ولا تزال البوابة الجرانيتية التي تزينها خراطيش الإسكندر الثاني قائمة. وبالقرب من المنازل الحديثة يوجد تمثال رديء الصنع لأوزوريس نقرأ عليه بصعوبة بالغة أسماء مرنبتاح (الأسرة ١٩، ١٣٥٠ ق م). في المكان الذي كانت توجد به واجهة معبد أمنوفيس الثالث.

(406) مقياس النيل



(407) علامات مقياس النيل

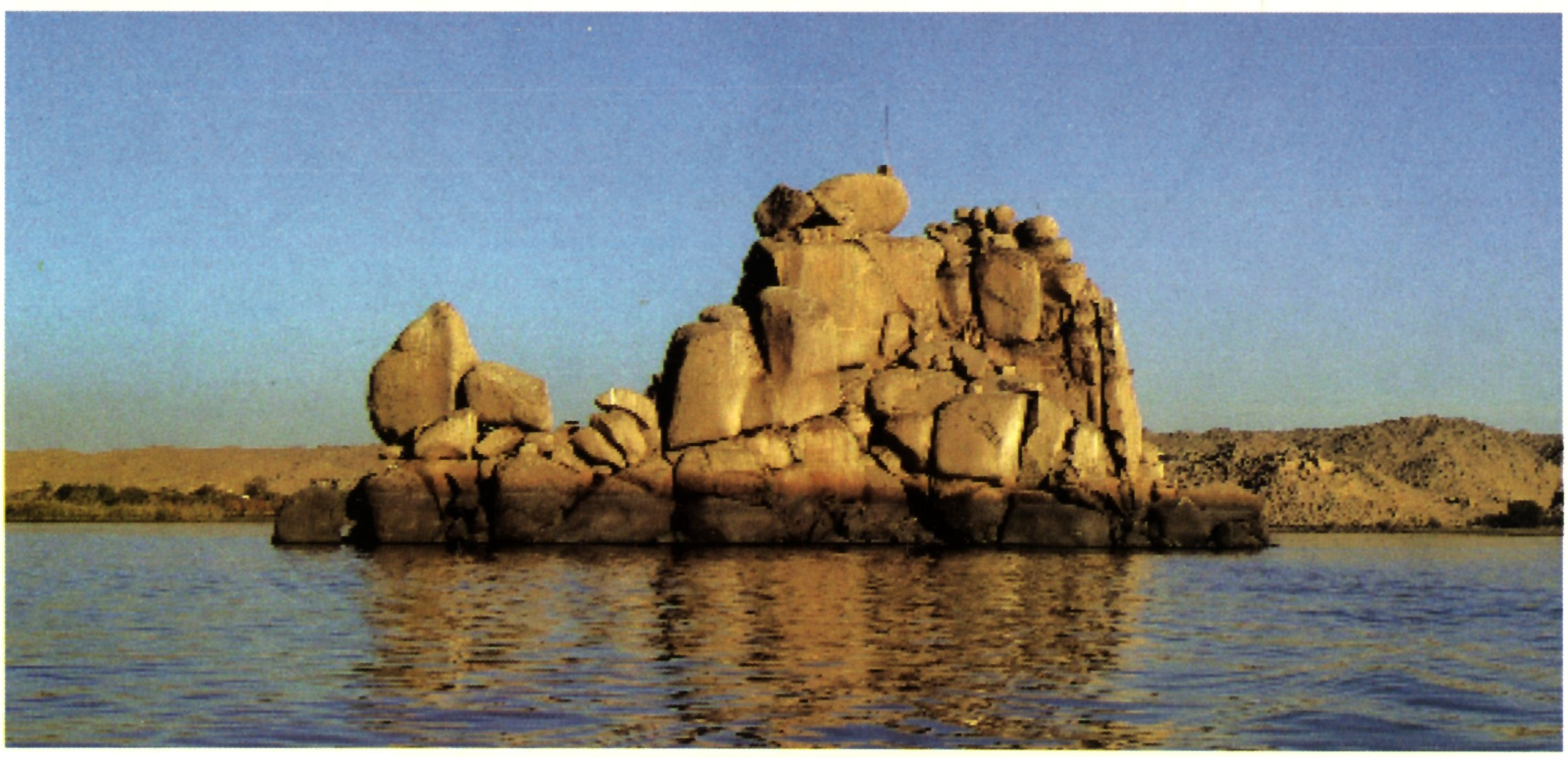
اليوم الثامن عشر

تُنهي زيارة معابد فيلة رحلة الصعيد، وتمثل حسن الختام. نذهب من أسوان إلى فيلة برًّا حتى استراحة البعثة النمساوية. ومن هناك نأخذ مراكب الركاب، ونصل إلى الجزيرة. وعندما يكون النيل أقل ارتفاعًا وأقل سرعة يؤدي نفس الطريق من طريق فرعي إلى قرية الشلال. وعندما يكون الطريق الفرعي ميسرًا يعتبر الطريق الأكثر ألفة وروعة.

لا نترك الصحراء من أسوان حتى استراحة البعثة النمساوية، ونجد أننا في قلب ثقافة الجرانيت؛ إذ يظهر الجرانيت هنا وهناك على سطح التربة، ويتكدس أيضًا في شكل كتل قاتمة، ويعطي الطبيعة هذا المظهر الموحش الذي يميزها بوجه خاص.

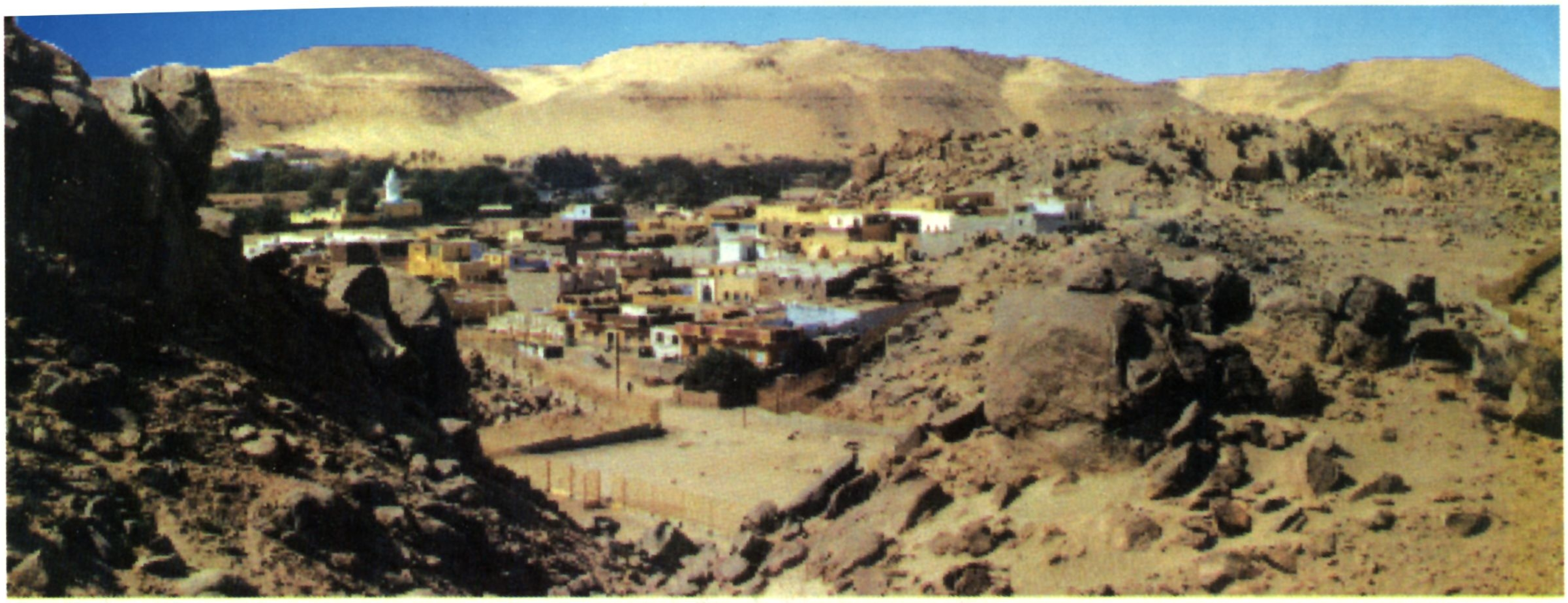


(408) نقوش على الصخر مطلة على نهر النيل

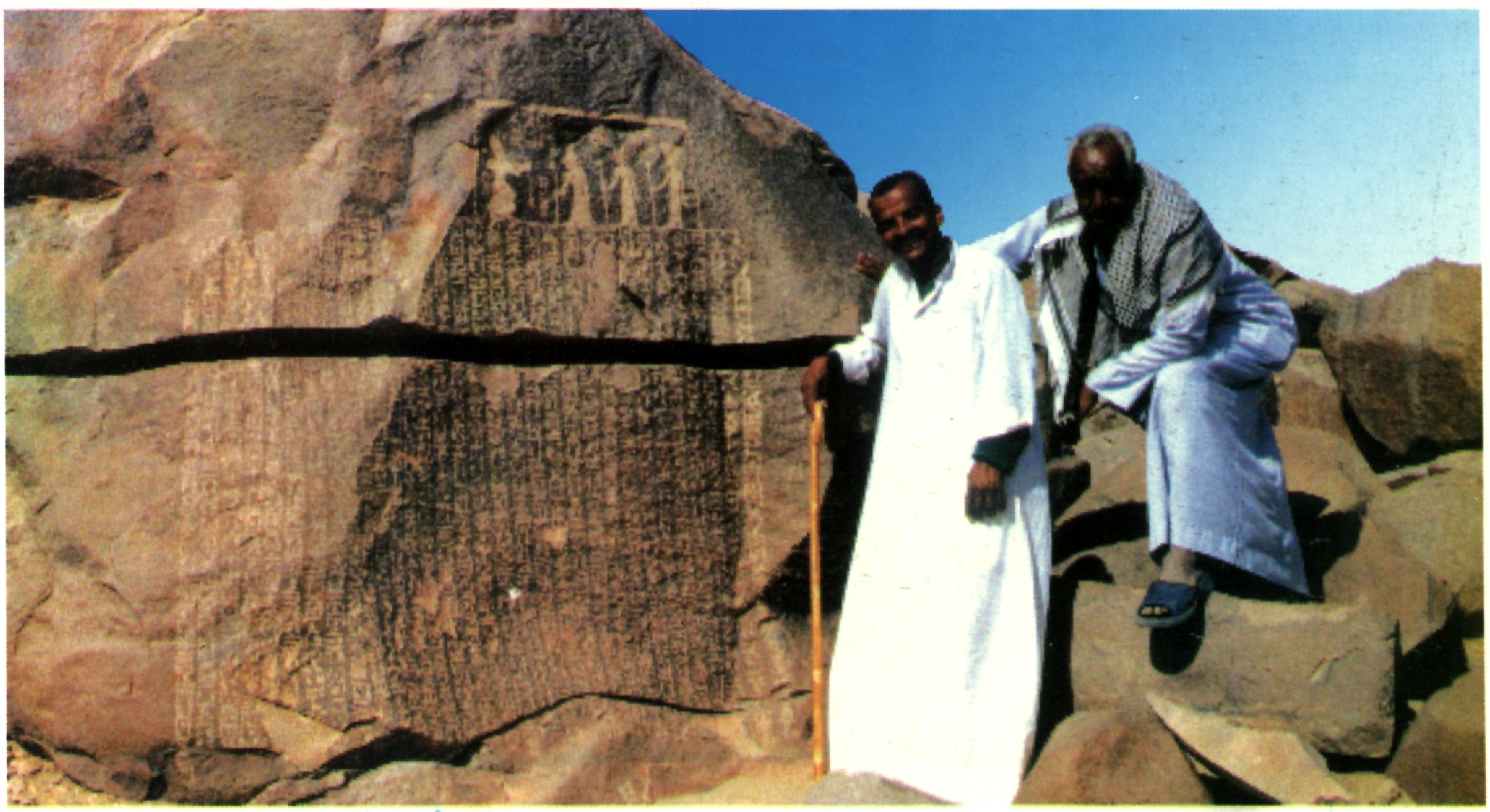


(409) صخور تحمل آثار فيضان النيل

عندما وصفنا جبل السلسلة تحدثنا عن عادة المصريين في تكريس بناء نصب تذكاري ونقوش لتخليد ذكرى مرورهم ببعض الأماكن. ويقدم الطريق من أسوان إلى فيلة آلاف الأمثلة، تكثر فيه فعلاً النقوش المحفورة على الصخر. وفي بعض الأحيان لا نقرأ إلا أسماء أعلام، ولكن غالبًا ما يأخذ المنظر حجم المنظر. يظهر العابر فيها وهو يعبد آلهة الجندل وفي أسفل المنظر صيغة الدعوات التي لا غنى عنها.وفي مناسبات تستحق الذكر نجد القادة والأمراء وأحيانًا الملوك العائدين من حملة في السودان يتركون أثرًا مستديمًا على صخور الطريق. ونتخيل ما يمكن أن تقدمه هذه الذكريات للعلم ،والذي يحتل فيها التاريخ مكانة أكبر من الديانة.



(410) قرية جزيرة سهيل



(411) لوحة المجاعة فى جزيرة سهيل

ويمكن القول إن جزيرة سهيل، الجزيرة الصغيرة بالشلال الصعب الوصول إليها، أصبحت مفتوحة للزيارة منذ عام ١٩٩٥، كانت مغطاة بهذه الذكريات وبعض المعطيات المُسلّم اليوم بصحتها من الجميع لا تستند إلا على معلومات نتجت عن النقوش المحفورة على صخور هذه الجزيرة.

لقد تم سرد تاريخ فيلة بسرعة(٩٣). لا نجد اسم ملك قبل نختنبو الثاني (Nectanébo) وهو ما معناه أن أقدم آثار فيلة كانت قبل الإسكندر بعدة سنوات. لقد شيد نختنبو الثاني المعبد الصغير الواقع في أقصى جنوب الجزيرة، والذي بقي منه اثنا عشر عمودًا، وهو أيضًا الذي عمل على بناء البوابة الضخمة التي ترقد بين كتل الصرح الأول.

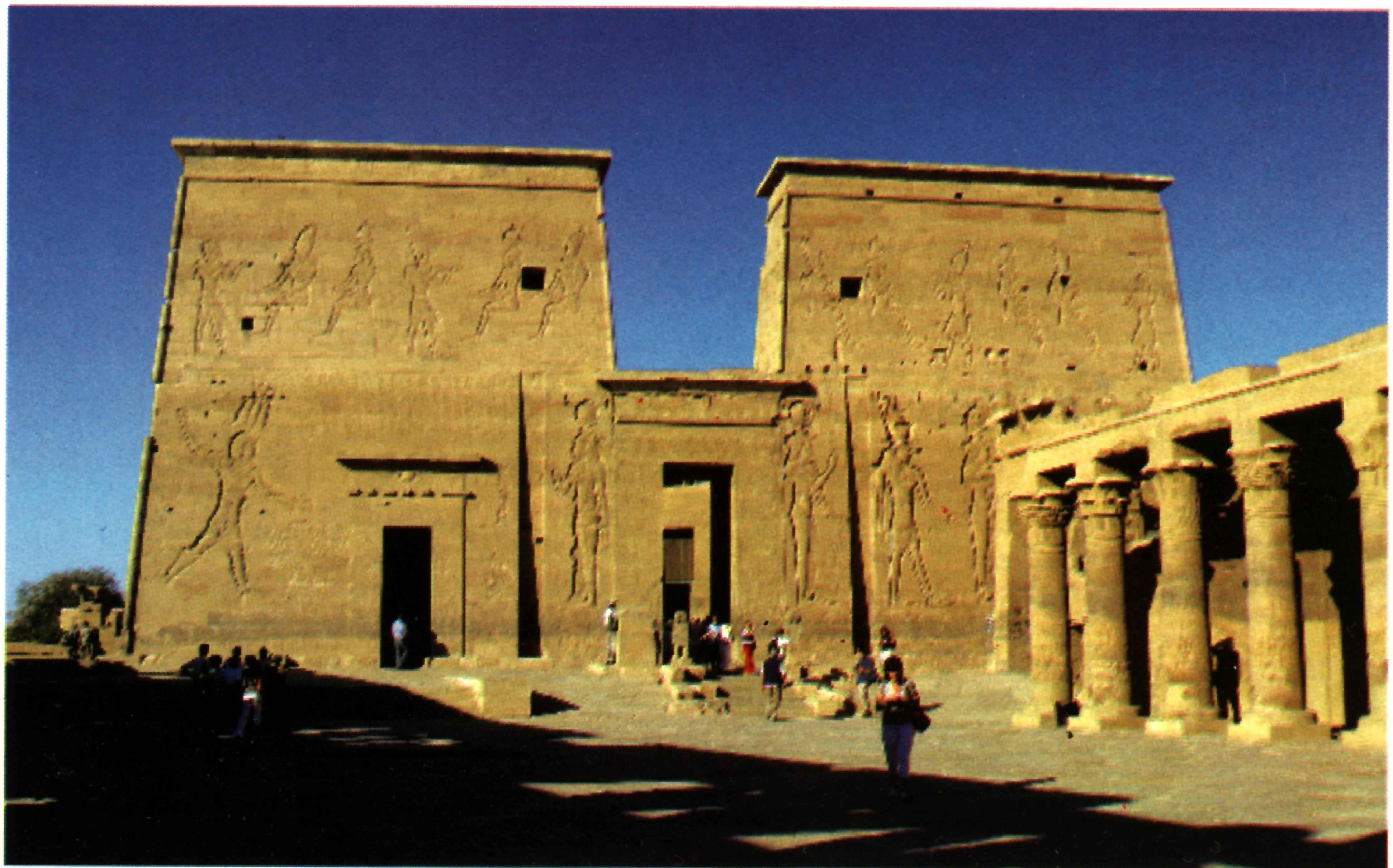


(412) معابد فيلة

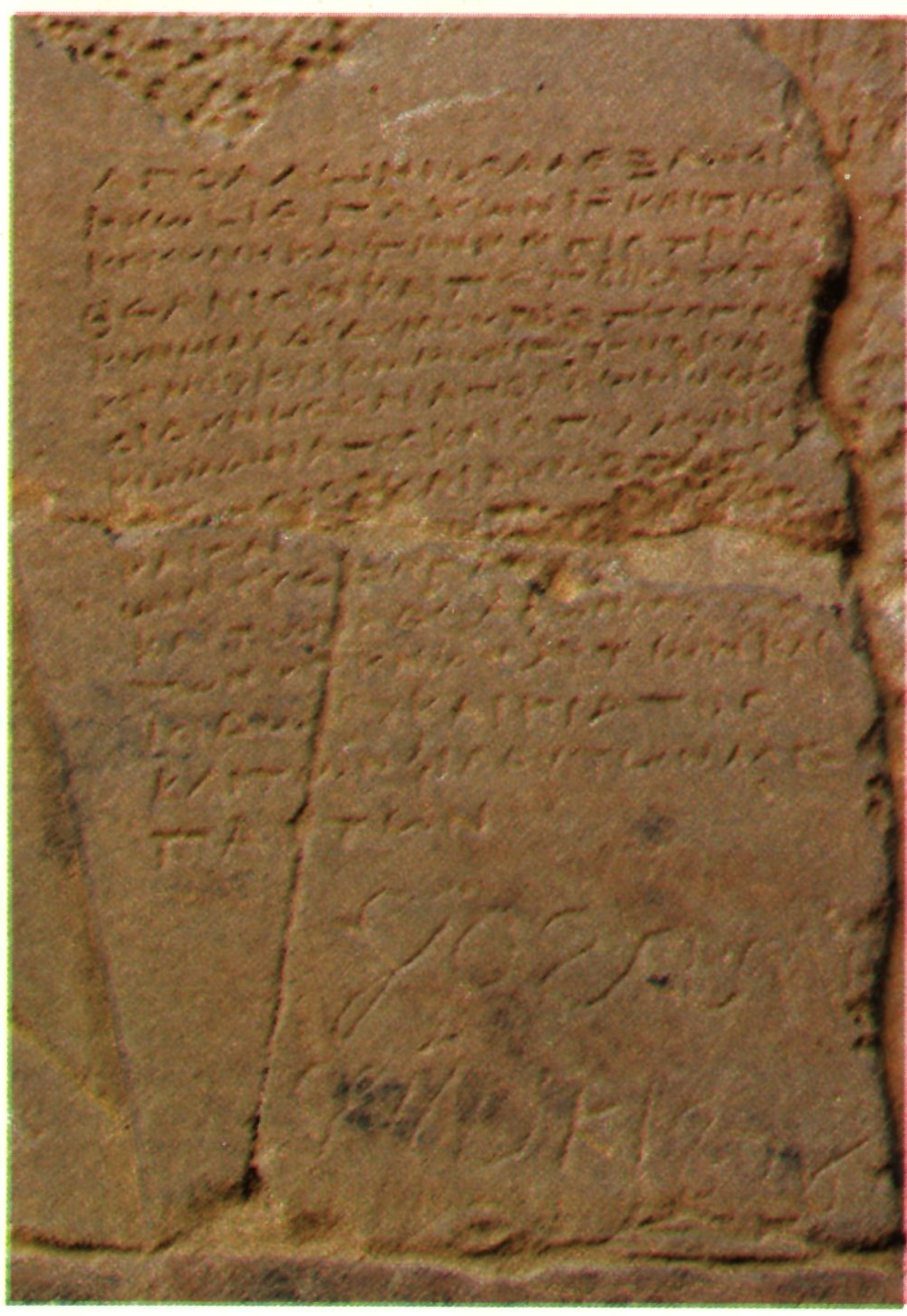
قد يكون من الممل ذكر عدد أسماء البطالمة والقياصرة الذين غطوا الجزيرة بمبانيهم، ونلاحظ خاصة على الصرح الأول عددًا كبيراً من الكتابات اليونانية التي خلّفها زوار الجزيرة.



(413) معبد نختنبو الثاني وأعمدته الاثنا عشر



(414) بوابة نختنبو الثانى



(415) نقوش يونانية

ونتج عن دراسة هذه الكتابات حدث مهم؛ ففي عام ٤٥٣ ميلادية أي بعد حوالي ستين عامًا من صدور مرسوم الإمبراطور ثيودسيوس (Théodose) الذي ألغي الديانة المصرية كانت مازالت هناك شعائر تُقدم لإيزيس وأوزوريس في فيلة، وأن عائلات الكهنة المصريين الذين يقومون بخدمة المعابد كانوا موجودين في فيلة، وبناء عليه لم تصبح فيلة جزيرة مقدسة يجلها المصريون إلا قبل الغزو المقدوني بسنوات قليلة، وفي ظل حكم البطالمة وحكم القياصرة غطتها المباني أكثر فأكثر، وقد كانت الشرائع التي تكرس لها هذه الآثار راسخة للغاية لم يتمكن مرسوم ثيودسيوس من القضاء عليها، وكانت لا تزال قائمة في عهد الإمبراطور مارسيان (Marcien).



(416) معبد إيزيس فى جزيرة فيلة



وفي ظل وجود مثل هذا الموقع الذي لا مثيل له في كل مصر، هل من المبالغ فيه أن نطلب من الزائر أن يكتفي بالتعرف على الآثار التي أمام نظره على تاريخ تشييدها فحسب. إن معبد فيلة يعدّ فعلاً مكانًا لمشاعر اللحظة الحالية قبل أن يكون مكانًا للذكرى.

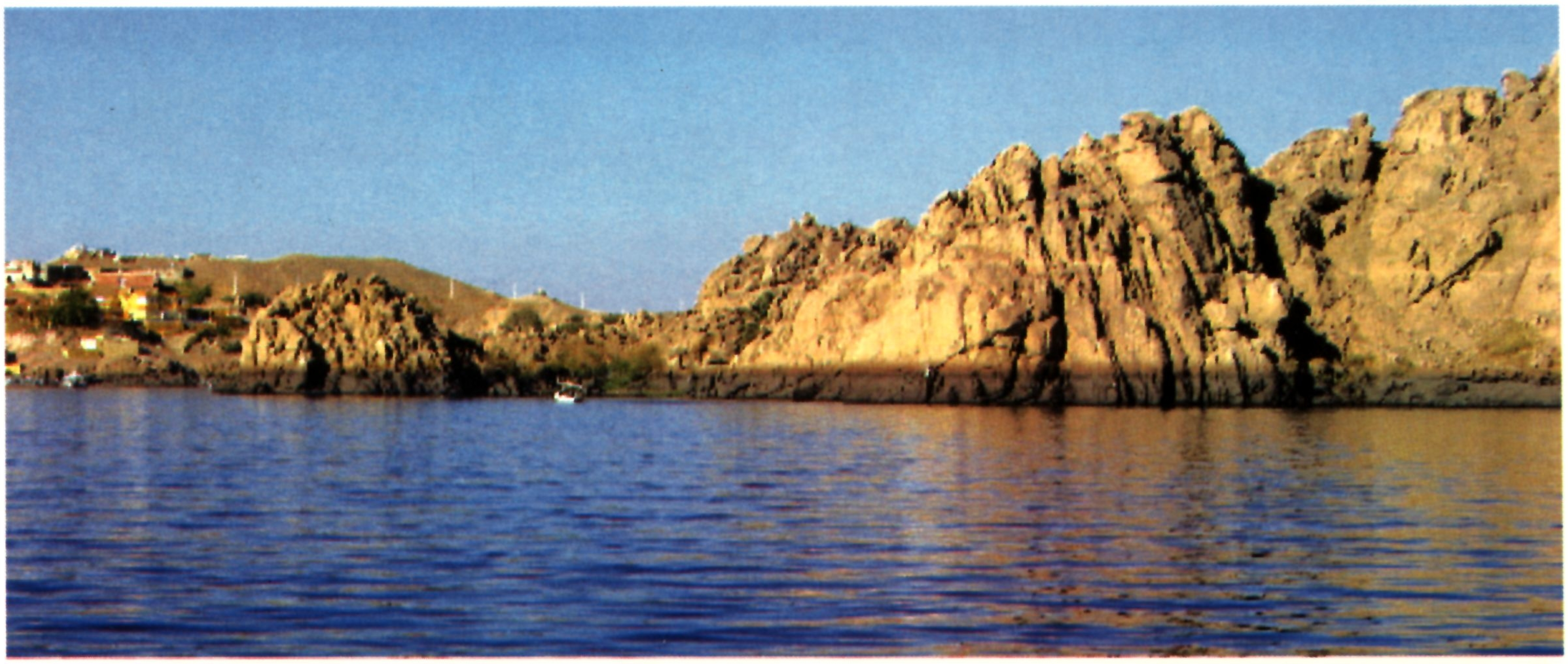


(418) مقصورة تراجان



(419) ضيوف الخديوى فى فيلة [١٨٦٩]

إن معابد فيلة مثل معابد الكرنك؛ يجب أن نجيء إليها أول مرة من أجل الأصالة وعظمة المنظر الطبيعي، ومن أجل الصخور المعتمة التي نراها في كل الجهات، ومن أجل الشلال الذي نسمعه عن بعد. وكم تكون دهشتنا عندما نغادر فيلة من الجانب الشرقي للجزيرة متطلعين إلى السماء فنرى شموخ أعمدة المبنى الجميل الذي أطلقت عليه اللجنة المصرية المعبد الشرقي (أو المبنى الشرقي). ولا تُساهم النزهة بلا هدف في الجزيرة إلا في زيادة قوة هذه المشاعر، وعندما نغادر فيلة نقول لقد وجدنا فيها أكثر ما نشتهي لتتويج رحلة في مصر العليا.



(420) منطقة صخرية على النيل

إن العودة إلى أسوان لا تتم عادة بشكل مباشر. عندما تطأ أقدامنا اليابسة عادة ما ننحرف يسارًا، ونذهب لرؤية ما أطلق عليه الشلال.

قال بول لوكس (Paul Lucas) وهو الرحالة الذي كان يعيش في عصر لويس الرابع عشر أن الشلال كان يندفع من أعلى الصخور بصخب لدرجة أن السكان الذين يقيمون حوله على بعد عدة فراسخ قد أصابهم الصمم. وقد يقتنع كل منا عندما نكون في هذه الأماكن كم كانت هذه الشهادة مبالغًا فيها. إذا قصدنا بالشلال مسقط النهر الذي يرجع إلى الانخفاض المفاجئ لكل مجراه، وهي الظاهرة التي يقدمها مثلاً نهر الرين في سشافوز (Schaffouse) يمكن القول فعلاً إن شلال أسوان غير موجود. وعندما يكون النيل منخفضًا، في الحقيقة، تخرج الصخور التي تزحم مجراه من الماء، ويحدث البروز التي ينتج عنها في بعض الأماكن شلالات وغليان لا يكفان عن خلق شعور معين، ولكن عندما يكون النيل مرتفعًا تبدو الظاهرة أقل؛ لأن الصخور تكون مغطاة أكثر، وعندئذ لا يوجد سوى سيول سريعة.



(421) مركب شراعية على النيل

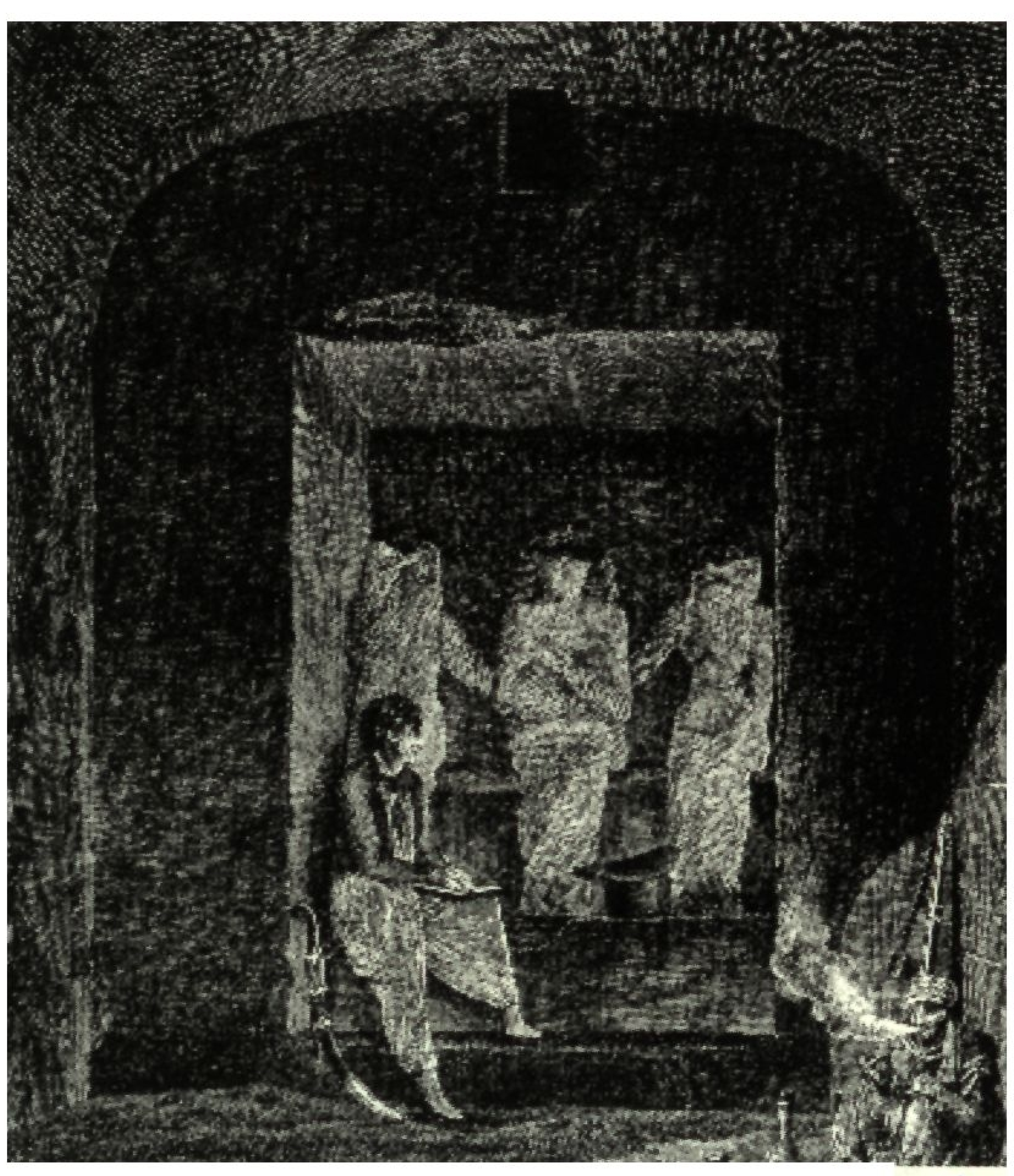
اليوم التاسع عشر:

تيار النيل الذي عادة ما يؤخر سير السفن في الصعود بشكل كبير يساعدها عادة في النزول لدرجة أن بعض المراكب تضاعف سرعتهان لذلك لن تتم العودة في الظروف نفسها. المراحل أكثر طولاً، وغالبًا ما سيكون ممكنا تجاوز محطة أو عدة محطات تموين فحم دون التوقف فيها.

وهكذا نذهب في أول يوم من أسوان إلى طيبة، ويعتبر هذا الجزء من الطريق هو أحد الأجزاء التي تعرض على المسافرين أمورا ثانوية كثيرة للدراسة. نترك الجرانيت على بعد بضعة كيلومترات من شمال أسوان لنجد الحجر الرملي، ويحل الحجر الجيري بدوره محل الحجر الرملي في ضواحي إدفو. ويغيب مع الحجر الرملي شكل العبور الحزين للغاية، والذي يصبح محسوسًا كلما اقتربنا من أسوان. وابتداءً من إدفو تأخذ ضفتا النيل من جديد مظهرهما المألوف تقريبًا. وعلى الضفة الأخرى قبالة إدفو توجد قرية الرديسية (Radasieh)، ومنها يبدأ الطريق الذي يؤدى عبر الصحراء الشرقية إلى مناجم الذهب التي كان يستغلها الفراعنة قديمًا، وأهملت منذ مدة طويلة.



(422) ضفتا النيل



(423) مقبرة صخرية - الكاب - من كتاب وصف مصر

وإلى الشمال من إدفو قليلاً وعلى ضفة الرديسية نفسها نجد الكاب المشهورة بمقابرها المنقورة في الصخر، ونجد معبدًا صغيرًا وجميلاً[٩٤] يرجع إلى الأسرة ١٨ تم تشييده في السهل على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات من الشاطئ، كان الكاب فيما مضى موقعًا استراتيجيًا، فعند الكاب فعلاً يصب المضيق الذي كان يُسهّل غزوات الهيروشا (Hérouscha) (البيشاري الحاليين (Les Bicharis) الذين تُظهرهم لنا النقوش القديمة غالبًا ما يلتهمون الأراضي المصرية. وأيضًا قلعة أخرى[٩٥][هي أسوار المدينة القديمة] كانت في الكاب مازلنا نرى أسوارها، وقد تم بناؤها من الطوب اللبن، وربما ترجع إلى عصر الدولة القديمة.

ليس هناك ما يلفت النظر إلى الطريق بين الكاب وإسنا. ولا نفضل إسنا فحسب بسب صالة الأعمدة التي وصفناها. ولولا ضيق الوقت لقمنا بزيارة الأديرة القبطية المنتشرة بكثرة في ضواحي إسنا؛ فقد لجأ إلى هذه الأديرة الأقباط الذين غادروا مدينة هابو خلال الفتح الإسلامي، وكذلك في هذه الأديرة وفي القرى التي تمتد حتى سفح الجبل تم تعذيب عدة آلاف من المسيحيين بأمر الاضطهاد الذي أصدره الإمبراطور الروماني دقلديانوس (Dioclétien).



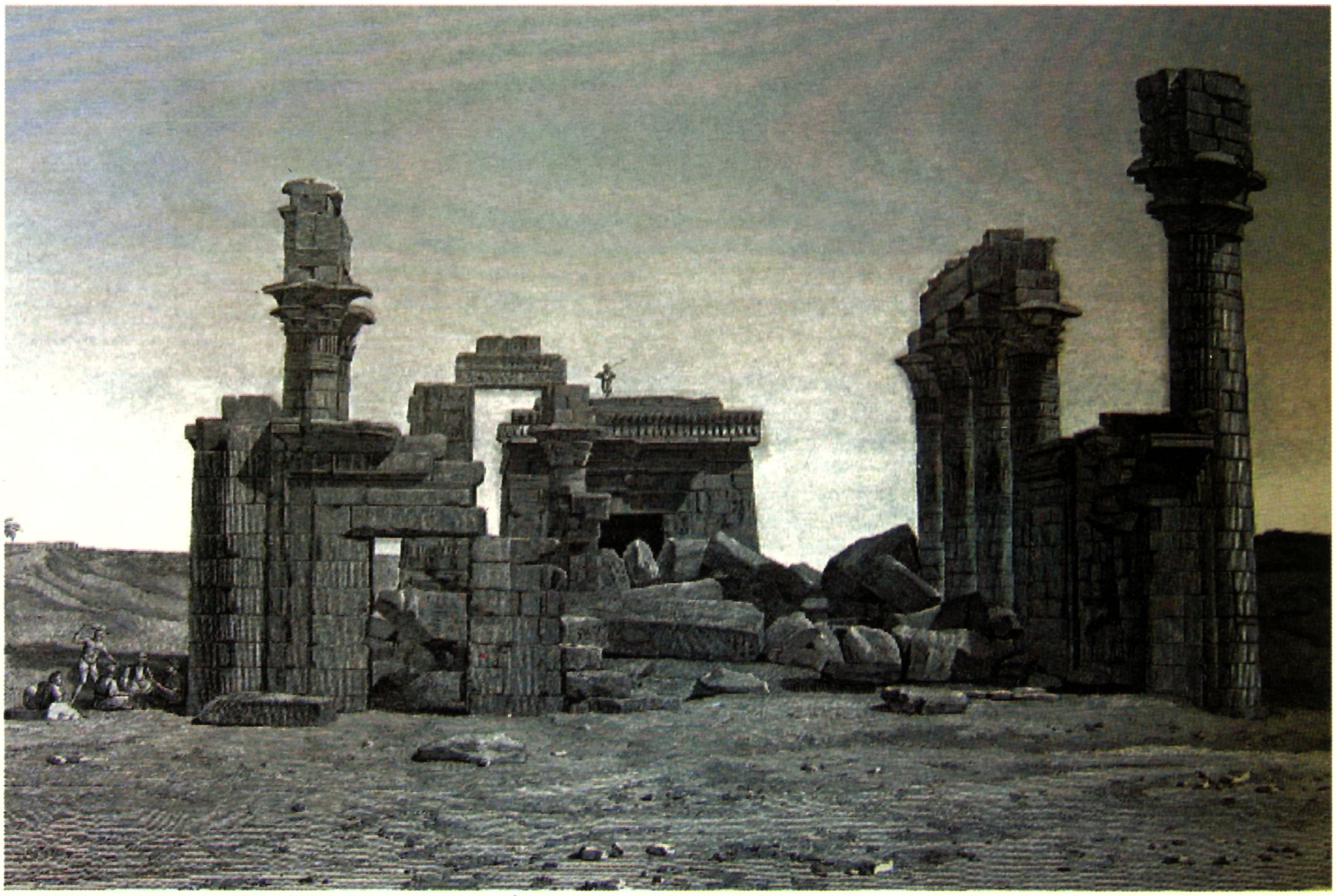
(424) أديرة قبطية



(425) مدخل دير

لا يفصل طيبة عن إسنا إلا رحلة بضع ساعات. قبل الوصول إليها بقليل نلمح مداخن كبيرة تغطي السماء بالسواد من بعيد، صادرة من أرمنت[٩٦] (Erment) ، هرمونتيس (Hermonthis) باليونانية، وهي اليوم مقر مؤسسة صناعية كبرى [معامل السكر] لا تضاهيها المؤسسات من النوع نفسه التي أقيمت في أوروبا.

وقد يحدث أحيانًا أن تكون الملاحة سهلة؛ فتصل المراكب إلى الأقصر قبل غروب الشمس بساعة أو ساعتين. وسوف ننتهز هذه الفرصة لزيارة معبد الكرنك مرة ثانية؛ فهذا الأثر العظيم لا نشبع أبدًا من رؤيته، وكما قلنا، يزداد إعجابنا به كلما عرفناه أكثر.



(426) أطلال معبد من أرمنت – من كتاب وصف مصر

اليوم العشرون:

يشمل اليوم العشرون رحلة العودة من طيبة إلى سوهاج ، ويتم التموين بالفحم من المحتمل عند المرور بقنا. ونشاهد فرشوط (Farchout) بين قنا وسوهاج، وهي مؤسسة صناعية أخرى لها أهمية عظمى، ثم أخميم تقريبًا أمام سوهاج، وهي مدينة يسكنها عدد كبير من الأقباط، واشتهرت في الماضي بالمعابد التي اندثرت تمامًا حتى إننا اليوم نجد صعوبة في التعرف على مكانها.



(427) أطلال من أخميم

اليوم الحادى والعشرون:

يشمل اليوم الحادى والعشرون رحلة العودة من سوهاج إلى أسيوط.

ولا نجـــد في الطريق ما يلفت الانتباه. المدن الرئيسية التي نلمحها من النهر هي طهطا (Tahtha) وقـــاو الكبير (Gaou-el-Kébir) وأبو تيج (Aboutig) وفى أيام الحمله الفرنسية كان يوجد معبد عال جميل المظهر على شاطئ الماء بجوار قاو الكبير (أنتوبوليس Antoepolis القديمة). في عام ١٨٢٢ خلال فيضان قوي بعض الشيء سقط المعبد وجزء من القرية المحيطة به في النهر. وفي أسيوط (ليكوبوليس Lycopolis القديمة) على مسافة قريبة من المدينة توجد مقابر صخرية حفرت في الجبل. وترجع غالبًا إلى الأسرتين ١٢ و ١٣ (٣٠٠٠ عام ق-م)[٩٧] . عندما شاهدنا مدينة هابو والكرنك وإدفو وفيلة كان لا بد لزيارتها لمن لديه ولع خاص للآثار المصرية لا يمتلكه إلا علماء الآثار وحدهم.



(428) منازل على النيل فى أسيوط



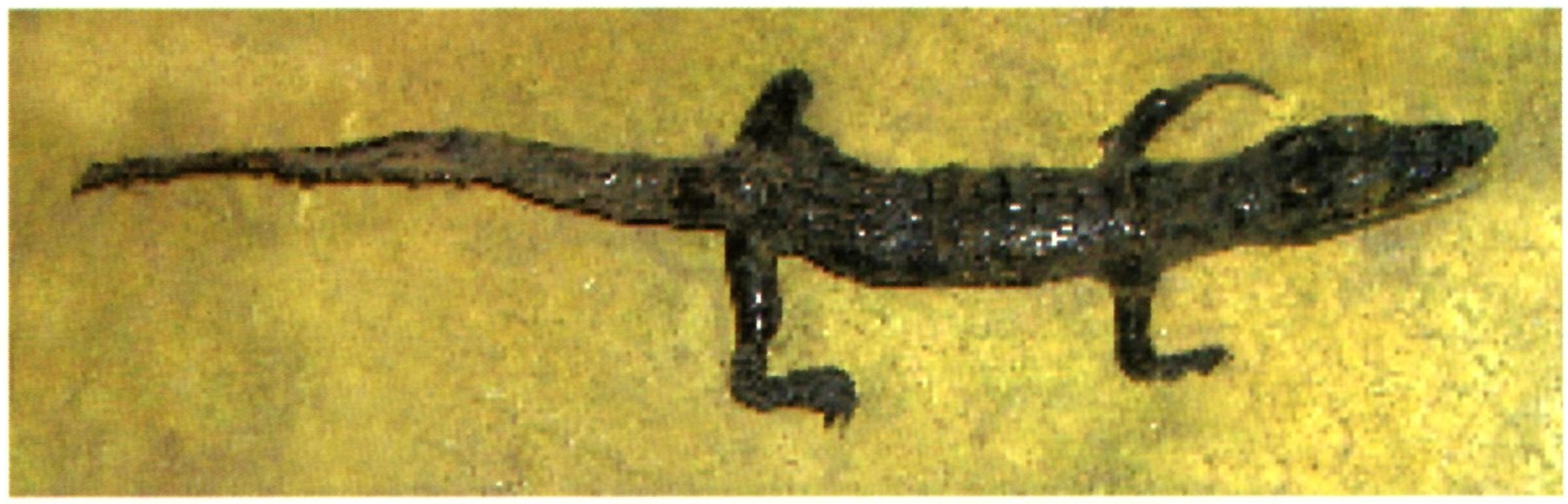
(429) مقابر صخرية فى الجبل

اليوم الثاني والعشرون:



(430) تمساح من النيل

يتضمن اليوم الثاني والعشرون رحلة العودة من أسيوط إلى المنيا. عندما ننتهي من الدوران المتكرر، والذي يفرضه النيل عندما نغادر أسيوط، نمر أمام منفلوط، وبعدها بكيلومترين نقابل جبال أبو فودة (Gebel-Abou-Fodeh) التي تقع عموديًا على النهر. توجد فوق هذه الجبال في الطرف الجنوبي، كهوف المعابدة (Maabdeh) المشهورة . ندخلها من خلال تصدع طبيعي كما ندخل المنزل من السقف، ونجد أنفسنا في مكان مليء تمامًا بتماسيح محنطة (مومياوات تماسيح). هذه المقبرة الخفية التي لم تستكشف حتى الآن، لم تقل كلمتها الأخيرة لاسيما أننا لا نعرف من أين يبدأ هذا السرداب، ولا نعرف إلى أين يتجه. تختلط بعض المومياوات البشرية مع مومياوات التماسيح، ومومياوات التماسيح بعضها مذهب من القدم حتى الرأس والبعض الآخر لُصقت مباشرة على جلدها بعض أوراق من الذهب قُطعت في شكل مربعات. ونستطيع أن نتساءل عندما ندخل مغارة معبده من أين جاءت هذه التماسيح التي لا تحصى، والتي كدست فيها بالآلاف. ومن النادر في الحقيقة أن نلمح في رحلة على النيل واحدًا أو اثنين من هذه الحيوانات البرمائية. والإجابة سهلة: أولًا كانت التماسيح أكثر انتشارًا مما هي عليه منذ بعض الوقت، وثانيًا كان جبل أبو فودة مكانًا مفضلاً لها. ولنفحص بعناية التصدعات المغمورة في النهر في المكان المحدد. غالبًا ما نجد فيه بعض التماسيح فاغرة فاهها. ونعتقد من بعيد أنها جذع شجرة اصطدم بصخرة. من جهة أخرى لو تذكرنا الوصف الذي قدمناه عن مقبرة تي (Ti) في سقارة سوف نرى أنه كان موجودًا قديمًا في منف ليس فحسب التمساح، ولكن أيضا فرس النهر نفسه؛ أي يكاد يكون أمام القاهرة. ويمكن أن نستنتج أن هذه الحيوانات كانت تلتقي في النيل أكثر بكثير منها اليوم. علاوة على ذلك، فإنه من المعروف أنه في زمن المؤرخ عبد اللطيف [البغدادي] (عام ١٢٠٠م) كان فرس النهر يعيش كذلك في فرع دمياط. وأمام هذا العدد الهائل من مومياوات التماسيح التي نلقاها ليس فحسب في المعابده (Maabdeh) ، ولكن في أجزاء مختلفة أخرى من مصر يجب أن نعترف أن النيل كان يغذي قديمًا عددًا هائلاً من هذه الحيوانات. فقد رأى شامبليون عندما مرّ أمام قنا ما يقرب من أربعة عشر تمساحًا مجتمعة « في مؤامرة » فوق جزيرة صغيرة. وإن كان مثل هذا الحظ السعيد لا يلقاه الآن أبدًا المسافر؛ فذلك لأن التمساح يتراجع باستمرار أكثر فأكثر نحو الجنوب أمام الأسلحة النارية وما تحدثه المراكب البخارية من ضوضاء، وعما قريب لن يعرف النيل التمساح حتى أسوان إلا في القصص. ويمكن كذلك أن نشير في طريقنا من أسيوط إلى المنيا إلى أطلال المدينة الواقعة على ضفة النهر اليمنى على بعد مسافة قليلة من قرية الحاج قنديل وتل العمارنة.



(431) تمساح محنط



وهناك توجد بعض المقابر الصخرية تذكرنا بكهوف بني- حسن مع أنها ترجع إلى عصر آخر؛ فهي ترجع إلى تلك الفترة التي مازالت غامضة للغاية، والتي في عهد ملك ربما كان مهووسا بفكره من الأسرة ١٨ سقطت فجأة الديانة المصرية في الشقاق[٩٨] . ونشير أيضًا إلى جبل الطير (Gebel–Teir) أو جبل الطيور الواقع عموديًا على النهر مثل جبل أبو فودة ولكنه أقل ارتفاعًا عنه. لا يوجد في جبل الطير كهف تماسيح مثل جبل أبـو فـــودة ولكن بـــــه دير (الأنبا بولا)، وفي هذا الدير رهبان أقباط إسكافيون [cordonniers dans leur état] ، والذين كان شاغلهم الشاغل المجئ لطلب الصدقة من المسافرين العابرين.

(432) تماسيح محنطة

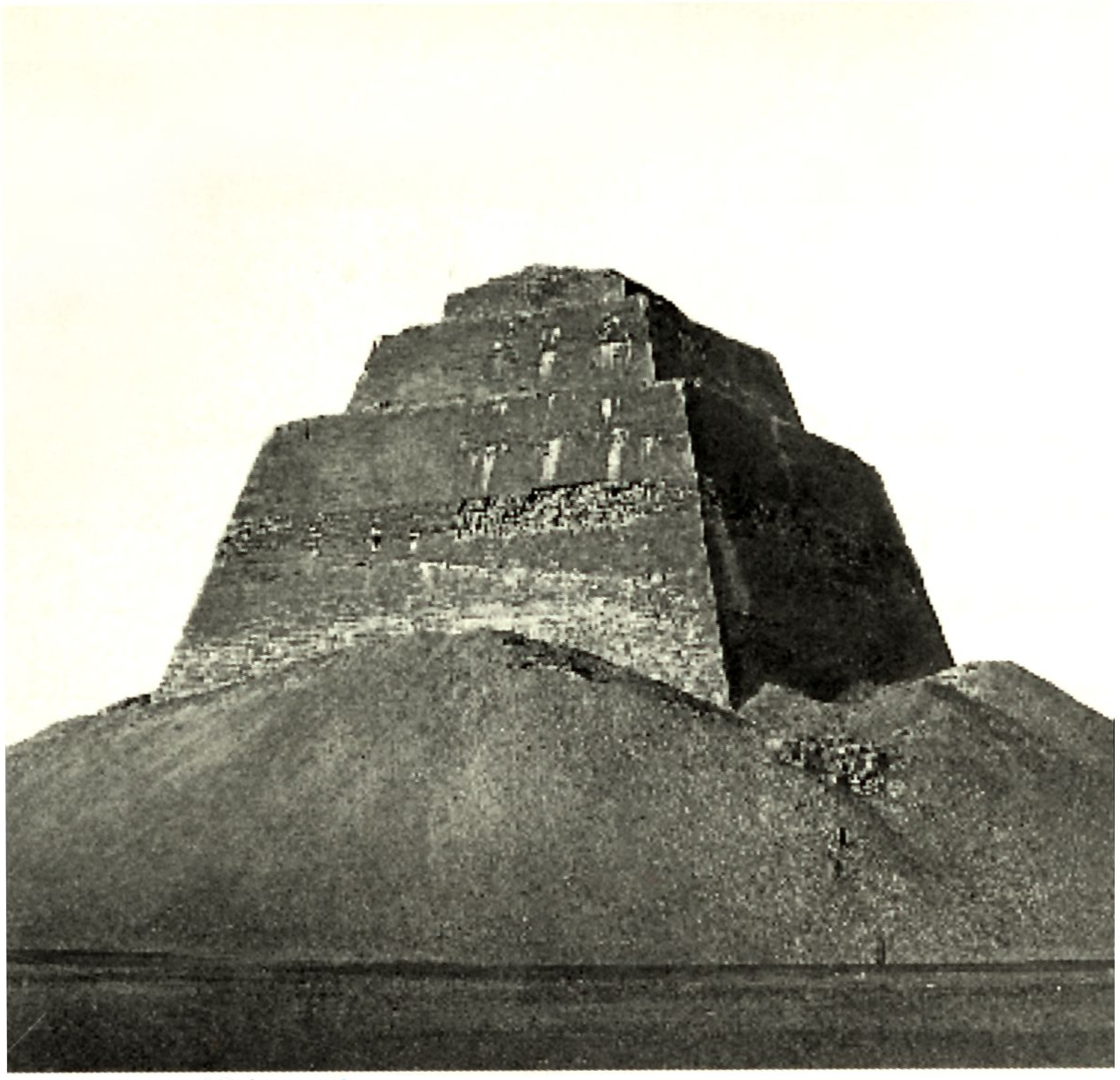


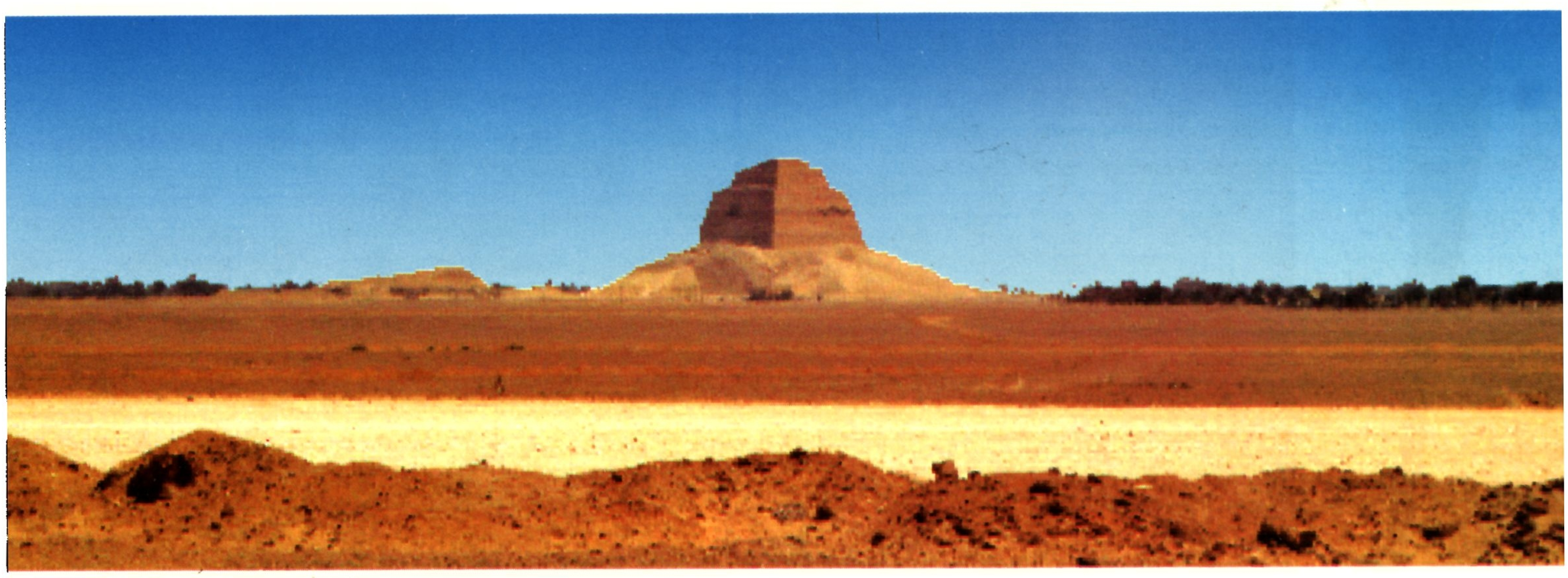
(433) مقابر صخرية على النيل

اليوم الثالث والعشرون:

يشمل اليوم الثالث والعشرون رحلة العودة من المنيا إلى البدرشين. نغادر المنيا في الصباح، ونمر ببني سويف دون التوقف، وبعد وسط النهار بقليل، وفي أغلب الأحيان نصل قبل المساء بوقت كافٍ لرسو السفينة أمام البدرشين. تصل بعض المراكب السريعة إلى بولاق في المساء نفسه.

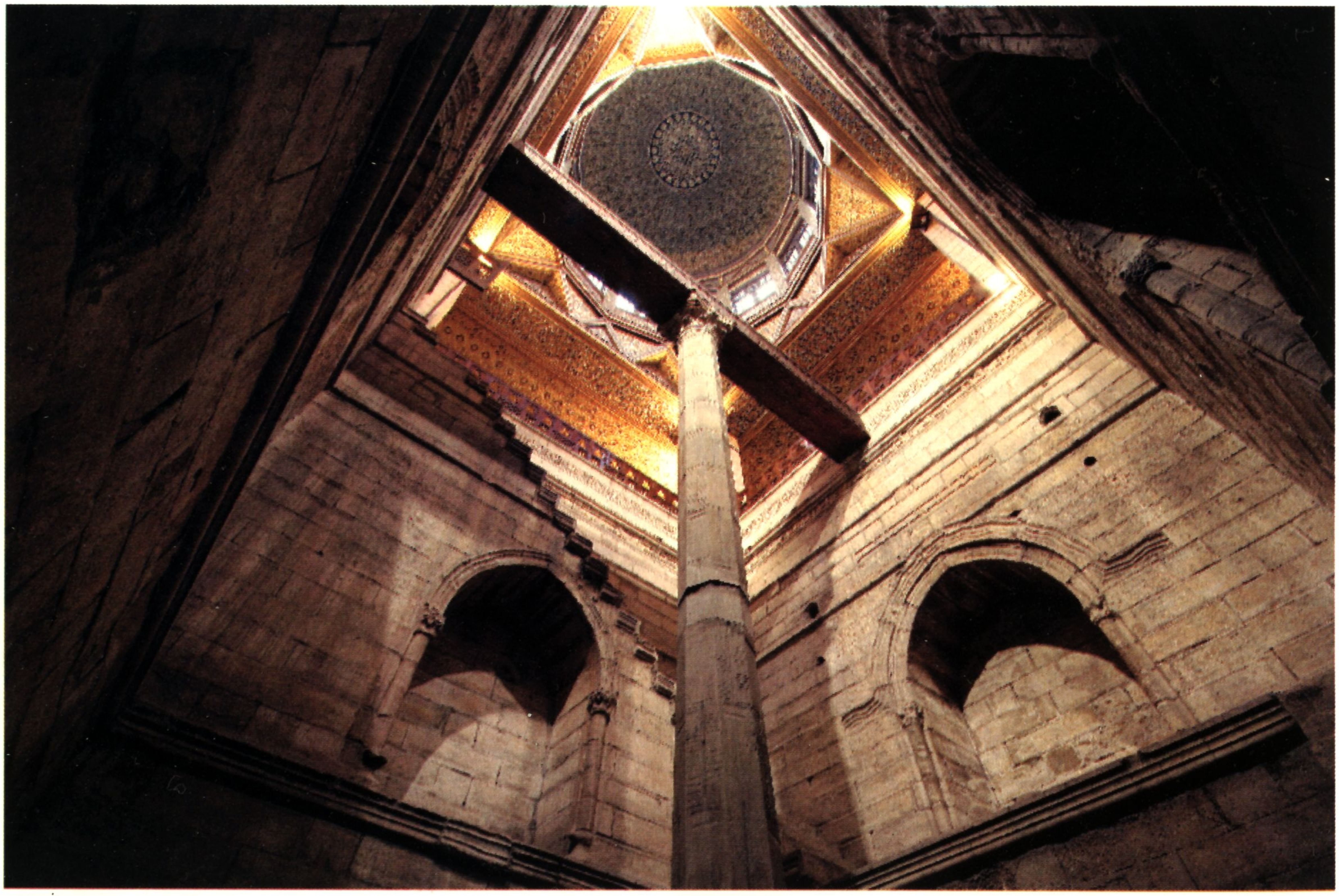
لا يعرض الطريق من المنيا إلى بني سويف على المسافر أي مكان جدير بأن يلتفت إليه النظر. بعد بني سويف بقليل، نلاحظ في الشمال على قمة ربوة لونها أصفر هرمًا نادرًا. لقد أصبحت الآن ذكريات الملوك تحتمس ورمسيس والبطالمة والقياصرة بعيدة جدًا. وتبدأ منطقة الأهرامات، وندخل مع هذه الآثار العملاقة في زمن التاريخ المصري الذي يبعد عنا كثيرًا، وكأنه ينتمي إلى عالم آخر لا يوجد في الدنيا ما يمكن أن يقارن به. هرم ميدوم[٩٩] (Pyramide de Meydon) هو اسم الأثر الذي نراه عن بعد. لقد أشرنا توًّا إلى شكله النادر، وله خاصية أخرى؛ فهو لم يفتح[١٠٠] على الأقل في الزمن الحديث.


(434) هرم ميدوم


(435) هرم ميدوم على قمة ربوة

اليوم الرابع والعشرون:

نصل من البدرشين إلى القاهرة بعد ساعة ونصف، وتعلن حركة عدد كبير من المراكب على النهر عن قرب العاصمة. بعد قليل تُظهر جزيرة الروضة المقياس النيلي وقصورها بألوانها الجذابة، بعد بضع لحظات نجد أنفسنا في بولاق، وتنتهي الرحلة النيلية.



(436) مقياس النيل بالروضة

الهوامش

(١) شُيِّد سنة ٢١ هجرية، وهو رابع مسجد في العالم الإسلامي بعد مساجد المدينة المنورة والبصرة (١٤ هجرية) والكوفة (١٧هجرية).

(٢) حاليًا ميت رهينة مركز البدرشين محافظة الجيزة.

(٣) ثالث مئذنة في العالم (٨١،٦٠ م) بعد القيروان (١٠٣م) ومحمد علي (٨٦ م).

(٤) رابع قبة أنشئت في مصر في العصر الإسلامي، وكانت في الأصل من الخشب، ولكنها سقطت نتيجة زلزال، وقام الوالي إبراهيم باشا بإعادة بنائها عام ١٠٧٢ هجرية.

(٥) ارتفاع كل من المئذنتين ٨٤ مترًا، ونجد مثلهما في المآذن العثمانية.

(٦) أوسرتسن هي قراءة علماء المصريات الأوائل للاسم " سنوسرت"، والمقصود هنا الملك سنوسرت الأول ثاني ملوك الأسرة ١٢ (حكم حوالي عام ١٩٥٠ ق.م) .

(٧) هي مجرد كسوة من البرونز للقمة الهرمية كان المصريون يغطون بها قمم المسلات لكي تتلألأ باللون الذهبي رمز لون أشعة الشمس؛ لأن المسلة كانت رمزًا لإله الشمس – راجع عبد المنعم عبد الحليم سيد "المسلات في مصر الفرعونية"، بحث نشر في مجلة المؤرخ العربي في مارس ١٩٩٨ – العدد السادس المجلد الأول من ص ١٢إلى ص ١٦ .

(٨) هو الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في العصر الأيوبي ووصف آثارها في كتابه :

" الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ".

(٩) هذا الحجر رغم أنه وجد في بلدة صان الحجر في عام ١٨٦٦ وحمل اسمها في أول الأمر، لكنه يعرف اليوم بحجر كانوب نسبة إلى مدينة كانوب (أبوقير) التي اجتمع فيها الكهنة المصريون في عام ٢٣٨ قبل الميلاد في عهد الملك بطليموس الثالث، وأصدروا قرارًا بتمجيد هذا الملك لما قدمه لهم من امتيازات وإعفاءات من الضرائب ، وسجلوا قرارهم باللغة المصرية القديمة بخطيها الهيروغليفي والديموطيقي وباللغة والكتابة اليونانية: فهو على غرار حجر رشيد وإن كان يسبقه بحوالي اثنين وأربعين عامًا: لأن حجر رشيد دُوِّن في عصر الملك بطليموس الخامس عام ١٩٦ ق.م، وقد حسمت نصوص حجر كانوب الجدل بين علماء المصريات بشأن مدى مصداقيه تفسير شامبليون لرموز حجر رشيد: إذ أقنعتهم نصوص حجر كانوب بصحة النتائج التي توصل إليها شامبليون.

(١٠) سيزوستريس هو الاسم اليوناني للملك المصري سنوسرت الأول ثاني ملوك الأسرة ١٢.

(١١) بوبستس اسمها الآن تل بسطة، وهي حي من أحياء مدينة الزقازيق.

(١٢) ثبت من الحفائر التي تمت في الأربعينيات من القرن الماضي أن الذي حفر هذه القناة لأول مرة هو الملك الفارسي دارا الأول ؛ حيث عثر على لوحات مدونة باللغة المصرية (بالخط الهيروغليفي) على أوجه اللوحات وعلى ظهرها باللغة الفارسية بالكتابة المسمارية، وبذلك انتهى نسبة حفرها إلى أحد الفراعنة المسمى سيزوستريس، وهي رواية الكتاب اليوناني. والاسم سيزوستريس، هنا يشير إلى سنوسرت الأول الذي حفر قناة تمتد من النيل إلى المنطقة المسماة حاليًا تل المسخوطة تنقل المياه العذبة إلى معبد ومدينة الإله آتوم المسماة في التوراة « بيثوم » لري أراضي هذا المعبد.

(١٣) أما أعمال كل من تراجان وهادريان من الأباطرة الرومان ، وكذلك عمرو بن العاص فهي إعادة حفر هذه القناة بعد أن ردمتها الرمال بفعل الرياح.

(١٤) تل الفرما من المواقع الأثرية المتميزة تتبع حضاريًا سيناء وإداريًا محافظة بور سعيد (انظر دكتور عبد الحليم نور الدين: مواقع ومتاحف الآثار المصرية) .

(١٥) المقصود هنا قناة السويس الجديدة التي تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر.

(١٦) المقصود شارع الخليج ، ومكانه اليوم شارع بور سعيد، وترجع تسمية الخليج إلى خليج أمير المؤمنين .

(١٧) بابيلون هو الاسم الروماني لهذه المنطقة، وهو محرف عن اسم مصري قديم.

(١٨) كنيسة أبو سرجة بقصر الشمع بجوار الكنيسة المعلقة.

(١٩) يؤكد صاحب النسخة المترجمة بخط يده أن الوصول إلى بني سويف كان في حوالي الساعة ٢ صباحًا والسفر منها كان في الساعة ٨ صباحًا.

(٢٠) لا يمكن للسخرة أن تؤدي إلى مثل هذا الإبداع.

(٢١) يقصد المؤلف أن فتحاته الخارجية أغلقت بعد دفن الملك؛ لأن كل هرم له مدخل في الجهة الشمالية.

(٢٢) ربما يشير المؤلف إلى محاولات بعض العلماء إثبات أن الهرم مرصد فلكي، وهو ينفي ذلك ورأيه هو الصحيح بأن الهرم مجرد مقبرة ملكية وليس شيئًا آخر.

(٢٣) لكل هرم مجموعة هرمية أبرزها المعبدان: الجنزي والوادي والطريق الذي يربط بينهما (الطريق الصاعد).

(٢٤) يسمى الآن المعبد الجنزي.

(٢٥) ليس هناك دليل على ذلك، وهناك حديث حول الخليفة المأمون.

(٢٦) يبدو أن هذه المعلومة الخاطئة هي التي كانت سائدة في عصر ماربيت؛ لأنه ثبت أن الذي قام بعمل هذه الفتحة هو الخليفة العباسي المأمون عندما جاء إلى مصر لإخماد ثورة، وذلك طبقًا لرواية المؤرخ عبد اللطيف البغدادي.

(٢٧) ثبت من الدراسات اللاحقة التي قام بها سليم حسن في الأربعينيات من القرن الماضي أن وجه أبو الهول يمثل ملامح الملك خفرع، وعلى هذا لم يكن التمثال موجودًا في عهد الملك خوفو.

(٢٨) حرماخيس : هو التحوير اليوناني للكلمة المصرية حور- إم- آخت أي "حورس في الأفق"، وهي التسمية التي أطلقها المصريون على تمثال أبي الهول.

(٢٩) ثبت فيما بعد أن هذا المبنى هو معبد الوادي الخاص بهرم خفرع؛ إذ كان يتبع كل هرم معبدان ، أحدهما المعبد الجنزي الذي يلاصق الواجهة الشرقية للهرم، وقد وجدت بقايا هذا المعبد الآن شرق هرم خفرع والآخر معبد الوادي الذي كان يعد مدخلًا للمجموعة الهرمية الخاصة بخفرع وكان يربط بينهما طريق صاعد يبلغ طوله ٥٠٠ متر، وما زالت أرضية هذا الطريق باقية حتى الآن .

(٣٠) الدولة القديمة المصرية تشمل الأسرات من الأولى إلى الثامنة، وتمتد من حوالي عام٣١٠٠ ق.م إلى عام ٢١٨١ ق.م.

(٣١) انتهت عام ٣٣٢ ق.م بدخول الإسكندر الأكبر.

(٣٢) هو الإمبراطور ثيودوسوس البيزنطي الذي أعلن أن الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة ، وبذلك انتهت الديانات الوثنية من الإمبراطورية البيزنطية.وهو الذي دمر منف أقدم العواصم المصرية .

(٣٣) مانيتون : مؤرخ مصري من سمنود أعد كتابًا عن تاريخ مصر في عهد بطليموس الثاني حرق في حريق مكتبة الإسكندرية. تقسيم مانيتون يقوم على أساس أسرات وتقسيم علماء المصريات بعد فك رموز حجر رشيد يقوم على أساس عصور.

(٣٤) بعد ظهور الكثير من الاكتشافات الأثرية والدراسات طوال الفترة التي تلت نشر هذا الدليل اتضح أن الدولة القديمة تشمل طبقا لآخر تقسيم اتفق عليه علماء الآثار المصرية الأسرات من ١ إلى ٨. بالنسبة للتقسيمات الحديثة انظر عبد الحليم نور الدين : تاريخ وحضارة مصر القديمة – القاهرة، ٢٠٠٥ ص١٧، ٣٤ ، ٤٨٥ وما بعدها.

(٣٥) بلغ فن العمارة والنحت درجة عالية من الإتقان في عصر الدولة القديمة.

(٣٦) يطلق مصطلح العصور المتأخرة أو بالتحديد العصر المتأخر في الوقت الحاضر على الأسرات من الحادية والعشرين حتى الثلاثين حين غزا الإسكندر الأكبر مصر، ثم عصر البطالمة الذي أعقب غزو الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م ثم العصر الروماني ابتداء من سنة ٣٠ ق.م، والذي أعقبه العصر البيزنطي الذي انتهى بفتح العرب لمصر عام ٦٤١.

(٣٧) كان هذا التمثال من الجرانيت وليس من الحجر الجيري، وكان يتصدر واجهة أحد المعابد التي شيدها رمسيس الثاني في منف، وهو الذي نُقل من منف إلى ميدان رمسيس بالقاهرة، وتم نقله من جديد عام ٢٠٠٦ إلى مدخل المتحف الكبير على الطريق الصحراوي بين مصر والإسكندرية .

(٣٨) مقبرة زوسر (الهرم المدرج) شيدت بأسلوب الإضافات الجانبية لنواة وليس بأسلوب الطبقات التي تعلو بعضها البعض.

(٣٩) المعروف الآن أن الهرم المدرج يرجع لبداية الأسرة الثالثة وليس الأسرة الأولى، وقد شيده الملك زوسر، والاسم الذي ذكره ماربيت هو التحريف اليوناني للاسم.

(٤٠) الهرم المدرج هو أقدم أثر في العالم شيد كله من الحجر، وليس أقدم أثر على الإطلاق؛ لأنه سبقه مقابر ملوك الأسرتين الأولى والثانية في سقارة وأبيدوس.

(٤١) هناك جبانة منف التي تمتد من أبورواش شمالاً إلى ميدوم جنوبيًا. (عبد الحليم نور الدين : مواقع متاحف الآثار المصرية).

(٤٢) طبقًا للمعلومات الحديثة، فإن آخر ملوك الأسرة ٢٥ هو الملك تانوت أمون خليفة الملك طهارقة.

(٤٣) بعد الترميمات المتوالية أصبح في الإمكان الآن الوصول إلى أعماق سراديبز أبيس.

(٤٤) مع أن قمبيز هو ملك فارسي غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م بعد أن هزم الملك المصري بسماتيك الثالث وأسقط بذلك دولة الفراعنة، إلا أن المؤرخ المصري مانِدتون وضعه ضمن ملوك الأسرة السابعة والعشرين، وذلك في تقسيمه لتاريخ مصر الفرعونية إلى أسرات ملكية تبدأ بالأسرة الأولى، وتنتهي بالأسرة الثلاثين.

(٤٥) يعتبر المؤرخون خباشًا ملكًا مصريًا في أثناء حكم الفرس، وحكم لفترة قصيرة استرد الفرس بعدها سيطرتهم.

(٤٦) تشذ مقبرة تي باستثناء نادر جدًا على هذه القاعدة؛ فكما نرى فإن البئر في وسط الفناء ليست عمودية؛ فهي مائلة مثل ممر الهرم، ولكن بنفس الأسلوب فإن الممر المائل قد امتلأ عن آخره بكتل بالحجارة، والمقبرة من الحجر الجيري وليس بها أية نقوش.

(٤٧) بعض مقابر بني حسن من الدولة القديمة، ومن الأسرة ١١ كذلك وهي مقابر منقوشة في الصخر لذلك أسموها كهوفًا.

(٤٨) ليس هناك آثار للعامو حتى يمكن مقارنتها بآثار صان الحجر ولا دليل على وجود للآسيويين في صان الحجر.

(٤٩) ست مقاصير لآلهة والمقصورة السابعة للملك سيتي الأول نفسه.

(٥٠) لعل المقصود هنا هو الأوزيرون الذي يعد بمثابة ضريح للإله أوزير، والذي يقع خلف المعبد بتفاصيله المعمارية.

(٥١) عثر في كوم السلطان على التمثال الوحيد للملك خوفو، وهو تمثال صغير من العاج لا يزيد ارتفاعه عن ٦ سم.

(٥٢) طبقا للتاريخ الحديث تبدأ الدولة القديمة بالأسرة الأولى عام ٣١٠٠ ق.م وتنتهي حوالي٢١٨١ (انظر عبد الحليم نور الدين:المرجع السابق). ترجع مقابر جبانة أبيدوس للأسرة الأولى وتستمر حتى نهاية الدولة الحديثة.

(٥٣) هناك أدلة أثرية ولغوية على أن اللبنات الأولى لبناء المعبد بدأت في الدولة القديمة، واستمرت الإضافات طوال العصور الفرعونية.

(٥٤) هذه السراديب التي تعرف باسم القبو أو crypte ليست سوى أماكن سرية تحت الأرض لحفظ الرموز المقدسة للإلهة حاتور الإلهة الرئيسية في المعبد.

(٥٥) شيد الصرح في عهد الملك رمسيس الثاني.

(٥٦) هناك أدلة أثرية على أن الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة هو الذي بدأ بناء هذه الصالة.

(٥٧) هكذا كانت تتمنى الملكة حتشبسوت، لكن هذا لم يحدث في الواقع.

(٥٨) يقع المعبد تحت مستوى السهل بحوالي ١,٩٠ متر، مع ذلك من الصعب قبول هذا الرأي، فقد شيدت المعابد بدقة متناهية، وتمكنت من أن تواجه عوادي الزمن وعبث الإنسان ، لكن لابد أن نضع في الاعتبار طول المدة الزمنية وكثرت الكوارث الطبيعية (زلزال- سيول - فيضانات).

(٥٩) مقابر الملوك في وادي الملوك.

(٦٠) يرجح أن التمثال سقط نتيجة لزلزال ربما حدث في القرن الأول الميلادي.

(٦١) هما تمثالان للملك أمنحتب الثالث أحد أشهر ملوك الأسرة ١٨ كانا يتصدران واجهة المعبد الذي دمر بأكمله تقريبًا على ممر العصور.

(٦٢) قال Eusèbe للقمان الحكيم Thebae Aegypti usque ad diratae sunt أي« سوف تنهار طيبة في مصر حتى الأرض».

إذا كان هذا الزلزال بهذه الدرجة من القوة يمكن أن نرجع له انهيار الصرح الذي تثير آثاره المتراكمة إحساسًا مؤلمًا عندما ندخل فناء الكرنك الكبير، ولكن تآكل أساسات الجدران ترجع أكثر ترجيحًا إلى النترات الذى أدى إلى انهيار معبد الكرنك.

(٦٣) اشتق اسم معبد " هابو " من اسم المهندس " أمنحتب ابن حبو " مهندس الملك أمنحتب الثالث الذي نال قدسية في هذه المنطقة فارتبط اسمه بالمعبد.

(٦٤) ليس هذا موقع القصر، وإنما ما وصفه الكاتب، والذي يمثل مدخل المعبد هو ما يعرف بالبرج السوري (المجدل) الذي يمثل العمارة العسكرية السورية التي شاهدها الجيش المصري في حروبه في هذه البلاد. أما القصر فيقع إلى الجنوب من البرج الجنوبي من الصرح بعد الفناء المكشوف الذي يلي البرج السوري.

(٦٥) هؤلاء هن بعض حريم الملك رمسيس الثالث يجلس معهن يداعبهن ويلاطفهن ... وهو تقليد لم نره من قبل إلا في عهد إخناتون حيث يُظهر الملك قدرًا من حياته الخاصة.

(٦٦) كوش هي إحدى الممالك القوية التي قامت في الجنوب (في السودان)، والتي كانت تناوئ مصر في بعض الأحيان.

(٦٧) فينقيا هي بلاد لبنان الحالية.

(٦٨) إحدى القبائل الليبية.

(٦٩) هو رمز لعيد الحصاد.

(٧٠) تم العثور في الحجرة الواقعة في الركن الشمالي الغربي على ما يقرب من ألف تمثال صغير عند رفع أحجار الأرضية تمثل في معظمها أوزوريس، وكلها تقريبًا مشوهة عند القدمين. ولا نجد في ذلك إلا دليلًا آخر على عادة تطهير المكان عند بدء بناء المعبد بنثر تماثيل آلهة مخبأة في التراب.

(٧١) الأعوام ٥ ، ٨ ، ١١.

(٧٢) كان بمثابة استراحة ملكية يستخدمها الملك عند زيارته للمعبد لتقديم الطقوس للآلهة وللمشاركة في الاحتفالات في الأعياد الدينية.

(٧٣) هناك مقابر من الأسرة ٢٠ كذلك.

(٧٤) ربما المقصود مقبرة " منتومحات " حاكم طيبة في الأسرة ٢٥.

(٧٥) تحتمس الثالث هو ابن زوجها تحتمس الثاني.

(٧٦) جُلب هذا الحجر من محاجر طرة.

(٧٧) بلاد بونت: هي التي يُرجح أنها في الصومال حاليًا، وكانت تعرف بأفضل أنواع البخور التي تحتاجها المعابد المصرية في الطقوس الدينية. تبرز مناظر الرحلة استقبال أمير بونت وزوجته لمبعوث الملكة حتشبسوت، وتبدو أكوام البخور التي ستحملها السفن المصرية. والأكوام هي البخور والأشجار، أشجار بخور نقلت إلى مصر لزراعتها في حديقة المعبد. والأشخاص الرئيسيون يمثلون رئيس البعثة الموفدة من قبل حتشبسوت وأمير بلاد بونت وزوجته.

(٧٨) ربما يشير الكاتب إلى منظر نقل المسلتين من المحجر الشرقي في أسوان إلى معبد الكرنك عبر نهر النيل.

(٧٩) وهناك مقابر الأسرة ١٨.

(٨٠) انظر صفحتى ٨٣ و٨٤ بشأن المقابر الداخلية .

(٨١) أول الملوك الذين نقروا مقابرهم في وادي الملوك هو تحتمس الأول من ملوك الأسرة ١٨ .

(٨٢) آخر ملوك الأسرة ١٨ هو الملك حور محب.

(٨٣) بلزوني إيطالي الجنسية هو الذي كشف عن المقبرة. لم يكن عالم آثار، ولكنه كان أحد المغامرين الذين نبشوا ودمروا الكثير من الآثار المصرية.

(٨٤) يتحدث الكاتب عن الكتب الدينية المسجلة على السطوح الداخلية للمقابر، والتي من بينها كتاب البوابات، ما في العالم الآخر ...إلخ.

(٨٥) ميدان في باريس صممه لوفوا (Louvois) ليوضع عليه تمثال لويس الرابع عشر على فرسه، ولكن أقام نابليون عليه عمودًا مثل عمود ترجان في روما من البرنز. شيد تخليدًا لذكرى انتصار الجيش العظيم، ولكنه هدم عام ١٨٧١، وأعيد بناؤه من جديد في عام ١٨٧٤، وتم وضع تمثال الإمبراطور لابسًا الريدنجوت عليه. يقع الميدان قرب (rue de la Paix) شارع السلام ، ويوجد في ميدان فاندوم أكبر محال الجواهر في باريس.

(٨٦) الذي يستعمل في التفجير حديثًا.

(٨٧) استخدم الكاتب هذا الاصطلاح اليوناني لكي يشير إلى معبد شيد في عهد الملك حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨.

(٨٨) هذه مبالغة: فالفن المصري نحتًا ونقشًا ورسمًا وصل إلى القمة في بعض العصور من الناحية الجمالية، ويصعب المقارنة بين الفن المصري واليوناني لاختلاف الدوافع المحركة لكل من الفنين.

(٨٩) المعبد فريد في طرازه: إذ إنه يجمع بين معبدين في إطار مكاني واحد معبرًا عن وجود ثالوثين من الآلهة متصارعين كان لابد من الفصل بينهما ثالوث على رأسه سبك (إله الشر) ومعه حاتحور وخونسو حور – والثاني على رأسه حور– ور (إله الخير) ومعه تاسنت نفرت وبا إن تاوي.

(٩٠) المقصود فيما يبدو مقابر النبلاء (قبة الهواء)، والتي تخص بعضها بعض حكام أسوان، وهي مقابر منقورة في الصخر تؤرخ لعصر الدولتين القديمة والوسطى.

(٩١) ربما يقصد معبد الإلهة إيزيس الواقع شرق النيل .

(٩٢) المحجر الشرقي بأسوان يضم المسلة الناقصة التي لم ينته العمل فيها نظرًا لحدوث شروخ أثناء قطعها من محجر الجرانيت الوردي، ويصعب تأريخ المسلة.

(٩٣) مجموعة معابد فيله نقلت إلى جزيرة أجيليكا بعد أن غرقت جزيرة فيلة بعد بناء السد العالي، وكانت تغرق جزئيًا بعد بناء خزان أسوان.

(٩٤) هذا المعبد شيد في عهد الملك أمنحتب الثالث الأسرة ١٨، وكرسه لعبادة الإلهة نخبت إلهة الوجه القبلي قبل الوحدة.

(٩٥) هذه أسوار المدينة القديمة.

(٩٦) أرمنت (Iwn-Mnt) كانت مركز عبادة الإله مونتو إله الحرب وإحدى قرى الإقليم الرابع من أقاليم مصر العليا إقليم (واست).

(٩٧) يقصد المقابر الصخرية في تل العمارنة، والتي تخص عهد الملك أخناتون (أسرة ١٨) الذي نادى بالوحدانية (عبادة الإله الواحد آتون).

(٩٨) ميدوم قرية صغيرة تتبع مركز الواسطى محافظة بني سويف.

(٩٩) فتح الهرم وصاحبه هو الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة وأكمله الملك سنفور.

فهرس الصور

رقم الصورة	الصفحة فى الترجمة العربية	الصفحة فى الأصل الفرنسي	وصف الصورة
76	57	27	بوابة عمرو بن العاص بمصر القديمة
77	58	27	سور مصر القديمة، وتظهر الكنيسة المعلقة في الخلف
78	58	27	حصن بابيلون وكنائس قصر الشمع
79	59	28	كنيسة سان جورج
80	59	28	شارع بقصر الشمع
81	59	28	كنيسة أبو سرجة
82	59	28	لوحة جدارية باللغتين القبطية والعربية
83	59	28	جامع وقبة بجبانة قايتبياى
84	60	28	جبانة قايتبياى
85	60	29	الغابة المتحجرة
86	61	30	الأسواق
87	62	30	زخارف عربية على خشب ملون
88	62	30	حمام بأحد قصور القاهرة
89	63	32	المركب (الذهبية) لرحلة ضيوف الخديوى على النيل
90	64	38	زوار يتسلقون الهرم
91	67	38	الأهرامات الثلاثة فى الجيزة :خوفو وخفرع ومنكاورع
92	67	38	مياة فيضان تصل إلى قرب الاهرامات الثلاثة
93	68	40	هرم منكاورع
94	69	41	رحلة الضيوف لزيارة الأهرام وأبى الهول (لوحة لريو)(١٨٦٩)
95	69	41	هرم خفرع
96	69	41	أبو الهول والمعبد
97	70	45	تمثال خفرع بالمتحف المصرى
98	70	45	الملك رمسيس الثاني
99	71	45	الملك منتحوتب الثاني
100	71	45	الملكة حتشبسوت
101	72	45	الملك منكاورع مع الإلهة حاتحور ورمز أحد الأقاليم
102	73	48	الطريق إلى البدرشين
103	73	49	النخيل فى سقارة
104	73	49	جبانة أبو صير
105	74	50	مقبرة الملك زوسر(الهرم المدرج)
106	74	50	مدخل السيرابيوم
107	75	51	جزء من مصطبة بسقارة
108	75	51	العجل أبيس
109	75	51	الآلهة أبيس وأوزيريس وبتاح
110	76	52	أبو الهول أمام السيرابيوم
111	76	52	ماريت أمام مقبرة فى السيرابيوم
112	76	52	سراديب بالسيرابيوم
113	77	53	تابوت من الجرانيت فى السيرابيوم

رقم الصورة	الصفحة فى الترجمة العربية	الصفحة فى الأصل الفرنسي	وصف الصورة
224	136	98	معبد القرنة على حافة الصحراء وعند مدخل الجبل
225	137	98	لوحة تذكارية لمعبد القرنة
226	137	99	مناظر أداء طقوس أمام الآلهة
227	137	99	تقديم طقوس أمام الآلهة
228	138	99	الملك يقدم القرابين لبعض الآلهة
229	138	99	تقديم قربان للإلهة مسخنت إلهة الولادة
230	139	99	نقوش بمعبد القرنة
231	139	99	رأس سيتي الأول
232	140	99	منازل بعض قرى القرنة
233	141	99	معبد الرمسيوم
234	141	99	تفاصيل من معبد الرمسيوم
235	142	100	إحدى صالات معبد الرمسيوم
236	142	99	خرطوش يضم اسم رمسيس الثاني
237	142	100	الإله آمون والإلهة موت
238	143	101	صرح معبد الرمسيوم
239	143	102	الملك يعتلي عجلته الحربية
240	144	102	الملك وهو جالس على عرشه والأعداء يتوسلون إليه
241	144	102	الأسرى بعد معركة قادش
242	145	103	معركة قادش
243	145	103	تماثيل لرمسيس الثاني في هيئة أوزورية
244	146	104	قدما تمثال لرمسيس الثاني
245	146	104	خرطوش لرمسيس الثاني
246	146	104	كتل من تمثال رمسيس الثاني
247	146	104	أجزاء تمثال رمسيس الثاني، ويقدر وزن التمثال بألف طن
248	147	104	معركة قادش بالقرب من نهر العاصي
249	148	105	إنقاذ الغرقى في المعركة البحرية
250	148	105	رمسيس الثاني في حضرة ثالوث طيبة
251	148	106	تمثالاً ممنون لأمنحتب الثالث
252	149	106	أحد تمثالي ممنون
253	150	107	الملكة تي زوجة أمنحتب الثالث
254	151	107	نقوش على قاعدة التمثال
255	151	108	تمثالا ممنون (من كتاب وصف مصر)
256	152	109	شهادات الإعجاب على ساق التمثال
257	135	110	مدخل المعبد البطلمي بدير المدينة
258	153	110	مدخل صالة معبد الدير المدينة
259	154	111	النافذة المفتوحة في الجدار الجنوبي

رقم الصورة	الصفحة فى الترجمة العربية	الصفحة فى الأصل الفرنسي	وصف الصورة
260	154	111	مركب الإله سوكر
261	154	111	مجموعة الآلهة والإلهات داخل المعبد
262	155	111	قرية بالقرب من هابو
263	155	111	آثار من القرية القبطية بمدينة هابو
264	155	111	أطلال معبد هابو
265	156	112	تاج عمود
266	156	112	معبد تحتمس الثاني
267	156	112	أجزاء من معبد تحتمس الثاني
268	157	113	معبد تحتمس الثاني
269	158	113	الفناء والصرح الأول في معبد هابو
270	158	114	نافذة يطل منها الملك على الاحتفالات في الصالة الرئيسية
271	159	114	العناصر المعمارية للقصر
272	159	114	الصرح ناحية الجنوب حيث رمسيس الثالث فى رحلة صيد
273	159	114	رءوس أسرى تحمل الشرفات جدران الصالة الرئيسية
274	160	115	تقديم الأسرى وحصر عدد القتلى من الأعداء
275	161	116	أسرى من الشعوب الخاضعة لمصر
276	161	116	أجناس الأسرى وملامحهم المميزة
277	161	116	الشعوب المنهزمة مُكبلة
278	162	116	شعوب البحر بغطاء الرأس المميزة
279	162	116	الأعداء بملامحهم المميزة
280	163	117	الملك يضرب بمقمعته مجموعة من الأسرى
281	163	117	أمون يحمل سيف المعركة
282	164	118	تماثيل الملك مُتخذًا الصورة الأوزورية
283	164	118	فناء الصرح الثاني في معبد هابو
284	165	118	رمسيس الثالث يقدم الأسرى لأمون وموت
285	166	119	نصوص هيروغليفية لإحدى معارك رمسيس الثالث
286	166	119	تفاصيل من نصوص هيروغليفية لإحدى معارك رمسيس الثالث
287	167	120	نقوش صالة الأعمدة بمعبد هابو
288	168	121	عودة الملك منتصرًا وتقديم الأسرى من الأجانب
289	168	121	رمسيس الثالث يتلقى بيانًا بعدد القتلى من الأعداء
290	169	123	رمسيس الثالث محمولاً على محفة في إحدى الاحتفالات
291	170	124	الملك يستعرض أحد المواكب
292	171	124	رمسيس الثالث يقدم قربانًا للإله أمون
293	171	124	موكب القوارب المقدسة
294	172	125	معبد تحتمس الأول قبل الترميم
295	172	126	الجدار الشمالي حيث سجلت المعركة البحرية

رقم الصورة	الصفحة فى الترجمة العربية	الصفحة فى الأصل الفرنسي	وصف الصورة
296	173	126	الملك يرمي السهام فى المعركة البحرية
297	173	127	رمسيس يرجع إلي الوراء يهاجم من جاءوا عن طريق البحر
298	174	127	المعركة البحرية – من كتاب وصف مصر (١)
299	174	127	المعركة البحرية الجدار الشمالي لمعبد هابو
300	175	127	المعركة البحرية – من كتاب وصف مصر (٢)
301	175	128	تقديم الأسرى للملك
302	176	128	إحصاء القتلى من خلال أكف الأيدى
303	176	128	الصالة الاخيرة
304	176	129	المُجدل السورى
305	176	131	واجهة معبد هابو
306	177	136	إحدى جبانات القرنة – غرب الأقصر
307	178	137	معبد الدير البحرى
308	179	137	خرطوش باسم من اسماء حتشبسوت
309	180	137	الملكة حتشبسوت في شكل أوزيرى
310	180	137	نصوص من معبد الدير البحرى
311	181	137	الملكة حتشبسوت
312	181	138	مجموعة من الجنود وهم يحملون أغصان الزيتون
313	181	139	السفن المتجهة إلي بلاد بونت
314	182	139	وضع اكوام البخور من بلاد بونت
315	182	139	أشجار البخور من بلاد بونت
316	183	139	السفن القادمة من بلاد بونت
317	183	140	جنود في استقبال بعثة بلاد بونت
318	183	140	جندى يحمل غصن الزيتون
319	184	140	الملكة حتشيبسوت فى رحاب الالهة حاتحور
320	184	140	نجوم السماء وقرص الشمس المجنح
321	184	140	تاج عمود حتحورى
322	185	141	مدخل جبانة وادى الملوك
323	186	141	مدخل مقبرة رمسيس الثالث
324	187	144	مناظر فلكية في إحدى المقابر
325	187	144	مناظر فلكية فى سقف المقبرة
326	187	144	مناظر دينية
327	187	144	مناظر من الكتب الدينية
328	188	146	سفينة رع فى رحلة الليل
329	188	146	سيتي الأول يقدم القرابين
330	189	147	عازفة القيثارة
331	189	147	رمسيس الثالث

رقم الصورة	الصفحة فى الترجمة العربية	الصفحة فى الأصل الفرنسي	وصف الصورة
369	206	159	قطع الأحجار من محاجر جبل السلسلة
370	207	159	مقابر صخرية في جبل السلسلة على ضفاف النيل
371	207	159	مقابر صخرية من الخارج
372	207	160	داخل إحدى مقابر جبل السلسلة
373	208	160	معبد حور محب
374	208	160	الإلهة حاتحور تغذى باللبن الربانى حور محب
375	209	160	الملك حور محب طفلاً يشرب من اللبن الربانى
376	209	161	موكب إنتصار حورمحب
377	210	161	الملك حورمحب على عرشه يحمله ضباط الجيش
378	210	161	الأسرى من الأعداء في حالة فزع
379	211	161	الأسرى مكبلون
380	211	161	الأسرى يسبقهم جنود مسلحون
381	211	161	معبد كوم أمبو
382	212	161	صرح معبد كوم أمبو
383	212	161	معبد كوم أمبو يطل على النيل
384	212	161	معبدا كوم أمبو
385	213	162	الإله سوبك
386	213	162	رسم الإله سوبك
387	213	162	بعض أعمدة معبد كوم أمبو
388	214	162	تيجان مركبة من كوم أمبو (١٨٦٩)
389	214	162	تقديم القرابين للآلهة
390	214	162	النيل عند أسوان ومقابر قبة الهواء
391	215	162	نهرالنيل عند أسوان
392	215	163	مسكن بأسوان
393	216	163	فتاه من أسوان
394	216	163	رجل من أسوان
395	216	163	شاب من أبناء أسوان
396	216	163	بضائع ومنتجات محلية في سوق أسوان
397	217	163	رماح ونبال من الآثار قديمة الصنع
398	218	163	وجه من الأبنوس
399	218	163	الشكل العام للمسلة المكسورة
400	219	163	جزء من المسلة في المحجر الشرقي
401	219	164	أطلال من جزيرة الفنتين
402	220	164	المعبد البطلمى فى الفنتين
403	221	164	مدخل لأحد المعابد
404	221	164	جزيرة الفنتين والمعبد - من كتاب وصف مصر
405	221	164	علامات مقياس النيل

التصحيح اللغوى : د. عبد الرحمن حجازى

الإشـــــراف الفنى : حســـــن كامــــل

geur aucun lieu digne d'être particulièrement remarqué. Un peu après Béni-Souef, on aperçoit au nord, au sommet d'un mamelon jaunâtre, une pyramide de forme inusitée. Les souvenirs des Thoutmès, des Ramsès, des Ptolémées, des Empereurs, sont désormais bien loin de nous. La région des Pyramides commence, et avec ces gigantesques monuments nous entrons dans cette période de l'histoire égyptienne si éloignée de nous, qu'elle semble appartenir à un autre monde et que rien sur la terre ne peut lui être comparé. La *Pyramide*
434 *de Meydoun*, tel est d'ailleurs le nom du monu-
435 ment que nous avons en vue. Sa forme inusitée vient d'être signalée. Elle offre cette autre particularité qu'elle n'a jamais été ouverte, au moins dans les temps modernes.

24me Journée. — En une heure et demie, on arrive de Bédréchyn au Caire. Un plus grand mouvement de barques sur le fleuve annonce
436 l'approche de la capitale. L'île de Rhôdah montre bientôt son nilomètre et ses palais aux couleurs voyantes. Quelques instants après, on est à Boulaq et le voyage du Nil est terminé.

Fig. 434, 435 p. 238
Fig. 436 p. 239

puisqu'elles appartiennent à cette période encore si obscure où, sous un roi probablement monomane de la XVIIIme dynastie, la religion égyptienne s'abima tout-à-coup dans un schisme. On signalera aussi la montagne de Gebel-Teir ou *des Oiseaux* à pic sur le fleuve comme la montagne de Gebel-Abou-Fodch, mais bien moins élevée qu'elle. La montagne de Gebel-Teir n'a pas comme la montatagne de Gebel-Abou-Fodeh, une grotte de crocodiles ; mais elle possède le *Couvent de la Poulie* et dans ce couvent des moines coptes, cordonniers de leur état, dont la principale occupation consiste à venir à la nage demander l'aumône aux voyageurs qui passent.

23me Journée. — La 23me journée comprend le voyage de retour de Minieh à Bédréchyn. On part de Minieh le matin, on passe devant Béni-Souef sans s'arrêter, un peu après le milieu du jour, et le plus souvent on arrive le soir assez à temps pour s'amarrer devant Bédréchyn. Quelques bateaux d'une marche supérieure atteignent Boulaq le soir même, ce qui procure le désavantage d'arri-au Caire la nuit.

La route de Minieh à Béni-Souef n'offre au voya-

on en conclura que ces animaux devaient se ren-
contrer sur le Nil bien plus souvent qu'ils ne se
rencontrent aujourd'hui. Qui ne sait d'ailleurs
qu'au temps d'Abd-el-Latif (1200 de notre ère),
les hippopotames vivaient encore dans la branche
de Damiette? En présence du nombre considérable
de momies de crocodiles qu'on rencontre non-
seulement à Maabdeh, mais en diverses autres
parties de l'Egypte, on est donc obligé de recon-
naître que le Nil nourrissait autrefois un nombre
considérable de ces animaux. Quand il passa
devant Qéneh, Champollion vit jusqu'à quatorze
crocodiles réunis « en conciliabule » sur un ilot.
432 Si pareille bonne fortune n'écheoit jamais mainte-
nant au voyageur, c'est que le crocodile recule
tous les jours de plus en plus vers le sud devant
les armes à feu et l'agitation produite par les
bateaux à vapeur, et que bientôt le Nil jusqu'à
Assouan ne les connaîtra plus que par tradition.

On peut encore signaler dans le voyage de Siout
à Minieh, les ruines de la ville située sur la rive
droite du fleuve à quelque distance de *Hadgi-Kan-
dil* et de *Tell-Amarna*. Là se trouvent des grottes
433 qui par leur disposition rappellent celles de Béni-
Hassan, bien quelles soient d'une autre époque,

Fig. 432, 433 p. 237

sait d'où vient le souterrain et qu'on ne sait pas où il va. Quelques momies humaines sont mêlées aux momies de crocodiles. Les plus riches sont dorées des pieds à la tête, les plus pauvres ont au moins, collées immédiatement sur la peau, quelques feuilles d'or découpées en carré. En pénétrant dans la grotte de Maabdeh, on peut se demander d'où proviennent les innombrables crocodiles qui y sont entassés par milliers. C'est à peine en effet si, aujourd'hui, on aperçoit dans un voyage du
430 Nil un ou deux de ces amphibies. La réponse est
431 facile. En premier lieu les crocodiles étaient bien plus fréquents qu'ils ne sont depuis quelque temps; en second lieu la montagne de Gebel-Abou-Fodeh a toujours été pour eux un lieu de prédilection. Qu'on interroge avec attention les fissures de la montagne à l'endroit précis où elles plongent dans le fleuve. Presque toujours quelque crocodile qu'on prend de loin pour un tronc d'arbre échoué contre un rocher, est là étendu, la gueule béante. D'un autre côté, si l'on se rappelle la description que nous avons faite du Tombeau de Ti (p. 57), on verra que non seulement le crocodile, mais l'hippopotame lui-même, existaient autrefois devant Memphis, c'est-à-dire presque devant le Caire, et

Fig. 430, 431 p. 236

pendant une crue un peu forte, le temple et la partie du village qui l'environnait, s'abîmèrent subitement
428 dans le fleuve. A Siout (l'ancienne *Lycopolis*) sont,
429 à peu de distance de la ville, des grottes creusées dans la montagne. Elles remontent en général à la XIIᵐᵉ ou à la XIIIᵐᵉ dynastie (3,000 ans avant J.-C.). Quand on a vu Médinet-Abou, Karnak, Edfou, Philæ, il faut pour les visiter une dévotion particulière à l'antiquité égyptienne que les archéologues seuls possèdent.

22ᵐᵉ Journée. — La 22ᵐᵉ journée comprend le voyage de retour de Siout à Minieh. Quand on est sorti des détours sans nombre que le Nil fait en quittant Siout, on passe devant *Manfalout*, et à deux kilomètres au delà on rencontre les hautes montagnes de *Gebel-Abou-Fodeh* qui plongent à pic dans le fleuve. Au-dessus de ces montagnes, presqu'à leur extrémité sud, sont les fameuses grottes de *Maabdeh*. On y pénètre par une fissure naturelle comme on pénètre dans une maison par son toît, et on se trouve dans un lieu littéralement plein de momies de crocodiles. Peu explorée jusqu'à présent, cette mystérieuse sépulture a d'autant moins dit son dernier mot qu'on ne

Fig. 428, 429 p. 235

ou deux avant le coucher du soleil. On en profitera pour faire une seconde visite à Karnak. Ce magnifique ensemble n'est jamais assez vu, et comme nous l'avons dit, on l'apprécie d'autant plus qu'on le connait mieux.

20me Journée. — La 20me journée comprend le voyage de retour de Thèbes à Sohag. Le charbon est fait vraisemblablement en passant à Qéneh. Entre Qéneh et Sohag, on voit *Farchout*, autre établissement industriel d'une grande importance, puis, presqu'en face de Sohag, *Akhmin*, ville habitée presque toute entière par des Coptes,
427 et autrefois célèbre par des temples qui ont si complètement disparu qu'on en reconnaît aujourd'hui difficilement la place.

21me Journée. — La 21me journée comprend le voyage de retour de Sohag à Siout. Route que rien ne recommande à l'attention. *Tartha, Gaou-el-Kébir, Aboutig,* sont les villes principales qu'on aperçoit du fleuve. Au temps de la commission française, un temple de belle apparence s'élevait sur le bord de l'eau à côté de Gaou-el-Kébir (l'ancienne *Antæopolis*). En 1822,

Fig. 427 p. 234

dont on voit encore les remparts, avait-elle été élevée à El-Kab. Elle est en briques crues et remonte probablement à l'Ancien-Empire.

D'El-Kab à Esneh la route n'offre rien de remarquable. Esneh ne se recommande pas seulement par le portique que nous avons décrit. Si le temps n'était pas si court, on visiterait avec intérêt les couvents coptes répandus en assez grand nombre
424 dans les environs. C'est dans ces couvents que se
425 réfugièrent les Coptes chassés de Médinet-Abou (p. 111) à l'époque de l'invasion musulmane. C'est aussi dans ces couvents et dans tous les villages qui s'étendent jusqu'au pied de la montagne que plusieurs milliers de Chrétiens subirent le martyr, lors de la persécution ordonnée par Dioclétien.

Thèbes n'est séparée d'Esneh que par un voyage de quelques heures. Un peu avant d'y arriver on aperçoit de grandes cheminées qui noircissent au
426 loin le ciel. C'est *Erment,* l'ancienne *Hermonthis,* aujourd'hui siège d'un établissement industriel qui, comme installation, n'a rien à envier aux établissements de ce genre fondés en Europe.

Il arrive quelquefois qu'une navigation plus favorisée amène les bateaux à Louqsor une heure

---

Fig. 424 p. 231
Fig. 425 p. 232
Fig. 426 p. 233

Cette partie de la route est une de celles qui offrent aux voyageurs le plus de points de détail à étudier. On quitte le granit à quelques kilomètres au nord d'Assouan pour le grès, et le grès à son tour est remplacé par le calcaire aux environs d'Edfou. Avec le grès cesse aussi cet aspect particulièrement triste du passage qui devient de plus en plus sensible à mesure qu'on s'approche d'Assouan. A partir d'Edfou les bords du Nil reprennent à peu près leur physionomie habituelle. C'est vis-à-vis d'Edfou, sur l'autre rive, qu'est *Radasieh*, village où commence la route qui mène à travers le désert de l'est jusqu'à des mines d'or autrefois exploitées par les Pharaons et depuis longtemps abandonnées.

Un peu au nord d'Edfou, et sur la même rive que Radasieh est El-Kab (*Elèthyia*), célèbre par ses grottes et un joli petit temple de la XVIIIme dynastie construit dans la plaine à trois ou quatre
423 kilomètres de la rive. El-Kab était autrefois un point stratégique. C'est à El-Kab, en effet, que débouche la gorge qui facilitait les descentes des *Hérouscha* (les Bicharis actuels) que les inscriptions du temps nous montrent ravageant si souvent le territoire égyptien. Aussi une forteresse,

Fig. 423 p. 234

son lit tout entier, phénomène que présente, par exemple, le Rhin à Schaffouse, on peut dire en effet que la cataracte d'Assouan n'existe pas. Quand le Nil est bas, à la vérité, les rochers dont son lit est encombré sortent de l'eau et des ressauts se produisent qui donnent lieu en quelques endroits à des cascades et à des bouillonnements qui ne laissent pas que de produire une certaine impression. Mais quand le Nil est haut, le phénomène se montre d'autant moins que les rochers sont plus couverts, et alors il n'y a plus que des rapides.

Le voyage de la Haute-Egypte est fini. Il faut maintenant tourner le dos à la Nubie et reprendre la route du Caire.

19me Journée. — Le courant du Nil
421 qui, à la montée, retarde considérablement la
422 marche des navires, leur vient en aide à la descente,
si bien qu'il est certains bâteaux dont la vitesse est doublée. Le retour ne se fait donc pas dans les mêmes conditions. Les étapes sont plus longues, et souvent il est possible de franchir sans s'y arrêter une ou plusieurs stations de charbon.

C'est ainsi que, le premier jour, on se rend d'Assouan à Thèbes.

Fig. 421 p. 230
Fig. 422 p. 231

Philæ est comme Karnak. Il faut y venir la
première fois pour le pittoresque, pour la grandeur
du paysage, pour les rochers sombres qu'on aper-
çoit de tous les côtés, pour la cataracte qu'on en-
tend dans le lointain. Quand on débarque à Philæ
par le côté oriental de l'île, et qu'en levant les yeux
418 on voit se détacher sur le ciel les colonnes du joli
419 monument que la commission d'Egypte a nommé
420 l'Edifice de l'Est, on est comme surpris. Une pro-
menade au hasard dans l'île ne fait que rendre plus
vive cette impression, et en quittant Philæ on se
dit qu'on y a trouvé le plus désirable couronnement
d'un voyage dans la Haute-Egypte.

Le retour à Assouan ne se fait pas habituellement en ligne directe. Après avoir remis le pied sur la terre ferme, on est dans l'usage d'obliquer à gauche et d'aller voir ce qu'on appelle la cataracte.

Paul Lucas, voyageur qui vivait au temps de Louis XIV, a dit que la cataracte se précipitait du haut des rochers avec un tel fracas qu'à plusieurs lieues à la ronde les habitants sont sourds. Chacun peut se convaincre sur les lieux de ce que cette assertion a d'exagéré. Si l'on entend par cataracte une chûte du fleuve due à l'abaissement subit de

Fig. 418, 419 p. 229
Fig. 420 p. 230

414 constructions, seraient fastidieux. On remarque,
415 particulièrement sur le premier pylône, des pros-
cynèmes grecs en très grand nombre laissés par les
visiteurs de l'île. Un fait important ressort de
l'étude de ces proscynèmes : c'est qu'en 453 de
notre ère, c'est-à-dire soixante ans environ après
l'édit de Théodose, qui abolit la religion égyp-
tienne, Isis et Osiris recevaient encore un culte à
Philæ, et que des familles de prêtres égyptiens
voués au service des temples existaient encore dans
l'ile. Philæ n'aurait donc commencé à devenir
l'île sainte si universellement vénérée par les Egyp-
tiens, que peu d'années avant la conquête macé-
donienne. De plus en plus, sous les Ptolémées,
416 sous les Empereurs, elle se couvrit de monuments,
417 et le culte à l'exercice duquel ces monuments
étaient consacrés, fut si vivace que l'édit de Théo-
dose ne le fit pas tomber, et que, sous l'empereur
Marcien, il était encore debout.

Mais peut-être, en présence de ce site sans pareil dans toute l'Egypte, est-ce trop demander au visiteur que de l'astreindre à reconnaître sur les monuments qu'il a sous les yeux la date de leur érection. Philæ est, en effet, le lieu des impressions du moment avant d'être le lieu des souvenirs.

Fig. 414, 415 p 227
Fig. 416, 417 p 228

d'un tableau. Le passant s'y est représenté adorant
les dieux de la Cataracte. Au bas est l'inévitable
formule de prière. En des occasions plus mémora-
bles, ce sont des généraux, ce sont des princes, ce
sont même des rois revenant d'une expédition au
Soudan, qui ont laissé sur les rochers de la route
leur trace durable. On conçoit tout ce que ces sou-
venirs, où l'histoire tient plus de place que la reli-
410 gion, peuvent avoir de précieux pour la science.
411 Séhel, petite île de la cataracte d'un abord assez
difficile, en est pour ainsi dire couverte, et quelques
données, aujourd'hui acceptées de tout le monde,
ne reposent que sur les renseignements fournis par
l'étude gravée sur les rochers de cette île.

L'histoire de Philæ est vite racontée. On n'y
412 trouve aucun nom royal antérieur à Nectanébo
II, c'est-à-dire que les plus anciens monuments
de Philæ ne précèdent Alexandre que de quel-
ques années. C'est Nectanébo II qui éleva le
petit temple situé à l'extrémité méridionale de
413 l'île et dont il reste une douzaine de colonnes ;
c'est aussi lui qui fit construire la grande porte
placée entre les massifs du premier pylône. Enu-
mérer les noms des Ptolémées, des Empereurs
qui, après Nectanébo, couvrirent l'île de leurs

Fig. 410, 411 p. 224
Fig. 412, 413 p. 225

18me Journée. — Philæ couronne de la manière la plus heureuse le voyage de la Haute-Egypte.

On va d'Assouan à Philæ par terre jusqu'au couvent de la mission Autrichienne. Là des barques prennent les voyageurs et les font passer dans l'île. En une autre saison, quand le Nil est moins haut et moins rapide, le même chemin conduit par une bifurcation au village de Chellâl. Quand elle est praticable, c'est la voie la plus suivie, parce qu'elle est la plus pittoresque.

D'Assouan au couvent de la mission Autrichienne on ne quitte pas le désert. Ici on est en pleine formation gratinique, C'est le granit qui se montre çà et là à la surface du sol ; c'est lui aussi qui s'entasse en masses sombres et donne au paysage l'aspect particulièrement désolé qui le distingue.

En décrivant Gebel-Silsileh, nous avons parlé de l'habitude qu'avaient les Egyptiens de consacrer par une stèle, par une inscription, le souvenir de leur passage en certains lieux. La route d'Assouan
208 à Philæ en offre mille exemples. Les inscriptions
209 gravées sur le rocher y abondent en effet. Quelquefois on n'y lit que de simples noms propres ; mais plus souvent l'inscription revêt les proportions

Fig. 208, 209 p. 223

402 De l'autre côté du fleuve, précisément en face d'Assouan, est l'île d'Eléphantine.

A Assouan l'élément égyptien domine encore dans la population. En arrivant à Eléphantine on est tout surpris de ne se voir entouré que de Nubiens.

Il y a soixante-dix ans, on voyait à Eléphantine un temple déjà à moitié démoli que les auteurs du
403 grand ouvrage de la Commission d'Egypte ont nom-
404 mé le Temple du Nord, un autre temple d'admirable
405 proportion qu'on appelait le Temple du Sud et que, par les dessins exécutés alors, nous savons être d'Aménophis III, une porte monumentale de granit, enfin un quai à pic sur le fleuve et précédé
406 du côté nord par un nilomètre. En 1822, les deux
407 temples et le nilomètre ont disparu. Le quai, ouvrage d'époque romaine où des matériaux sans nombre provenant d'édifices plus anciens ont été utilisés, la porte de granit qui est ornée sur ses deux montants des cartouches d'Alexandre II, sont encore debout. Près des maisons modernes, une mauvaise statue d'Osiris où l'on déchiffre à grand' peine les noms de Ménephtah (XIXme dyn., 1350 av. J.-C.) marque la place où se trouvait la façade du Temple d'Aménophis III.

Fig. 402 p. 220
Fig. 403, 404, 405 p. 221
Fig. 406, 407 p. 222

ver dans un monde nouveau. L'Egypte y finit, et
un autre pays commence. Nulle part on ne trouvera
mêlés plus d'Egyptiens, plus de Turcs, plus de
393 Barabras, plus de Bicharis au torse nu, plus de
394 nègres de toute origine. Les habitants de Khar-
395 toum surtout s'y font remarquer par leur belle pres-
396 tance, leur peau noire, et leur tête fine rappellant
le meilleur type des races septentrionales. Comme
complément du tableau, on aperçoit sur la plage des
397 marchandises, gommes, dents d'éléphants, peaux
398 de quadrupèdes, dont l'emballage souvent exotique
399 achève de dépayser l'œil. Au milieu de tout ce
monde circulent des marchands qui vendent, non
plus des antiquités, mais des casse-têtes en ébène,
des piques, des lances, des flèches dont les pointes
de fer sont, dit-on, empoisonnées.

Assouan n'a pour ainsi dire pas conservé de sou-
venirs antiques. Mais une visite à travers la ville
a son intérêt. Si l'on s'écarte un peu de la route au
sud, on trouve, perdu au fond d'un trou, un petit
temple d'origine ptolémaïque récemment découvert
pendant les fouilles ordonnées par S. A. le Vice-
400 Roi. A un kilomètre au-delà est un obélisque qui
401 adhère encore par un de ses côtés à la carrière dans
laquelle on avait commencé à le tailler.

Fig. 393, 394, 395, 396 p. 216
Fig. 397 p. 217
Fig. 398, 399 p. 218
Fig. 400, 401 p. 219

ainsi dire pas besoin de descendre à terre. Du plus
386 loin qu'on l'aperçoit, le temple d'Ombos se révèle
387 comme un temple ptolémaïque. Les vues qu'a
388 suggérées le temple d'Esneh se représentent en
389 effet ici. A l'arrivée des Grecs, l'architecture égyp-
390 tienne proprement dite a reçu un choc en avant, et
de ce moment est née la colonne au chapiteau *sui generis* qui ne se trouve, comme à Ombos, que sur les temples d'origine greco-égyptienne.

La 16e journée est finie. C'est demain qu'en arrivant à Assouan, on aura touché le terme du voyage.

17me Journée. — La course d'Ombos à Assouan n'est pas longue. Après trois ou quatre heures de voyage, on commence à apercevoir dans le sud des montagnes qui semblent couronnées de forts. Une île toute verte qui partage le fleuve en
391 deux parties à peu près égales est à leur pied. A
392 gauche quelques maisons blanches au milieu d'une
oasis de dattiers éclairent confusément le paysage. Le propre de cette arrivée à Assouan, c'est que le fleuve semble finir là et que l'œil lui cherche en vain une issue.

Assouan étonne le voyageur. On croit s'y trou-

Fig. 386, 387 p. 213
Fig. 388, 389, 390 p. 214
Fig. 391, 392 p. 215

377 officiers tiennent au-dessus de sa tête le flabellum à
378 long manche. C'est la rentrée triomphale en Egypte
à la suite d'une expédition victorieuse contre les
Kouschites du Soudan. Des soldats armés précèdent
379 le cortège qu'accompagnent, dans des postures qui
380 témoignent de leur frayeur, les prisonniers faits aux
381 ennemis.

L'exploration de Gebel-Silsileh a occupé une grande partie de la 16me journée. On se dirige vers Ombos. Le soleil n'est pas encore couché quand on arrive devant ce lieu. On a le temps encore de visiter le temple.

382 Il n'y a presque rien à dire sur ce monument
383 qui est destiné à devenir tôt ou tard la proie
384 du Nil, de quelque soin qu'on l'entoure. Œuvre des
385 rois grecs successeurs d'Alexandre comme Edfou
et Dendérah, il porte en diverses parties les noms de Philométor, d'Evergète II et de Dionysos. Il offre cette particularité d'être en quelque sorte la réunion de deux temples justaposés dédiés aux deux principes éternellement ennemis, l'un la lumière adorée sous le nom d'Horus, l'autre les ténèbres que le dieu crocodile Sébek symbolise.

Du reste, si l'on ne visitait Ombos qu'avec l'intention d'en chercher l'époque, il n'y aurait pour

Fig. 377, 378 p. 210
Fig. 379, 380, 381 p. 211
Fig. 382, 383 p. 212
Fig. 384, 385 p. 213

le grand spéos que ses quatre piliers massifs désignent de loin au voyageur. Quoique utilisé plus tard par un grand nombre de personnages qui y ont laissé des traces souvent bien précieuses, il est du règne d'Horus, dernier roi de la XVIIIme dynastie.

Nous sortirions de notre cadre si nous entrepre-
373 nions de décrire tout ce que le Spéos de Gebel-Sil-
374 sileh offre d'intéressant. Nous signalerons seule-
ment les deux tableaux sculptés à côté l'un de l'autre à l'angle sud-ouest du monument.

L'un (paroi du sud) représente une déesse nour-
375 rissant de son lait divin le roi Horus encore enfant.
376 Certes l'Egypte n'a jamais, comme la Grèce, atteint
l'idéal du beau, et il est vraisemblable qu'elle n'y a jamais songé. Mais, en tant qu'art Egyptien, le bas-relief du Spéos de Gebel-Silsileh est une des belles œuvres que l'on puisse voir. Nulle part, en effet, la ligne n'est plus pure, et il règne dans ce tableau une certaine douceur tranquille qui charme et étonne tout à la fois.

A côté, sur le retour de la paroi du côté ouest, est un autre tableau, bien connu sous le nom de *Triomphe d'Horus*. Le roi est assis sur son trône porté par douze officiers de l'armée. Deux autres

---

Fig. 373, 374 p. 208
Fig. 375, 376 p. 209

sivement en retrait. Partout d'ailleurs on remar-
367 quera le soin, la méthode, nous dirons la précaution
368 avec laquelle la pierre a été exploitée. Il semble
369 qu'on ait débité la montagne par morceaux régu-
liers comme un habile charpentier débite en plan-
ches le tronc d'un arbre précieux. Nous n'en serions pas certains pour d'autres raisons, que la vue seule des carrières de Gebel-Silsileh nous prouverait que les brutalités de la poudre étaient inconnues à ceux qui ont exploité ces carrières.

Les carrières de la rive gauche ne sont ni aussi étendues, ni aussi faciles à visiter. Mais la présence sur le bord même du fleuve d'un certain nombre de grottes leur donne un intérêt que les autres n'ont
370 point. Parmi ces grottes on en distingue qui ne sont
371 que des tombeaux. Les plus nombreuses sont dues
372 à l'habitude qu'avaient les Egyptiens de consacrer
par un proscynème, par une stèle, par un monument plus ou moins étendu, le souvenir de leur passage en certains lieux réputés saints. C'est ainsi qu'à Gebel-Silsileh où le Nil, resserré entre deux montagnes recevait un culte particulier, on trouve, gravés sur les rochers, des hymnes au fleuve qui ne manquent pas d'une certaine grandeur.

Le type de ces monuments commémoratifs est

Fig. 367, 368, 369 p. 206
Fig. 370, 371, 372 p. 207

simplement sur le sol, ces mâts, qui ne devaient pas avoir moins de 45 mètres de hauteur, n'auraient jamais présenté de suffisantes garanties de solidité s'ils n'avaient été maintenus contre le pylône par des appareils *ad hoc*. C'est au dépôt et au libre jeu de ces appareils que servaient celles des chambres intérieures du pylône dont les fenêtres carrées se voient au dehors dans l'alignement vertical des rainures.

Après la visite du Temple et le retour à bord, la fin de la 15me journée est employée au voyage d'Edfou à Gebel-Silsileh.

16me Journée. — L'excellence du grès, la proximité du fleuve à la fois sur l'une et l'autre rive, les facilités d'accostage offertes aux barques de charge, sont les motifs qui ont déterminé le choix de la localité où nous nous trouvons pour en faire le centre de la plus vaste exploitation de pierres que nous connaissions en Egypte.

Les carrières les plus remarquables de Gebel-
360 Silsileh sont sur la rive droite. Le plus souvent elles sont à ciel ouvert. Les unes sont taillées à bords escarpés de quinze à vingt mètres de hauteur; les autres sont disposées par grands étages succes-

---

Fig. 366 p. 205

Le temple d'Edfou, sans y comprendre le pylône et le mur d'enceinte, a 40^{m} de façade et 71^{m} 85 de profondeur totale. Avec le pylône sa façade est de 76^{m}, et sa profondeur de 137^{m} 60. La hauteur du pylône est de 35^{m}, dix mètres de moins que la colonne de la place Vendôme.

Le temple d'Edfou et le temple de Dendérah sont
si évidemment construits sur le même plan, ils sont
si évidemment le produit de la même pensée répon-
dant aux mêmes besoins religieux, que la destina-
tion matérielle des parties de l'un doit être la des-
tination matérielle des parties de l'autre. C'est ce
361 que l'étude des inscriptions d'Edfou met hors de
362 doute. Les prêtres s'assemblent dans la deuxième
363 salle hypostyle : on prépare la grande procession
du jour de l'an dans la chapelle ; les offrandes sont
emmagasinées dans certaines chambres, etc., etc.
Quant au pylône, rien n'indique qu'il ait jamais
servi à autre chose qu'à annoncer de loin l'édifice
auquel il sert d'entrée monumentale. A la façade
364 extérieure du pylône, on remarque quatre cavités
365 prismatiques dont le fond est vertical. L'usage n'en
est pas douteux. C'est dans ces cavités que l'on en-
castrait les immenses mâts surmontés de banderol-
les qui servaient à la décoration du pylône. Placés

Fig. 361, 362, 363 p. 203
Fig. 364, 365 p. 204

autre inscription nous apprend que le temple, commencé sous Philopator, terminé sous Evergète II, a été achevé, après des interruptions causées par des guerres, en 95 ans, ce qui s'applique sans aucun doute à la construction proprement dite et non à la décoration, puisque du commencement du règne de Philopator jusqu'à la mort de Dionysos, le dernier des rois dont le temple porte les cartouches, il s'est écoulé 170 années.

Dans un coin de l'une des chambres où il a été poussé sans aucun doute par des mains relativement modernes, est un monolithe de beau granit gris tacheté qui, à juste titre, attire l'attention. A Den-
359 dérah le *Sanctum Sanctorum* est une niche qui occupe une paroi de la chambre du fond. Ici le *Sanctum Sanctorum* est le monument que nous avons sous les yeux. Les inscriptions qui le décorent en certifient la provenance et la date, et on peut affirmer que le monolithe en question avait été
360 creusé par Nectanébo 1er (XXXme dynastie) pour servir de naos au temple maintenant détruit auquel le temple actuel succède. Il est inutile d'ajouter que comme à Dendérah, cette sorte de châsse monumentale servait à enfermer l'emblème mystérieux qui était le palladium du temple.

Fig. 359, 360 p. 202

du temple proprement dit. La décoration de quel-
ques salles du centre est de Ptolémée VI Philométor.
355 La salle hypostyle qui forme une sorte de façade
356 monumentale en avant de l'édifice est de Philométor
et de Ptolémée IX Evergète II. Le couloir extérieur
porte, d'un côté les noms du même Evergète, de
l'autre ceux de Ptolémée XI Alexandre. Enfin le
pylône a été décoré, sinon construit, sous le règne
de Ptolémée XIII Dionysos.

De curieuses inscriptions qui occupent une partie
du soubassement de l'extérieur du temple, méritent
d'être signalées. Nous y apprenons que chacune
des chambres avait son nom, de telle sorte que
rien ne serait plus facile aujourd'hui que de recons-
tituer en hiéroglyphes le plan topographique de
357 l'édifice. Les dimensions de ces mêmes chambres,
358 en coudées et en subdivisions de coudées, sont en
en outre données, et comme la confrontation avec
les chambres elles-mêmes peut être faite, il s'ensuit
que nous possédons des termes de comparaison
rigoureux entre les anciennes mesures égyptiennes
et les mesures modernes. Notons encore que l'ar-
chitecte du temple, qui s'appelait *Eï-em-hotep Oer-
si-Ptah (Imouthès* le grand fils de *Phtah*) a signé
son œuvre. Enfin, n'oublions pas d'ajouter qu'une

Fig. 355 p. 200

Fig. 356, 357, 358 p. 201

La matinée de la 15me journée est consacrée à la visite d'Edfou.

352 Le Temple d'Edfou est comme ces monuments
353 qui s'annoncent eux-mêmes et dont aucune description ne peut donner une idée. Son magnifique pylône, son mur d'enceinte, sont uniques en Egypte. Quant au temple proprement dit, il rappelle de si près comme plan (sinon comme détails d'architecture) le Temple de Dendérah qu'il n'est personne qui n'en soit frappé.

354 Le déblaiement d'Edfou est le plus grand travail archéologique ordonné par S. A. le Vice-Roi. Il y a quelques années le village moderne avait envahi le temple, et ses terrasses elles-mêmes étaient couvertes de maisons, d'étables, de magasins de toute sorte. A l'intérieur les décombres s'étaient entassées presqu'aux plafonds des chambres. On se rend compte de l'effort qu'a coûté le déblaiement en entrant aujourd'hui dans ce temple où il n'est pas une ligne de texte qui ne soit facilement accessible à la curiosité du voyageur ou à l'étude du savant.

Le temple d'Edfou a été fondé par Ptolémée IV Philopator; c'est à ce prince qu'appartiennent les sanctuaires et les chambres qui l'entourent, la chapelle et en général toute la partie postérieure

Fig. 352, 353 p. 199
Fig. 354 p. 200

renoncer encore au principe des architraves monolithes, et par suite sans se décider à élargir ses entrecolonnements, elle monte plus hardiment vers les plafonds. C'est surtout dans les chapiteaux
351 que l'influence est manifeste. Certes le beau bouquet de lotus épanouis qui, à Philœ par exemple, forme un délicieux motif de chapiteaux, est déjà en germe à Médinet-Abou et à Karnak. Mais sous les Grecs ces anciennes formes sont modifiées et rajeunies; de nouvelles sont créées. En un mot, les Grecs ont laissé périr entre leurs mains, presque dès leur arrivée en Egypte, l'art savant et traditionnel de la sculpture en relief. L'architecture, moins hiératique, a pris au contraire un certain essor, puisque c'est sous les Grecs seulement que commencent à paraître, comme la manifestation d'un art transformé, la colonne qui n'a plus l'air de s'écraser sous ses architraves et le chapiteau aux lignes curieusement entremêlées dont le pronaos d'Esneh nous offre quelques remarquables exemples.

15me Journée. — Edfou est situé à peu de distance du fleuve, et les personnes que vingt minutes de marche n'effraient point, peuvent facilement s'y rendre à pied.

Fig. 351 p. 198

est d'époque grecque et annonce une partie construite par Ptolémée Epiphane.

La sculpture de la salle est détestable, et la rédaction des textes est si mauvaise, si entrecoupée de jeux de mots, de calembours, de lettres détournées de leur valeur, qu'il faut une attention soutenue et presque une aptitude spéciale pour déchiffrer la signification des phrases qui se cachent sous la pitoyable écriture dont nous avons des échantillons sous les yeux. Au plafond cependant on aperçoit
345 des chapiteaux de colonnes qui, à travers l'enduit
346 de fumée noire dont ils sont recouverts, laissent
347 deviner un travail soigné et délicat, et une pureté de formes qui, dans un temple de cette époque, semble dès l'abord assez étonnante. C'est que l'architecture n'a pas suivi dans leur chûte rapide la gravure et la sculpture. Peu de temps après l'avénement des Ptolémées, la gravure et la sculp-
348 ture ont, en effet, toujours été en déclinant, comme
349 si les Grecs n'avaient pu s'habituer à ces formes
350 conventionnelles et toujours un peu en dehors de la nature que la tradition imposait à ces deux arts. L'architecture, au contraire, s'est émancipée. Elle est entrée dans une voie nouvelle où elle a presque tout gagné. La colonne a pris de la grâce. Sans

---

Fig. 345 p. 196
Fig. 346, 347 p. 197
Fig. 348, 349, 350 p. 198

et procure ainsi au visiteur l'occasion de revoir en passant ce temple, le Ramesséum et le temple de Qournah.

14.me Journée. — En partant de Louqsor le matin, on arrive à Esneh assez à temps pour faire le charbon, visiter le temple, et aller coucher le soir à Edfou.

Le temple est situé au milieu de la ville. La salle hypostyle, nettoyée jusqu'au dallage, est seule vi-
343 sible. On dit que les autres parties du temple gisent encore presque intactes sous les maisons de la ville qui les cachent à nos yeux; selon une autre tradition, Champollion aurait même pu encore voir le sanctuaire où il aurait reconnu le nom de Thoutmès III. Mais ces faits auraient besoin d'être établis avec plus de solidité avant d'entrer définitivement dans le domaine de la science. Ce qu'il y a de certain, c'est que, dans l'état actuel des choses, on ne voit du temple d'Esneh que sa grande salle antérieure.

La façade et toutes les colonnes de cette salle
343 sont d'époque romaine. On y lit les cartouches de Claude, de Domitien, de Commode, de Septime-Sévère, de Caracalla, de Geta. Le fond de la salle

Fig. 343, 344 p. 195

Tombe de Memnon; elle est remarquable par les représentations astronomiques de ses plafonds; la
338 *tombe de Ramsès IX*; ce que les artistes chargés
339 de la décoration des murs ont dû y dépenser de
340 temps effraie l'imagination; dans les peintures
341 étranges où le principe de la génération joue
342 un si grand rôle, il ne faut rien voir autre chose qu'une application très-énergique des idées de résurrection après la mort, d'immortalité promise au défunt, qui prévalent dans le tombeau. La tombe de Ramsès VI est le n° 9 de Wilkinson; la tombe de Ramsès IX est le n° 6. C'est sous ces numéros que les guides les connaissent, et habituellement les indiquent aux visiteurs.

Le retour de Bab-el-Molouk au Nil s'effectue par trois chemins, au choix. Les plus pressés prennent par la route du matin; c'est la plus directe. S'il reste du temps à dépenser, on peut s'engager dans le sentier qui monte aux flancs de la montagne, et une fois au sommet, soit redescendre en se dirigeant vers l'est, soit redescendre en se dirigeant vers le sud. Ces deux descentes sont un peu raides et se font à pied. La première fait arriver à Deir-el-Bahari et à l'Assassif; la seconde, après des détours assez longs, mène derrière Medinet-Abou

Fig. 338 p. 192
Fig. 339, 340 p. 193
Fig. 341, 342 p. 194

Egyptiens, ôtait tout caractère sacré à ces monuments.

3° Tombe de Séti II. Elle est située dans le
333 fond de la vallée à l'ouest. Rien ne la recommande
334 à l'attention que les tableaux sculptés en relief
335 épais qu'on voit à droite et à gauche en entrant.
L'œil habitué aux finesses de la tombe de Séti Ier a peine à s'habituer aux rondeurs de cette sculpture, si séduisante qu'elle paraisse au premier abord.

4° Tombe de Ramsès IV. Elle diffère des autres par sa largeur, la hauteur de son plafond et
336 le peu d'inclinaison qu'on lui a donné ; on la visiterait facilement à cheval. Au fond gît le sarcophage. Il est en granit et de proportions colossales. Après la tombe de Belzoni, on ne voit plus qu'avec distraction ces peintures molles, cette gravure sans vie que rendent encore plus incertaine les milliers de *graffiti* grecs dont la tombe est couverte.

Nous ne poursuivrons pas plus loin ces indications. Aux invités que la visite aux quatre belles tombes qui précèdent n'aurait point encore satisfaits,
337 nous indiquerons la *tombe de Ramsès VI* ; du témoignage des *griffiti* qu'on trouve dans l'intérieur, il résulte que les anciens voyageurs, pour des raisons inconnues, la désignaient sous le nom de

---

Fig. 333 p 190
Fig. 334, 335, 336 p 191
Fig. 337 p 192

Quand on entre dans la tombe, on ne tarde pas
332 à s'apercevoir que le plan primitivement conçu est altéré et que le couloir d'entrée, au lieu de suivre sa première direction, s'infléchit subitement à droite. Cette circonstance est due au sans-façon avec lequel les égyptiens creusaient leurs tombes. L'architecte chargé du percement de la tombe de Ramsès a en effet si mal pris ses mesures qu'à quelques mètres de l'entrée il est tombé snr une tombe voisine qu'il a dû respecter en modifiant son tracé primitif.

Un sarcophage de granit rose, taillé en forme de cartouche royal, décorait la chambre principale du tombeau. Il a été enlevé par M. Salt. La cuve est au Louvre, le couvercle à l'université de Cambridge.

On trouve dans la tombe de Ramsès III des *graffiti* grecs. Ce fait n'est pas propre à l'hypogée dont nous nous occupons. Bien d'autres en sont couverts, et en beaucoup plus grand nombre. On voit par là que, dès le temps des Ptolémées, les tombes de Bab-el-Molouk étaient comme aujourd'hui visitées par les étrangers. Les tombes ainsi ouvertes ne pouvaient être que celles dont les momies royales avaient été violées et dispersées par Cambyse, ce qui, pour les

---

Fig. 332 p. 190

formée de marne argileuse dont le percement offrait de vrais inconvénients, on a abandonné le couloir, et revenant à la chambre on a masqué l'entrée de ce couloir par un dallage sur lequel le sarcophage a été définitivement posé.

2° *Tombe de Ramsès III*, dite de *Bruce* ou *des Harpistes*. Autant la tombe de Séti se fait remarquer par la perfection de ces sculptures, autant elle offre à l'artiste de précieux modèles à étudier, autant la tombe de Ramsès III est médiocre et peu digne du héros de Médinet-Abou.

Vers le milieu de la tombe, de chaque côté des deux premiers couloirs, sont des chambres qui méritent l'attention. On y remarque les scènes les plus variées, des bateaux, des meubles, des ustensiles, des cottes d'armes, des arcs, des flèches, des piques. Une de ces peintures, traitée avec une largeur de style qu'on ne remarque pas dans les autres parties du tombeau, nous montre les fameux har-
330 pistes déjà popularisés par les nombreuses copies
331 qui en ont été faites.

Le nom de *Tombeau de Bruce* a été donné au tombeau de Ramsès III en souvenir du voyageur de ce nom qui, le premier, le visita et le fit connaître.

Fig. 330, 331 p. 189

textes qui, autre part, s'étalent sur les murs, sont des hymnes magnifiques que l'âme entonne en l'honneur de la divinité et où elle célèbre sa grandeur. Le mort, une fois jugé digne de la vie éternelle les épreuves sont accomplies ; il devient dieu lui-même ; désormais pur esprit, il circule dans le
328 monde infini des astres. La tombe n'est ainsi que
329 le voyage figuré de l'âme jusqu'au séjour éternel. Elle la prend à sa sortie du corps, et de chambre en chambre elle nous fait assister à sa comparution devant les dieux, à son épuration graduée ; finalement, dans la grande salle du fond, elle nous montre sa définitive admission dans la vie « qu'une seconde mort n'atteindra pas. »

Quand Belzoni découvrit la tombe, un beau sarcophage d'albâtre gisait dans la chambre du fond. Il a été pris et porté en Angleterre. Il fait aujourd'hui partie de la collection privée de M. Sloane.

Au milieu de cette même chambre du fond, on remarque un couloir qui s'enfonce encore assez loin dans le sol. La tombe devait se continuer dans cette direction. Mais soit que Séti soit mort avant l'achèvement de ce couloir, soit (ce qui est plus probable) qu'on ait rencontré au fond une couche

Fig. 328, 329 p. 188

parler, fantasque et chimérique. Les dieux y ont des formes étranges. De longs serpents se glissent çà et là au bas des chambres, ou se dressent contre les portes. Il y a des condamnés qu'on décapite, d'autres qu'on précipite dans les flammes. A vrai dire, une sorte d'épouvante saisirait le visiteur qui pénètrerait seul dans ce souterrain, s'il ne savait qu'après tout, le fond de ces bizarres représentations est le dogme même le plus consolant, celui qui, après les épreuves de la vie, assure à l'âme le bonheur éternel.

Tel est, en effet, le sens des tableaux dont les parois de la tombe sont décorées. On a dit qu'avant de leur donner la sépulture les Egyptiens jugeaient leurs rois. C'est dans le sens allégorique qu'il faut comprendre cette légende. Le jugement de l'âme après sa séparation du corps, les épreuves qu'à l'aide des seules vertus dont elle a fait preuve sur la terre elle doit surmonter, voilà le sujet des représentations presque sans fin qui couvrent la tombe de la porte d'entrée au fond de la dernière chambre. Les serpents qui se dressent à chaque porte, en lansant leur venin, sont les gardiens de l'une des stations du ciel : l'âme ne passera pas si elle ne justifie de sa piété et de sa bienfaisance. Ces longs

jour. Tout-à-l'heure, en sortant de la tombe, le
324 visiteur aura vu de quelles mutilations elle a été
325 l'objet depuis lors. Une sorte de légende attribue
326 ces actes de véritable vandalisme à certains explo-
327 rateurs de l'Egypte qui sont d'autant plus à l'abri
des soupçons qu'en définitive ils ont rendu à l'égyptologie des services immenses. Il est plus juste de dire que ces violences faites à l'un des monuments les plus respectables de l'Egypte sont dues aux marchands d'antiquités et aux touristes eux-mêmes. Ceux-ci, dans leur indifférence, achètent en effet au poids de l'or des débris qui, toute réflexion faite, ne sont pas autre chose que les produits d'un irréparable tort fait à la science.

Dès les premiers pas que le visiteur fait dans le tombeau, il se sent littéralement dans un monde nouveau. Les tableaux presque joyeux des tombes de Saqqarah et de Béni-Hassan ne sont plus devant ses yeux. Le défunt n'est plus dans sa famille, entouré des siens. On ne façonne plus les meubles, on ne met plus les barques sur le chantier, des fermes aux nombreuses cours ne nous montrent plus les bestiaux, bœufs, antilopes, bouquetins, oies, canards, demoiselles de Numidie, défilant en présence des intendants. Tout devient, si nous osons ainsi

Fig. 324, 325, 326, 327 p. 187

la XVIIIme dynastie, on a plus de chance de trouver son tombeau dans la Vallée de l'Ouest, à côté des rois ses contemporains qui y sont enterrés. Il y a donc tout lieu de croire que les fouilles de Bab-el-Molouk, quelques persévérantes qu'elles soient, ne donneraient pas des résultats en rapport avec les difficultés que font naître l'éloignement de la localité et l'embarras de pourvoir d'eau les hommes réunis sur ce point. Seule, la Vallée de l'Ouest mériterait d'être sérieusement explorée la pioche en main, car c'est là que les rois de la XVIIIme dynastie, dont nous ne connaissons pas les tombeaux, pourraient être retrouvés.

Pour les invités qui ne font pas profession d'archéologie, la visite à trois ou quatre des tombes de Bab-el-Molouk est suffisante. Nous indiquerons celles-ci.

1° *Tombe de Séti* 1er dite de *Belzoni*. C'est la plus magnifique des tombes de Bab-el-Molouk, celle qui, par sa grandeur, par la profusion des sculptures dont elle est ornée, efface toutes les autres. Elle a été découverte il y a cinquante ans par Belzoni, qui l'a trouvée déjà violée. A ce moment pas un bas-relief ne manquait à ses parois, et ses peintures étaient aussi fraîches qu'au premier

Le nombre des tombes ouvertes dans la vallée principale était de 21 en 1835; depuis les fouilles ordonnées par S. A. le Vice-Roi, il est de 25. Mais ces 25 tombes ne sont pas toutes royales. Des princes et même des fonctionnaires de haut rang ont été admis à l'honneur de voir leur tombeau creusé à côté de ceux des souverains de leur pays.

On lit dans Strabon : « Au-dessus du *Mem-*
« *monium* sont des tombes de rois taillées dans le
« roc, en forme de grottes, au nombre d'environ
« quarante, admirablement travaillées et dignes
« d'être vues. » Se fondant sur ce passage, on a dit que des fouilles bien dirigées dans Bab-el-Molouk amèneraient la découverte des quinze tombes qui manquent. Mais en supposant que Strabon n'ait pas compris dans les tombes royales dont il parle les tombes de la Vallée des Reines, il est juste de remarquer que, les premiers rois de la XVIIIme dynastie n'étant pas à Bab-el-Molouk, la série commence à Aménophis III et que, de ce prince au dernier roi de la XXme dynastie, on ne peut pas dire qu'un seul roi un peu connu nous manque, à l'exception d'Horus. Or Horus est un roi dont le rang chronologique est assez incertain, et en tous cas, comme il est le dernier souverain de

322 Le chemin qui y conduit est le véritable chemin de la mort. Pas un brin d'herbe n'y égaie la vue. Tout y est triste, morne, et comme brûlé par quelque feu intérieur qui a fendu et noirci les rochers. A partir du Nil, il a environ 6 kil. de longueur.

Toutes les tombes de Bab-el-Molouk sont creusées dans le roc. Elles se composent de couloirs in-
323 clinés qui s'enfoncent plus ou moins profondément dans le sein de la montagne. Une fois la momie royale à sa place, la porte était murée, et le terrain environnant nivelé de telle sorte qu'aucune marque extérieure ne révélât la place de la tombe. On voit par là que l'esprit dans lequel ces monuments funéraires ont été érigés est bien loin de l'esprit qui a présidé à la construction de toutes les autres tombes que nous avons étudiées jusqu'à présent. La chambre extérieure, celle où les survivants se réunissaient pour honorer la mémoire du mort (1), devait être, pour les rois de Bab-el-Molouk, les grands édifices commémoratifs bâtis à l'entrée de la nécropole. Les principaux et les plus solidement construits seraient seuls venus jusqu'à nous.

(1) Sur les tombes extérieures, voyez plus haut, pages 63, 64.

Fig. 322 p. 185
Fig. 323 p. 186

317 sommes plus sur la mer Rouge aux flots verts, mais
318 sur le Nil aux eaux bleues. Des barques richement
ornées sillonnent le fleuve. Au bas du tableau de nouvelles troupes sont en marche. Mais, tout intéressants qu'ils sont, on ne peut dire si ces nouveaux épisodes se rattachent à la campagne dont la grande scène de la chambre principale nous a gardé le souvenir.

C'est près de là qu'une belle porte précédée de décombres amoncelés donne accès dans une chambre dont les sculptures ont gardé tout l'éclat de leurs couleurs. On admirera surtout, de chaque côté du couloir du fond, le personnage royal s'abreuvant
319 de lait divin aux mamelles d'Hathor sous la forme
320 de l'une des plus belles vaches que les bas-reliefs
321 égyptiens puissent nous montrer.

13me Journée. Bab-el-Molouk est le St-Denis des rois de la XIXme et de la XXme dynastie. Une bifurcation de la route mène à une autre vallée située un peu plus loin dans l'ouest où les derniers rois de la XVIIIme dynastie sont enterrés.

La seule vallée que l'on visite habituellement est la première, celle des rois de la XIXme et de la XXme dynastie.

Fig. 317, 318 p. 183

Fig. 319, 320, 321 p. 184

nant d'une campagne. Plus loin, presqu'au fond du temple, à quelques pas seulement de la porte de granit qu'on aperçoit de toutes les parties de la plaine environnante, est un autre tableau, cette fois plus clair. Nous n'en avons plus que la fin. Hatasou avait envoyé ses troupes faire campagne en Arabie. L'expédition touche à son terme. Les captifs, les otages arrivent (paroi du sud). Ceux-ci mettent en tas les tributs imposés aux vaincus ; ceux-là apportent
313 des arbres entiers dont les racines sont enfermées dans des couffes. La couleur de la peau, les armes,
314 les vêtements de ces personnages méritent d'être
315 étudiés. On verra aussi avec intérêt le dessin des huttes terminées par une coupole. On est au bord de la mer dont la transparence laisse naïvement apercevoir les poissons, et un détachement de troupes égyptiennes s'avance pour recevoir les arrivants. La fin du tableau se trouve sur la paroi de l'ouest. Au registre supérieur, nouveau défilé de personna-
316 ges qui arrivent en suppliants. Plus bas, la flotte égyptienne est échouée sur le rivage. On embarque les tributs, et ici encore les poissons sont figurés avec un art qu'appécieront les connaisseurs en histoire naturelle. Un troisième sujet orne la chambre à côté, vers le sud. Cette fois nous ne

---

Fig. 313 p. 181
Fig. 314, 315 p. 182
Fig. 316 p. 183

qu'il offre et sa proximité de la plaine, présentait aux exploiteurs des facilités que leur refusait Deir-el-Bahari.

Du reste, il est vraisemblable que Deir-el-Bahari est un temple qui a été assez tôt abandonné. Dès la XXII^me dynastie on a commencé en effet à s'en servir comme d'une nécropole, et dans une de ses chambres (celle dont nous parlerons tout-à-l'heure), on a trouvé, empilées presque jusqu'au plafond, des momies d'époque grecque, gisant sur des couches d'autres momies dont les plus anciennes pouvaient remonter jusqu'à la XXVI^me dynastie.

L'histoire n'est pas plus oubliée à Deir-el-Bahari qu'au Ramesséum et à Médinet-Abou. Mais il est difficile de dire si les tableaux qu'on rencontre par fragments çà et là dispersés se rapportent à un même ensemble. En arrivant au temple par l'est, c'est-à-dire presque au bas de l'édifice, est un premier
312 sujet. Des troupes sont en marche. Des trompettes, des officiers les précèdent. Les soldats portent toutes leurs armes. Quelques-uns ont en main des branches de feuillage. On remarquera aussi les étendards surmontés à la hampe des cartouches d'Hatasou. Evidemment, nous avons là sous les yeux l'entrée triomphale des troupes reve-

Fig. 312 p. 181

308 cartouches divers qui, à première vue, établissent
309 une certaine confusion dans l'esprit du visiteur.
310 C'est qu'en effet Hatasou a successivement pris
311 plusieurs noms selon qu'elle fût associée au trône
du vivant de ses deux frères Thoutmès II et Thoutmès III, selon qu'elle fut régente au nom du dernier d'entre eux ou qu'elle régna en son propre nom. La science n'a pas, nous le pensons, encore dit son dernier mot sur ces différents noms, et peut-être la solution du problème se trouve-t-elle dans les inscriptions nouvellement déblayées et encore peu connues du temple de Deir-el-Bahari.

Deir-el-Bahari a été construit sur un plan bizarre qui ne rappelle, même de loin, aucun des autres temples de l'Egypte. Une longue allée de sphinx, détruite de fond en comble, deux obélisques dont les bases seules sont encore visibles, le précédaient. A partir de là le temple montait par cours successivement étagées vers la montagne, le passage d'une cour à l'autre se faisant au moyen de rampes inclinées.

Le temple de Deir-el-Bahari est bâti en beau calcaire blanc et l'on s'étonnerait qu'un seul pan de mur en soit encore debout, si l'on ne remarquait que l'Assassif, par l'abondance des ressources

Fig. 308, 309 p. 179

Fig. 310, 311 p. 180

se rendre un compte exact de la partie de la nécropole à laquelle cette porte appartient, parce que, exploitée tour à tour par les marchands d'antiquités et les propriétaires de fours à chaux, elle a plus souffert pendant la première moitié de ce siècle que pendant les deux ou trois mille ans de sa durée totale. Tout ce qu'on peut dire, c'est qu'à l'extrémité ouest de l'Assassif, les plus anciennes tombes pourraient être de la XXVIme dynastie, et que les plus jeunes peuvent avoir quelque raison d'être attribuées aux successeurs les plus immédiats d'Alexandre.

307 Le temple de Deir-el-Bahari occupe le fond du cirque dont l'Assassif est le centre. Il est adossé à une montagne à pic, dont le versant opposé aboutit à la vallée que nous connaîtrons bientôt sous le nom de *Bab-el-Molouk*.

L'origine du temple n'est pas douteuse. Deir-el-Bahari est élevé à la gloire de la reine Hatasou, comme Médinet-Abou est élevé à la gloire de Ramsès III. Le lieu choisi pour l'érection de ces temples commémoratifs tient à des motifs religieux propres à l'Egypte, sur lesquels nous ne revenons pas.

Les murs de Deir-el-Bahari sont couverts de

Fig. 307 p. 178

l'intérêt des tombes de Scheikh-abd-el-Qournah et de Qournat-Mouraï. Nous répéterons d'ailleurs à leur propos ce que nous avons dit tout-à-l'heure des tombes de l'Assassif. Des guides choisis par le gouverneur de Qéneh accompagnent et conduisent les voyageurs. En l'absence d'un plan qui seul pourrait renseigner sur les tombes principales à visiter, on fera mieux de se confier aux guides. N'oublions pas de dire que les tombes de Scheikh-abd-el-Qournah et de Qournat-Mouraï sont, presque sans exception, de monuments de la XVIII^e dynastie et de la XIX^e.

Quand la visite aux tombes des collines du sud est terminée, on revient sur ses pas, et obliquant un peu à gauche, on se dirige vers *Deir-el-Bahari.*

Chemin faisant, on coupe transversalement l'extrémité ouest de l'Assassif. L'immense tombe, dont les guides montrent la porte au fond d'une sorte de ravin, est celle de *Pétaménophis;* on n'en conseillera l'entrée qu'à ceux d'entre les visiteurs que l'odeur de chauve-souris répandue dans ce souterrain n'incommode pas. Un peu plus loin, une sorte de grande porte en briques crues appelle l'attention par la disposition extraordinaire des briques de la voûte qui surmonte l'entrée. Il est très-difficile de

Soudan, et un tableau nous le montre arrivant pour prendre possession de son gouvernement. Des peuples de toute couleur et de toute race se présentent devant lui. Les uns sont des nègres aux traits franchement accusés ; les autres, avec le type nègre, sont de couleur brune ; quelques-uns également de couleur brune, ont les traits septentrionaux ; il y a aussi des hommes de couleur rouge, comme les Égyptiens, mêlés à des femmes blanches. Des giraffes, des bœufs aux longues cornes terminées en forme de mains humaines, sont amenés devant Houï. On lui apporte des anneaux d'or, des lingots de cuivre, des peaux de bêtes sauvages, des éventails à long manche, des plumes d'autruche. Un autre tableau nous montre Houï revenant d'une mission dans le pays des *Rotennou* (les Assyriens) et présentant au roi assis sur un trône les envoyés de ces peuples. La grande robe de couleurs voyantes plusieurs fois enroulée autour du corps leur sert de vêtement. Leurs esclaves, nus jusqu'à la ceinture, sont de couleur rouge et blanche. Tous ont la barbe en pointe. Quant aux dons qu'ils apportent au roi, ils consistent en chevaux, en lions, en lingots de métaux précieux, en vases d'or et d'argent curieusement façonnés. On voit par ce seul exemple

C'est au-delà du cirque dont l'Assassif occupe le centre que sont les deux parties de la nécropole nommées *Scheikh-abd-el-Qournah*, et *Qournat-Mouraï*. Là les tombes sont creusées sur les flancs des collines. De grandes portes carrées regardant la plaine s'ouvrent çà et là, et quelques-unes d'entre elles sont rangées avec une symétrie qui, de loin, les fait ressembler aux batteries d'une forteresse. Les tombes ont d'ailleurs ici un intérêt qu'elles n'ont point à l'Assassif et à Drah-Abou'l-Neggah. Le principe d'aménagement est le même que celui des tombes de Saqqarah et de Beni-Hassan : une chambre taillée dans le roc tient lieu de chapelle extérieure où les survivants se réunissent pour les honneurs à rendre au défunt ; un puits qui donne accès au caveau mortuaire scellé à tout jamais s'ouvre dans l'une de ces chambres. Quant à la décoration, elle a dans quelques cas un intérêt très-grand, surtout quand on a pris pour sujet des épisodes de la vie du défunt. C'est ainsi que, dans la tombe d'un nommé *Houï*, fonctionnaire de la XVIIIe dynastie, sont peints des tableaux, qui disparaissent malheureusement tous les jours, et qui n'en méritent que davantage d'être étudiés. Houï, avec le titre de prince de Kousch, avait été gouverneur général du

n'est plus, pour ainsi dire, que du calcaire écrasé. Cette différence tient d'abord à la matière du rocher dans lequel les tombes sont creusées, qui, à l'Assassif, est un magnifique calcaire blanc. Elle tient aussi aux habitudes de l'époque. On trouve à l'Assassif des tombes de la XIXme dynastie, de la XXIIme et surtout de la XXVIme. A ce moment un luxe plus grand a été déployé dans l'ornementation des chapelles extérieures. En diverses parties on a bâti quelques édicules, malheureusement démolis. Des murs épais, aussi en calcaire, qui ont servi sans doute à limiter des parties réservées de la nécropole, se rencontrent en outre assez fréquemment. Tout cet ensemble a donné à l'Assassif un aspect *sui generis* que n'a point Drah-Abou'l-Neggah. Nous ajouterons que, quant aux momies, on les trouve, non au fond de puits profonds comme à Saqqarah, mais soit dans la terre nue, soit dans des caveaux construits à un mètre ou deux de profondeur. Les tombes encore visibles de l'Assassif sont d'ailleurs peu nombreuses et peu intéressantes. Il serait impossible d'en indiquer l'emplacement sans le secours d'un plan. Le mieux est de se fier aux guides, qui ont l'habitude de les indiquer aux voyageurs.

Quand on quitte le temple de Qournah et qu'on suit la lisière des terres cultivées, on voit à droite des collines étagées en avant desquelles est un terrain bouleversé par des fouilles nombreuses.
306 C'est la nécropole appelée *Drah-Abou'l-Neggah*. Drah-Abou'l-Neggah est certainement la plus ancienne nécropole de Thèbes. On y rencontre surtout des tombes de la XIme dynastie, de la XVIIme et du commencement de la XVIIIme. Les rois Entef (XIme dynastie), dont les cercueils sont à Paris et à Londres, y ont été trouvés. Le cercueil de la reine Aah-Hotep et sa fameuse collection de bijoux (Musée de Boulaq), en provient également. Malheureusement il n'y a pas même une tombe à Drah-Abou'l-Neggah qui vaille la peine d'être vue. Le luxe de l'époque se portait sur les momies, et les chapelles extérieures, d'ailleurs infiniment rares, ne comportaient aucun ornement.

En continuant de marcher vers le sud, on arrive à une autre partie de la nécropole qui n'offre plus aux yeux le même aspect que Drah-Abou'l-Neggah. C'est l'*Assassif*. A Drah-Abou'l-Neggah, le terrain remué par les fouilles est jaune, avec mélange de mauvaises briques cassées, et c'est à peine si un éclat de calcaire s'y fait remarquer. Ici le terrain

---

Fig. 306 p. 177

ment de leurs victoires. Un monument d'architecture militaire, commémoratif du roi guerrier par excellence, et non un monument d'architecture civile, tel serait le pavillon de Médinet-Abou.

Nous en avons assez dit sur l'ensemble considérable et important auquel nous venons de consacrer une description peut-être trop longue. Si les invités de S. A. qui ont bien voulu nous suivre ont pris de Médinet-Abou une idée assez grande pour leur faire regarder ce monument comme ce que nous possédons de plus précieux parmi les débris de l'antique civilisation des Pharaons, notre but sera atteint.

12me Journée. — Le programme de la douzième journée comprend la visite aux divers quartiers de la nécropole de Thèbes et au temple de Deir-el-Bahari.

Pour visiter la nécropole on suit au départ le même chemin que pour visiter les temples.

On se dirige d'abord vers le temple de Qournah. Les grandes cours carrées, percées sur trois côtés de portes symétriquement alignées qu'on aperçoit en passant, sont des tombes communes que rien ne désigne à l'attention.

Ramsès III lui-même et pour ainsi dire en personne qui est vivant à Médinet-Abou.

Une dernière question reste à traiter. Cette partie réservée à la famille et que nous avons appelée *le Palais*, est-elle réellement un palais, ce qui ferait du pavillon de Médinet-Abou le seul échantillon d'architecture civile que nous possédions ? Notons que si le pavillon de Médinet-Abou est un palais, c'est que les palais étaient en pierres tout aussi solides que les temples eux-mêmes, et pourquoi les traces mêmes d'un seul autre palais ne sont-elles pas venues jusqu'à nous ? Nous ne décidons pas par là la question de savoir où logeaient les rois, question de plus en plus embarrassante depuis que nous savons qu'ils ne logeaient pas dans les temples. Mais nous inclinons à penser que jamais le pavillon de Médinet-Abou n'a été pour son fondateur un lieu d'habitation. L'idée que, vu de loin et dans le paysage, il évoque par les lignes générales de son architecture, c'est celle de ces tours triomphales
304 *(migdol)* dont les bas-reliefs de Karnak, de
305 Louqsor, du Ramesséum et de Médinet-Abou même, nous ont conservé les dessins, et que les rois faisaient élever sur leurs frontières, à la fois comme un moyen de défense et comme un monu-

Fig. 304, 305 p. 176

et ses archers aident à la victoire de la flotte égyptienne en criblant l'ennemi de leurs traits.

9e *Tableau.* On se met en marche vers l'Egyp-
301 te. L'armée s'arrête à une place forte nommée
302 *Migdol-en-Ramesès-haq-on*. On compte les morts par les mains coupées sur le champ de bataille. Les prisonniers défilent devant le roi. Le roi harangue ses fils et ses généraux.

10e *Tableau.* Retour à Thèbes. Le roi rend grâces aux dieux. Discours des dieux, discours du roi, discours des prisonniers eux-mêmes qui demandent au roi de les laisser vivre pour qu'ils célèbrent encore longtemps son courage et sa vaillance.

On voit par cette description, cependant très-abrégée, de Médinet-Abou, l'importance de l'admirable monument dont nous venons d'étudier les parties principales. Si maintenant nous cherchons à pénétrer dans l'intention du roi qui en a ordonné la construction, on ne peut résoudre le problème que comme il a été résolu déjà pour le Ramesséum. Ce n'est pas en vain que l'emplacement choisi est
303 la lisière du désert et la nécropole. Il y a là comme un souci de la postérité et une sorte de fondation à perpétuité en faveur d'un mort illustre. C'est le souvenir, c'est la mémoire de Ramsès III, c'est

Fig. 301 p. 175
Fig. 302, 303 p. 176

297 5^{me} *Tableau.* Nouveau départ. Les troupes défilent. Ici comme ailleurs, les textes ne sont qu'un long étalage de louanges adressées au roi et de remercîments adressés aux dieux.

6^{me} *Tableau.* Nouvelle bataille et nouvelle victoire. Les ennemis sont les *T'akharo.* Le roi les culbute. Il surprend leur camp. Des femmes et des enfants s'enfuient montés sur des chariots traînés par des bœufs.

7^{e} *Tableau.* Nouvelle marche. L'armée traverse un pays infesté de lions, probablement un des contreforts du Liban. Le roi en tue un, et en blesse un autre. C'est peut-être dans ces parages qu'Aménophis III mit à mort les cent-dix lions que, sur un scarabée du Musée de Boulaq, il se vante d'avoir immolés de sa main dans les dix premières années de son règne.

8^{e} *Tableau.* Ici se place la seule représentation que nous ayons en Egypte d'un combat naval. La
298 scène se passe soit très-près de la côte, soit à
299 l'embouchure d'un fleuve. La flotte des *T'akkaro*
300 renforcée par celle des *Schardina,* attaque la flotte égyptienne. Dans la mêlée un peu confuse on aperçoit un navire ennemi qui a coulé et qui flotte la quille en l'air. Ramsès est sur le rivage

Fig. 297 p. 173
Fig. 298, 299 p. 174
Fig. 300 p. 175

et qu'autre part Médinet-Abou n'ait plus rien à nous apprendre. Il n'en est pourtant rien. Nous passons sous silence le mur extérieur sud où est gravée la liste des fêtes à célébrer dans l'édifice sacré et qui n'offre que peu d'intérêt aux personnes dont le désir n'est pas d'approfondir le sujet. Mais le mur
295 extérieur nord, si encombré qu'il soit, est pour nous une véritable galerie de Musée où dix tableaux rangés symétriquement nous font connaître les incidents d'une guerre entreprise en l'an 9 de son règne par Ramsès III contre les Libyens et les *T'akkaro.*

1er *Tableau.* Départ du roi et de l'armée. Les soldats sont en marche. On étudiera sur le tableau l'armement des troupes, etc..

2me *Tableau.* Grande bataille et grande victoire
296 Les ennemis sont les Libyens de la race des *Tamahou.* Comme les héros d'Homère, le roi combat de sa personne. Le carnage est indescriptible.

3me *Tableau.* On a tué 12,535 ennemis. Les généraux amènent les prisonniers au roi vainqueur

4me *Tableau.* Harangue du roi aux généraux de l'armée. Les troupes sont sous les armes, prêtes à marcher de nouveau à l'ennemi. Détails curieux à étudier.

Fig. 295 p. 172
Fig. 296 p. 173

prière ; auprès du Pharaon sont encore le taureau blanc et les images des rois ancêtres dressées sur une même base. »

Les parties occidentales du temple ont été depuis quelque temps l'objet de travaux assez considérables ordonnés par S. A. le Vice-Roi, et le visiteur se
294 rendra compte de la masse de décombres qui ont été enlevées quand il saura que ce point du temple était celui où se trouvait le plus haut sommet de la butte qu'avait formée la construction du village copte. Malheureusement l'opération n'a pas porté les fruits qu'on en attendait, et des colonnes décapitées, des chambres vides, des inscriptions religieuses n'ayant partout que l'intérêt banal qui s'attache aux légendes de ce genre, ont été tout ce qu'a produit le déblaiement de la partie postérieure du temple. (1)

La masse vraiment énorme de matériaux historiques en présence de laquelle nous venons de nous trouver semblerait faire croire que les ordonnateurs du temple aient épuisé leur effort dans l'intérieur

(1) C'est dans la chambre de l'angle nord-ouest qu'en soulevant le dallage on a trouvé près de mille statuettes de bronze, toutes représentant Osiris, et toutes plus ou moins mutilées à partir des jambes. Il ne faut voir dans ce dépôt qu'une autre preuve de l'usage où l'on était, quand on commençait la construction d'un temple, d'en sanctifier l'aire en la parsemant d'images divines enfouies dans le sol.

Fig. 294 p. 172

tion, et tous les ustensiles du culte ; sept autres prêtres ouvrent le cortège religieux, soutenant sur leurs épaules des statuettes ; ce sont les images des rois ancêtres et prédécesseurs de Ramsès, assistant au triomphe de leur descendant. »

Puis vient la scène des quatre oiseaux, dont nous abrégeons la description. Les quatre oiseaux sont les génies, enfants d'Osiris et protecteurs des quatre points cardinaux. Le grand prêtre leur donne la volée afin qu'ils aillent annoncer au midi, au nord, à l'occident et à l'orient qu'à l'exemple du dieu Horus, Ramsès vient de mettre sur sa tête la couronne emblème de la dominatiou sur les régions supérieures et inférieures. « La dernière partie du bas-relief, dit Champollion, représente le roi, coiffé du Pschent, remerciant le dieu dans son temple.
291 Le monarque, précédé de tout la corps sacerdotal et de la musique sacrée, est accompagné par les
292 officiers de sa maison. On le voit ensuite couper avec
293 une faucille d'or une gerbe de blé, et, coiffé de son casque militaire comme à sa sortie du palais, prendre congé, par une libation, du dieu Ammon-Horus rentré dans son sanctuaire. La reine est encore témoin de ces deux dernières cérémonies ; le prêtre invoque les dieux ; un hiérogrammate lit une longue

---

Fig. 291 p. 170
Fig. 292, 293 p. 171

dins du naos ; la marche est fermée par un peloton de soldats. Des groupes tout aussi variés précèdent le Pharaon : un corps de musique où l'on remarque la flûte, la trompette, le tambour, et des choristes, forme la tête du cortège ; viennent ensuite les parents et les familiers du roi, parmi lesquels on compte plusieurs pontifes ; enfin le fils aîné de Ramsès, le chef de l'armée après lui, brûle l'encens devant la face de son père.

290 « Le roi arrive au temple d'Horus, s'approche de l'autel, répand des libations et brûle l'encens ; vingt-deux prêtres portent sur un riche palanquin la statue du dieu qui s'avance au milieu des flabellum, des éventails et des rameaux de fleurs. Le roi à pied, coiffé d'un simple diadême de la région inférieure, précède le dieu et suit immédiatement le taureau blanc, symbole vivant d'Ammon-Horus ou d'Amon-Ra, le mari de sa mère. Un prêtre encense l'animal sacré ; la reine, épouse de Ramsès, se montre vers le haut du tableau comme spectatrice de la pompe religieuse ; et tandis que l'un des pontifes lit à haute voix l'invocation prescrite lorsque la lumière du dieu franchit le seuil de son temple, dix-neuf prêtres s'avancent portant les diverses enseignes sacrées, les vases, les tables de proposi-

Fig. 290 p. 169

des scènes d'un autre caractère qui ne méritent pas moins l'attention. Champollion les a décrites avec un soin tel, que nous ne pouvons mieux faire que de laisser la parole à l'illustre fondateur de l'égyptologie :

« Ramsès, dit Champollion (*Lettres écrites d'Égypte,* p. 344 de la 1re édition), sort de son palais, porté dans un naos, espèce de châsse richement décorée, soutenue par douze oeris ou chefs militaires, la tête ornée de plumes d'autruche. Le monarque, décoré de toutes les marques de sa royale puissance, est assis sur un trône élégant que des images d'or de la justice et de la vérité couvrent de leurs ailes ; le sphinx, emblème de la sagesse unie à la force, et le lion, symbole du courage, sont debout près du trône, qu'ils semblent protéger. Des officiers agitent autour du naos les flabellum et les éventails ordinaires ; de jeunes enfants de la caste sacerdotale marchent auprès du roi, portant son sceptre, l'étui de son arc et ses autres insignes.

« Neuf princes de la famille royale, de hauts fonctionnaires de la caste sacerdotale et des chefs militaires suivent le naos à pied, rangés sur deux lignes ; des guerriers portent les socles et les gra-

Les tableaux qui couvrent les galeries intérieures sur leurs quatre faces sont si nombreux qu'il faudrait presque renoncer à les décrire. A gauche en entrant est un tableau de bataille. Le visiteur doit être maintenant familiarisé avec ces grandes figures du roi galopant sur son char à travers des ennemis qui fuient éperdus. Nous n'y revenons pas. Cette fois les ennemis sont des *Libou* (Libyens). Au fond du tableau l'artiste les a représentés avec une naïveté qui surprend plus qu'elle ne charme, se culbutant les uns sur les autres. Sur la paroi sud est un second tableau qui nous montre les princes et les généraux égyptiens amenant des prisonniers au roi victorieux. Les prisonniers, dit une inscription, sont au nombre de mille ; il y a eu trois mille morts. A côté est une inscription malheureusement mal conservée qui se rapporte à cette campagne. Dans le troisième tableau, le roi revient en Egypte. Il est précédé de plusieurs groupes de prisonniers
288 enchaînés. Les troupes l'accompagnent. Un qua-
289 trième tableau nous le montre entrant à Thèbes et offrant ses prisonniers aux dieux de la ville.

Ces grands tableaux de bataille occupent tout le registre inférieur des côtés est, sud et nord de la cour. Mais au registre supérieur sont représentées

Fig. 288, 289 p. 168

C'est dans un endroit encore assez mal défini de la Syrie septentrionale que Ramsès rencontra ces puissants ennemis. Une première bataille eut lieu dont, naturellement, Ramsès sortit vainqueur. Un autre combat, cette fois livré sur mer, acheva la déroute des confédérés. Grâce à la valeur de Ramsès, l'Egypte échappa ainsi au danger qui la menaçait et, pour quelque temps encore, garda ses frontières dans l'Asie occidentale.

On passe la porte de granit qui réunit les deux massifs du second pylône et l'on entre dans une vaste cour qu'on peut regarder comme l'ensemble le plus précieux que nous ait légué l'antiquité égyptienne. Des quatre côtés, la cour est bornée par des galeries couvertes de sculptures revêtues de couleurs éclatantes. Les galeries du nord et du sud
287 sont précédées de massives colonnes dont les chapiteaux représentent la fleur de lotus fermée. A l'est et à l'ouest les galeries sont soutenues par des pilastres auxquels des statues du roi étaient adossées. Des futs de colonnes en grès mal dégrossis jonchent le milieu de la cour, à côté de trois ou quatre autres de ces colonnes encore debout. C'est un souvenir de l'époque où Médinet-Abou était une ville copte qui avait fait son église de la magnifique cour dans laquelle nous nous trouvons.

Fig. 287 p. 167

(on peut lire aussi *Poulista*, c'est-à-dire les *Philistins*, ancêtres de ceux qui vinrent s'établir plus tard sur les confins de l'Egypte). Le groupe du milieu nous met en présence des *Taanaouna*. Enfin, dans le groupe supérieur il faut voir les *Schakarscha* dont le nom nous est fourni par l'inscription placée en avant du roi. Tous ces peuples, comme nous le verrons tout à l'heure, sont des insulaires ou des habitants des côtes de la Méditerranée qui s'étaient ligués contre Ramsès et avaient formé avec les peuples de l'Asie occidentale une confédération que Ramsès réussit à vaincre à la suite de combats brillants sur terre et sur mer.

Sur le massif septentrional est gravée une très-
longue et très-précieuse inscription dont l'interpré-
285 tation a été de la part de M. de Rougé l'objet
286 d'un beau travail. Les quinze premières lignes ne
sont guère qu'une fastidieuse énumération des titres accordés au roi. L'intérêt commence à la seizième ligne. Des peuples de l'Asie, les peuples de *Khéta*, d'*Ati*, de *Karkamaska*, d'*Aratou*, d'*Arasa*, s'étaient ligués contre l'Egypte. Un second groupe de peuples, les *Poursata*, les *T'akkara*, les *Schakahscha*, les *Taanaouna*, les *Ouaschascha*, tous peuples maritimes, s'étaient réunis aux premiers.

Fig. 285, 286 p. 166

confuse, le discours que le dieu adresse au roi se résume ainsi : « Je tourne ma face vers le nord, et je veux que la Phénicie soit sous tes pieds ; je veux que les nations qui ne reconnaissent pas l'Egypte, apportent chez toi leur or, leur argent, leur lapis... Je tourne ma face vers l'est, et je veux que l'Arabie te fournisse en parfums, en essences, en bois rares, tous ses produits. Je tourne ma face vers l'ouest, et je veux que les habitants du pays des *Tehennou* t'adressent leurs hommages...etc.., »

La cour qui suit le premier pylône est remar-
282 quable par les énormes statues adossées aux piliers qui bordent un de ses côtés. Comme au Ramesséum, le caractère funéraire du monument se révèle, car ces statues ne sont autre chose que les statues du roi revêtu des attributs d'Osiris.

Quand on entre dans cette seconde cour on a devant soi la face antérieure du second pylône.

Le massif méridional est couvert par un grand tableau. Ammon et Mout sont d'un côté, de l'autre
283 est Ramsès, amenant aux divinités un groupe de
284 prisonniers, rangés sur trois lignes. A en juger par la physionomie générale de leur costume, ces prisonniers sont les trois branches d'un même tronc. Le groupe inférieur représente les *Poursata*

Fig. 282 p. 164
Fig. 283, 284 p. 165

Taraoua » ; ce septième personnage complète avec le 1er, le 3e et le 5e, la série des quatre peuples Kouschites qui paraissent dans le tableau mêlés aux Libyens.

On ne ne trouve par d'autres cartouches que ceux de Ramsès III dans le palais de Médinet-Abou, comme dans le Ramesséum on ne trouve pas d'autres cartouches que ceux de Ramsès II.

B. C'est également au seul Ramsès III que nous allons avoir affaire dans l'intérieur du temple.

Le premier pylône forme à lui seul une monographie à laquelle il serait intéressant de consacrer une étude spéciale. De grandes stèles datées de l'an 11 et de l'an 12 mentionnent les expéditions glorieuses entreprises par Ramsès contre les Libyens, les *Maschaouasch* et d'autres peuples accourus de la Libye, de la Syrie et des îles de la Méditerranée pour se liguer contre la puissance égyptienne. Sur la façade du pylône, du côté nord, est un tableau qui mérite d'être signalé pour la
280 tournure poétique qu'y prend une des inscriptions
281 dont ce tableau est accomppagné. Le roi frappe de sa masse d'armes un groupe de prisonniers agenouillés. Ammon-Armachis lui présente la hâche du combat. Débarrassé de sa phraséologie un peu

Fig. 280, 281 p. 143

est couverte d'un bonnet collant d'où s'échappe une
sorte de queue qui retombe sur le dos ; 2° « le vil
276 chef du pays *d'Amaro* », à la figure allongée, à la
277 barbe pointue ; 3° « le chef des ennemis de *T'ak-*
278 *kara* », au bonnet évasé coupé droit au sommet,
289 à la figure pleine et sans barbe ; 4° « le pays des
Schardina, qui est dans la mer », le personnage qui symbolise ce pays est remarquable par son casque surmonté d'une boule ;' 5° « le chef des ennemis de *Schasou* » ; 6° « le pays de *Toursa* qui est dans la mer. » 7° « Le chef des ennemis de *Ka...* » La file des prisonniers de la Libye et du pays de Kousch est plus endommagée. On voit encore : I° « le chef de la vile race de *Kousch* ». Le graveur par exception lui a donné les traits d'un nègre, quoique Kousch fût compris plus exactement par les égyptiens eux-mêmes dans la race des Chamites ; 2° détruit ; 3° détruit. On voit que le personnage représenté était Kouschite ; 4° « le chef du pays de *Libou* (Libye) » ; il a la barbe pointue, une tresse pend sur son oreille ; 5° « le chef du pays de *Tourses* » ; autre type Kouschite ; on remarquera le nez aquilin, et la grande robe frangée ; 6° « le chef du pays de *Maschaouasch* », si frappant par sa grande physionomie ; 7° « le chef du pays de

Fig. 276, 277 p. 161

Fig. 278, 279 p. 162

importance, Ramsès ne pouvait oublier l'histoire et le soin de se mettre en relief comme conquérant. Dès la porte d'entrée, en effet, Ramsès est représenté amenant aux dieux les prisonniers qu'il a faits sur l'ennemi. Avec une habilité dont on est justement frappé, le sculpteur égyptien a su donner à
274 chacun de ces prisonniers le type de sa race. Son-
175 geons que nous sommes ici au XIIIe siècle avant notre ère, et que nulle part l'ethnographie ne trouvera à étudier sur des exemples plus authentiques les nations qui, à ce moment, peuplaient l'Asie occidentale, la Libye et le Soudan. A la porte d'entrée la plus orientale, le passage qui conduit au palais s'élargit subitement et forme deux sortes de petites cours carrées. Qu'on interroge les sculptures qui décorent la paroi ouest de ces cours. C'est là surtout qu'on trouve, dessinées avec un art parfait, des têtes de captifs qui ne peuvent pas être autre chose que des portraits. Du côté droit, nous voulons dire du côté du nord, sont les captifs asiatiques ; du côté du sud sont les captifs de la Libye et du pays de Kousch. Les prisonniers asiatiques sont ainsi désignés : 1° « Le vil chef des *Khétas*, en prisonnier vivant » ; il a la figure pleine, sans barbe ; les oreilles sont ornées de grands anneaux ; la tête

---

Fig. 274 p. 160
Fig. 275 p. 161

C'est celle qu'on trouve d'abord en pénétrant dans l'édifice par sa porte d'entrée. Vient ensuite le *Temple* proprement dit qui s'annonce par un majestueux pylône.

270 A. Le Palais a tous les caractères d'une habi-
271 tation royale. Deux grandes tours carrées, dont les
272 quatre murs sont symétriquement inclinés vers un centre commun, en forment le corps de logis principal. Les détails d'architecture méritent d'être étudiés. A l'extérieur, les fenêtres se présentent entourées d'ornements spéciaux d'une grande originalité (voyez surtout le côté nord). Des balcons
273 supportés par des prisonniers couchés sur le ventre font saillie sur le mur. Aux étages supérieurs on voit que des consoles étaient destinées à supporter les extrémités du velarium qui devait s'étendre au-dessus du passage d'entrée et protéger du soleil la façade orientale. Mais c'est principalement dans les chambres intérieures que se montre le caractère privé de l'édifice. Là Ramsès III est réellement chez lui, au milieu de sa famille. Une de ses filles lui apporte des fleurs ; il joue aux dames avec une autre ; il reçoit des fruits d'une troisième qu'il caresse en signe de remercîment.

On conçoit que, dans une construction de cette

Fig. 270 p. 158
Fig. 271, 272, 273 p. 159

du pylône et passé l'autre cour qui suit cette porte, on est dans le temple proprement dit. Les cartouches les plus anciens qu'on y trouve sont ceux de Thoutmès II, les plus nombreux sont ceux de Thoutmès III. Viennent ensuite, jusqu'à Ptolémée Physcon, des cartouches de presque toutes les époques dont il est curieux d'étudier l'enchevêtrement au milieu des restaurations que le temple a subies.

Maintenant que nous connaissons le fondateur et les diverses époques du temple de Thoutmès,
268 quelle en est la destination? à quel usage était réservé ce petit édifice avant que Ramsès III lui donnât pour voisin le grandiose monument qui attire à lui seul aujourd'hui toute l'attention? C'est ce que les inscriptions ne disent pas.

268 2° *Temple de Ramsès III.* Le temple de Ramsès III, est par sa grandeur, par son ensemble, par son importance historique, par son style, par la variété des tableaux dont il est décoré, un des monuments égyptiens dont la visite laisse la plus agréable et en même temps la plus forte impression.

Il se compose de deux parties séparées par une cour. La première est ce qu'on appelle le *Palais:*

Fig. 268 p. 157
Fig. 269 p. 158

sailles, à la gloire de Ramsès III. Mais en réalité Médinet-Abou est le composé de deux temples, dont voici la description.

265 1° *Temple de Thoutmès II.* Aux chapiteaux
266 fleuris des colonnes qui s'élèvent dans le fond de la première cour, au style gauche des sculptures et particulièrement des hiéroglyphes, on devine que l'entrée est d'époque romaine. On lit en effet les noms de Titus, d'Adrien, d'Antonin, sur les diverses parties de la cour.

267 Le pylône à moitié construit qui vient après la cour est également d'époque romaine, bien que la porte placée entre eux soit d'un côté du règne de Ptolémée Lathyre, de l'autre côté du règne de Ptolémée Aulète.

Une petite cour se présente ensuite, bordée à son extrémité par un pylône de la construction la plus élégante. Ici il faut presque deviner les dates. Quelques cartouches de Tahraka (XXVme dyn., 680 av. J. C.), de Nectanébo II (XXXme dyn., 350 av. J. C.) sont bien visibles çà et là; mais quelquefois il faut savoir rendre à son véritable auteur un cartouche que Ptolémée Lathyre a pris à Nectanébo, lequel l'a pris lui-même à Tahraka.

Quand on a franchi la porte ouverte au milieu

Fig. 265, 266, 267 p. 156

259 aller au-delà des conjectures sur la destination
260 définitive du monument et l'idée générale qu'il a
261 servi à consacrer.

On ne conseillerait pas aux voyageurs de se déranger pour le visiter si son élégante façade, construite sur un modèle dont on ne trouvera pas un exemple mieux conservé en Egypte, ne valait la peine d'être vue. On étudiera aussi avec fruit une curieuse fenêtre ouverte dans la paroi sud de l'une des chambres intérieures.

MÉDINET-ABOU. Quand on traverse la rive gauche de Thèbes en arrivant du nord, comme nous le faisons en ce moment, on aperçoit tout-à-fait au sud, du plus loin qu'on vienne, une grande colline presque noire du sein de laquelle émergent ça et là
262 quelques constructions d'un jaune doré.

263 La colline est le village copte qui, à la chute de la
264 religion égyptienne, se forma autour du temple dont nous apercevons les restes, l'ensevelit peu à peu et finit par le couvrir presque entièrement de ses maisons. Le temple est *Médinet-Abou,* ainsi nommé du village qu'il a d'abord précédé, et auquel maintenant il succède.

Pour la plupart des voyageurs, Médinet-Abou est le temple célèbre élevé, comme une sorte de Ver-

---

Fig. 259, 260, 261 p. 154

Fig. 262, 263, 264 p. 155

« soupirant pour se plaindre à sa mère de l'ou-
« trage de Cambyse ; et lorsque le brillant soleil
« lance ses rayons, il annonce le jour aux mortels
« ici présents. » — « Ta mère, la déesse Aurore
« aux doigts de rose, ô célèbre Memnon, t'a rendu
« vocal pour moi qui désirait t'entendre. La dou-
« zième année de l'illustre Antonin, le mois de
« pochôn comptant treize jours, deux fois, ô être
« divin, j'ai entendu ta voix, lorsque le soleil quit-
« tait les flots majestueux de l'Océan. Jadis le fils
« de Saturne, Jupiter, te fit roi de l'Orient ; main-
« tenant tu n'es plus qu'une pierre ; et c'est d'une
« pierre que sort ta voix. Gémella a écrit ces
« vers à son tour, étant venu ici avec sa chère
« épouse Rufilla et ses enfants. »

257 Deir-el-Médineh. Entre les Colosses et Medi-
258 net-Abou, derrière la partie de la nécropole antique nommée *Qournat-Mouraï*, est un petit temple perdu dans un pli de terrain. Il a été commencé par Ptolomée Philopator et achevé par les successeurs de ce prince. Sans aucun doute, la place qu'il occupe dans la nécropole et la présence d'Osiris parmi les dieux de l'intérieur, en font un monument d'intention funéraire, Mais, comme il arrive souvent, les incriptions ne nous font pas

Fig. 257, 258 p. 153

nous venons de parler ont été nombreux. En général les inscriptions sont datées, les plus anciennes du règne de Néron, les plus récentes du règne de Septime Sévère. La seule époque d'Adrien en a fourni vingt-sept à la collection, sans compter celles, plus nombreuses, qu'aucune date ne signale à l'attention. Le plus souvent les inscriptions sont en
256 prose et revêtent la forme la plus simple, comme celle-ci : « Sabine Auguste, femme de l'empereur « César Auguste a entendu deux fois Memnon, « pendant la première heure, » et cette autre : « Moi.... Vitalinus, épistratège de Thébaïde, avec « ma femme Publia Sosis, j'ai entendu Memnon, « l'an III..., au mois de pochôn, deux fois, à une « heure et demie. » Mais quelquefois aussi la poésie est employée, et comme modèle de ce genre nous citons les deux suivants : « Moi, Pétroniamus, « qui tiens de mon père le nom de Duillius, italien « de naissance, je t'honore par ces vers élégiaques, « en faisant au dieu, qui me parle, un présent « poétique. Mais en retour, ô roi, accorde-moi « une longue vie. Beaucoup viennent en ce lieu « pour savoir si Memnon conserve une voix dans « la partie du corps qui lui reste. Quant à lui, assis « dans son trône, privé de sa tête, il résonne en

Fig. 256 p. 152

tintement n'était que le résultat du craquement de la pierre mouillée par la rosée de la nuit et échauffée par le soleil. Mais pour les Grecs et les Romains qui voyageaient alors en Égypte, le phénomène ne tarda point à prendre le caractère du miracle. Le colosse était situé dans un quartier de Thèbes appelé les *Memnonia*. Memnon était dans les traditions qui avaient cours parmi les étrangers, le légendaire fondateur des édifices de cette partie de la ville. La voix qu'on entendait,
255 n'était-ce pas la plainte de Memnon implorant sa mère divine l'Aurore? La célébrité du colosse se répandit aussitôt. De toutes parts on vint pour entendre la voix merveilleuse, et à l'envi on se mit à graver sur les jambes de la statue les témoignages de l'admiration de ceux que leur bonne fortune avait rendus témoins de ce miracle. Enfin, après deux siècles et demi, Septime Sévère crut faire taire la plainte du héros et rendre sa voix plus belle en rétablissant le colosse. Il n'y réussit qu'à demi. Le héros ne se plaignit plus, mais la voix étouffée sous les blocs de grès qu'on voit encore aujourd'hui en place, cessa pour toujours de se faire entendre.

On peut voir à la seule inspection des jambes du colosse combien les témoignages d'admiration dont

---

Fig. 255 p. 151

Nous n'avons pas besoin d'ajouter que les deux statues représentent Aménophis III, assis dans la pose hiératique. Les statues adossées au siége, sont celles de la mère et de la femme de ce prince.

La statue du nord est le *Colosse de Memnon*, si célèbre pour les voyageurs qui, dans les deux premiers siècles de la domination romaine en Egypte, ont visité la terre des Pharaons. Destiné par Aménophis III à orner la façade de son temple,
253 ce colosse resta pour tout le monde la statue d'Aménophis jusqu'au jour où, en l'an 27 avant notre ère, un tremblement de terre en fit tomber la partie supérieure (1). Chose étrange, cet acci-
254 dent qui enlevait au colosse sa valeur, est le fait qui lui donna sa célébrité. On s'aperçut bientôt, en effet, que du socle resté en place, un tintement sonore semblable à une voix humaine s'échappait quand le soleil du matin frappait le monument de ses rayons. Sans aucun doute, ce

(1) *Thebæ Aegypti usque ad solum dirutæ sunt*, dit Eusèbe. Si ce tremblement de terre eut cette violence, on peut lui attribuer la chute du pylône dont les débris accumulés font une impression si navrante quand on entre dans la grande cour de Karnak. La corrosion de la base des murs par le nitre n'en est pas moins la cause qui a amené le plus d'écroulements dans le temple de Karnak.

Fig. 253 p. 150
Fig. 254 p. 151

chesse de ses matériaux. Les colosses sont en brèche, et comme ils n'ont pas servi à alimenter les fours-à-chaux voisins, ils ont survécu.

251 Sans aucun doute, le temple dont les colosses annonçaient si magistralement l'entrée était à Aménophis III ce que le Ramesséum était à Ramsès II, et ce qu'était à Ramsès III Médinet-Abou. On voit par là que la destruction de cet édifice a privé la science de documents qui auraient probablement jeté un jour très-vif sur un des règnes les plus intéressants de l'histoire égyptienne.

252 Les deux colosses sont en brèche, mêlée de cailloux agatisés. Primitivement ils étaient monolithes. Un accident, sur lequel nous reviendrons, ayant fait perdre au colosse du nord sa partie supérieure, cette partie a été rebâtie en blocs disposés par assises. Les deux colosses ont leur base isolée, de même matière qu'eux.

Quand les deux statues s'élevaient en face du pylône, debout sur leur base, elles avaient 19 m. 60 c. de hauteur, ce qui est la hauteur d'une maison à cinq étages de Paris. Détachées du socle sur lequel elles sont posées, les statues proprement dites, n'ont plus que 15 m. 60 c. Leur enfouissement dans le sol environnant est d'ailleurs le même (1 m. 90 c.) que celui de Karnak.

Fig. 251 p. 149
Fig. 252 p. 150

249 est sur la route des Khétas qui fuient éperdus. Ils s'y précipitent, et de l'autre côté du fleuve, on voit retirer des flots l'un des généraux ennemis que ses soldats suspendent la tête en bas, pour lui faire rendre l'eau qui l'a suffoqué. Les épisodes que le sculpteur a réunis çà et là avec plus de bonne volonté que de talent, sont aussi nombreux qu'intéressants, comme on peut le voir en jetant les yeux sur les diverses parties des grands tableaux qui couvrent le pylône. Nous ne nous y arrêterons pas davantage.

Des scènes religieuses où Ramsès est représenté
250 en adoration devant les dieux de Thèbes, de longues listes des princes et des princesses de la famille du roi, un tableau astronomique que les beaux travaux de M. Biot ont rendu célèbre, se trouvent dans les autres parties du temple. Une salle hypostyle s'ouvrait aux cérémonies intérieures de l'édifice On en admire les colonnes dont les chapitaux en fleurs épanouies ont une grâce que les lourdes colonnes de la salle hypostyle de Kărnak sont loin de posséder.

Les Colosses. Les colosses précédaient le pylône d'un temple qui a disparu jusqu'aux fondements. Le temple était en calcaire et a péri victime de la ri-

Fig. 249, 250 p. 148

244 Egyptiens aient taillée dans un seul bloc de granit.
245 Elle mesure 17 mèt. 50 c. de hauteur et son
246 poids n'est pas moindre de 1,217,872 kilogrammes
247 Ramsès, bien entendu, est le personnage représenté. Malheureusement, de l'une des œuvres les plus prodigieuses qui soient sorties du ciseau égyptien, il ne reste que des fragments. La face est mutilée, et quand on voit cet effrayant monolithe brisé avec un tel acharnement, on se demande ce qu'il y a de plus étonnant de la patience et de la force de ceux qui l'ont apporté d'Assouan pour en faire l'ornement d'un temple, ou de la force et de la patience de ceux qui l'ont jeté par terre et renversé sur le dos.

Sur la façade intérieure du pylône auquel le colosse de Ramsès était appuyé sont sculptés de nombreux tableaux historiques où nous retrouvons l'épisode de la bataille contre les Khétas. Ici le jour est plus favorable et les détails de la scène peuvent être mieux étudiés. Ramsès est au milieu de la
248 mêlée, semant la mort autour de lui, et déjà des cadavres nombreux jonchent le champ de bataille. Ici, c'est *Krabatousa*, l'écuyer du prince de Khéta, là c'est *Rabsomma*, capitaine des archers, qui tombent atteints par les flèches du roi. L'Oronte

Fig. 244, 245, 246, 247 p. 146

Fig. 248 p. 147

pylône lui-même ; mais nous avons négligé d'ajouter que les représentations qui couvrent la face extérieure de ce pylône sont historiques. Or, c'est à ce
242 même épisode de la guerre des Khétas qu'elles se rapportent, et comme ici Ramsès y est représenté accomplissant l'exploit qui est resté pour lui-même un des grands évènements de son règne, puisqu'il l'a fait reproduire au Ramesséum, à Louqsor, à Karnak, à Ibsamboul, et que nous allons le trouver une autre fois encore occupant le second pylône du temple dont nous faisons la description.

Ce qui reste du second pylône ne semble tenir debout que par un miracle d'équilibre, et si l'on ne savait qu'il y a soixante-dix ans, les artistes qui accompagnaient l'expédition française l'ont vu et dessiné comme nous le voyons et le dessinons aujourd'hui, on craindrait de le voir à chaque instant s'écrouler.

243 Ce second pylône donnait accès dans une cour bordée de pilastres auxquels de grandes figures de Ramsès, revêtu des attributs d'Osiris, sont adossées. Ce que nous avons dit du caractère principalement funéraire du temple explique cette disposition.

En avant du pylône, c'est-à-dire du côté est, était placée la plus gigantesque statue que les

Fig. 242, 243 p. 145

qui l'escortaient à ce moment ont pris la fuite.
239 Ramsès est seul « et personne n'est avec lui ».
N'écoutant alors que son courage, il se lance au
milieu des chars. Il tue les chefs « des vils Khétas »,
force leurs troupes à repasser précipitamment le
fleuve et par sa valeur personnelle change en vic-
toire une déroute certaine. C'est de ce brillant fait
240 d'armes dont le premier pylône du Ramesséum
241 nous consacre le souvenir. D'un côté on voit
Ramsès se précipitant furieusement dans la mêlée.
Les ennemis s'enfuient pleins d'épouvante. Les uns
sont broyés sous les pieds des chevaux et les roues
du char; les autres sont étendus par terre percés
des flèches lancées par la main du roi; d'autres en-
core sautent dans le fleuve et s'y noient. D'un
autre côté, le roi est représenté assis sur son trône.
Les officiers viennent le complimenter. Mais c'est
par des réprimandes que le roi les accueille. « Au-
cun de vous, s'écrie-t-il, n'a bien agi en m'aban-
donnant ainsi, seul au milieu des ennemis. Les
princes et les capitaines n'ont pas réuni leurs mains
à la mienne. J'ai combattu, j'ai repoussé des mil-
liers de nations et j'étais tout seul!... » En dé-
crivant le temple de Louqsor, nous avons mentionné
les deux obélisques qui précèdent le pylône et le

Fig. 239 p. 143

Fig. 240, 241 p. 144

ment où, après lui, on viendra évoquer son souvenir, et où, naturellement, il entretient les survivants de sa piété, de sa gloire, et par conséquent de ses campagnes.

Le Ramesséum est en effet un édifice qui, funéraire dans sa partie principale, nous voulons dire dans l'intention de son fondateur, devient accessoirement historique par les nombreux tableaux d'histoire qu'on y a sculptés.

Comme le temple de Qournah, il était précédé
238 de deux pylônes plus ou moins démolis.

On ne peut bien voir les sculptures du premier qu'à une certaine heure du jour, quand la lumière devient frisante. Les sculptures sont historiques et se rapportent à l'un des épisodes les plus curieux du règne de Ramsès II. Nous sommes en Syrie et sur les bords d'un fleuve que tout indique être l'Oronte. Ramsès est présent de sa personne, et les armes à la main vient disputer la possession du pays à une vaste confédération de peuples confondus sous le nom général de *Khétas*. Atesch est la ville la plus proche. Par un concours de circonstances qui ne sont pas tout-à-fait à l'honneur des généraux égyptiens, Ramsès se trouve tout-à-coup entouré par les ennemis. Ceux de ses soldats

Fig. 238 p. 143

236 Ramsès II, dont il porte les cartouches sculptés
237 sur chacune de ses murailles, il a été bien plus justement appelé le Ramesséum par Champollion, nom qui lui est resté.

La pensée qui a présidé à la construction du Ramesséum est la même qui a présidé à l'érection du temple de Qournah. Ici encore le temple est un cénotaphe. Seulement, au lieu d'avoir le fils du roi défunt pour fondateur, le temple est un monument élevé à sa propre mémoire par Ramsès II lui-même. En parlant des tombes de l'Ancien-Empire, nous avons dit que ces tombes étaient faites de son vivant par le défunt, et cet usage est prouvé par des exemples si nombreux qu'il est absolument hors de contestation. Quand Améni-Amenemha, par exemple, prend la parole à Béni-Hassan et raconte que comme général d'infanterie il a battu les Ethiopiens, que comme moudyr de la province de Sah, il a été généreux envers la veuve et les petits enfants, ce n'est pas à la piété des survivants que cet éloge est dù; c'est Améni-Amenemha lui-même qui, dans une sorte d'autobiographie, nous vante ses vertus. De même Ramsès se fait construire dans la nécropole de Thèbes, en plein quartier des morts, un monu-

Fig. 236, 237 p. 142

226 par le style de ses bas-reliefs. Des deux côtés c'est
227 le même art, la même ampleur, la même finesse.
228 Quand on entre par la porte du milieu dans la
229 salle aux six colonnes et qu'on pénètre dans la
230 troisième chambre à droite, on trouve sur l'un des
murs de cette chambre une admirable tête de Séti
231 qui le cède à peine aux plus belles de celles que les
murailles d'Abydos offrent à notre étude.

Le temple, avons-nous dit, est un monument élevé par Séti à la mémoire de son père Ramsès Ier. Quelques parties restèrent inachevées. Ramsès II s'en empara, et à son tour les consacra à la mémoire de son père Séti.

Le RAMESSÉUM. On va du temple de Qournah
au Ramesséum en suivant la lisière des terres
cultivées. On passe, chemin faisant, devant Drah-
232 abou'l-Neggah, on traverse une partie de l'Assassif,
on longe une autre partie de Scheikh-abd-el-
Qournah, et bientôt on arrive devant d'importantes
233 ruines dont les colossales cariatides et les colonnes
234 monumentales se détachent en belle couleur jaune
sur le fond des montagnes voisines. On est en pré-
sence du Ramesséum.

235 Le Ramesséum a été appelé le *Palais de Mem-
non, le *Tombeau d'Osymandias*. Elevé par

Fig. 226, 227	p. 137	Fig. 232	p 140
Fig. 228, 229	p. 138	Fig. 233, 234	p 141
Fig. 230, 231	p. 139	Fig. 235	p 142

raire. C'est là en effet le côté original du temple
de Qournah. A Abydos le dieu du temple est
221 Osiris lui-même, roi de l'enfer égyptien ; ici le
222 dieu du temple est Ramsès Ier, et le monument est
élevé à la mémoire de ce roi par son fils vivant,
Séti. La position du temple sur le bord du désert
et à l'entrée d'une nécropole, est ainsi expliquée.
223 Le temple est un cénotaphe. On se rappelle ce que
224 nous avons dit (p. 61) de cette partie des *mastaba*,
bien différente du puits, où à certains jours de
l'année les parents se rassemblaient, et où le
défunt, quoique mort, était presque traité comme
vivant. L'idée-mère du temple de Qournah est à
quelques égards la même, avec la différence qui,
pour un égyptien, sépare le roi de la nation. Le
temple de Qournah était, si j'ose m'exprimer ainsi,
225 hanté par le souvenir de Ramsès Ier ; c'est le souvenir de ce roi qu'on y venait évoquer aux jours prévus par le rite. Quant à la momie, elle reposait plus loin, au fond de l'hypogée de Bab-el-Molouk, comme dans les *mastaba* de l'Ancien-Empire la momie reposait au fond du puits inaccessible.

Le temple de Qournah ne rappelle pas seulement par sa date le temple d'Abydos. Il le rappelle aussi

---

Fig. 221 p. 135
Fig. 222, 223, 224 p. 136
Fig. 225 p. 137

et, remontant vers le nord, on va chercher à quatre kilomètres de là, un endroit où les bateaux
220 peuvent facilement aborder et où le chemin du fleuve aux ruines est libre. En d'autres termes quand le Nil est bas on visite les temples en commençant par le sud ; quand le Nil est haut, on les visite, comme nous allons le faire, en commençant par le nord. Dans le premier cas, on reste à Louqsor ; dans le second cas, on passe sur l'autre rive, à quatre kilomètres plus bas.

Les temples qu'on visite dans ce premier jour d'excursion sur la rive gauche sont les suivants :

Temple de Qournah. C'est le plus septentrional des temples de la rive gauche. On le trouve à la lisière des terres cultivées et à l'entrée de la gorge qui conduit à Bab-el-Molouk. Il était précédé de deux pylônes dont quelques pierres révèlent seules l'existence. Contemporain du temple de Séti à Abydos (plus loin, p. 70), il est bâti comme lui sur un plan assez bizarre dont on ne se rendrait bien compte que si les inscriptions de l'intérieur nous permettaient de connaître le détail des cérémonies à la consécration desquelles le temple a dû servir. Comme lui encore il est plutôt funé-

---

Fig. 220 p. 135

samment les mêmes effets, on peut prévoir le temps où d'éboulements en éboulements, la magnifique salle hypostyle, par exemple, verra céder sous un dernier effort la base de ses colonnes déjà rongée plus qu'aux trois quarts et s'abattra sur elle-même,
219 comme se sont abattues les colonnes de la grande cour de l'ouest.

11me Journée. — Première moitié de la rive gauche de Thèbes. L'itinéraire varie avec les saisons. Quand le Nil est bas, quand la plaine occidentale est à sec et qu'on a pu y tracer une route, quand surtout il est possible d'aborder sur la rive gauche en face de Louqsor, on fait de Louqsor son quartier-général et de ce point fixe on rayonne sur la ville entière, la rive gauche comprise. Mais au moment de la crue du Nil ou peu de temps après, la plaine est coupée de flaques d'eau, et des canaux encore pleins la sillonnent ; d'un autre côté une barque partie de Louqsor pour aller accoster en face s'échoue avant d'arriver, et les voyageurs doivent faire à dos d'homme une marche qui est quelquefois de deux cents mètres. Pour toutes ces raisons, on quitte Louqsor quand on veut visiter pendant la crue la rive gauche de Thèbes,

Fig. 219 p. 134

ment le plus pittoresque de l'Egypte. Ces ruines se sont-elles amoncelées sous l'effort de quelque tremblement de terre? La destruction de Karnak est-elle l'effet du passage de Ptolémée Lathyre et du sac impitoyable auquel ce prince livra Thèbes après un siége de plusieurs mois? Ne serait-ce pas plutôt le résultat de la mauvaise construction du temple et de sa position par rapport au Nil? (1) Peut-être sera-t-il sage d'adopter cette dernière opinion. Les temples pharaoniques sont en effet généralement bâtis avec une négligence extrême. Le pylône de l'ouest, par exemple, ne s'est effondré que parce qu'il était creux et que dès lors l'inclinaison des murs, loin d'être un moyen de solidité, n'a plus été qu'une cause de chûte. Notons en outre que, plus que tous les autres temples égyptiens, Karnak est atteint chaque année depuis longtemps par les infiltrations du Nil dont les eaux saturées de nitre corrodent le grès. Le temple de Karnak a donc subi les injures du temps à un point que les autres temples ne connaissent point par la négligence de ses constructeurs et surtout par sa position relativement au Nil, et les mêmes causes produisant inces-

(1) Le dallage du temple est de 1m 90 environ au-dessous du niveau général de la plaine environnant.

simple pyramidion en cuivre doré comme le devait être le pyramidion de l'obélisque d'Héliopolis (plus haut, p. 20), peut-être l'inscription fait-elle allusion à cette sphère (d'or?) qu'on voit sur certains bas-reliefs de Saqqarah ; 2° l'obélisque était doré, sans doute du haut en bas ; si l'on remarque, en premier lieu que le fond des hiéroglyphes a été soigneusement poli, en second lieu que la surface plane du monument a été laissée relativement rugueuse, on conclura de là que la surface plane (enduite d'un stuc blanc ainsi que cela se voit sur tant de monuments égyptiens) a seule reçu ce coûteux embellissement, les hiéroglyphes conservant leur couleur et leur fond de granit ; 3° enfin l'inscription cite comme un fait digne d'être transmis à la postérité la prompte exécution, non seulement de l'obélisque dont nous nous occupons, mais encore de celui qui lui faisait pendant et qui est brisé, lesquels ont tous deux été achevés « en sept mois, depuis le commencement (du travail d'extraction) dans la montagne. »

Nous terminerons ces brefs renseignements sur Karnak par une dernière observation. Tout le monde remarque et admire l'entassement de pierres qui fait de Karnak, vu d'un certain côté, le monu-

l'obélisque de la place St-Pierre à Rome 25 mètres
13 cent., l'obélisque de St-Jean de Latran à Rome
32 mètres 15 cent.; l'obélisque d'Hatasou a 33
199 mètres 20 cent. Il est par conséquent le plus grand
obélisque connu. On remarquera avec quelle régula-
rité il est posé sur sa base. Son axe est l'axe même
du temple, et cette précision (étant donné le poids
vraiment considérable du monolithe) trahit l'emploi
de moyens mécaniques aussi délicats que puis-
sants.

215 Les légendes qui courent du haut en bas de l'o-
216 bélisque ne sont que des formules dédicatoires au
217 nom d'*Hatasou* (XVIIIme dynastie, vers 1660
avant J.-C.). Hatasou est, comme on le sait, la
fameuse régente qui tient une place considérable
dans l'histoire de la XVIIIme dynastie et dont le
nom est justement cité à côté de celui des Thoutmès
et des Aménophis.

Au bas de l'obélisque est une inscription en lignes
218 horizontales qui couvre les quatre faces. Cette ins-
cription nous fait connaître quelques renseigne-
ments qu'il est bon de ne pas négliger. Ce que
nous y apprenons peut se résumer ainsi : 1° le som-
met de l'obélisque était recouvert « d'or pur enlevé
aux chefs des nations »; s'il ne s'agit pas d'un

Fig. 214 p. 131
Fig. 215 p. 133
Fig. 216, 217, 218 p. 133

personnages un type à peu près commun, rappelant dans son ensemble le type des peuples vaincus, mais que pour retrouver la physionomie vraie de ces peuples il vaut mieux s'adresser aux personnages évidemment plus étudiés sur lesquels le pharaon vainqueur lève sa masse d'armes.

Le même mur se prolonge vers l'est et s'arrête bientôt à un autre mur qui le coupe à angle droit. Si l'on monte sur cet autre mur en regardant le nord, on a à sa droite un long texte qui n'est autre
212 chose que la copie du fameux poëme de *Pen-ta-our*, œuvre littéraire composée par un poëte de ce nom pour éterniser la mémoire d'un fait d'armes accompli par Ramsès II dans sa campagne de l'an 5 contre les Khétas ; on a à gauche ce qui reste des bas-reliefs qui représentaient des épisodes d'une autre campagne sans date contre le même peuple ; enfin l'on a sous les pieds (côté ouest du mur) la stèle où est gravé avec tout l'appareil monumental du temps
213 le traité de paix conclu entre Ramsès II et Khétasar, roi des Khétas, en l'an 21 du règne du premier de ces princes.

4° *L'Obélisque d'Hatasou.* L'obélisque d'Héliopolis a 20 mètres 27 cent. de hauteur totale, l'obélisque de Louqsor à Paris 22 mètres 80 cent.,

---

Fig. 212 p. 129
Fig. 213 p. 130

groupe de prisonniers agenouillés à ses pieds. A gauche Ammon de Thèbes et la Thébaïde personnifiée par une femme tenant en main le carquois, l'arc et la masse d'armes, se présentent devant lui. Près de 150 personnages dont les têtes seules sont apparentes et dont les corps sont cachés derrière
211 une sorte d'ellipse crénelée qui figure le plan d'une forteresse ou d'une ville, suivent ces deux divinités. Les inscriptions expliquent le sens de la représentation. Ce sont les dieux eux-mêmes qui amènent à Sésac les villes qu'il a prises dans sa campagne. Autant de cartouches crénelés, autant de localités vaincues. A ce tableau se rattache d'ailleurs un intérêt particulier que nous ne devons pas passer sous silence. Dans la 29e cartouche Champollion avait lu *Joudah-melek* et il avait conclu que la tête qui surmonte ce cartouche était le portrait du *roi de Juda* lui-même vaincu par Sésac. Mais les recherches de M. Brugsch ont démontré que Joudah-melek est, comme tous les autres noms sans exception, le nom d'une localité de la Palestine, et que dès-lors il n'y a aucune raison pour que nous voyions dans le personnage qui sert à symboliser cette localité le portrait de Jéroboam. Nous ajouterons au surplus que le sculpteur a donné aux 150

Fig. 211 p. 129

prisonniers sont amenés enchainés pour être présentés aux dieux de Thèbes.

206 Le roi victorieux rentre en Egypte. Il s'arrête à
207 *Ouat'i-en-Séti.* Il passe ensuite une autre forte-
208 resse nommée *Ta-sam-ef-en-pa...*, puis une troisième qui s'appelle *Pa-ma.* Il arrive enfin devant une ville fermée dont le nom est perdu *(Pithom-en...)*, précédé de nombreux prisonniers de toutes les nations. Là, près d'un cours d'eau peuplé de crocodiles, il reçoit les principaux fonctionnaires de l'Egypte qui sont venus pour l'acclamer.

Grande scène symbolique. Le roi lève la masse d'armes sur un groupe de prisonniers qu'il a saisis par la chevelure et qu'il va immoler devant le dieu de Thèbes. Nouvelles scènes de guerre. Le roi combat des ennemis montés sur des chars, etc., etc.

3° *Les bas-reliefs du mur extérieur sud de la Salle hypostyle.* Le visiteur qui se transportera au côté ouest de ce mur trouvera, près de la porte qui donne entrée dans la grande cour, un tableau digne de son attention. Ce tableau a été sculpté en souve-
209 nir d'une campagne victorieuse faite par le 1er roi
210 de la XXIIme dynastie (celui que la Bible appelle Sésac) contre la Palestine. A droite Sésac lui-même est représenté levant le bras et frappant un

Fig. 206, 207 p. 126
Fig. 208 p. 127 Fig. 209, 210 p. 128

crudité des peintures dont les colonnes et les plafonds sont ornés.

2° *Les bas-reliefs du mur extérieur nord de la Salle hypostyle.* Ces bas-reliefs sont les monuments les plus précieux que nous possédions du règne de Séti. Ce roi y a fait représenter, sans trop de souci d'un ordre rigoureusement chronologique ou topographique, ses campagnes dans l'Asie Occidentale contre les Arméniens, les Assyriens, les *Schasou* (Arabes du désert), etc.

202 Séti est sur son char. Ses chevaux (le premier
203 s'appelle *Puissance en Thébaïde)* l'entrainent dans
204 la mêlée. Les ennemis sont les Schasou. Séti les
205 poursuit et les perce de ses flèches. Ceux qui échappent rentrent précipitamment dans la forteresse *Kanana* qui leur sert de refuge.

A côté seconde scène de bataille. Les ennemis sont les peuples du pays de *Kharo*. Ils tombent frappés par les traits du roi. Le pays de Kharo n'est plus désormais qu'une province de l'Empire Egyptien et des forteresses dont Séti s'est emparé perdent leur nom pour en prendre un autre composé avec celui du pharaon vainqueur.

Autre campagne, cette fois contre les *Rotennou* (Assyriens) « qui n'ont pas connu l'Egypte ». Les

Fig. 202, 203 p. 124

Fig. 204, 205 p. 125

masse, et par l'incroyable entassement de ruines qu'on y remarque. Sous ce rapport, on n'a jamais assez vu Karnak, et plus on y vient, plus l'idée qu'on s'en est fait s'agrandit. (Pour une bonne description de Karnak, voyez le *Guide* de MM. Isambert et Joanne).

Il est impossible cependant de quitter un édifice de cette importance sans s'y arrêter à quelques détails. Nous indiquerons donc aux visiteurs, comme plus particulièrement intéressants à étudier, les points suivants :

200 1° *La Salle hypostyle.* La salle hypostyle
201 compte à elle seule 134 colonnes. Elle mesure 102 mètres sur 51. Les cartouches les plus anciens qu'elle porte sont ceux de Séti 1er (XIX^{me} dynastie, 1450 avant J.-C.). Certains indices feraient croire cependant que Séti n'est pas le constructeur de la salle et que l'honneur de cette grandiose conception revient à Aménophis III. Originairement la salle était couverte toute entière et le jour n'y entrait que par les fenêtres grillagées dont on voit encore des parties sur l'un des côtés de la nef centrale. Un demi-jour, un peu plus vif qu'à Dendérah, devait donc seul pénétrer dans la salle et favoriser singulièrement l'effet général en adoucissant la

Fig. 200, 201 p. 123

au moins l'ornementation d'une partie du sanctuaire. On sait du reste que Louqsor est le centre d'un commerce plus ou moins licite d'antiquités. Les fouilles étant absolument défendues en Egypte et des fouilles seules pouvant alimenter ce commerce, il s'ensuit que Louqsor est en même temps le centre de quelques fabriques où les scarabées, les
197 statuettes, les stèles mêmes sont imités avec une adresse qui déroute souvent l'antiquaire le plus exercé.

Dans l'après-midi, on se rend à Karnak.

198 Karnak est le plus merveilleux amas de ruines que l'on puisse voir. C'est même à ce seul point de vue que l'on doit visiter Karnak. Chercher à démêler dans Karnak, comme nous l'avons fait pour Dendérah, un plan, un ensemble, une destination, est en effet impossible. L'unité, si elle a
199 jamais existé, y est aujourd'hui absolument rompue, non seulement par les dévastations que le temple a subies, mais encore par les époques qui, au temps de son intégrité, s'y sont superposées. Les antiquaires de profession trouveront donc seuls dans Karnak quelques épis à glaner; le simple voyageur doit voir ce temple comme un monument qui étonne l'imagination par sa grandeur, par sa

---

Fig. 197 p. 121
Fig. 198, 199 p. 122

gah. En avant de Deir-el-Bahari est une seconde nécropole qui s'appelle *El-Assassif ;* enfin sur la pente des collines situées derrière le Ramesséum est une troisième nécropole appelée *Scheikh-Abd-el-Qournah* et *Qournat-Mouraï*. Nous ne parlerons que pour mémoire de la *Vallée des Reines* et des deux *Vallées des Rois (Bab-el-Molouk)* situées assez loin dans le désert à l'ouest.

191 La matinée du premier jour de station à Thèbes
192 est consacrée à la visite de Louqsor. Submergé sous
193 les maisons modernes qui l'ont envahi comme une
195 marée montante, le Temple de Louqsor n'offre au
196 visiteur qu'un intérêt médiocre. Son plan est très-irrégulier, ce qui est dû à cette circonstance qu'originairement le temple était bâti sur le bord du fleuve et à pic sur un quai qui en suivait les détours. Comme date, le temple de Louqsor remonte à la XVIIIme dynastie et au règne d'Aménophis III. (1600 avant J.-C.). La haute colonnade qui domine le fleuve est du règne d'Horus (1480 avant J.-C.). Ramsés II (1400. avant J.-C.) fit élever les deux obélisques, les colosses qui les accompagnent et le pylône qui les suit. A l'intérieur on trouve les noms de Tahraka, de Psammétichus, d'Alexandre auquel est due, sinon la construction,

Fig. 191, 192 p. 119
Fig. 193, 194 p. 120
Fig. 195, 196 p. 121

possible de faire dire aux cryptes elles-mêmes par quel lien elles se rattachent au temple. On devine seulement que la construction de ces corridors cachés dans le sol n'est pas sans rapport avec les idées d'enfouissement et de résurrection, de vie latente et de vie active, de germination souterraine et de fleuraison, dont le temple offre des applications si
190 nombreuses.

10me journée. — Thèbes s'étend sur les deux rives du Nil, comme Paris et Londres s'étendent sur les deux rives de la Seine et de la Tamise.

Sur la rive droite sont les temples de *Karnak* et de *Louqsor*. Sur la rive gauche sont, en marchant du nord au sud, le *Temple de Qournah*, le *Temple de Deïr-el-Bahari*, le *Ramesséum*, les *Colosses*, le *Temple de Deïr-el-Medineh*, le *Temple de Medinet-Abou*. D'autres temples ornaient avec les précédents la rive gauche de Thèbes ; ils sont démolis et quelques-uns d'entre eux ont à peine laissé une trace reconnaissable.

Sur la rive gauche existent aussi les diverses nécropoles de Thèbes. Derrière le Temple de Qournah est celle qu'on nomme *Drah-Abou'l-neg-*

Fig. 190 p. 118

quand on voulait y pénétrer, on ne pouvait le faire qu'en déplaçant par un mécanisme *ad hoc* la pierre scellée à tous les yeux qui en bouchait l'entrée. Quelle était la destination des cryptes ?

188 La destination matérielle des cryptes ne peut
189 faire l'objet d'un doute. On y déposait des statues de divinités en or, en argent, en lapis, en bois, des sistres, des colliers, des emblèmes de toute sorte, et à certains jours de fête on venait les y prendre pour les porter en cérémonie dans les processions. Hors le temps pendant lequel ces objets servaient à l'embellissement du culte, les cryptes étaient si bien fermées que, des chambres intérieures du temple, on n'en pouvait même soupçonner la présence.

Mais si l'emploi de la crypte comme lieu de dépôt est nettement établi, il n'en est pas de même de l'idée qui a présidé à la construction de ces souterrains invisibles. Des inscriptions nombreuses en couvrent les parois. Malheureusement, autant ces inscriptions prennent de soin à nous renseigner sur les dimensions des objets qui y sont enfermés, sur leur nombre, sur la matière dont il sont formés, autant pour tout le reste elles sont banales et sans intérêt. Quelque soin qu'on y mette, il est donc im-

Fig. 188, 189 p. 117

murailles de pierres, et ses vraies limites étaient plutôt celles de l'enceinte. Dans le temple proprement dit, on logeait les dieux, on les habillait, on les préparait pour la fête ; le temple était une sorte de sacristie, où personne que le roi ou les prêtres n'entrait. Dans l'enceinte, au contraire, se développaient les longues processions, et si le public n'y était pas encore admis, au moins pensons-nous que quelques initiés pouvaient y prendre place. Nous ajouterons, comme renseignement, que dans l'état actuel des lieux, les maisons coptes et arabes qui ont envahi tout le pourtour du temple et de l'enceinte elle-même, ne permettent plus de se rendre
186 bien compte de ce que le temple était, quand il s'élevait isolé et majestueux au milieu d'un vaste parvis que de hautes et sombres murailles de briques bornaient aux quatre coins de l'horizon.

Il est une partie du temple dont nous n'avons point parlé jusqu'ici, et que les voyageurs ont l'ha-
187 bitude de visiter. Il s'agit des cryptes. Les cryptes sont des corridors secrets, étroits et longs, ménagés dans l'épaisseur des fondations et des murailles du temple. Dans l'intention de l'architecte, les cryptes étaient de véritables oubliettes ; elles n'avaient ni portes, ni fenêtres, ni ouverture d'aucune sorte, et

---

Fig. 186, 187 p. 116

donc pas, comme nos églises, un lieu où les fidèles se rassemblent pour dire la prière. On n'y trouve ni chambres d'habitation pour les prêtres, ni lieux d'initiation, ni traces de divination ou d'oracles, et rien ne peut laisser supposer qu'en dehors du roi et des prêtres, une partie quelconque du public y ait jamais été admise. Mais le temple est un lieu de dépôt, de préparation, de consécration. On y célèbre quelques fêtes à l'intérieur, on s'y assemble pour les processions, on y emmagasine les objets du culte, et si tout y est sombre, si, dans ces lieux où rien n'indique qu'on ait jamais fait usage de flambeaux ou d'aucun mode d'illumination, des ténèbres à peu près complètes règnent, ce n'est pas pour augmenter par l'obscurité le mystère des cérémonies ; c'est pour mettre en usage le seul moyen possible alors de préserver les objets précieux, les vêtements divins, des insectes, des mouches, de la poussière du dehors, du soleil et de la chaleur elle-même. Quant aux fêtes principales dont le temple était le centre et le noyau, elles consistaient surtout en processions qui se répandaient au dehors à la pleine clarté du soleil jusqu'aux limites de la grande enceinte en briques crues. En somme, le temple n'était donc pas tout entier dans ses

objets destinés au culte; mais elles étaient plus spécialement le lieu où l'on disait des prières. Dans la *chambre S*, c'est Isis que l'on invoquait. La *chambre T* était consacrée à Osiris. Dans cette
182 chambre Osiris mort était censé rendu à la vie, ce qu'on exprimait symboliquement dans la chambre en changeant les habits qui couvraient la statue du dieu. La *chambre U* était l'endroit sacré d'Osiris-Onnophris. Là le dieu rajeunit son corps, il redonne la vigueur à ses membres, et déjà il apparaît comme le vainqueur de ses ennemis représentés par un crocodile que le dieu, armé d'une pique,
183 « fait marcher à reculons. » Dans la *chambre V*,
184 l'œuvre de la résurrection est accomplie, et le dieu
185 se montre sous la forme d'*Hor-sam-to*. Dans les chambres X et Y, c'est Hathor que l'on vénère, considérée comme le récipient où le soleil prend chaque jour sa naissance. La chambre Z est dans l'axe du temple, et la divinité principale y est adorée sous ses titres les plus généraux. Enfin, dans les chambres A', B', C', D'. On rend un culte particulier à Pascht, considérée comme le feu qui vivifie, à Horus considéré comme la lumière vainqueur des ténèbres, à Hathor terrestre, etc.

Tel est le temple proprement dit. Le temple n'est

Fig. 182, 183 p. 114

Fig. 184, 185 p. 115

La petite *chambre N* était un autre lieu de dépôt pour les objets précieux qui devaient figurer dans cette fête spéciale. Dans les trois *chambres O, P, Q,* le roi consacrait certaines offrandes. Comme toutes les autres fêtes du temple, la fête du Nouvel An consistait surtout en processions. On trouvera les détails de ces processions sur les parois des
179 deux escaliers. Le roi marche en tête. Treize prêtres portant des bâtons d'enseigne surmontés des emblèmes des divers dieux le suivent, etc. Ainsi constituée, la procession montait par l'escalier du nord, s'arrêtait sur la terrasse au petit temple hypè-
180 thre dont chacune des douze colonnes est consacrée
181 à l'un des mois de l'année, et redescendait par l'escalier du sud.

4° Le quatrième groupe comprend les chambres S, T, U, V, X, Y, Z, A', B', C', D'. Ici est la partie de l'édifice plus particulièrement réservée au mythe. Le noyau du temps tout entier s'y trouve et consiste en une niche située dans la chambre Z. Là le roi seul pouvait pénétrer ; là on cachait à tous les yeux l'emblème mystérieux du temple qui était un grand sistre d'or. Quant aux chambres, elles n'ont pas, comme les autres, une destination matérielle, bien que l'on y conservât des

---

Fig. 179 p. 112

Fig. 180, 181 p. 113

en même temps certaines offrandes en pains et en libations. La *chambre J* est le trésor du temple. Aussi chacun des tableaux de l'intérieur de cette chambre nous montre-t-il le roi consacrant et offrant à la divinité des sistres, des pectoraux, des miroirs, des ustensiles de toutes sortes travaillés en or, en argent, en lapis. La *chambre K* est le lieu de dépôt des vêtements dont on habille les statues des dieux. Des coffrets soigneusement fermés contenaient ces vêtements. Toutes les provinces de l'Egypte étaient censées concourir à l'entretien des objets conservés dans la chambre K.

3° Le troisième groupe comprend la chapelle L, la cour M, les salles N, O, P, Q, les deux escaliers du nord et du sud, et enfin un petit temple à douze colonnes situé sur les terrasses et que nous ne pouvons introduire dans notre plan. La fête principale du temple, celle qu'on célèbre au premier jour de l'an et qui a pour objet l'apparition de l'étoile Sirius, est tellement importante qu'on lui a consacré à
177 Dendérah comme un petit temple dans le grand.
178 C'est ce petit temple qui se compose des parties que nous venons d'énumérer. On disait les prières dans la *chapelle L*. Dans la *cour M*, on rassemblait les offrandes, on réunissait les membres des victimes.

Fig. 177 p. 110
Fig. 178 p. 111

portait en cérémonie pendant les processions, ce
que nous allons voir. Les *salles C* et *D*, étaient des
annexes de la salle B ; on y trouvait des autels
devant lesquels on récitait, en passant, certaines
prières. La *salle E* était le lieu de dépôt
des quatre barques qui jouaient un des rôles
principaux dans les processions. Au repos ces
barques étaient posées sur des coffres ; quamd il
fallait les sortir du temple, on les ajustait sur des
174 barres de bois qui servaient à les transporter. Au
centre de chacune d'elles était un édicule toujours
fermé où l'on plaçait l'emblème mystérieux de la
divinité à laquelle la barque était consacrée. Pour
surcroit de précaution, un épais voile blanc était
jeté sur cet édicule qui échappait ainsi à tous les re-
gards. (Comp. dans la Bible la description de
l'arche). La *chambre F* est un laboratoire. C'est
175 là qu'on prépare les huiles et les essences avec les-
176 quelles on doit parfumer le temple et les statues des
dieux. La *chambre G* est le lieu où l'on réunit et
où l'on consacre les produits de la terre qui vont
figurer dans les cérémonies. Les *Chambres H* et *I*
sont des passages, l'un pour les offrandes qui ar-
rivent de la Basse-Egypte, l'autre pour les offran-
des qui arrivent de la Haute-Egypte. On y consacre

Fig. 174, 175, 176 p. 109

et Horus lui versent sur la tête les emblèmes de
167 la purification. Les déesses Ouat'i et Suvan le
168 coiffent de la double couronne. Après quoi Month
169 de Thèbes et Toum d'Héliopolis prennent le roi par
170 la main et le conduisent en présence de la déesse. La
salle A n'est ainsi qu'une entrée, un lieu de passage.
Le roi s'y prépare aux cérémonies que nous allons
lui voir célébrer dans l'intérieur de l'édifice.

171 2° Le deuxième groupe se compose des cham-
172 bres B, C, D, E, F, G, H, I, J, K. Cette fois nous
173 sommes dans le temple proprement dit. Tout y est
fermé, tout y est sombre, tout y est silencieux.
C'est dans les dix chambres du deuxième groupe
que les prêtres s'assemblent et qu'on fait les prépa-
ratifs des fêtes. Une sorte de calendrier, gravé sur
les murs de la salle B, nous apprend de quelle
nature étaient ces fêtes. Elles consistaient surtout
en processions qui circulaient dans le temple, mon-
taient sur les terrasses et en redescendaient pour
parcourir selon les rites prévus les diverses parties
de l'enceinte extérieure. Or, c'est dans la salle B
qu'avait lieu le départ de ces processions. Quant
aux autres salles, elles servaient à la préparation
des offrandes, destinées à figurer dans les fêtes et
à la conservation ou au dépôt des emblèmes qu'on

Fig. 167, 168, 169, 170 p. 107

Fig. 171, 172, 173 p. 108

Selon leur destination, les chambres du Temple de Dendérah peuvent être partagées en quatre groupes qui sont les suivants :

163 1° Le premier groupe ne comprend que la salle A (voyez le plan ci-joint). La salle A n'est qu'une sorte de façade monumentale. Ouverte à la grande lumière et à tous les bruits de l'extérieur, elle est sans rapport direct avec le temple proprement dit. Deux petites portes sont ménagées sur les côtés. Elles servent au passage des prêtres et à l'entrée des offrandes, que nous verrons jouer un grand rôle dans le service intérieur du temple. Quant à la grande porte, le roi seul a le droit de la franchir. Le roi s'y présente, vêtu de la longue robe, les sandales aux pieds, le bâton de la marche en main. Avant de pénétrer dans le temple, il faut que les
166 dieux l'aient reconnu comme roi de la Haute et de la Basse-Egypte, et c'est aux cérémonies de cette consécration que les premiers tableaux à droite et à gauche de la porte d'entrée sont destinés. On y voit le roi sortant de son palais et se présentant à la porte du temple. A droite, c'est-à-dire du côté du nord, il est reconnu comme roi de la Basse-Egypte; à gauche, c'est-à-dire du côté du sud, il est nommé roi de la Haute-Egypte. A son arrivée, Thoth

---

Fig. 165 p. 105
Fig. 166 p. 106

Il s'élève, comme tous les temples égyptiens, au centre d'une vaste enceinte qui a près d'un kilomètre en tous sens.

163 L'histoire du temple de Dendérah peut être résumée en deux lignes. Commencé sous Ptolémée XIII, il était fini comme construction sous Tibère, et sous Néron comme décoration. Jésus-Christ vivait à Jérusalem pendant qu'on achevait de le bâtir.

Il n'est personne qui ne soit frappé de la profusion de textes, de tableaux, de bas-reliefs dont il est couvert. On en a mis jusque sur les plafonds, sur les portes, sur les fenêtres, sur les soubassements,
164 sur les parois des escaliers. Une remarque à faire, c'est que la composition des centaines de tableaux qui décorent l'édifice est identique. Le roi fondateur se présente à une des divinités du temple; il récite devant elle une prière; il accomplit un acte religieux; tel en est l'inévitable sujet. Le roi agit ainsi comme le premier des prêtres du temple, ou plutôt comme le souverain pontife de la religion.

Quand on se trouve en présence du Temple de Dendérah, on se demande naturellement quelle est la destination de cet immense ensemble. Nous allons essayer de répondre à cette question.

Fig. 163, 164 p. 105

autant, bouleversée et méconnaissable comme elle l'est aujourd'hui, elle a pour le simple visiteur perdu son importance. Remarquons que les tombes de la nécropole d'Abydos sont principalement de la VI^{me} dynastie (3700 ans avant J. C.), de la XII^{me} dynastie (3000 ans avant J. C.), de la XIII^{me} dynastie (2800 ans) ; remarquons aussi que la plupart des tombeaux de la XIII^{me} dynastie sont des pyramides économiquement bâties en briques crues, l'intérieur étant évidé en forme de coupole ; remarquons enfin qu'il n'est pas rare de rencontrer parmi les tombes de cette époque et même de la VI^{me} dynastie, des voûtes qui non-seulement sont disposées selon une coupe ogivale, mais où les briques qui forment l'ogive sont taillées en voussoir.

8^{me} Journée. — La 8^{me} journée se passe jusque vers le milieu de l'après-midi sur le Nil. Vers quatre heures, on arrive devant Qéneh, juste assez à temps pour aller visiter la ville.

9^{me} Journée. — Dans la matinée de la
161 9^{me} journée, on visite le temple de Dendérah.
162 Le temple de Dendérah est un des temples les mieux conservés et les plus importants de l'Egypte.

Fig. 161, 162 p. 104

es-Sultân appartiennent aux personnages dont parle Plutarque. La butte de Kom-es-Sultân n'a pas que ce seul intérêt. Il est certain que la fameuse tombe d'Osiris n'est pas loin, et certains indices feraient penser qu'elle est creusée précisément dans la roche qui sert d'assise à la butte, de telle sorte que les personnages enterrés dans Kom-es-Sultân reposent aussi près que possible de la tombe divine.

Les fouilles qui s'exécutent en ce moment à Kom-es-sultân ont donc un double intérêt. Elles peuvent nous mettre entre les mains des tombes riches qui, à mesure qu'on s'enfonce plus avant dans le flanc du tumulus deviennent de plus en plus anciennes, au point qu'il n'est pas déraisonnable de supposer qu'on pourrait en trouver de la Ire dynastie. En second lieu elles peuvent, un jour ou l'autre, nous faire tomber sur l'entrée encore inconnue de la tombe divine, si cette tombe a été souterraine.

Quant à la nécropole, autant elle a offert d'intérêt pendant les fouilles qui y ont été faites par ordre de S. A. le vice-roi, (puisque les quatre cinquièmes des stèles si nombreuses qu'on trouve au Musée de Boulaq sont sorties de cette nécropole),

151 que de Paris, c'est-à-dire que, commencé par
152 Ramsés II alors qu'il n'était encore que roi associé
153 au trône du vivant de son père Séti, il a été
154 achevé par Ramsés II régnant seul.
155 Toujours en montant vers le nord est une en-
156 ceinte assez vaste de briques crues. C'est là que
157 fut Thinis, le berceau de la monarchie égyptienne;
158 c'est là aussi que fut le tombeau de l'Osiris d'Aby-
159 dos qui était pour les habitants de l'Egypte ce que
le Saint-Sépulcre est pour les Chrétiens. Malheu-
160 reusement, du sanctuaire le plus ancien et le plus vénéré de l'Egypte il ne reste absolument rien et il n'est même pas permis d'espérer que les fouilles en fassent retrouver les arasements. Près de là, et toujours dans l'enceinte, est un tumulus sur lequel, au contraire, on est en droit de fonder les plus belles espérances. C'est le *Kom-es-sultân*. Le Kom-es-sultân n'est pas une butte naturelle. C'est le résultat de l'amoncellement successif des tombes qui, d'âge en âge, se sont superposées et ont fini par faire le tumulus que nous avons sous les yeux. Au dire de Plutarque, les Egyptiens riches venaient de toutes les parties de l'Egypte se faire enterrer à Abydos pour reposer près d'Osiris. Très-vraisemblablement, les tombes de Kom-

Fig. 151, 152 p. 100
Fig. 153, 154, 155 p. 101
Fig. 156, 157 p. 102
Fig. 158, 159, 160 p. 103

complète et mieux conservée que celle dont s'est
enrichi le musée de Londres (voyez le couloir mon-
142 tant, au sud de la deuxième salle hypostyle). Séti
143 roi et Ramsès encore prince y sont représentés
144 debout, l'un faisant l'offrande du feu, l'autre
récitant l'hymne sacrée. Devant eux sont rangés
145 comme dans une sorte de tableau synoptique les
146 cartouches des 76 rois (Séti s'y comprend lui-
147 même) auxquels ces hommages sont dédiés, et ce
148 n'est pas sans une certaine émotion qu'en tête de
149 la liste on voit paraître le nom de Ménès, l'antique
150 et vénérable fondateur de la monarchie égyptienne.

Un peu plus loin au nord du temple de Séti est le temple de Ramsés II. Il ne reste du temple de Ramsés II que les murs jusqu'à une hauteur du sol d'environ 1m 50, et c'est à peine si les fouilles qui y ont été faites ont permis d'en reconstruire le plan. C'est de ce temple qu'a été enlevée la table royale de Londres, copie mutilée de celle que renferme dans son intégrité le temple de Séti. On conçoit que sur la question mythologique, un temple dévasté comme celui que nous avons sous les yeux, soit à peu près muet. Mais il n'en est pas ainsi de la question d'origine, et nous savons que le temple de Ramsés est contemporain de l'obélis-

---

Fig. 142, 143, 144 p. 96
Fig. 145 p. 97
Fig. 146, 147 p. 97
Fig. 148, 149, 150 p. 99

Le temple de Séti est le grand édifice du sud récemment déblayé par les ordres de S. A. le Vice-Roi. Le temple de Séti est le *Memnonium* de Strabon, justement cité pour la magnificence de sa décoration. Séti Ier, le père de Ramsès II, en fut le fondateur. Tout ce qui dans le temple porte le nom de Séti est traité avec un art que tout le monde admirera. Au contraire, les sculptures de Ramsès sont médiocres, et quelquefois même on y trouve les traces d'une négligence qui choque. Le temple de Séti est d'ailleurs un des édifices de l'Egypte dont il est le plus difficile de pénétrer le sens. A
139 proprement parler il se compose de sept nefs ou
140 travées aboutissant à sept sanctuaires, comme s'il
141 était dédié à sept dieux. L'aile méridionale, si irrégulièrement adaptée à l'édifice principal, est un autre problème dont la solution n'est pas facile à trouver. Enfin les deux rois fondateurs, Séti et Ramsès, s'y trouvent en présence de telle façon qu'inévitablement il faut conclure que ces deux rois ont régné ensemble, en d'autres termes que le temple était en voie de construction au moment où le père associait le fils au trône. A titre de renseignement, nous ajouterons que c'est dans le temple de Séti qu'a été découverte une table de rois plus

Fig. 139, 140, 141 p. 95

après avoir visité, avec tout l'intérêt qu'il mérite, le magnifique établissement industriel qui y a créé S. A. le Vice-Roi.

5me Journée. — Voyage de Rhôdah à Siout. La dernière partie de l'après-midi est consacrée à la visite de Siout, ville très-remarquable que l'on appelle justement la capitale de la Haute-Egypte. Un très-joli chemin planté d'arbres, long d'environ trois kilomètres, y conduit.

6me Journée. — Voyage de Siout à Sohag, où l'on renouvelle le charbon. Voyage de Sohag à Girgeh, où l'on passe la nuit. Dans la dernière partie de l'après-midi, on peut visiter la ville, où l'on trouve de très-jolis spécimens de maisons bâties dans le goût *sui generis* qui distingue les constructions privées de certaines villes de la Haute-Egypte.

7me Journée. — Voyage de Girgeh à
138 Bélianeh. C'est à Bélianeh qu'on débarque pour visiter Abydos, distant de 9 kil. de la rive.

On trouve à Abydos le *Temple de Séti*, le *Temple de Ramsès*, le *Temple d'Osiris* et la *Nécropole*.

Fig. 138 p. 94

qui vivent encore aujourd'hui en Egypte est suffisant, on peut aussi donner le nom d'Amou aux Pasteurs. Ce sont même des Amou restés en Egypte qui deviennent les terribles habitants des marais dont parlent les historiens. Retirés dans leurs *Bucholies*, ils donnent asile à Psammétichus et à Amyrtée. Plus tard, sous le nom de *Biamites* (*Bi* représente ici l'article égyptien), ils se livrent au brigandage, et mettent en pièces les troupes des khalifes Merwan et Mamoun envoyées contre eux. Enfin, il faut voir des descendants de ces mêmes Amou dans les habitants actuels du lac Menzaleh et d'une partie orientale du Delta qui vivent de leur pêche et de leurs troupeaux, et qui, jusqu'à ces derniers temps, se fondant sur leur qualité d'étrangers, ont obstinément refusé certains impôts. Les Amou du tableau de Noum-hotep, quelle qu'ait été leur tribu, ont donc une histoire. A quatre mille huit cents ans de distance, ils nous apparaissent comme les premiers atteints par un mouvement de peuples dont l'histoire d'Egypte est pleine et dont les traces, aujourd'hui encore, ne sont point effacées.

Dix-sept kilomètres séparent Béni-Hassan de Rhôdah. C'est à Rhôdah que l'on va passer la nuit

136 fortement aquilin, à la barbe noire et pointue,
137 arrivent devant lui. Leurs femmes, leurs enfants, les accompagnent. Ils s'avancent suivis de leurs ânes; des antilopes, des bouquetins, qui probablement sont tous leurs bestiaux, sont avec eux. Les uns portent des armes (flèches, piques, casse-têtes); l'un d'entre eux joue d'une espèce de lyre. Une inscription explique le sens de cette représentation. Ce sont des *Amou*, au nombre de 37, qui se présentent devant Noum-hotep et en signe de soumission lui offrent le précieux cosmétique appelé *Nest'em*. Sans aucun doute, cet épisode de la vie de Noum-hotep n'a en lui-même qu'un intérêt de seconde main. Il mérite cependant l'attention, parce qu'il est le plus ancien exemple connu de ces immigrations de peuples asiatiques qui, plus tard, jouèrent un rôle si grand dans les affaires de l'Egypte. Les Amou de Noum-hotep (Amou proprement *pasteur, bouvier*, est le nom générique des races syro-araméennes) sont en effet les premiers venus de ces peuplades que, de tout temps, la fertilité proverbiale de l'Egypte attira dans l'orient du Delta. Les Juifs seront, comme d'autres, confondus dans les Amou, et si le témoignage des monuments de Sân rapprochés de ceux des Amou

Fig. 136, 137 p. 93

honneurs de son souverain par sa bonne administration, etc., etc.

134 Le deuxième tombeau est celui de *Noum-hotep.*
135 Les peintures en sont admirables, quoique gâtées par le temps et surtout par ces voyageurs qui trouvent que plus un monument est précieux, plus la place est belle pour lui ôter son prix en y gravant leur nom. Le tombeau de Noum-hotep est, comme celui d'Améni-Amenemha, du commencement de la XIIme dynastie, mais du règne d'Amenemha II. Dans la longue inscription qui fait le tour du soubassement de la chambre, Noum-hotep raconte également sa vie. Son père, sa mère, ses aïeux étaient établis dans la ville de *Ménat-Khoufou* (peut-être Minieh). Son père y avait vécu comme fonctionnaire et gouverneur des terres de l'Orient dans la même ville. Quant à lui, il fut, comme Améni-Amenemha, gouverneur du nome de Sah. Suit l'énumération de ses bienfaits. Il a honoré les dieux, comblé les temples de ses présents, etc., etc.

C'est dans le tombeau de Noum-hotep (paroi du nord) que se trouve représentée une des scènes les plus curieuses que l'on puisse voir, et qui, malheureusement, tend de jour en jour à disparaître. Noum-hotep est debout. Des personnages au nez

Fig. 134 p. 91
Fig. 135 p. 92

sert. Des captifs lui apportent des présents. Des saltimbanques exécutent devant lui des tours variés de gymnastique. Du reste, comme signe caractéristique de l'Ancien et du Nouvel-Empire, même absence de toute représentation de dieux.

Nous avons dit que les tombeaux les plus importants de Béni-Hassan sont les deux tombeaux situés immédiatement vers le nord. Les architectes en admireront sans aucun doute le style. Il est utile de répéter affirmativement que les magnifiques colonnes qui décorent les façades de ces deux tombeaux et l'intérieur de l'un d'entr'eux, sont de trois mille ans antérieures à notre ère, malgré leur apparence dorique.

Le premier tombeau au nord est celui d'*Améni-Amenemha* (ainsi nommé en souvenir de quelque roi de la XIme dynastie qui portait ces deux noms). Dans l'inscription qui couvre les deux côtés de la porte d'entrée, Améni-Amenemha raconte sa vie. Il a été général d'infanterie, et comme tel il a fait une campagne contre les *Apou* et une autre contre l'Ethiopie. Le roi qui vivait alors est Ousertasen 1er. C'est avec le fils de ce roi qu'Améni-Amenemha a marché. Améni-Amenemha a été aussi gouverneur de la province de *Sah*. Comme tel, il mérita les

d'intérêt. Les plus importantes sont les deux dernières au nord.

132 Ces grottes sont des tombeaux du commencement
133 de la XIIe dynastie (3,000 ans avant J.-C.). Les personnages qui y furent enterrés étaient de leur vivant fonctionnaires de l'Etat dans la ville à laquelle la montagne que nous visitons a servi de nécropole, mais dont nous ignorons et le nom et l'emplacement.

Le principe de ces tombes est le même que celui des tombes déjà connues des Pyramides et de Saqqarah. On y trouve : 1° une chambre accessible qui, à Saqqarah et aux Pyramides, est prise dans la masse du *mastaba*, et qui, ici, est creusée dans le roc ; 2° un puits caché et bouché, conduisant au caveau ; ici le puits s'ouvre au milieu ou dans l'un des coins de la chambre ; 3° enfin un caveau funéraire, lieu de dépôt du sarcophage et de la momie, caveau situé, aux Pyramides, à Saqqarah et à Béni-Hassan, au fond du puits.

Le principe de la décoration est aussi le même. Seulement les scènes ont un peu varié avec le temps. Le défunt est plus que jamais chez lui. On accorde plus à la biographie, à l'épisode, aux incidents. Le défunt chasse aux animaux sauvages et dans le dé-

Fig. 132, 133 p. 90

ne peut descendre aujourd'hui qu'avec des cordes et où gît la momie, telles sont les tombes de Saqqarah, et tel est, ajoutons-nous, le principe de toutes les tombes antiques qu'on trouve en Egypte.

La fin de la deuxième journée du voyage est consacrée au retour à Bédréchyn et au départ de Bédréchyn pour la Haute-Egypte. On se dirige vers Béni-Souef. La navigation du Nil étant impossible pendant la nuit, on s'arrête le soir là où le coucher du soleil surprend les bateaux à vapeur, probablement à Zawyet-el-Masloub, le port du Nil où débouche une des routes principales qui conduisent au Fayoum.

3me journée. — La 3e journée est toute entière consacrée à la navigation du Nil, sauf le temps d'arrêt forcé à Béni-Souef, pour faire le charbon. Le soir on arrivera probablement à *Kolosaneh*, où l'on passera la nuit.

4me Journée. — Station à Minieh pour le charbon. Arrivée à Béni-Hassan. Les grottes de Béni-Hassan sont taillées dans le flanc de la montagne à environs trois kil. du point d'accostage des bateaux. Toutes ne sont pas également dignes

128 « beaux demeures éternelles. » C'est bien là en
129 effet le sens des monuments dont nous nous occu-
130 pons. La maison, la ferme, les bestiaux, les
131 champs, la moisson, tout y est, et par sa solide construction le tombeau devient vraiment une « demeure éternelle. » Quant à l'âme, quant à cette vie d'outre-tombe dont les Egyptiens ont fait la base de leur croyance et qui est partout ici absente, il faut pour la trouver aller dans une autre partie du tombeau. Mais personne ne pénètre dans celle-là, et elle doit rester éternellement cachée. Il s'agit du caveau funéraire, effectivement perdu sous terre au fond d'un puits dont l'entrée était dérobée à tous les regards. Là est la momie, mais là aussi règne le *Rituel.* Le défunt a franchi le seuil redoutable, il est maintenant dans le monde mystérieux où régnent les dieux des purs esprits.

En résumé, un édifice extérieur recouvrant : 1° des chambres accessibles en tous temps et le plus souvent décorées de tableaux ; 2° un puits vertical (1) caché à tous les yeux au fond duquel on

(1) Le tombeau de Ti offre, par une exception bien rare, une dérogation à cette règle. Le puits, tel qu'on peut le voir aujourd'hui au milieu de la cour, n'est pas vertical. Il est incliné comme le couloir d'une pyramide. Mais le principe est le même. Ce couloir incliné était rempli jusqu'au fond de blocs de pierres. Le sarcophage est en calcaire et n'a aucune inscription.

Fig. 128, 129, 130 p. 88

Fig. 131 p. 89

serviteurs apportant les dons. En tête marchent des prêtres récitant les hymnes sacrées; derrière eux des serviteurs sont censés disposer sur une table où elles s'amoncèlent en tas les offrandes destinées à la cérémonie. Phtah-hotep lui-même
127 accueille les dons et on le voit porter à la bouche un vase contenant une des substances qui figurent dans « l'apport des dons funéraires. »

Nous serions entraînés trop loin si nous voulions décrire tous les tableaux, de composition si variée, qui décorent les murs des deux tombeaux de Ti et de Phtah-hotep. Ce que nous désirons faire voir au visiteur, c'est le sens général de ces tableaux, et par là le caractère de la partie du tombeau où ils sont placés. Rappelons que nous sommes ici dans l'intérieur d'un *mastaba,* mais de plain-pied avec la plaine environnante. Ici rien de lugubre, rien qui rappelle la mort. Le défunt semble chez lui. Il reçoit ses parents, les gens de sa maison. C'est d'ailleurs lui-même qui a commencé le tombeau de son vivant et a fait sculpter sur les murs les scènes dont nous venons de chercher la signification. « Les Egyptiens, dit Diodore, appellent leurs « habitations hôtelleries, vu le peu de temps qu'ils « y séjournent, tandis qu'ils nomment les tom-

Fig. 127 p. 87

parents à apporter dans le tombeau des offrandes
126 de toutes sortes, pains, liquides, végétaux, membres d'animaux immolés au dehors. C'est ce que notre inscription appelle « les dons funéraires. » Les tableaux relatifs à l'apport des dons funéraires sont nombreux. Les deux parois de la petite chambre située à droite du couloir d'entrée de la tombe de Ti, représentent des scènes de ce genre : des serviteurs apportent sur leur tête, sur leurs épaules, sur leurs mains étendues, des victuailles, des fleurs, des plateaux chargés de vases. Sur la paroi Est du même couloir d'entrée on a représenté l'abattage des bœufs destinés à fournir une partie importante des dons funéraires. Dans l'intérieur de la tombe, sur le registre inférieur de la paroi Nord, est une file de femmes conduisant des animaux et portant des couffes sur la tête. Ce sont les propriétés du défunt ainsi symbolisées qui toutes concourent à l'accomplissement de la cérémonie ayant pour but l'apport des objets destinés à figurer en nature dans la chambre intérieure du tombeau. C'est dans le tombeau de Phtah-hotep que les scènes de ce genre sont clairement exprimées. Là le défunt est assis (paroi de l'Ouest, entre les deux stèles). Devant lui commence une véritable procession de

---

Fig. 126 p. 86

123 peuple si entièrement voué aux travaux agricoles.
124 Il est au milieu des siens. Ses serviteurs l'entourent. Il atteint, comme dit l'inscription, une « vieillesse heureuse et longue. » (Comparez les inscriptions du tombeau de Phtah-hotep).

2° *Tableaux relatifs à la mort du défunt.* C'est la moins étendue des trois parties. Le défunt,
125 debout sur une barque, assiste au transport de sa propre momie dans la nécropole. Evidemment, à voir la rareté de ces représentations, on pressent comme une sorte d'euphémisme qui force l'ordonnateur du tombeau à passer vite sur cette partie de la décoration. Notons d'ailleurs que le transport de la momie est la seule scène vraiment funéraire que nous offrent les tableaux. Ces tableaux conduisent le mort jusqu'à sa sépulture, mais ne le suivent pas dans les régions d'outre-tombe. Toutes les représentations du tombeau sont de ce monde ; pas une seule ne franchit ce seuil mystérieux qui sépare notre vie périssable de la vie éternelle.

3° *Tableaux relatifs à l'apport des dons funéraires.* Les chambres où nous nous trouvons étaient ouvertes à tous venants, et à certains jours de fête, les parents du mort s'y rassemblaient. Or, une coutume universellement suivie obligeait ces-

---

Fig. 123, 124 p. 84

Fig. 125 p. 85

« un roseau dans la narine, et avec un crochet lui « perces-tu la machoire ? » (étudiez de près la figure du tombeau). Une autre scène est celle de la chasse aux oiseaux aquatiques faite par les serviteurs du défunt. Plus loin (grande chambre et paroi du nord) sont de délicieuses représentations de
121 la vie des champs. Des vaches traversent un gué. Des veaux paissent dans une prairie. Des serviteurs conduisent un troupeau de chèvres. Les tableaux d'agriculture (ibid, paroi de l'est) ne sont pas moins curieux. On récolte le blé, on le forme en meule, on le dépique, on l'assemble en gerbes qu'on charge sur des ânes. Devant chacune de ces scènes le défunt est debout, le bâton de commandement en main, ou assis. Ici il assiste à la mise sur le chantier des barques (paroi de l'est); là (paroi du sud), il surveille la confection des meubles de sa maison; autre part (petit couloir d'entrée, paroi de l'ouest) de grands navires aux voiles étendues, des barques
122 montées par des rameurs, sillonnent pour lui les eaux du Nil. En un mot, tout, dans ces tableaux, nous montre la réalisation du premier souhait formé en faveur du défunt par l'inscription qui sert d'enseigne au tombeau. Ti mène sur la terre une vie vraiment heureuse, telle que pouvait l'imaginer un

---

Fig. 121, 122 p. 83

ce qu'il est facile de prouver puisqu'en définitive il n'est pas un seul de ces tableaux qui ne puisse entrer dans une des catégories suivantes :

1° *Tableaux relatifs au personnage encore vivant.* Le tombeau de Ti offre plusieurs de ces tableaux très-intéressants à étudier. Le défunt est chez lui. Des femmes de la maison exécutent des
117 danses (couloir étroit de l'entrée, paroi du sud). Des
118 musiciens jouent de leurs instruments ; des chanteurs les accompagnent en battant la mesure avec leurs mains (ibid). Le défunt chasse dans les marais (grande chambre, paroi du nord). Il est debout sur
119 une barque en roseaux de papyrus ; d'une main il tient des *appelants* ; de l'autre il lance sur les oiseaux aquatiques répandus dans les longs roseaux un bâton recourbé qui part en tournoyant (ibid). Dans l'eau sur laquelle vogue la barque sont blottis
120 des hippopotames et des crocodiles. Des serviteurs cherchent à les prendre. Un curieux épisode est le combat de deux de ces amphibies ; le crocodile est vaincu. A côté un serviteur de la maison prend un hippopotame avec une sorte de crochet, ce qui rappelle immédiatement les deux versets de Job : « Attires-tu le léviathan avec un hameçon ? et « avec une corde lui lieras-tu la langue ? lui mets-tu

---

Fig. 117, 118 p. 80
Fig. 119, 120 p. 81

vain cherchera-t-on sur les murs une seule image de divinité. Le défunt est, non dans l'autre monde, mais dans celui-ci. Il est représenté debout, le bâton de commandement à la main, ou bien assis. La femme est à ses côtés. Ses enfants l'accompagnent. Ses serviteurs sont devant lui. Il semble qu'il n'ait pas encore quitté la terre.

Pénétrons un peu plus avant dans le sens des tableaux, et nous verrons la tendance que nous venons de signaler s'affirmer de plus en plus. Au dehors de la porte d'entrée de chaque tombeau (malheureusement cette partie est très-souvent démolie) est une inscription assez longue qui sert en quelque sorte d'enseigne au monument. On y lit le nom et les titres du défunt, puis une invocation qui résume en quelque sorte les tableaux que nous trouvons en si grand nombre dans l'intérieur. Dans cette invocation, en effet, on demande à Anubis : 1° d'accorder
115 au personnage nommé une bonne sépulture dans la
116 nécropole, après une vie longue et heureuse ; 2° de favoriser la route du défunt dans les régions d'outre-tombe ; 3° d'assurer pour l'éternité l'apport de ce que le texte appelle « les dons funéraires ». Or, c'est spécialement à ces trois parties de l'inscription que se rapportent les tableaux de l'intérieur,

Fig. 115, 116 p. 79

rieur se trouvent quelques chambres prises dans la masse de la construction.

Saqqarah n'offre que peu d'occasions d'étudier sur place l'extérieur des mastaba, et les Pyramides conviennent beaucoup mieux pour cet objet. Mais on ne trouvera qu'à Saqqarah de bonnes occasions d'étudier les chambres intérieures, et sur ce point les tombeaux de Ti et de Phtah-hotep peuvent poser pour des types parfaits.

Le visiteur a sous les yeux l'une ou l'autre de ces tombes, et nous n'avons pas besoin de lui faire remarquer le travail délicat, fini, sobre et cependant vigoureux de cette sculpture, qui date déjà de six mille ans.

Quant au sens des représentations, à l'esprit qui règne dans cette chambre destinée à rappeler le souvenir d'une mort, il convient de nous y arrêter.

Chose remarquable, tout y est aussi peu funéraire que possible. Dans les tombes des autres époques (nous en verrons plus d'un exemple à Bab-el-Molouk) une armée de dieux bizarres, fantastiques, a envahi les murs de la chambre. Le mort y est véritablement dans l'autre monde, et dans un autre monde peuplé d'êtres le plus souvent impossibles à décrire. Ici rien de semblable. En

sépulture, et comme souvenir de cet acte pieux laissaient une *stèle*, c'est-à-dire une sorte de dalle carrée arrondie par le haut qu'on encastrait dans l'une des parois de la tombe, après qu'on y avait gravé un hommage au dieu au nom du visiteur et de sa famille. Or ces documents, au nombre de 500 environ, ont été retrouvés pour la plupart à leur place antique (voyez surtout la chambre d'entrée au nord), et comme beaucoup d'entre eux sont datés à la mode du temps, c'est-à-dire de l'année, du mois et du jour du roi régnant, on voit de quel secours la comparaison de ces stèles peut être à la science et particulièrement à la chronologie.

Après le Sérapéum, les voyageurs visitent habituellement une ou plusieurs des tombes de l'Ancien-Empire dont la nécropole de Saqqarah est si riche depuis les fouilles ordonnées par S. A.
114 Nous choisissons les Tombes de *Ti* et de *Phtah-hotep*.

On sait déjà que, sous l'Ancien Empire, les tombes des particuliers sont des *mastaba*, nous voulons dire des espèces de pyramides tronquées tout près de la base qui, de loin, se présentent sous la forme d'immenses couvercles de sarcophages. A l'extérieur peu ou point d'ornements. A l'inté-

Fig. 114 p. 78

mode a été inaugurée, celle des sarcophages de granit. On en compte 24 dans toute l'étendue de la tombe. Tous sont sans inscription, à l'exception des trois qui portent les noms d'Amasis (XXVIme dynastie), de Cambyse, de Khebasch (XXVIIme) et d'un quatrième dont les cartouches sont vides, mais que tout fait présumer appartenir à l'un des derniers Ptolémées. Quant à leurs dimensions, elles ont en moyenne de 2 m. 30 c. de façade sur 4 m. de profondeur et une hauteur totale de 3 m. 30 c., de sorte que ces monolithes ne pèsent pas moins, l'un dans l'autre (les vides déduits), de 65 mille kilogrammes.

Telles sont les trois parties de la Tombe d'Apis, On sait que l'exploration de cette Tombe a fourni à la science des matériaux inespérés. C'est que nous n'en voyons plus aujourd'hui pour ainsi dire que le
113 squelette. La Tombe, quand elle a été découverte, était en effet pleine encore, bien que violée par les premiers chrétiens, d'à peu près tout ce qui n'était pas or ou matières précieuses. Une coutume avait surtout contribué à enrichir la Tombe de documents utiles. A certains jours de l'année, ou bien à la mort et aux funérailles d'un Apis, les habitants de Memphis venaient rendre visite au dieu dans sa

Fig. 113 p. 77

tombes sont isolées. Autant d'Apis morts, autant de chambres sépulcrales que l'on creusait çà et là dans le temple, un peu au hasard. Ces chambres sont aujourd'hui cachées sous les sables. Elles n'offraient d'ailleurs qu'un très-médiocre intérêt.

La seconde partie comprend les tombes des Apis morts de Scheschonk Ier (XXIIme dynastie) à Tahkarrah (dernier roi de la XXVme). Cette fois un système nouveau a été inauguré. Les tombes ne
110 sont plus isolées. Un long souterrain a été creusé,
111 et de chaque côté de ce souterrain on a ménagé
112 des chambres qu'on utilisait à mesure qu'un Apis
mourait à Memphis. Le souterrain qui, à lui seul, forme la seconde partie de la tombe, est aujourd'hui inaccessible, les voûtes s'étant écroulées en quelques parties et le reste ne présentant plus assez de solidité pour qu'on en permette la visite aux voyageurs.

La troisième partie est celle que tout le monde connaît. Elle commence à Psammétichus Ier (XXVIme dynastie) et finit aux derniers Ptolémées. Le même système de souterrain commun a été suivi, seulement sur une échelle beaucoup plus grande. Les nouvelles galeries ont environ 350 m. de développement, et d'un bout du grand souterrain à l'autre, on compte 195 mètres. Une autre

Fig. 110, 111, 112 p. 76

Autant qu'on peut en juger par les restes retrouvés pendant les fouilles, le Sérapéum était un édifice qui avait l'apparence extérieure des autres temples de l'Egypte, même de ceux qui n'ont point une destination funéraire. Une allée de sphinx y conduisait. Deux pylônes le précédaient. Il était environné d'une enceinte. Mais ce qui le distinguait des autres temples, c'est que, dans l'une de ses chambres, s'ouvrait tout-à-coup un chemin en pente qui gagnait bientôt le roc sur lequel le temple était bâti, et donnait accès dans de vastes souterrains. Ces souterrains étaient la *Tombe d'Apis*.

107 Le Sérapéum proprement dit, c'est-à-dire l'édi-
108 fice extérieur, n'est plus aujourd'hui qu'une plaine
109 de sables mêlés d'éclats de pierres incroyablement bouleversés. Le Sérapéum n'existe donc plus. Mais la plus belle et la plus intéressante partie de la tombe souterraine peut encore être visitée.

Nous en ferons l'historique.

La tombe d'Apis se compose de trois parties séparées, c'est-à-dire qui n'ont entre elles aucune communication directe.

La première et la plus ancienne remonte à la XVIIIme dynastie et à Aménophis III. Elle a servi à la sépulture des Apis jusqu'à la XXme. Ici les

Fig. 107, 108, 109 p. 75

gueur d'environ 7000 mètres et une largeur de 500 à 1500.

Comme la nécropole de Gyzeh, la nécropole de Saqqarah est surtout une nécropole de l'Ancien-Empire. Au centre s'élève, comme le noyau de ce
105 vaste ensemble, une pyramide singulièrement bâtie à six degrés. Si les traditions sont vraies, si le lieu dont cette pyramide occupe le centre s'appelle *Ko-Komé* et si le roi *Onennéphès* fit bâtir en ce lieu nommé Ko-Komé sa pyramide, il s'ensuivrait que la pyramide à degrés remonte à la Ire dynastie, et qu'elle est, par conséquent, le plus ancien monument connu de l'Egypte et du monde.

La nécropole de Saqqarah est si vaste, qu'il est impossible de la visiter toute entière. Les monuments que l'on est dans l'habitude de voir, sont : le *Sérapéum*, le *Tombeau de Ti*, le *Tombeau de Phtah-hotep*.

Apis, comme image vivante d'Osiris descendu sur la terre, était un taureau qui, vivant, avait son temple à Memphis (Myt-Rahyneh), et mort avait son tombeau à Saqqarah. Le palais que le taureau habitait de son vivant à Memphis, s'appelait
106 l'*Apiéum*; le Sérapéum était le nom donné au tombeau.

Fig. 105 p. 74
Fig. 106 p. 74

dréchyn qu'on passera la nuit qui sépare la première journée de la seconde.

2^{me} Journée. — Il est nécessaire de partir à l'aube. Chemin faisant, on trouvera sous
103 les dattiers des buttes noires, irrégulières, parsemées de blocs de granit. Çà et là des pans de murs bâtis en mauvaises briques crues émergent des décombres. C'est tout ce qui reste de Memphis.

Un colcsse de beau calcaire siliceux, représentant le grand Ramsès (XIX^{me} dynastie), gît dans une sorte de fossé, près du village de Myt-Rahyneh. Au moment où les invités de Son Altesse traverseront les ruines, il est sous l'eau pour quelque temps encore. On ne peut le voir.

La route du Nil à Saqqarah est de 8 kilomètres environ, quand il faut, comme en ce moment, suivre les digues. En temps ordinaire, la plaine n'étant plus inondée, on coupe à travers champs et la route est sensiblement plus courte.

Saqqarah est un village qui donne son nom à la nécropole dont il est voisin. Cette nécropole est la
104 plus importante, la plus ancienne et en même temps la plus moderne des nécropoles de Memphis. Elle s'étend le long de la lisière des sables sur une lon-

4

Fig. 103, 104 p. 73

reusement, nous marchons en pleine obscurité, car de toutes les questions que soulève l'étude des monuments égyptiens, il n'en est pas de plus compliquées que celle qui touche à la chronologie. Néanmoins, en tenant compte de tous les éléments du problème, en rappelant et contrôlant les données fournies à la fois par les monuments et les écrivains grecs, on peut risquer quelques dates que, toutes les fois que l'occasion s'en présentera, nous écrirons, comme nous l'avons fait pour les mosquées, à côté des monuments dont nous voulons faire connaître l'âge. Les Pyramides, par exemple, appartiendront à la IVme dynastie (4235 ans avant J. C.), de sorte que, comme Chéops fut le premier roi de cette dynastie, le prodigieux monument qui lui a servi de tombeau n'a pas moins de 61 siècles de date.

Nous en avons fini avec les Pyramides. La même route qui nous a amenés au départ va nous reconduire au retour. La navigation du Nil recommence. En chemin, près du village appelé *Tamô*, est l'endroit où les Coptes prétendent que Moïse a été exposé sur l'eau. On se dirige vers Bédréchyn
102 qui est à Saqqarah ce que Gyzeh est aux Pyramides, c'est-à-dire le port de débarquement. C'est à Bé-

Fig. 102 p. 73

voyage sur le Nil, les plus fréquents et les plus glorieux souvenirs, correspond à la XVIIIme dynastie, à la XIXme et aussi à la XXme. C'est l'âge des Thoutmès, des Aménophis, des Ramsès. C'est aussi l'époque de Moïse (XIXme dynastie). Mais ce rôle brillant ne se soutient pas, et quand Sésac (XXIIme dynastie) prend Jérusalem, la décadence a déjà commencé pour l'Egypte.

4° Enfin le quatrième tronçon, que l'on appelle du nom général de *Basses-Epòques*, comprend la dynastie grecque dont Alexandre est le fondateur et celle des Empereurs de Rome, rois d'Egypte au même titre que Cambyse et Darius. L'histoire de cette époque, toute entière dans de stériles compétitions au trône, ne possède qu'un faible intérèt. Mais le visiteur de la Haute-Egypte doit s'en occuper parceque les temples de Philæ, d'Edfou, d'Ombos, de Dendérah, d'Esneh, c'est-à-dire les monuments les plus complets que nous possédions du culte égyptien, appartient aux *Basses-Epoques*.

Reste un dernier point à éclaircir. Jusqu'ici nous avons parlé des divisions introduites dans l'histoire d'Egypte, mais nous n'avons cité aucun chiffre qui permette de rapporter à une date les monuments que nous étudions. En ce point, malheu-

encore né. L'Ancien Empire est tout entier dans la IVme dynastie, la Vme et une partie de la VIme; avant et après, tout est confusion ou plutôt ténèbres. C'est l'âge des Pyramides. Chose remarquable, l'art de la statuaire et de la gravure en relief monte, sous l'Ancien Empire, à une hauteur qu'il ne rattrapera plus.

2° Le second comprend les siècles qui s'étendent entre la XIme dynastie et la XVIIIme. C'est le *Moyen-Empire*. Le Moyen-Empire existe déjà depuis quelque temps quand Abraham paraît. Joseph est ministre du dernier roi du Moyen-Empire. Du Moyen-Empire il ne faut d'ailleurs retenir que la XIIme dynastie et les Pasteurs. La XIIme dynastie est célèbre par les tombes de Beni-Hassan. Quant aux Pasteurs (ou Hycsos), ils donnent leur nom à la période la plus douloureuse que l'Egypte ait traversée, celle qui vit pendant 511 ans l'unité nationale rompue, et des envahisseurs asiatiques régner en maîtres sur les plus florissantes provinces du royaume.

3° Le troisième tronçon est ce qu'on appelle le *Nouvel-Empire*. Il commence à la XVIIIme dynastie et finit à Alexandre. L'époque la plus brillante du Nouvel-Empire, celle dont on rencontre, dans un

quelque temps quand Ménès réunit l'Egypte entière, jusqu'alors divisée, sous un sceptre unique : il est certain aussi qu'après Théodose la religion Egyptienne continua de vivre assez longtemps dans quelques districts éloignés de la Haute-Egypte, particulièrement à Philæ.

Pour établir l'ordre dans l'interminable série des rois qui ont régné de Ménès à Théodose et se procurer le moyen de classer entre eux les
97 monuments, on a coutume de diviser ces rois, à
98 l'exemple de Manéthon, en *familles royales* ou
99 *dynasties*, distinguées par un nom générique em-
100 prunté à la ville qui dans leur temps était capitale.
101 Du fondateur de la Monarchie à Théodose, on compte 34 dynasties. Une autre division plus large a été faite. Prenant en considération certains évènements importants, certaines modifications apportées dans l'économie générale du royaume, on a partagé toute l'histoire d'Egypte en quatre tronçons.

Le premier comprend les dix premières dynasties et s'appelle *l'Ancien Empire.* L'Ancien Empire est si prodigieusement éloigné de nous qu'il se perd littéralement dans la nuit des temps. Quand l'Ancien Empire finit, Abraham n'est pas

Fig. 97, 98 p. 70
Fig. 99, 100 p. 71
Fig. 101 p. 72

à l'Ancien-Empire. Pour les visiteurs que leurs études n'ont pas tournés vers les antiquités égyptiennes, ces renseignements ont peut-être le malheur d'être assez vagues. Une fois pour toutes, nous résumerons donc ici les données principales que tout visiteur de la Haute-Egypte doit posséder s'il veut se rendre compte de la nature, de l'âge et de la valeur relative des monuments en présence desquels il va se trouver.

Tous les monuments que nous allons rencontrer appartiennent à cette civilisation qui a brillé autrefois sur les bords du Nil et qui, pendant toute sa durée, a usé des hiéroglyphes comme écriture. Ces monuments sont en général des temples, souvent des tombeaux. Les villes proprement dites ont disparu si complètement que c'est à peine si quelques tumulus sans forme en marquent çà et là l'emplacement.

Le temps pendant lequel cette civilisation a duré ne peut être calculé. On dit communément que la monarchie égyptienne a commencé avec Ménès et qu'elle a fini l'an 381 de notre ère, avec l'édit de Théodose. Cependant il est probable que la civilisatien égyptienne, constituée comme nous la voyons plus tard, florissait déjà depuis

nous représente-t-il pas un très-ancien tombeau orné, pour plus de majesté, d'une colossale statue de dieu? La question est pendante, et au moment où les invités de S. A. arriveront sur les lieux, ils trouveront des ouvriers occupés à demander aux sables qui obstruent le monument du côté de l'ouest des renseignements nouveaux capables de la résoudre.

Nous n'avons pas besoin de rappeler que le lieu où nous sommes est une des nécropoles de Memphis, comme le P. Lachaise est une des nécropoles de Paris. Les tombes qu'on y trouve sont à peu près de toutes les époques. Cependant les tombes de l'Ancien-Empire y dominent. Celles-ci ont en général la forme du *mastaba*, sorte de pyramide tronquée, bâtie en énormes pierres et recouvrant comme un couvercle massif le puits au fond duquel repose la momie. Les visiteurs en ont sous les yeux deux ou trois bons modèles vers la face orientale de la grande Pyramide. Une meilleure occasion de décrire les monuments de ce genre nous sera offerte quand nous serons à Saqqarah.

Nous avons dit tout-à-l'heure que les Pyramides appartiennent à la IVe dynastie, et que la plupart des tombes de la nécropole remontent

L'apparence extérieure est, il faut l'avouer, plutôt celle d'un tombeau. De loin le monument devait se présenter aux visiteurs comme un *mastaba* à peine plus grand que ceux qu'on trouve, par exemple, à Abousir et à Saqqarah. A l'intérieur, une chambre montre six niches superposées qui ont bien l'air d'avoir été construites, commes celles de la 3me Pyramide et du Mastabat-el-Faraoun, pour recevoir des momies. Le plan d'ailleurs ne s'éloigne pas sensiblement du plan de certains autres tombeaux qu'on trouve aux environs. L'opinion qui fait du monument dont nous nous occupons un tombeau, peut donc être défendue sans violer les règles de la critique, L'autre opinion qui en fait un temple est-elle également soutenable ? Evidemment, du moment où l'Ancien-Empire ne nous a laissé aucun autre temple à comparer à celui-ci, on peut dire qu'à cette époque reculée, les temples égyptiens étaient construits sur le plan bien extraordinaire que nous avons sous les yeux. D'un autre côté, il est tout naturel de penser que, puisque le Sphinx est un dieu, le monument voisin est le temple de ce dieu. Mais ces raisons sont-elles suffisantes ? En réalité le monument est-il une annexe du Sphinx, ou le Sphinx une annexe du monument ? Tout cela ne

Au Sud-Est de la grande Pyramide est le Sphinx.
94 Le Sphinx est un rocher naturel auquel on a donné tant bien que mal l'apparence extérieure de cet animal symbolique. La tête seule a été sculptée. Le corps est le rocher lui-même complété aux endroits défectueux par une mauvaise maçonnerie en calcaire. La hauteur totale du monument est de 19 mèt. 80 c., L'oreille a 1 mèt. 97 c., le nez 1 mèt. 79 c., la bouche 2 mèt. 32 c. La plus grande largeur de la figure, de face et à la joue, est de 4 mèt. 15 c. La question d'origine est
95 encore douteuse. On a d'abord pris le Sphinx pour un
96 monument du règne de Thoutmès IV (XVIIIme dyn.) Aujourd'hui, nous savons par une pierre du musée de Boulaq, que le Sphinx existait déjà quand Chéops (antérieur à Chéphren) ordonna les restaurations dont cette pierre a pour objet de consacrer le souvenir. Nous rappellerons d'ailleurs que le Sphinx est la colossale image d'un dieu égyptien appelé *Armachis*.

Près du Sphinx, est une construction bizarre qui, plus encore que le Sphinx lui-même, est une énigme proposée aux savants. Il est certain que cette construction remonte à l'âge des Pyramides. Mais est-elle un temple ? est-elle un tombeau ?

Fig. 94 p. 68

Fig. 95, 96 p. 69

une pyramide qui ne soit le centre d'une nécropole, et que le caractère de ces monuments est par là amplement certifié.

Ce qu'on voit aujourd'hui des Pyramides n'en est plus que le noyau. Originairement elles étaient recouvertes d'un revêtement lisse qui a disparu. Elles se terminaient en pointe aiguë. Les pyramides étant des tombeaux hermétiquement clos, chacune d'entr'elles (au moins celles qui ont servi à la sépulture d'un roi), avaient un temple extérieur, qui s'élevait à quelques mètres en avant de la façade orientale. Le roi déifié comme une sorte d'incarnation de la divinité y recevait un culte. Les trois grandes Pyramides de Gyzeh ont comme les autres un temple extérieur.

La preuve que les pyramides étaient des monu-
93 ments hermétiquement clos, c'est que quand Amrou voulut pénétrer dans la grande, il ne put le faire qu'en perforant violemment la face nord à peu près sur la ligne de son centre, ce qui le fit tomber par hasard à l'intérieur sur le couloir montant. Comme à cette époque le revêtement était entier et que par conséquent il n'y avait point de décombres accumulés à la base, il s'ensuit que la place même de l'entrée ne se voyait pas du dehors.

Fig. 93 p. 68

tout ce que nous savons de l'Egypte, à tout ce que l'archéologie nous a appris sur les habitudes monumentales de ce pays, que d'y voir autre chose que des tombeaux. Les pyramides, quelles qu'elles soient, sont des tombeaux, massifs, pleins, bouchés partout même dans leurs couloirs les plus soignés, sans fenêtres, sans portes, sans ouverture extérieure. Ils sont l'enveloppe gigantesque et à jamais impénétrable d'une momie, et une seule d'entre elles aurait montré à l'intérieur un chemin accessible d'où, par exemple, des observations astronomiques auraient pu être faites comme du fond d'un puits, que la pyramide aurait été ainsi contre sa propre destination. En vain dira-t-on que les quatre faces orientées dénotent une intention astronomique ; les quatre faces sont orientées parcequ'elles sont dédiées par des raisons mythologiques aux quatre points cardinaux, et que dans un monument soigné comme l'est une pyramide une face dédiée au nord, par exemple, ne peut pas être tournée vers un autre point que le nord. Les Pyramides ne sont donc que des tombeaux, et leur masse immense ne saurait être un argument contre cette destination puisqu'on en trouve qui n'ont pas six mètres de hauteur. Notons d'ailleurs qu'il n'est pas en Egypte

1re Journée. — Départ le matin de
Boulaq. Navigation jusqu'à Gyzeh. Temps d'ar-
90 rêt pour la visite aux Pyramides. Une char-
mante route de 4 kilomètres environ de longueur,
conduit en face de ces monuments. Les trois
grandes pyramides sont les tombeaux de
91 Chéops, de Chéphren et de Mycérinus ; les petites
92 sont les tombeaux des membres de la famille de ces
rois. La grande avait primitivement 146 mètres de
hauteur ; dans l'état actuel elle n'en a plus que
138 ; son cube est de 2,562,576 mètres. Tout ce
que l'on a dit, toutes les phrases qu'après Hérodote
on a faites sur la haine que ces rois s'étaient attirée
par suite des corvées imposées aux Egyptiens qui
travaillaient aux Pyramides, peut être réduit à
néant ; les monuments contemporains, témoins
bien plus croyables qu'Hérodote lui-même, nous
montrent en effet que, de leur vivant et après eux,
Chéops et Chéphren, à l'exemple de tous les autres
rois, étaient honorés par un culte spécial ; quant à
Mycérinus, c'était un roi si pieux, qu'il est cité
dans le *Rituel* comme l'auteur d'un des livres les
plus en renom de la littérature religieuse de l'E-
gypte. En ce qui regarde l'usage auquel les
Pyramides étaient destinées, c'est faire violence à

Fig. 90, 91 p. 64

Fig. 92 p. 67

8me Journée	De Bellianeh à Qéneh.
9me Journée	Visite au temple de Dendérah. Retour à Qéneh. De Qéneh à Louqsor.
10me Journée	Thèbes. Visite à Louqsor et à Karnak, les deux temples de la rive droite.
11me Journée	Thèbes. Première journée sur la rive gauche, comprenant le temple de Qournah, le Ramesséum, les Colosses, le temple de Deir-el-Medineh, Medinet-Abou.
12me Journée	Thèbes. Deuxième journée sur la rive gauche, comprenant Drah-Abou'l-Neggah, Assassif, Scheikh-Abd-el-Qournah, Qournat-Mouraï, Deir-el-Bahari.
13me Journée	Thèbes. Troisième journée sur la rive gauche, comprenant Bab-el-Molouk.
14me Journée	De Louqsor à Esneh. Visite au temple d'Esneh. D'Esneh à Edfou.
15me Journée	Visite au temple d'Edfou. D'Edfou à Gebel-Silsileh.
16me Journée	Visite aux grottes et aux carrières de Gébel-Silsileh. De Gébel-Silsileh à Ombos. Visite au temple d'Ombos.
17me Journée	D'Ombos à Assouan. Visite à l'île d'Éléphantine.
18me Journée	D'Assouan à Philæ. Visite à l'île et à la cataracte.
19me Journée	Voyage de retour. D'Assouan à Thèbes.
20me Journée	De Thèbes à Sohag.
21me Journée	De Sohag à Siout.
22me Journée	De Siout à Minieh.
23me Journée	De Minieh à Bédréchyn.
24me Journée	De Bédréchyn au Caire.

Voici maintenant le détail de l'emploi du temps à chacune des stations qui sont indiquées dans le tableau précédent.

quand Touloun élève au Caire le plus vieux et le plus vénérable des monuments qui décorent cette ville, une autre civilisation est déjà morte depuis trois ou quatre siècles, après avoir fourni une carrière d'aumoins quatre mille ans. C'est en présence des débris de cette civilisation, si ancienne et si vivace qu'aucune autre ne peut lui être comparée dans le monde, que nous allons nous trouver,

Voici d'abord le tableau résumé de l'emploi du temps :

1re Journée	De Boulaq à Gyzeh. Arrêt pour la visite aux Pyramides. Retour à Gyzeh. De Gyzeh à Bédréchyn.
2me Journée	Arrêt à Bédréçhyn pour la visite à Saqqarah. En passant, ruines de Memphis. Retour à Bédréchyn. De Bédréchyn à Zawyet-el-Masloub.
3me Journée	De Zawyet-el-Masloub à Beni-Souef. De Beni-Souef à Minieh.
4me Journée	De Minieh à Béni-Hassan. Arrêt à Béni-Hassan pour la visite des grottes. De Béni-Hassan à Rhodah.
5me Journée	De Rhodah à Siout.
6me Journée	De Siout à Sohag. De Sohag à Girgeh.
7me Journée	De Girgeh à Bellianeh. Arrêt à Bellianeh pour la visite aux ruines d'Abydos. Retour à Bellianeh.

	KIL.		KIL.
De Boulaq à Gyzeh.	4	De Boulaq à Gyzeh. . . .	4
De Gyzeh à Bédréchyn.	19	— à Bédréchyn. .	23
De Bédréchyn à Béni-Souef. . .	92	— à Beni-Souef. .	115
De Beni-Souef à Minieh . . .	132	— à Minieh . .	247
De Minieh à Beni-Hassan . .	23	— à Beni-Hassan .	270
De Beni-Hassan à Rhôdah . . .	17	— à Rhôdah . . .	287
De Rhôdah à Siout	107	— à Siout	394
De Siout à Sohag	110	— à Sohag. . . .	504
De Sohag à Bellianeh (Abydos)	51	— à Bellianeh . .	455
De Bellianeh à Qéneh (Dendérah)	89	— à Qéneh. . . .	644
De Qéneh à Louqsor.	71	— à Louqsor. . .	705
De Louqsor à Esneh.	56	— à Esneh. . . .	761
D'Esneh à Edfou	50	— à Edfou	811
D'Edfou à Gebel-Silsileh	42	— à Gebel-Silsileh	853
De Gebel-Silsileh à Ombos. . .	24	— à Ombos . . .	877
D'Ombos à Assouan.	43	— à Assouan. . .	920
D'Assouan à Philæ	8	— à Philæ. . . .	928

Nous allons maintenant faire pour la Haute-Égypte ce que nous avons fait pour le Caire, c'est-à-dire déterminer l'emploi du temps pendant les 24 jours du voyage.

Cette fois ce ne sont plus les mosquées que nous allons avoir à étudier ; ce n'est plus l'art arabe qui va étaler devant nous ses merveilles. Quand la mosquée d'Amrou est bâtie,

en descendant à terre pendant l'arrêt, trouvent ainsi l'occasion de visiter les villes les plus importantes de la Haute-Egypte.

3° Enfin les bateaux ont un arrêt spécial aux points qui sont désignés à la curiosité ou à l'étude des visiteurs, et qui sont :

Les Pyramides, Myt-Rahyneh, Saqqarah	Entre le Caire et Beni-Souef.
Beni-Hassan, Rhôdah	Entre Minieh et Siout.
Abydos, Dendérah	Entre Sohag et Qéneh
Thèbes.	Entre Qéneh et Esneh.
Esnéh, Edfou, Gebel-Silsileh, Ombos, Assouan, Eléphantine	Entre Esneh et Assouan.
La Cataracte, Philæ.	Au-delà d'Assouan.

A ces renseignements nous ajouterons ici : 1° le tableau des distances qui séparent entre elles les localités où les visiteurs ont une station à faire ; 2° le tableau des distances qui séparent ces mêmes localités de Boulaq, lieu d'embarquement :

sinuosités du fleuve et des changements presque subits de son lit. Par conséquent, les bateaux s'arrêtent le soir et s'amarrent à la rive la plus proche de l'endroit où la nuit est venue les surprendre.

2° Un autre arrêt a lieu aux villes que nous indiquons ici pour le renouvellement de la provision de charbon.

1re *Station*............	Beni-Souef.
2me *Station*	Minieh.
3me *Station*............	Siout.
4me *Station*............	Sohag.
5me *Station*	Qéneh.
6me *Station*............	Esneh.
7me *Station*............	Assouan.

Mais ces localités étant en même temps des chefs-lieux de province, les voyageurs,

§ II.

VOYAGE DU NIL.

Le voyage de la Haute-Egypte s'accomplit tout entier en bateau à vapeur.

89 Ce voyage ne se fait pas d'une traite. Les nécessités de la navigation du Nil combinées avec les excursions pittoresques ou archéologiques obligent à des temps d'arrêt qui sont les suivants :

1° On ne navigue pas la nuit à cause des

Fig. 89 p. 63

dessus détaillé des cinq journées passées au Caire ne sont pas comprises les visites, les réceptions, dont il est difficile jusqu'à présent de préciser le moment.

à des espèces dont jusqu'à présent il n'a pas été possible de déterminer la nature.

On conseillera aux invités de Son Altesse d'oc-
cuper l'après-midi de leur dernière journée au
Caire, en nouvelles excursions, un peu au hasard,
dans l'intérieur de la ville. Le Caire est la ville
du monde la moins tirée au cordeau; les rues
s'y mêlent, s'y croisent, s'y coupent, et dans cet
enchevêtrement, en apparence inextricable, de
86 mosquées, de fontaines, de maisons, de marchés,
il y a mille remarques à faire, mille points de vue
à observer aujourd'hui qu'on aura négligés hier.
Une visite aux bains arabes a aussi son intérêt.
87 Le bain en lui-même peut ne pas séduire. Mais
88 ces établissements si chers aux habitudes mu-
sulmanes ont toujours leur côté pittoresque, ici
un plafond, là une porte travaillée en bois de
couleur, plus loin une arabesque découpée dans
un pan de mur, que le voyageur épris des
admirables finesses de l'art arabe est toujours
bien aise d'étudier sur place. Nous ajouterons
que l'un des bains principaux du Caire est le
bain *Tombaly*, près de la porte *Charieh*.

Il est bien entendu que, dans l'emploi ci-

Fig. 86 p. 61

Fig. 87, 88 p. 92

Khalifes, leurs tombes avaient été construites sur l'emplacement où s'élève aujourd'hui le Khan-Khalil. Mais on n'en trouve même plus de traces, à l'exception de celle de *Melek-es-Saleh*, ce glorieux Sultan de la dynastie des Ayoubites qui sut tenir tête à Saint-Louis et mourut juste au moment où la fortune allait pour toujours abandonner les armes des Croisés.

5me Journée. — Toute la zône de terrain qui s'étend à la hauteur du Caire, entre la mer Rouge d'une part et les premiers contreforts de la chaîne Libyque de l'autre, est parsemée de silex jaspoïdes au milieu desquels apparaissent ça et là, quelquefois isolés,
85 quelquefois réunis en nombre assez considérable, des bois agatisés où l'on remarque des fragments et même des troncs d'arbres pétrifiés, mesurant jusqu'à quatre mètres de longueur. Les visiteurs que les questions qui touchent à la constitution physique de l'Egypte intéressent emploieront la matinée de leur cinquième journée à une excursion vers un des groupes situés au sud-est du Caire, que les guides appellent la *Forêt Pétrifiée*. Des palmiers s'y reconnaissent avec des accacias du désert, mêlés

---

Fig. 85 p. 61

79 couvent de St-Georges que, comme à Héliopolis, le
80 visiteur rencontre des souvenirs de la Sainte Famille
81 et de la Fuite en Egypte. « On voit dans cette église,
82 « dit le P. Vansleb (le P. Vansleb l'appelle à
« tort l'église de St-Serge), une petite grotte dans
« laquelle, suivant la tradition des Coptes, Nostre
« Seigneur avec sa Sainte Mère ont habité quelque
« temps. Elle est distinguée en trois ailes, ou par-
« ties, par de petites colonnes. Dans la première
« en entrant sont les fonds de baptême des Coptes;
« au fond de celle du milieu, il y a une niche
« dans la muraille, et dans cette niche une pierre
« qui, à ce que les Coptes croient, a été sanctifiée
« par les vestiges de Nostre Seigneur. Les Francs
« y disent quelquefois la messe. Dans la troisième
« partie, il y a aussi une pierre sanctifiée par les
« traces de Nostre Seigneur... »

83 *Kaïtbay* occupera l'après-midi de la quatrième
84 journée. C'est à peu de distance à l'est de la porte
du Caire, appelée *Bab-en-Nasr*, que se rencontre
cette nécropole. Les Européens donnent à tort aux
tombeaux qu'on y voit, le nom de *Tombeaux des Khalifes*. La vérité est que les personnages qui
y sont enterrés sont les rois de la dynastie Circassienne des Mamelouks (1382 à 1517). Quant aux

Fig. 79, 80, 81, 82 p. 59
Fig. 83, 84 p. 60

75 la traduction de *Masr-el-Attika*, nom qu'on lui
76 donne aujourd'hui. Capitale de l'Egypte dès le temps d'Amrou (640), Fostâtt céda peu à peu son rang à une autre ville que Touloun avait fondée à peu de distance de là (876) et qui, sous Moez (972), devint même la capitale officielle avec le nom de *Masr-el-Kahirah*. En 1168, lorsque les Francs sous la conduite d'Amaury 1er, roi de Jérusalem, firent invasion en Egypte, Fostâtt fut livrée aux flammes, et quand elle se releva de ses cendres, ce fut pour devenir l'un des faubourgs et l'un des ports sur le Nil de la nouvelle capitale.

Le but principal de l'excursion au Vieux Caire
77 est *Qasr-el-Châma* (Chateau de la lumière), sorte
78 de forteresse qui fut pendant quelque temps la résidence des premiers princes Musulmans de l'Egypte et qui est peut-être aujourd'hui le seul débris subsistant de l'ancienne Babylone. Comme la Citadelle du Caire, Qasr-el-Châma est une ville qui a ses rues, ses maisons, ses marchés ; mais les habitants en sont principalement Coptes, bien que les Grecs y aient un couvent et que dans quelques rues des marchands musulmans y exercent paisiblement leur commerc. Quatre ou cinq couvents s'y trouvent, parmi lesquels celui de St-Georges. C'est dans le

Fig. 75, 76 p. 57

Fig. 77, 78 p. 58

71 ont été bien différents. Aujourd'hui, le canal passe
72 en effet directement d'une mer à l'autre ; il va droit à son but sans perdre ni une minute, ni un pouce de terrain, et côtoie l'Egypte, presque sans y toucher. Dans ce système, le canal est la partie glorieusement désobstruée de la grande route maritime qui unit l'Europe à l'extrême Orient, route dont l'Isthme est une station. Au contraire, sous les anciens, le canal se conforme en quelque sorte à la politique du temps ; œuvre égyptienne et non universelle, il a son point de départ dans le Nil, et l'Egypte en était ainsi la maîtresse absolue, puisque de Zagazig elle rayonnait à la fois sur les deux mers.

73 Un peu au-delà du pont du Khalig, on passe au
74 pied des premières arches d'un immense aqueduc. Il a 289 arches ; sa longeur est d'environ 2,100 mètres. Une grosse tour de forme octogone, aujourd'hui démolie, le précédait près du Nil et contenait l'appareil à puiser l'eau qu'il était chargé de conduire à la Citadelle. Comme la Citadelle elle-même, comme les murs de la ville, ce bel ouvrage d'utilité publique est l'œuvre de Saladin.

Après l'aqueduc on entre dans le Vieux Caire. Le Vieux Caire s'est appelé *Babylone* sous les Egyptiens, *Fostâtt* sous les Arabes ; son nom actuel est

---

Fig. 71 p. 54
Fig. 72 p. 55
Fig. 73, 74 p. 56

fit recreuser, et que de son temps le passage était ouvert; ce qu'il y a de certain encore, c'est que, 120 ou 125 ans plus tard, le Khalife Abou-Gafar-el-Mansour, en guerre avec l'émir de Médine, le fit boucher et combler, et que depuis ce temps il n'a plus été ouvert. Pour donner plus de clarté encore aux renseignements que nous venons de faire connaître, nous rappellerons d'ailleurs ici que Zagazig était située sur une branche du Nil aujourd'hui desséchée (la branche Pélusiaque) et qui, au temps des Pharaons, était le cours d'eau le plus important et le plus considérable du Nil. Cette branche partait du Nil un peu au-dessous de Benha et se dirigeait de là, en montant au nord-est, vers Péluse où elle se jetait dans la mer. Par le fait, la mer Rouge et la Méditerranée avaient donc été réunies sous les Pharaons; seulement une moitié du cours d'eau était un canal creusé de main d'hommes qui venait de Suez à Zagazig, l'autre moitié était le Nil lui-même qui allait de Zagazig à Péluse, ce qui suffisait aux besoins de la navigation de l'époque. On voit par ces détails que l'idée de faire communiquer la mer Rouge et la Méditerranée n'est pas neuve, puisqu'elle remonte au moins jusqu'à Sésostris. Mais entre les anciens et les modernes, les moyens d'exécution

prise d'eau du canal entre la mer Rouge et le Nil était à Zagazig (Bubastis). A ce moment le canal se dirigeait vers Raz-el-Ouâdy sur une longueur d'environ 20 kilomètres. Le canal parcourait ensuite tout l'Ouâdy jusqu'au Sérapéum, et son développement était de 60 kilomètres. Venaient alors les Lacs amers (36 kil.), puis enfin, par un détour subit vers le sud, Suez, distant de 20 kil. Au temps des Pharaons, le Canal qui reliait l'Egypte à la mer Rouge prenait donc à Zagazig et de là se dirigeait vers Suez, le parcours étant d'environ 130 kilomètres. Tel fut le canal sous les Pharaons. Mais plus tard, un des trois personnages que nous venons de nommer (on s'accorde plutôt à regarder Adrien comme l'auteur du travail) modifia ce parcours, et à ce canal primitif ajouta un autre canal qui allait rejoindre l'ancien en un point que nous ne connaissons pas et avait sa prise d'eau au Vieux Caire. Le canal de Suez qui, sous les Pharaons, reliait l'Egypte à la mer Rouge par Zagazig, reliait donc l'Egypte à la mer Rouge, sous les Romains, par le vieux Caire. Combien de temps après les Romains ce canal fut-il ouvert à la navigation? On ne saurait le préciser. Ce qu'il y a de certain, c'est que le Khalife Omar, l'an 644 de notre ère, le

puisque souvent il lui a donné des maîtres; la stèle d'Alexandre II, pleine de révélations sur la géographie et l'histoire de l'Egypte, non seulement sous les premiers rois Grecs, successeurs du conquérant macédonien, mais encore sous les rois Perses; la Pierre de Sân, décret trilingue, bien autrement complet que la Pierre de Rosette, et qui, venue il y a trente ans, aurait révolutionné la science.

4me Journée. — Une promenade au Vieux Caire occupera la matinée.

Chemin faisant, on franchit sur un beau pont de pierre le canal appelé *Canal du Caire, Canal du Prince des Fidèles* ou *des Croyants, Canal de Hakem,* ou tout simplement le *Khalig,* c'est-à-
70 dire le *Canal.* Le nom de l'auteur de ce canal reste assez douteux, et les noms de Trajan, d'Adrien, d'Amrou ebn-el-Aas, sont tour-à-tour prononcés sans qu'on puisse décider sans retour en faveur de l'un ou de l'autre d'entre eux. Mais ce qui est hors de contestation, c'est que, quel que soit son auteur, le Khalig allait s'embrancher sur le grand canal qui menait du Nil à la mer Rouge. Primitivement, c'est-à-dire du temps de Sésostris qui, le premier, commença cette entreprise, la

---

Fig. 70 p. 53

67 cré à la visite du Musée de Boulaq. Le Musée de
68 Boulaq a maintenant sa réputation faite, et nous
69 n'en parlerons pas. Ouvert au public en 1863,
l'année de l'avènement au trône de Son Altesse Ismaïl-Pacha, il n'a pas cessé depuis ce moment de s'agrandir, et aujourd'hui il serait le premier Musée Egyptien du monde si le hazard des fouilles dont il est sorti l'avait un peu plus favorisé sous le rapport des papyrus. Tel qu'il est cependant, il prend place parmi les premiers, car seul il peut montrer : le magnifique ensemble des monuments de l'Ancien-Empire, qui a reculé les bornes de la science et a permis de planter le drapeau de l'histoire à des hauteurs jusqu'à présent inaccessibles; les monuments des Hycsos découverts à Sân, autre ensemble qui a fourni à la science le moyen de déchirer enfin le voile, si longtemps et si obstinément tendu entre elle et l'une des périodes les plus importantes de l'histoire d'Egypte; les bijoux de la reine Aah-Hotep, prodigieux échantillons de l'art au temps même du patriarche Joseph; les stèles de Gébel-Barkal, qui tout-à-coup nous transportent dans un royaume où l'on parle l'égyptien, où l'on se sert des hiéroglyphes, où l'on adore les dieux de l'Egypte, et qui n'est pas cependant l'Egypte,

Fig. 67, 68, 69 p. 52

celui-ci la décoration de la façade principale du temple pour lequel ces deux monolithes avaient été érigés; tombé par terre et fendu en deux dans sa chûte dès le temps de l'historien arabe que nous venons de citer, il a aujourd'hui disparu jusqu'au dernier fragment.

Quant aux ruines de la ville, c'est à tort qu'on croit les reconnaitre dans les buttes qui entourent l'obélisque et qui se terminent aux gros murs de briques crues, formant à l'entour une enceinte quadrangulaire. Cette enceinte, qui a 1,400 mètres de côté sur 1,000 mètres, est, non le rempart de la ville, mais l'enceinte qui sert de limite au parvis du temple. Le temple d'Héliopolis, si célèbre, non seulement parmi les écrivains grecs, mais parmi les Egyptiens eux-mêmes, n'aurait pas eu pour le borner aux quatre coins de l'horizon une vaste enceinte sacrée, que ce fait serait en désaccord avec toutes les traditions monumentales de l'Egypte. D'un autre côté les dimensions que nous venons de faire connaître n'ont rien qui doive surprendre, puisqu'on trouve des enceintes presqu'égales en étendue pour des temples d'une bien moindre importance à Saïs, par exemple, et à Dendérah.

L'après-midi de la troisième journée est consa-

« sainte Mère, lorsque les satellites d'Hérode les « poursuivaient. On dit que, s'étant cachés dans « cette ouverture, ils se sauvèrent par ce moyen « de leurs mains, à la faveur d'une toile d'araignée « qui les couvrait, et qui paraissait fort vieille, « quoiqu'elle ait été faite dans un instant, par un « miracle divin...

« Les Pères Cordeliers de la Terre Sainte, qui « demeurent au Caire, disputent avec les jardiniers « la possession de cet arbre, disant qu'il tomba « de vieillesse l'an 1656 et qu'ils en ramassèrent « les dernières pièces, qu'ils conservent dans leur « sacristie, où je les ai vues, comme une relique « très-précieuse. Les jardiniers montrent au con- « traire, dans ce jardin, une souche que j'ai vue « aussi, qu'ils assurent être le reste de cet ancien « Sycomore... »

A un kilomètre au-delà, sont les ruines d'Hélio-
65 polis. L'obélisque qui en marque le centre est le
66 plus ancien obélisque de l'Egypte, puisqu'il porte
les cartouches d'Ousertasen Ier, deuxième roi de la
XIIme dynastie. Il a 20 mètres 27 centimètres de
hauteur. Originairement un pyramidion de cuivre,
qu'Abd-el-Latyf a vu encore à sa place, en recou-
vrait la pointe. Un second obélisque complétait avec

Fig. 65, 66 p. 51

« quelques vestiges de Nostre Seigneur, et de sa
61 « très-sainte Mère. On l'appelle *El-Makad* (lisez
« *El-Markad*) ou le *lieu du repos*.

« Il y a dans ce *Makad* un petit réservoir...
« Les Coptes ont pour tradition que la Sainte
« Vierge avait coutume d'y laver les linges de son
« cher enfant ; et mesme que pendant qu'elle était
« occupée à son travail, elle le faisait reposer
« dans une niche, qui est dans la muraille du *Ma-*
« *kad*, lieux où les religieux Francs disaient au-
« trefois la messe par dévotion...

« Tout proche de ce *Makad* ou *Reposoir* est
62 « le puits miraculeux...

« La tradition des Coptes porte, et même quel-
« ques historiens Mahométants en tombent aussi
« d'accord..., que Nostre Seigneur s'est lavé dans
« ce puits, et qu'il communiqua par un miracle à
« ses eaux leur douceur et bonté extraordinaire...

« Après avoir fait collation dans le Reposoir, et
« bu de cette bonne eau par dévotion, nous en-
« trâmes dans le jardin...

« On voyait autrefois dans ce même jardin, le
63 « *Sicomore*, qui, suivant la tradition des Coptes,
64 « s'était fendu par un miracle, pour mettre à cou-
« vert Nostre Seigneur Jésus-Christ et sa très-

Fig. 61, 62 p. 49

Fig. 63, 64 p. 50

servant aujourd'hui de centre aux écoles militaires du Gouvernement. Le monument de beau style Arabe situé à gauche de la route, en approchant
59 du palais, est la tombe de *Malek-Adel* (1218 de l'ère chrétienne) qui régna à Jérusalem et au Caire, et qui faillit devenir, par un accord politique consenti entre les Croisés et les Musulmans, l'époux de la sœur de Richard Cœur-de-Lion.

C'est un peu avant d'arriver aux ruines d'Héliopolis que, dans un jardin attenant au village moderne de Matarieh, se trouvent le *Puits* et *l'Arbre*
60 *de la Vierge*. Le P. Vansleb, voyageur qui visita l'Egypte en 1672, s'exprime à ce sujet dans les termes suivants : « Le 12 de juillet, je fus, en « compagnie de quelques marchands français, au « village de *Ma-tarea* situé du côté d'Est du « Caire, en distance de chemin d'environ deux « heures de cheval, pour voir les lieux que Nostre « Seigneur Jésus-Christ et sa très-sainte Mère, « ont sanctifiés de leur présence; et en même « temps le jardin, où l'on plantait autrefois les « plantes du baume.

« En entrant dans la cour, on voit à main « droite un petit oratoire des Turcs, bâti sur les « ruines d'une petite église Copte, où l'on révérait

Fig. 59 p. 48

Fig. 60 p. 49

55 même ligne verticale. La première, celle qui
56 débouche à l'air libre, a 50 mètres 30 cent. de
profondeur, la seconde 40 mèt. 30 cent., la profondeur totale du puits étant ainsi de 90 mètres 60 cent. Quant à la tour d'Emin-Bey, elle est située
57 à gauche du visiteur qui, de la place de Roumilie,
58 entre dans la Citadelle par la porte de *Bab-el-Azab*.
Remaniée et restaurée pendant les travaux d'embellissement dont la place de Roumilie vient d'être l'objet, la tour a gagné en hauteur tout ce que les décombres amoncelés à sa base lui faisaient perdre à l'époque de l'évènement qui a fait de cette tour un monument historique. En visitant la Citadelle, les invités de S. A. s'apercevront d'ailleurs qu'elle est en ce moment même l'objet de travaux d'aménagement, qui ont pour but de donner aux Ministères, aux services publics qui y sont installés, une organisation en rapport avec l'importance tous les jours plus grande que l'Egypte acquiert dans le monde.

3me Journée. — Dans la matinée, excursion à l'arbre de la Vierge et aux ruines d'Héliopolis. On voit, en passant, l'*Abbassieh*, vaste palais bâti pour son usage par Abbas-Pacha, et

Fig. 55, 56 p. 46

Fig. 57, 58 p. 47

(aussi appelé le *Divan de Joseph*), remarquable par
les 32 immenses colonnes monolithes qui en soute-
49 naient la salle principale, la mosquée de Kalaoun,
50 une des merveilles de l'art arabe, les divans, lieux
d'assemblée pour les hauts fonctionnaires du gou-
vernement, où la richesse des matériaux le disputait
à l'élégance du dessin. Mais une formidable explo-
sion survenue en 1823 disloqua tous ces monuments,
et bientôt après le besoin de faire de la place pour
la mosquée de Méhémet-Ali qui allait s'élever leur
porta un nouveau coup. Aujourd'hui ce qu'on visite
à la Citadelle, outre l'ensemble lui-même, c'est la
51 Mosquée de Méhémet-Ali ; c'est le *Byr-Yussef*,
le puits dit *de Joseph* ; c'est aussi la tour fameuse
d'où Emin-Bey se précipita à cheval, échappant
par ce trait d'audace à la mort qui frappait derrière
lui tous les Mamelouks (1811). La Mosquée de
Méhémet-Ali, qui est en même temps le tombeau de
52 son illustre fondateur, parle en quelque sorte d'elle-
53 même, et nous n'avons à décrire ni ses élégants et
54 hardis minarets, ni la majesté de son plan, ni la
profusion de l'albâtre employé dans sa construction.
Le puits dit *de Joseph*, du nom de celui qui le fit
creuser *(Salâh-ed-dyn Yussef-ebn-Ayoub)*, se
compose de deux parties qui ne sont pas dans la

Fig. 49, 50, 51 p. 44

Fig. 52, 53, 54 p. 45

41 *El-Ghoury-Abou-Nasr*, le même qui périt dans
42 la bataille livrée par lui au Sultan Sélim en 1517,
43 elle offre cet intérêt d'être le dernier des monu-
44 ments religieux élevés par les Sultans d'Egypte.
45 De l'autre côté de la rue est le tombeau de son
46 fondateur.

La deuxième journée, commencée par la visite aux mosquées, a pour complément l'excursion à la Citadelle. La Citadelle, vue à vol d'oiseau, offre un mélange si extraordinaire de remparts, de rues,
47 de maisons, de monuments publics, de places, de
48 mosquées, qu'elle semble une autre ville. A 95
mètres environ au-dessus du niveau des basses eaux du Nil, s'élève sur le flanc de l'un des contreforts du Mokattam, un plateau qui domine tout le Caire. C'est là que Saladin, à une date que nous ne rappelons pas puisqu'elle est celle de la lutte opiniâtre des Croisés contre leur infatigable adversaire, fit construire le château-fort qui, de transformations en transformations, est devenu l'assemblage complexe que nous avons sous les yeux. Il y a cinquante ans, la citadelle offrait encore au visiteur des souvenirs imposants des siècles qu'elle avait traversés et des évènements dont elle avait été le théâtre. C'était là que se trouvaient le Palais de Saladin,

---

Fig. 41, 42, 43 p. 41
Fig. 44, 45, 46 p. 42
Fig. 47, 48 p. 43

ses fontaines. Nulle mesure ne sera mieux accueillie. La façade de la Citadelle qui borde la place du côté sud est déjà réparée. Quatre belles mosquées jusqu'ici cachées derrière des maisons vont rentrer dans leur pleine lumière et faire à la place un cadre sans pareil dans le monde.

37 7° Rue Sukkarieh, on trouve une mosquée
38 digne de l'attention des visiteurs appelée la mos-
39 quée *El-Barkouk*, du nom de Barbouk, pre-
40 mier sultan Mamelouk circassien. Elle fut bâtie
en 1386. La salle du tombeau est décorée avec une profusion d'ornements qui étonne. C'est à côté de ce tombeau que l'on conserve le caftan de soie et la ceinture de cuir de Kalaoun. Moyennant une rétribution donnée au gardien, des personnes malades, hommes et femmes, se couvrent de ce caftan usé par les siècles et passent la ceinture autour de leurs reins. Ils font ensuite trois fois le tour du tombeau en prononçant quelques prières, et se retirent, dit-on, guéris.

8° Nous terminerons cette énumération des mosquées que les voyageurs sont dans l'habitude de visiter, en citant la mosquée d'*El-Ghoury*, située près du bazar de ce nom dans une des positions les plus pittoresques que l'on puisse voir. Bâtie par

Fig. 37 , 38 , 39 , 40 p. 40

les autres mosquées ; nous voulons parler de la mosquée du *Sultan-Hassan*. La mosquée du Sul-
31 tan Hassan a été bâtie en 1356. Sa longueur totale
32 est d'environ 150 mètres ; son grand minaret a 80
33 mètres d'élévation. Rien de grandiose comme la
34 nef principale de ce hardi monument ; rien de
35 gracieux comme sa coupole. C'est à l'intérieur surtout qu'éclatent dans leur profonde originalité les richesses du style arabe. Les murs et les parois sont incrustés de marbres de diverses nuances. Le bleu, le rouge, le vert, l'or, se marient dans de grands panneaux à fond de pierre pour faire ressortir des dessins de toute forme où les arabesques les plus variées alternent avec des versets du Coran écrits en lettres gigantesques. Le travail des grillages, des portes, des fenêtres, révèle le même art traité avec la même perfection. Autrefois des masures sans forme s'adossaient au splendide monument que nous venons de décrire et en gâtaient la vue. Les amateurs du beau apprendront avec satisfaction que l'isolement complet de la mosquée de Sultan Hassan a été or-
36 donné par S. A. Bien plus, la place de Roumilie située en face est déjà l'objet de travaux qui vont en faire un véritable square avec ses arbres et

---

Fig. 31 p. 36
Fig. 32 p. 36
Fig. 33 p. 36
Fig. 34 p. 37
Fig. 35 p. 38
Fig. 36 p. 39

large acception du mot, mais encore logés. Nous ajouterons qu'en même temps on trouve dans la mosquée d'El-Azhâr un hospice pour les aveugles, et de vastes dépendances où les pélerins étrangers qui se rendent à la Mecque reçoivent une hospitalité toujours empressée. La mosquée d'El-Azhâr n'est donc pas seulement un lieu de prières ; elle est aussi un collège, une université, une bibliothèque, et un asile pour les infirmes et les péle-
26 rins.

27 4° La mosquée de *Kalaoun*, ainsi nommée du
28 Sultan de ce nom, est située près du Khan-Khalil.
Elle a été commencée en 1303 de notre ère, et finie, treize mois après seulement, en 1304, ce que constate une inscription placée sur les murs du monument.

29 5° La double mosquée appelée *Cheikhoun* date
30 de 1354. Elle est située à droite et à gauche de
la rue qui monte de la mosquée de Touloun à la Citadelle. *Hassan Melek-en-Nasr*, le même qui illustra à jamais son nom par la construction de la mosquée du *Sultan-Hassan*, est son fondateur.

6° Nous arrivons à la mosquée par excellence, celle qui, comme grandeur, comme construction, comme modèle d'art, se place à la tête de toutes

---

Fig. 26 p. 34
Fig. 27 p. 34
Fig. 28 p. 34
Fig. 29, 30 p. 35

de 80 mètres sur 76. L'ogive y est déjà employée
21 et on y trouve sur les murs d'admirables exemples
d'écriture coufique. « On montait au minaret, dit un
« auteur arabe, par un escalier extérieur en forme de
22 « spirale. Ahmed-ebn-Touloun fit faire la corniche
« qui régnait tout autour avec de l'ambre pétrie, pour
« flatter l'odorat de ceux qui viendraient y prier. »

3° Après celles que nous venons de citer, vient comme ancienneté la mosquée d'*El-Azhâr*. La
23 mosquée d'El-Azhâr a été fondée, l'an 969 de
24 notre ère, par *Goher-el-Qaïd*, qui fut vizir de
25 Moëz, le premier sultan de la dynastie des Fatimistes. Remaniée plusieurs fois, elle porte en ses diverses parties la marque et comme le cachet des époques auxquelles elle a subi ces restaurations, dont la dernière est de 1762. Mais ce n'est pas comme architecture que la mosquée d'El-Azhâr se recommande à l'attention. La mosquée d'El-Azhâr est, en effet, le centre le plus illustre de la science arabe. Des cours complets et suivis, qui comprennent l'étude du Coran, la versification, la grammaire, la législation civile, religieuse et criminelle, y sont faits devant des milliers d'auditeurs, accourus de toutes les parties du monde musulman, qui y sont non-seulement instruits gratis dans la plus

Fig. 20 p. 30
Fig. 21 p. 31
Fig. 22 p. 32
Fig. 23, 24 , 25 p. 33

lieutenant du Khalif Omar, l'an 642 de notre
16 ère. Bâtie hors les murs, sur l'emplacement de
17 l'ancienne Fostâtt, elle subsiste encore aujourd'hui
18 comme le plus ancien modèle de l'architecture
arabe. Malgré l'état de ruine dans lequel elle se trouve, on juge encore de la grandeur et en même temps de la simplicité de son plan. On sait que Memphis fournit à la mosquée d'Amrou ses belles colonnes de granit et de porphyre, et les historiens arabes assurent que le Coran tout entier fut gravé en lettres d'or sur les plaques de marbre dont ses murailles étaient revêtues. Malheureusement les colonnes seules sont en partie venues jusqu'à nous, et le visiteur peut se convaincre que la mosquée n'offre aujourd'hui aucune sculpture, aucun ornement qui témoigne de l'état des arts à cette époque reculée de la civilisation arabe.

2° Nous quittons Fostâtt, nous entrons dans le
Caire, et nous trouvons la mosquée de *Touloun*,
19 antérieure de près d'un siècle à toute autre cons-
20 truction existant aujourd'hui dans la ville. Bâtie
en 877 de notre ère par *Ahmed-ebn-Touloun*, la mosquée de Touloun, comme la mosquée d'Amrou, porte dans toutes les parties de sa construction des preuves de son antiquité. Ses dimensions sont

Fig. 16 p. 28
Fig. 17 p. 28
Fig. 18 p. 29
Fig. 19 p. 30

C'est au Khan-Khalil que, le plus souvent, elles
13 ont été achetées, à vil prix quelquefois, quelquefois
14 aussi au poids de l'or, quand l'acheteur ne sait pas
15 marchander effrontément. C'est d'ailleurs après une promenade de ce genre, un peu au hasard et sans direction, que le visiteur prend comme malgré lui une idée de la grandeur et de l'importance de la ville. Le Caire a plus de 300 mille habitants. Son périmètre, non compris les faubourgs, est de 24 kilomètres. Comme centre commercial et religieux, le Caire n'a pas son égal en Orient; il n'a pas son égal non plus comme ville monumentale.

2me Journée. — Cette journée est consacrée à la visite des mosquées et de la Citadelle. On a tout dit sur l'élégance, la hardiesse, l'harmonieux agencement des mosquées arabes, et ce n'est point le lieu d'y revenir. Le Caire possède près de 300 mosquées. Celles que les voyageurs visitent habituellement sont les suivantes que, pour plus de clarté, nous placerons ici par ordre d'ancienneté.

1° L'aïeule de toutes les mosquées du Caire et de toutes les mosquées du monde musulman est la mosquée d'*Amrou* fondée par *Amrou ebn-el-Aas*,

Fig. 13 p. 26
Fig. 14 p. 26
Fig. 15 p. 27

vêtements aux couleurs éclatantes, ces minarets qui, çà et là, montent hardiment dans le ciel, toute cette architecture qui semble avoir crû là comme par hasard, forment des tableaux dont les yeux ne se rassasient jamais. Les bazars offrent un autre sujet d'études et de distractions. Nous ne parlerons pas du *Mouski*, lieu banal qui a trop pris la couleur
10 d'un quartier de ville européenne. Mais le *Khan-*
11 *Khalil*, le *Ghourieh*, le *Khamsawi*, le *Souk-es-*
12 *Selah* (marché des Armes), ont heureusement conservé jusqu'à présent leur originalité. Les jours principaux de vente du Khan-Khalil sont le lundi et le jeudi. Que le touriste amateur de l'imprévu se rende ces jours-là au bazar. Le bruit est si intense qu'on ne s'y entend pas, la foule est si compacte qu'on a peine à y remuer. Ces jours-là tous les marchands ne sont pas dans les boutiques. Les plus nombreux sont ceux qui circulent dans l'étroite ruelle qu'on décore du nom de rue, et qui, un objet dans la main, annoncent à haute voix la nature et le prix de la marchandise d'occasion qu'ils mettent en vente. Qui ne connaît ces curiosités, armes, vêtements, parures, tapis, cachemires, vases, bijoux, dont les collectionneurs sont si friands et qu'ils rapportent avec tant de joie de leur voyage d'Orient?

Fig. 10 p. 24
Fig. 11 p. 25
Fig. 12 p. 25

Voici maintenant quelques détails sur chacune des excursions énumérées dans le tableau précédent :

1re Journée. — On profitera de cette journée pour prendre connaissance de l'aspect général de la ville. Le rendez-vous le plus habituel pour les Européens est l'Esbékieh, vaste place en voie de transformation et tête du nouveau quartier dont S. A. Ismaïl-Pacha a ordonné la création. C'est de là qu'on partira pour visiter la ville. Tout le monde a entendu parler des rues du Caire, étroites, sinueuses et discrètement sombres, véritables refuges contre la chaleur accablante du jour. L'étranger trouve un plaisir toujours plus vif à les parcourir. Nulle autre ville, en effet, n'offre des échappées de vue plus pittoresques. Ces maisons qui surplombent, ces fontaines, ces moucharabiehs aux formes variées, cette population bruyante et affairée, ces

laissé à l'initiative personnelle des visiteurs. Selon les goûts, il en est, en effet, qui se porteront de préférence vers certains points de la ville que d'autres négligeront. Néanmoins un bon mode de division du temps pendant ces cinq jours, serait le suivant :

1re Journée	Promenade dans la ville. Visite aux bazars.
2me Journée	Visite aux mosquées et à la Citadelle.
3me Journée	Dans la matinée, excursion à l'arbre de la Vierge et aux ruines d'Héliopolis. Dans l'après-midi, Musée de Boulaq.
4me Journée	Dans la matinée, excursion au Vieux Caire. Le Khalig. L'aqueduc. Qasr-el-Châma. Dans l'après-midi, excursion aux tombeaux des Mamelouks.
5me Journée	Dans la matinée, excursion à la Forêt pétrifiée Dans l'après-midi, promenades.

Les invités de S. A. le Khédive, qui ont devancé d'un mois les fêtes de l'inauguration du Canal de Suez, ont cinq jours à dépenser au Caire, et vingt-quatre sur le Nil.

On a résumé ici, aussi brièvement que possible, l'emploi du temps pendant ces vingt-neuf journées.

§ I^{er}.

SÉJOUR AU CAIRE.

L'emploi du temps pendant les cinq jours de station au Caire est assez difficile à préciser, et doit nécessairement être un peu

La présente NOTICE *n'est destinée qu'à ceux des invités de Son Altesse le Khédive qui font le voyage de la Haute-Égypte. Dès leur arrivée à Alexandrie, elle leur sera mise entre les mains, afin qu'ils sachent d'avance l'emploi de leur temps au Caire et sur le Nil.*

Il est nécessaire d'ajouter que cette Notice *ne dispense pas d'un* Guide. *Tout au contraire, on n'y a introduit quelques renseignements que pour donner comme un avant-goût du voyage et mieux décider par là les personnes qu'une vaine curiosité n'attire pas seule en Égypte, à étudier les excellents itinéraires publiés en Angleterre par M. Murray, et par MM. Joanne et Isambert en France.*

Les fouilles au temps du Khédive

Mariette souligne l'intérêt accordé par le Khédive au progrès de la science. Ce vice-roi d'Egypte a encouragé les travaux des fouilles archéologiques. Mariette profite de l'occasion pour mettre en évidence les découvertes réalisées par les archéologues qui ont rendu à l'égyptologie des services immenses. Il condamne les mutilations, le vandalisme de certains explorateurs de l'Egypte, les marchands d'antiquités. Il s'indigne de la disparition d'un beau sarcophage d'albâtre qui se trouvait dans la tombe de Séti Ier. Le sarcophage de granit rose, taillé en forme de cartouche royal, décorait la chambre royale de Ramsès III, il a été « enlevé par M. Salt. La cuve est au Louvre, le couvercle se trouve à l'université de Cambridge ».

L'auteur ne pouvait passer sous silence les fouilles ordonnées et réalisées par ordre du Khédive. Le déblaiement d'Edfou est le plus grand travail archéologique ordonné par le vice-roi car le village moderne avait envahi le temple. On se rend compte de l'effort qu'a coûté le déblaiement en entrant aujourd'hui dans ce temple où il n'est pas une ligne de texte qui ne soit facilement accessible à la curiosité du voyageur et à l'étude du savant.

Mariette a joué un rôle important dans le domaine de la sauvegarde et de la conservation des antiquités égyptiennes qui étaient souvent achetées et importées à l'étranger.

Mariette disait : « Il y a quelques temps, l'Egypte détruisait ses monuments, elle les respecte aujourd'hui ; il faut que demain elle les aime ».

Abbas ABOU-GHAZALA
Docteur ès lettres, historien et traducteur

* Les notations qui se trouvent dans la version française, renvoient les lecteurs aux numéros des illustrations et des pages du texte traduit en arabe.

arts : sculpture, dessin, architecture et décoration à travers les époques. Le visiteur suit avec admiration l'ingéniosité du sculpteur égyptien qui distingue les traits physiques des prisonniers appartenant à des peuples et des races qui se sont alliés contre l'Egypte.

L'auteur a accordé une grande importance à l'explication de Dendérah et de Médinet Habou insistant sur la grandeur et la magnificence de ces deux sites. Mariette s'est intéressé particulièrement au temple de Dendérah qui fait partie de ses travaux. Il en a établi un plan détaillé, répartissant ce grand temple en quatre groupes de chambres. Le visiteur peut admirer les différents endroits où se passent les fêtes et les cérémonies. Il peut suivre la trace des défilés qui se déroulent à l'intérieur ou à l'extérieur du temple. Il pénètre dans les laboratoires où se préparent les produits nécessaires aux décorations et aux offrandes.

Le voyageur peut aujourd'hui admirer les différentes parties de Dendérah, considéré par Mariette comme le temple plus intact et le mieux conservé.

Le visiteur ne se lassera pas non plus de parcourir le temple de Médinet Habou. Il pourra s'arrêter longtemps devant le mur nord - le guide à la main – et admirer ce que Mariette qualifie de « galerie d'art ». Ce sont dix tableaux représentant les victoires de l'Egypte sur les envahisseurs venant de mer et de terre au temps de Ramsès III.

Les organisateurs de voyage, habitués à se rendre à Louxor et à Karnak trouveront dans ce guide beaucoup de découvertes historiques et artistiques relatives à Dendérah, Abydos et Medinet Habou, permettant de mettre sur pied de nouveaux circuits pour attirer de nombreux touristes.

Le guide avait pour cible les invités du Khédive. Pour ceux qui « ne font pas profession d'archéologie », Mariette s'était chargé de nommer des guides sur place, parmi lesquels on reconnaît Daninos, directeur des antiquités au service des musées en France. Les chefs des régions avaient pour mission d'accueillir les invités tandis que les paysans étaient chargés de nettoyer les rues et d'élargir les routes ; partout des fêtes ont été organisées par ordre du Khédive pour divertir ses hôtes.

montrent ses affaires et des scènes de sa vie avec sa famille. L'auteur explique que c'est le défunt qui a lui-même ordonné ces sculptures. L'âme et l'au-delà se trouvent dans une autre partie cachée de la tombe où résident les esprits et le corps.

Dans ce guide l'auteur a voulu aussi exposer devant les invités étrangers une page de l'histoire des victoires des rois d'Egypte sur leurs ennemis. A travers les sculptures, les visiteurs découvrent l'histoire de l'émigration des peuples d'Asie qui se sont rendus en Egypte, attirés par la fertilité de ses terres. Ils voient également les peuples venant de la mer qui se sont ralliés contre l'Egypte et ont été écrasés. La bataille de Kadesh a été maintes fois reproduite au Ramasseum, à Louxor et à Karnak parce qu'elle est considérée comme la plus importante victoire à l'époque de Ramsès II.

Mariette a sélectionné dans ce guide tout ce qui peut intéresser le visiteur dans les Temples de Philae, d'Edfou, Kom-Ombos , Dendérah , Esna. Ce sont les monuments les mieux conservés illustrant la religion de l'ancienne Egypte.

Certains lecteurs pourraient s'étonner que le choix des sites ne se limite pas à la description des visites des monuments historiques, car le livre parle aussi de la visite des usines modernes et des carrières situées à Gebel el Silseleh. Mariette voulait faire connaître aux invités les efforts du Khédive dans la modernisation de l'Egypte. C'est un point de vue tout à fait moderne dans le circuit touristique.

Le style de l'auteur :

Le style de l'auteur est simple et instructif. Mariette avait été maître d'étude, il avait enseigné le français et le dessin. S'adressant à des invités venus du monde entier, à des lecteurs ou des voyageurs sans connaissance archéologique, il adopte un style informatif et pédagogique. L'auteur se pose d'abord une question et essaie de trouver une réponse courte tout en suscitant la curiosité et l'attention du lecteur. Les questions peuvent être regroupées ainsi : quel est l'intérêt de ce temple ? A quoi sert-il ? Quelle est son importance historique ? Le visiteur trouve les réponses en suivant le texte de l'auteur. Il est aisé d'exploiter ce guide pour la lecture des scènes et des tableaux artistiques. Par ailleurs, le livre de l'égyptologue trace l'évolution des

Le guide de Mariette précise les lieux d'arrêt à proximité du Nil pour voir les curiosités. Les visites sont étalées sur la journée : le matin et l'après-midi. L'étude des horaires était très précise et elle tenait compte de la vitesse des bateaux et des conditions de navigation. Il était conseillé de ne pas naviguer la nuit à cause des sinuosités du fleuve et des changements subits de son lit.

La méthode d'organisation scientifique adoptée par Auguste Mariette permet une meilleure maîtrise du temps de voyage. C'est en choisissant au préalable les sites et les monuments à montrer aux invités, qu'il a défini le programme de ce voyage qui n'est autre qu'un résumé complet des différentes époques de l'histoire de l'Egypte.

Dans leurs mémoires, certains voyageurs confirment que le programme du voyage a été bien respecté et qu'ils ont pu assister en temps voulu aux fêtes de l'inauguration du canal de Suez.

Un mois de voyage : tout un programme

Le programme prévu débute par cinq jours passés au Caire pendant lesquels les invités ont admiré les mosquées, la Citadelle, le vieux Caire et les églises coptes, Qasr-el-châma (palais des lumières), la forêt pétrifiée et les bains.

Ensuite, commence « le voyage du Nil ». Le départ s'effectue à partir de Boulaq, lieu d'embarquement, pour visiter la Haute-Egypte pendant vingt-quatre jours. Les invités du Khédive ont découvert les monuments qui se trouvent tout le long du Nil. Ce voyage a commencé par la visite des Pyramides de Guizeh, de Saqqarah et ensuite celle des ruines de Memphis.

L'auteur a brossé un tableau historique en quatre parties : l'Ancien Empire, le Moyen Empire, le Nouvel-Empire et les Basses-Epoques. Il a choisi des sites représentatifs de chacune de ces périodes. A Saqqarah, il fait découvrir les secrets du tombeau de Ti et de Phtah-Hotep de l'Ancien Empire. Il s'est intéressé à l'étude des chambres intérieures en s'attardant sur le travail complet et minutieux des artistes. Mariette explique aux visiteurs la signification des dessins, des bas-reliefs et dévoile l'esprit qui règne dans chaque chambre. On y voit le défunt vivant comme s'il n'avait pas encore quitté le monde. Les bas-reliefs

En voyageant avec ce livre dans le but de vérifier la validité des commentaires de l'auteur sur les lieux, j'ai été tenté de prendre des photos pour tous les monuments faisant partie du programme de ce voyage. Les prises de vues des scènes décrites dans le guide m'ont permis d'illustrer la traduction en arabe. J'en ai retenu quatre cent quarante dont certaines sont d'anciennes photos prises par de célèbres photographes invités par le Khédive.

Publié en octobre 1869, ce guide est toujours d'actualité. Les découvertes qui ont eu lieu grâce aux efforts déployés par le Conseil Supérieur des Antiquités et les différentes missions internationales, ont contribué largement à l'évolution de l'égyptologie. Toutefois, le contenu de ce livre reste encore utile aujourd'hui aux guides, aux chercheurs des antiquités et à tous ceux qui sont passionnés par la civilisation égyptienne. L'auteur a relevé des sites qui existent encore à notre époque, comme les mosquées, les églises et des antiquités grecques et romaines.

L'ouvrage traduit en arabe se présente comme le premier guide touristique où la photo vient accompagner et illustrer le texte.

Une organisation scientifique du voyage

La conception de ce voyage est d'un grand intérêt pédagogique pour les organisateurs ou les voyagistes. Conformément à l'esprit scientifique de l'époque, il n'y a pas de doute que Mariette avait fait une étude préalable sur le terrain avant l'arrivée des visiteurs en Egypte. Le livre contient plusieurs tableaux sur les distances à parcourir entre les villes ou les sites, les stations pour le renouvellement de la provision de charbon - le voyage de la Haute-Egypte s'accomplit tout entier en bateau à vapeur-, le programme au jour le jour et la durée de chaque visite.

Mariette a examiné attentivement les conditions du voyage sur le Nil et déterminé les distances entre les villes où vont séjourner les voyageurs en Haute-Egypte. Il a même tenu compte de la crue du Nil qui pouvait rendre l'accès à certains sites difficile. Son étude de l'emploi du temps avait pour but de montrer aux voyageurs en vingt-quatre jours le plus grand nombre de sites se trouvant sur les bords du Nil entre Boulaq, lieu d'embarquement, et Assouan.

Mariette, égyptologue français, on comprend parfaitement sa modestie et par conséquent, l'absence de son nom.

Il a commencé comme maître d'études au collège de Boulogne-sur-Mer. Il a été envoyé en Egypte avec la mission de trouver des manuscrits coptes et sémitiques en vue d'enrichir les collections du Louvre. Mais il s'est vite rendu compte de l'intérêt de la richesse du patrimoine culturel égyptien. Il en est devenu le défenseur en créant le Musée de Boulaq et le Service des Antiquités égyptiennes devenu aujourd'hui le Conseil Supérieur des Antiquités.

Auguste Mariette se considérait comme un fonctionnaire de l'Etat égyptien. Lorsque le Khédive lui demanda d'écrire le scénario d'un opéra typiquement égyptien, et de suivre la réalisation des costumes et des décors à Paris, il refusa d'abord que son nom soit rattaché à cette création artistique. Le grand succès de l'opéra ***Aïda***, créé le 24 décembre 1871, au théâtre de l'Opéra du Caire l'a incité à en revendiquer la paternité.

Le Khédive Ismaïl lui accorda le titre de Pacha, et après sa mort son corps fut transporté dans une tombe au jardin du Musée du Caire avec cette épitaphe :

« A Mariette Pacha, L'Egypte [est] reconnaissante ».

Cette phrase est probablement inspirée de celle se trouvant sur le Panthéon au cœur de Paris : « Aux grands Hommes la patrie est reconnaissante ».

<u>Voyager avec un livre</u>

Le guide de Mariette a été écrit environ cinquante ans après la création de l'égyptologie. C'est l'un des plus anciens guides français et il a le mérite d'avoir rassemblé dans un seul ouvrage les monuments pharaoniques, coptes et islamiques au Caire et en Haute-Egypte. C'est un document précieux ; il met en évidence l'état dans lequel se trouvaient les antiquités égyptiennes il y a cent quarante ans. Malgré l'évolution du temps et des fouilles, on constatera que ce guide a laissé une description encore actuelle des monuments égyptiens.

C'est une véritable campagne de propagande lancée par le Khédive qui fera de l'Egypte le leader incontesté dans le domaine de la communication dans la seconde moitié du 19ème siècle.

Le 17 novembre 1869 marquera le début des festivités officielles. Le Khédive ordonne aux historiographes de garder en mémoire le souvenir de ces fêtes dans un grand ouvrage illustré par les aquarelles du peintre Riou sous le titre : Inauguration ***du canal de Suez - Voyage des Souverains*** de G. Nicole et ***Voyage pittoresque à travers l'isthme de Suez*** de Marius Fontane. Toutefois les historiens n'ont pas assez souligné l'intérêt de l'invitation faite, un mois avant le début des fêtes, par le Khédive aux grands de ce monde pour venir découvrir la grande civilisation égyptienne.

La découverte du livre et de son auteur

J'ai trouvé un exemplaire de l' « ***Itinéraire des invités*** ... » à la Bibliothèque Municipale d'Alexandrie sous la cote 22665/96215. Cet exemplaire contient des remarques manuscrites intéressantes qui permettent de reconnaître l'auteur. Le livre appartenait à « Charles Rhoné, - vice président de la Compagnie du Gaz de Paris, l'un des invités du Khédive.. ». Sur une des pages, il est écrit : « ouvrage composé à la demande du Khédive par Auguste Mariette Bey, fondateur du Musée de Boulaq et des fouilles archéologiques en Egypte 1858-1881 ».

Le livre vient de la « Bibliothèque de son neveu très affectionné, Arthur Rhoné auteur de « ***L'Egypte à petites journées*** », ami de Mariette Bey et de G. Maspéro 1877 ». Ce livre a été acheté par la Bibliothèque Municipale d'Alexandrie, le 3 janvier 1932, à 25 francs.

L'édition française comprend 177 pages avec deux illustrations en annexe : une carte géographique de l'Egypte sur laquelle sont précisés les sites à visiter et un plan détaillé du temple de Dendérah.

L'auteur décrit son ouvrage comme une « notice », qui ne dispense pas d'un guide. Sur la couverture, il est précisé que le livre est publié par ordre de S.A. le Khédive Ismaïl Pacha. Quand on examine la carrière de

Préface du traducteur

Qu'il me soit permis de présenter aux lecteurs français ma traduction en arabe du livre : ***Itinéraire des invités aux fêtes d'inauguration du canal de Suez qui séjournent au Caire et font le voyage du Nil,*** publié par ordre de S.A. le Khédive en 1869.

Il ne s'agit pas uniquement d'une traduction mais d'une quête d'un livre de voyage : sa découverte, l'identification de son auteur, sa traduction et son illustration*.

Je me réjouis d'avoir eu l'opportunité de traduire cet ouvrage qui est, à mon avis, un vrai guide de voyage conçu à la demande d'un prince cultivé et clairvoyant pour faire découvrir l'Egypte. Ce livre fait partie de l'histoire de la coopération culturelle entre la France et l'Egypte. C'est l'un des plus importants guides sur l'Egypte dans la seconde moitié du 19ème siècle.

L'inauguration du canal de Suez

La décision de commencer le chantier du canal de Suez avait été prise en 1859 par Saïd Pacha, vice-roi d'Egypte mais l'union de la mer Rouge à la Méditerranée eut lieu sous le règne du Khédive Ismaïl Pacha en 1869. Après dix ans de travaux, le monde entier, en particulier la France, attendait l'inauguration de cette voie maritime qui allait rapprocher l'Orient de l'Occident marquant la réalisation d'un projet gigantesque ayant longtemps hanté l'esprit de certains hommes.

Pour l'inauguration de cet ouvrage, le Khédive Ismaïl allait ordonner des fêtes splendides auxquelles seraient conviés rois, princes, écrivains et journalistes du monde entier. Le Khédive souhaitait aussi profiter de cet événement pour faire découvrir à ses hôtes étrangers les trésors de la civilisation égyptienne. Ainsi, le Khédive les a-t-il conviés à venir en Egypte, un mois auparavant, pour visiter le Caire et faire le voyage du Nil.

ALEXANDRIE
Imp. Franç. MOURÈS & C^e, Square Ibrahim.

2007

Le Centre National
de la Traduction

ITINÉRAIRE
DES INVITÉS

AUX FÊTES
d'Inauguration du Canal de Suez
en 1869

QUI SÉJOURNENT AU CAIRE ET FONT LE
VOYAGE DU NIL

publié par Ordre
DE S. A. LE KHÉDIVE

